

عَوْنُ الْحَمْرِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأليفُ

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللّاحم

الاستاذ في قسم القرآن وعلمونه

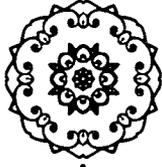
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع والعشرون

تفسير سورة التبا إلى سورة الناس

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الرَّحْمَنِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

٢٤



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٢

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٣٠ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

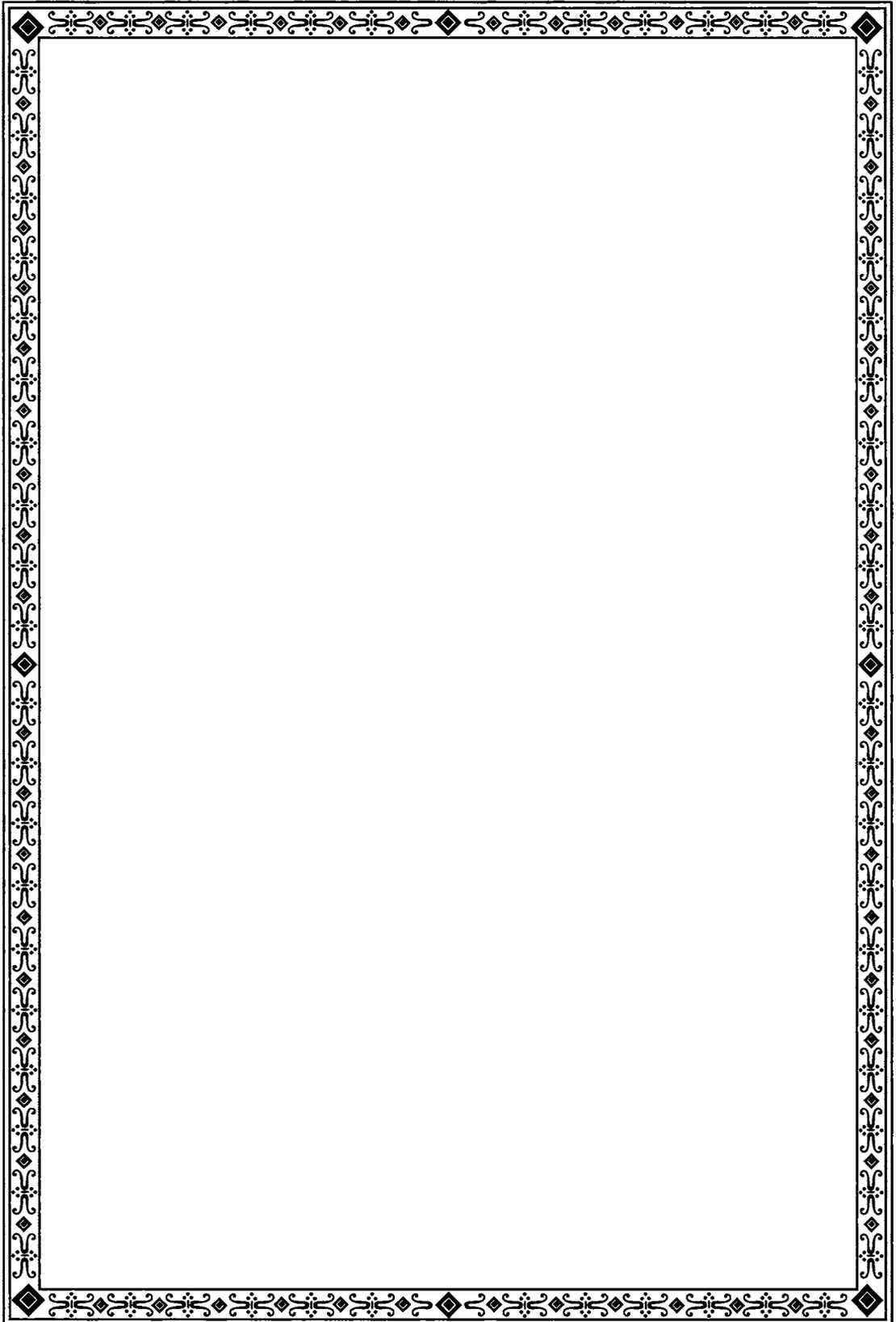
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّبَأِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول أوساط المفصل. وسميت «سورة النبأ»؛ لافتتاحها بقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾.

وتسمى: «سورة عم يتساءلون»، و«سورة عم»، كما تسمى: «سورة التساؤل». و«سورة المعصرات».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- ذكر تساؤل المشركين عن النبأ العظيم الذي جاءهم به ﷺ من بعثته ﷺ ونزول القرآن عليه وتقرير أن البعث والحساب حق، وتهديدهم ووعدهم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُرِفِ فِيهِ مَخْلِقُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تَوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾.

٢- ذكر مظاهر تمام قدرة الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ (٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾.

٣- تهديد الطاغين بجهنم وطول لبثهم فيها، وشدة عذابهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١) لِلطَّالغِينَ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا ﴿٢٥﴾.

٤- إنجزاء من جنس العمل: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾.

٥- بيان ما أعد الله للمتقين من المفاز والنعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) حُدَّاقًا وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكُوعًا أَبْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَأَسَادَهَا قَا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾.

٦- تقرير عموم ربوبيته عز وجل، وسعة ملكه ورحمته، وقوة سلطانه وعظمته:

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ (٣٧).

٧- قيام جبريل والملائكة عليهم السلام بين يدي الله صفوفاً لا يتكلمون إلا بإذنه:

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٣٨).

٨- تأكيد مجيء يوم القيامة، والتحذير والإنذار من عذاب قريب، ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ

يَلْبِغُنِي كُنْتُ رَبًّا ﴿٤٠﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُرِفِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ٣ ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ ٥
 ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ٩ ﴿وَجَعَلْنَا
 لِيَالِيَا﴾ ١٠ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ١١ ﴿وَبَيَّنَّا فَوَاقِمَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ١٢ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ ١٣ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ
 الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَجًا﴾ ١٤ ﴿لِتُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ١٥ ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ١٦ ﴿﴾

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُرِفِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ٣ ﴿﴾

أرسل الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب بالحق للدعوة إلى عبادة الله عز وجل، وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال فكذبه المشركون إنكاراً لما جاء به واستبعاداً للبعث بعد الموت، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم في ذلك، وفي هذا نزل قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُرِفِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ٣ ﴿﴾

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل المشركون، أي: يسأل بعضهم بعضاً. وهذا استفهام أجاب عنه بقوله: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿﴾
 أي: هم يتساءلون عن النبا العظيم. والنبأ: الخبر الهام. والمراد به ما دعاهم إليه النبي ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله - عز وجل، والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء.
 ﴿الَّذِي هُرِفِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ ٥ ﴿﴾ للردع والزجر، والتهديد ووعيد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ تأكيد للردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين للرسول ﷺ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين سوء عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى: ﴿حَقِّقْ إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعِدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ﴿ [الجن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآيِثُرِ ﴾ [القمر: ٢٦].

قال أبو العتاهية^(١):

ستعلم في الحساب إذا التقينا غداً عند الإله من الملوم
سينقطع التروح عن أناس من الدنيا وتنقطع الغموم

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ هذا وما بعده إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آفَاقًا﴾ استدلال على كمال قدرته عز وجل وعظم آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسماوات والشمس والسحاب والنبات وغير ذلك الدال على كمال قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء، وتذكير للعباد بنعمه؛ ليشكروه عليها.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: قد جعلنا الأرض مهادًا.

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، الأول: «الأرض»، والثاني: «مهادًا».

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين جعل شرعي، وجعل كوني، وهو المراد هنا.

ومعنى ﴿مِهْدًا﴾، أي: ممهدة مفروشة مبسوطة للخلائق مذلة لهم مستقرة ثابتة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [طه: ٥٣، الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١١﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: وجعلنا الجبال أوتادًا ثبتنا بها الأرض، وأرسيناها، حتى لا تضطرب وتميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

(١) انظر: «ديوانه» ص ٣٩٨.

١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

وقد ذكر أهل العلم أن هذه الجبال التي نشاهدها ثلاثها في عمق الأرض وثلاثها فقط فوق الأرض.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: أصنافًا ذكورا وإناثا، ليحصل التزاوج بين الذكر والأنثى، ويسكن كل منهما إلى الآخر ويأنس به ويستمتع، ويحصل بذلك التناسل وعمارة الكون. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَاطْرَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: قاطعًا للتعب، تحصل به الراحة للجسم من عناء السعي في النهار في طلب المعاش، فإذا تعب الإنسان ثم نام استيقظ وقد زال عنه التعب ورجع إلى حيويته ونشاطه واستقبل يومه بجدة كأنه ولد لتوّه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣].

والنوم أخو الموت، وهو الموتة الصغرى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِّبَاسًا﴾، أي: ساترًا للكون ومغطيًا له بظلامه، قال تعالى: ﴿وَأَيُّهَا إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهَا إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، أي: يغشى الكون والخليقة بظلامه فيسكن فيه الناس.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: وقتًا للمعيشة والسعي والتكسب والحركة والعمل،

وذلك بطلوع الشمس فيه وإشراقه وإضاءته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّهَارِ آيَاتٍ فَحَوَنًا آيَةَ آيَاتٍ لِّلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانَهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن دلائل كمال قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه جعل الليل وقتاً للنوم، وجعل النهار وقتاً لطلب المعاش، كما قال تعالى مذكراً بذلك وخوفاً من زواله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾، أي: سبع سموات، كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿شِدَادًا﴾، أي: قوية محبوكة محكمة رفيعة البناء واسعة الأرجاء، قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَيْنَهُمَا ﴿٧٧﴾ رَفَعَ سَعْيَكُمَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ بَيْنَهُنَّ آيَاتٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وسمى سبحانه وتعالى خلق السموات بناءً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤]؛ لأنها سقف الكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَن آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾، أي: وجعلنا سراجاً منيراً وهي الشمس.

﴿وَهَاجًا﴾، أي: يتوهج ضوءها فتعم الكون بمنافعها بدفئها وحرارتها وضوئها وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا

فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابِ ﴿١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ المعصرات: السحاب ينعصر منها المطر ويخرج من خلالها، ولا ينصب انصبابًا بقوة فيضر ما ينزل عليه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الْوَيْحَ يُنزلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

﴿مَاءٌ ثَجَّاجًا﴾، أي: منصبًا بكثرة وغزارة وتتابع، قال ﷺ: «أفضل الحج العج والشج»^(١)، والشج: إراقة وصب دماء الهدى.

وعن حمئة بنت جحش رضي الله عنها في حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكرسف» يعني أن تحتشي بالقطن، قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك إنما أئج ثجًا^(٢)، أي: صبًا متتابعًا كثيرًا.

ومع إنزاله عز وجل هذا الماء بكثرة وغزارة فهو مقدر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا﴾ [الزخرف: ١١].

ولهذا سمي ميكائيل بهذا الاسم لأنه يكيل القطر.

وكل ما في باطن الأرض من المياه هو من ماء المطر كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَافِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: نحن الذين خزنناه في الأرض، وقال تعالى: ﴿فَسَلِّكُمُ النَّبِيْعَ

(١) أخرجه الترمذي في الحج ٨٢٧، وابن ماجه في المناسك ٢٩٢٤ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٨٧، والترمذي في أبواب الطهارة ١٢٨، وابن ماجه في الطهارة ٦٢٧، وأحمد ٤٣٩/٦.

في الأرض ﴿ [الزمر: ٢١].

﴿نُخْرِجُ بِهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نخرج بهذا الماء ﴿حَبًّا﴾، أي: أنواع الحبوب من البر والشعير والذرة وغيرها مما يأكله الناس والأنعام ويدخر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِينَ هُمُ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَيَبَاتًا﴾، أي: خضرًا مما يأكله الناس والأنعام رطبًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مِمَّنْ خُجِرُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين وحدائق ملتفة بأنواع الأشجار مختلفة الشار في طعومها وروائحها وأشكالها وألوانها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَمَّا طَلَعُ نَضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْمِهَا قِوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرُ مُشْتَبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَاقًا ﴿٣٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٣٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٣٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٤٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبَا ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٢٦-٣١].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث واختلافهم في ذلك وتساؤلهم عنه إنكارًا له واستبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾﴾.

٢- تعظيم أمر مبعثه ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل وتقرير أمر البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٣- الزجر والردع والوعيد والتهديد للمكذبين له ﷺ ولما جاء به من الوحي

والإخبار بالمعاد وتأکید ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا سِيَئَلُونَ ۙ ٤﴾ ﴿لَا سِيَئَلُونَ ۙ ٥﴾.

٤- إثبات عظمة الله عز وجل، وقدرته الباهرة بذكر آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسماء والشمس والسحاب والنبات والاستدلال بذلك على قدرته عز وجل على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۙ ٦﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۙ ٧﴾ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۙ ٨﴾ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۙ ٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ۙ ١٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۙ ١١﴾ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۙ ١٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ۙ ١٣﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَجًا ۙ ١٤﴾ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۙ ١٥﴾ ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۙ ١٦﴾.

٥- تقرير نعم الله عز وجل العظيمة على العباد بجعل الأرض ممهدة مبسوطة لهم وترسيتهما بالجبال، وجعل الناس وسائر الحيوانات أزواجًا؛ ليأنس بعضهم ببعض، وجعل النوم راحة للأبدان، والليل وقتًا للسكون والراحة، والنهار وقتًا للمعاش، وخلق السموات السبع الشداد، وإنارة الكون بالشمس المتوهجة، وإنزال المطر من السحاب، وإخراج الحب والنبات وأنواع الجنات، إلى غير ذلك من النعم العظيمة، وكل واحدة من هذه النعم تستوجب الوقوف عندها والتأمل فيها وشكرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَابًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُرَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغِينِ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرِذَا وَلَا شِرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا جَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنتُزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

زجر الله عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالبعث وتوعدهم وهددهم، وبين لهم بعض نعمه عليهم وعلى سائر الخلق ودلائل قدرته على بعثهم، ثم أتبع ذلك بتأكيد مجيء هذا اليوم الذي فيه يبعثون ويحاسبون، وتفصيل بعض أحواله وأهواله.

قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم الفصل: يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأن فيه الفصل بين العباد، بين الرسل وأممهم، وبين الناس فيما بينهم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه حتى إنه ليقصص في ذلك اليوم للشاة الجلهاء من الشاة القرناء^(١). وأخيرًا يفصل فيه بين أهل السعادة وأهل الشقاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿كَانَ مِيقَتًا﴾، أي: له وقت محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

وفي هذا كله تأكيد مجيئه وأنه آت لا محالة بوقته الذي حدده الله له وفي هذا رد على منكري البعث والمعاد مطلقًا، وعلى من دعا منهم بالعذاب واستعجله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَسْتَعَجِلُونَكَ﴾

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحد ٢/٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

بِالْعَذَابِ ۖ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴿ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور وهو «القرن» بأمر الله عز وجل النفخة الثانية، لقيام الناس من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهما نفختان الأولى نفخة الفزع والصعق والموت. والثانية: نفخة البعث والقيام للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرِهِمْ ﴿ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ ﴿ [النازعات: ٦، ٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن «القرن»، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر»^(١).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين: أربعون»، قالوا: أربعون يوماً؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟، قال: «أبيت»، قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»^(٢).

وقوله: ﴿فَنَأْتُونَ﴾، أي: فتحيون، فتأتون لموقف القيامة والحساب والعرض.
﴿أَفْوَاجًا﴾: جمع فوج، والفوج: الجماعة من الناس، أي: فتأتون جماعات جماعات كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعِيٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة - ما جاء في شأن الصور ٢٤٣١ وقال: «حديث حسن». وأخرجه أحمد ٣/٧، ٤/٣٧٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «تفسير سورة عم يتساءلون» ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٩٥٥، وأخرجه مختصراً أبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقون: «فتحت»، أي: شققت السماء وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾، أي: طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ وَنُزُلِ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ﴾، أي: وسيرت الجبال العظيمة العالية بعد أن كانت راسية ثابتة لا تتحرك، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿١٠﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ السراب: ما يخيل للناظر أنه ماء، وليس بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

والمعنى: أن الجبال تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَسْتَأْوُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَنَجْدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

فتفسير الجبال وكونها في الخفة كالعهن المنفوش وفي السرعة كمر السحاب ينتهي بذهابها واضمحلالها، وقد جمع هذين المعنيين، وهما التسيير وذهابها بالكلية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

فانتهى تسييرها إلى اضمحلالها وذهابها بالكلية وكونها قاعاً صفصفا لا ترى فيها

عوجًا ولا أمتًا، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة لا يحجبها شيء.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ «جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها، ومعنى ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي: مرصدة معدة مهياة.

﴿لِلطَّاغِينَ﴾، أي: للمتجاوزين حدود الله، بترك ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه، المتجاوزين الإيهان إلى الكفر، والعبادة التي خلقوا من أجلها إلى الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]

﴿مَا بَأْسَ﴾، أي: مرجعًا ومصيرًا وماوى ومنقلبًا ومنزلًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا وَنُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ﴿١٢١﴾ [النساء: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿مَا وَنَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٥﴾ [الحديد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾ [الصفات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَذَا وَرِثٌ لِلطَّاغِينَ لَنَسَّرْنَا مَاتِبِ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنَّسَ لَهَا دُ﴾ ﴿٥٦﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾ قرأ حمزة: «لثين» بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿لَيْثِينَ﴾ بالألف، أي: مقيمين فيها.

﴿أَحْقَابًا﴾: جمع «حَقَب» والحَقَبُ: جمع «حِقْبَة» والحِقْبَة: الدهر، والمدة الطويلة، وقيل: ثمانون سنة.

والمعنى: مقيمين في جهنم دهورًا ومددًا طويلة لا تنتهي ولا تنقطع؛ لأن المراد بالطاغين: الكفارُ المكذبون. والصحيح من أقوال أهل العلم وهو ما دل عليه القرآن الكريم في أكثر من آية أن النار لا تفتنى ولا يفنى عذاب أهلها.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾، أي: لا يجدون في جهنم بردًا تبرد به ظواهر أبدانهم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يذهب ظمأهم، وتبرد به أجوافهم

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾، كقوله في سورة ص: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ ﴿٥٧﴾ [الآية: ٥٧].

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿وَعَسَاقًا﴾ بتشديد السين، وقرأ الباقون

بتخفيفها: «وَعَسَاقًا».

﴿الْأَحْيَاءُ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن يذوقون حميمًا وغساقًا.

والحميم: هو الماء الحار الذي بلغ الغاية في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتَانَ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى:

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤].

والغساق: هو صديد أهل النار وعرقهم، في غاية التتن والكرامة، أو سائل من الزمهير في جهنم في غاية البرودة والتتن والكرامة، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ﴾ [الحاقة: ٣٦].

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾، أي: هذا العذاب الذي صاروا إليه عقوبة لهم وفق أعمالهم السيئة، لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا.﴿

لما ذكر ما أعد للطاغين المكذبين من عذاب جهنم وما لهم فيها من أنواع العذاب وفق أعمالهم السيئة ذكر الأعمال التي هي سبب تعذيبهم في هتين الآيتين ليتبين وجه الموافقة بين عذابهم وأعمالهم.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤملون ولا يعتقدون أن هناك معادًا وحسابًا، ولا يخافون المجازاة على كفرهم وطغيانهم؛ لأنهم يكذبون بالبعث بعد الموت وينكرونه، وهذا انحراف في العقيدة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

ولهذا قال عز وجل للمؤمنين: ﴿وَتَرَجُّونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: وكذبوا بآياتنا الشرعية التي أنزلناها على رسلنا وأعظمها القرآن الكريم المنزل على أفضل الرسل محمد ﷺ وهذا انحراف في القول والعمل.

﴿كَذَّابًا﴾ مصدر من غير الفعل، أي: تكذيبًا عظيمًا.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم وأقوالهم وغيرها.

﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾، أي: ضبطناه وعددناه عددًا دقيقًا ﴿كِتَابًا﴾، أي: كتابة، فعلمنا

أعمالهم وأقوالهم كلها وغيرها وضبطناها عددًا وكتابة، قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ

بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنْتَنَا بِهَا وَكُنَّا بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَذُوقُوا﴾ وجه الخطاب إليهم بعد أن كان بضمير الغيبة؛ لتأكيد توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم وإهانتهم، ومواجهتهم بذلك، أي: فذوقوا عذاب جهنم وحيمها وغساقها.

﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي: فلن نزيدكم إلا عذابًا فوق عذابكم، كما قال عز

وجل: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، فهم في زيادة من العذاب مع أنهم يطمعون بالتخفيف كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ [غافر: ٤٩].

وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وما فيه من توبيخ وتقرير وتبكيث عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي.

ولهذا روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة وأن له وقتاً محدداً لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.

٢- الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

٣- إثبات النفخ في الصور؛ لحياة الخلق وبعثهم وقدمهم على الله عز وجل للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

٤- شدة أهوال يوم القيامة من النفخ في الصور، وفتح السماء وانشقاقها وانفطارها، وتسيير الجبال واضمحلالها وأعظم ذلك وأشدّه جهنم المرصدة المعدة الآن مآباً للطاغين لا خروج لهم منها لا يدوقون فيها إلا الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيُثَبِّتَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا ﴿٢٥﴾﴾.

٥- التحذير من الكفر والطغيان، والوعيد الشديد والتهديد الأكيد بجهنم والخلود فيها وشدة عذابها للطاغين المكذبين بالآيات والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ الآيات.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يظلم ربك أحداً؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَقَاءً﴾.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٦/٢٤.

٧- إحصاء الله عز وجل لجميع أعمال العباد وكتابتها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾.

٨- الجمع للمكذبين بين العذاب المعنوي للقلوب، والعذاب الحسي للأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَأْسًا دِهَانًا ﴿٣٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٤٠﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٤١﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٤٢﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعدّه للطاغين المكذبين من العذاب المعنوي والحسي، أتبع ذلك بذكر ما أعدّه للمتقين من النعيم المعنوي والحسي؛ لأن القرآن الكريم مثاني، فيه الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ ليجمع الإنسان في سيره إلى الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد ونصب، و«المتقين» الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿مَفَازًا﴾، أي: فوزًا، ونُكِّر: للتعظيم، أي: مَفَازًا عَظِيمًا.

والمفاز والفوز: النجاح والفلاح والسلامة من المهروب والظفر بالمطلوب، النجاة من النار والفوز بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ اللَّهَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١].

وقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: فلا تحسبنهم بمنجاة من العذاب. ففي المفاز والفوز نجاة من

العذاب، وحصول الثواب، كما قال تعالى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسَادِهَا قَافًا ۝٣٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ۝٣٥﴾.

هذا تفسير لقوله: ﴿مَفَازًا﴾ وتفصيل لما أعد الله للمتقين من أنواع النعيم.

﴿حَدَائِقَ﴾، أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة متنوعة من النخيل والرمان وغيرها كما قال تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن: ٦٨].

﴿وَأَعْنَابًا﴾ جمع عنب، وخص الأعناب بالذكر؛ لمزيتها وفضل ثمرها من بين الأشجار.

﴿وَكوَاعِبَ﴾: جمع كاعب، أي: ونساء كواعب من الحور العين، أي: نواهد، ثديين كالرمان مستديرة، بقدر قبضة اليد، ولم يتدلين إلى أسفل.

﴿أَزْرَابًا﴾، أي: على سن واحدة سن ثلاث وثلاثين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءَ ۝٣٥ جَعَلْنَهُمْ آئِكَرًا ۝٣٦ عُرْبًا أَزْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

﴿وَكَأْسَادِهَا قَافًا﴾، أي: وكأس خمر مملوءة صافية متتابعة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، أي: لا يسمعون في الجنة ﴿لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لا غيًا باطلاً، لا فائدة فيه.

﴿وَلَا كِدَابًا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بتشديدها.

أي: لا يسمعون فيها تكذيبًا وإثماً، فلا يكذبون، ولا يكذب بعضهم بعضًا ولا يكذب عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ۝٣٥ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ۝٣٦﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهَا فِيهَا بَكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٣٦﴾ [مريم: ٦٢].

ولهذا سهاها الله عز وجل دار السلام، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۝٣٧﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات ومن كل عيب ونقص.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ إلى كأس الخمر، فيكون المعنى: لا يسمعون بسببها ﴿لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ كما في قوله تعالى في سورة الطور ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهَا ۝٢٣﴾ [الطور: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٤٦]، أي: لا تغتال العقول

فتذهبها.

﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا المفاز الذي جعله الله للمتقين وما فيه من ألوان النعيم مجازاة وإثابة لهم على تقواهم.

﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾، أي: عطاء كثيرًا وافيًا كافيًا محاسبة لهم على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

وأيضًا: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾، أي: محسوبًا مقدرًا، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وينبغي أن يُلاحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاعين ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ وبين قوله هنا ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ ففي مجازاة الطاعين يكون الجزاء موافقًا لأعمالهم عدلاً منه عز وجل، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفًا لهم، وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلًا منه عز وجل.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿رَبِّ﴾ بخفض الباء، وقرأ الباقر برفعها.

أي: خالق ومالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم. ﴿الرَّحْمَنِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم بخفض النون، وقرأ الباقر برفعها، وهو صفة لرب على القراءتين فيهما، أي: الذي اسمه الرحمن، وصفته الرحمة كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ حَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

و«الرحمن» على وزن «فعلان» يدل على اتصافه عز وجل بالرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة خاصة بأوليائه المؤمنين ورحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهمهم، بها شمل سبحانه جميع خلقه بنعمه وإحسانه وأمدهم بفضله، كما قال عز وجل:

﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوْرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿لَا يَلِكُوْنَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أي: لعظمته وجلاله لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الفوائد والأحكام:

- ١- أن القرآن الكريم مثاني يجمع فيه بين الترغيب والترهيب؛ لذكره عز وجل ما أعد للمتقين بعد ذكر ما أعد للمكذبين.
- ٢- وعد الله عز وجل المتقين بالفوز العظيم، بالنجاة من النار، ودخول الجنة والتمتع بما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسِدِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾﴾.
- ٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها.
- ٤- الجمع لأهل الجنة بين حصول النعيم من البساتين والحدائق والأعاب والكواعب والخمر وغير ذلك، وبين السلامة من الأذى والمنغصات والمكدرات من اللغو والكذب ونحو ذلك.
- ٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ الآيات فقدّم المفاز وهو النجاة على ذكر أنواع النعيم.
- ٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته عز وجل الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٧- عظم جزاء المتقين عند ربهم وأن الله عز وجل هو الذي تفضل به عليهم بسبب تقواهم لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾.
- ٨- أن الأعمال إنما هي سبب للفوز بالجنة والنجاة من النار وليست عوضًا عن ذلك.

٩- أن كل عطاء فهو من الله عز وجل، وهو مقدر محسوب لقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١١- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن» وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

١٢- إثبات العظمة والجلال لله عز وجل، وأنه لا يقدر أحد على مخاطبته إلا بإذنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

١٣- في تقديم قوله: «الرحمن» على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ما يشير إلى أن رحمته عز وجل سبقت غضبه، كما جاء في الحديث^(١)، وأنه عز وجل إلى العفو أقرب منه إلى الانتقام.

* * *

(١) سبق تحريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِنَّ رَبَّهُ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِغُنِي كُتُّ نُرْبَانَا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الروح: هو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [القدر: ٤].

وخص جبريل بالذكر من بين الملائكة؛ لقربه من الله وعظم منزلته وشرفه؛ لأنه الموكل بالوحي، وعطف الملائكة عليه من باب عطف العام على الخاص، كما عطفه عليهم في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

ويحتمل أن المراد بالروح بنو آدم؛ لأن الله أوجد فيهم الأرواح. والأول أظهر، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فالملائكة وبنو آدم كلهم سيقومون صفًّا بين يديه عز وجل لا يتكلمون.

﴿صَفًّا﴾، أي: صفًّا واحداً، أو مصطفين صفوفاً.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: لا أحد يتكلم منهم؛ تعظيماً لله عز وجل، وهيبة منه، كقوله:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا من أذن له الرحمن سبحانه بالكلام

فإنه يتكلم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: وقال قولاً صواباً، أي: حقاً. قال ﷺ: «ولا يتكلم يومئذ إلا

الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»^(١).

وقال بعض المفسرين ومن ذلك قول: لا إله إلا الله، ومن ذلك الشفاعة لمن أذن

الله له أن يشفع حسب ما أذن فيه تبارك وتعالى.

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٦، ومسلم في الإيمان - معرفة طريق الرؤية ١٨٢ - من حديث أبي هريرة -

﴿ذَلِكَ أَلْيَوْمَ الْحَقِّ﴾، أي: المحقق الوقوع، الكائن لا محالة، اليوم الحقيقي الذي يظهر فيه الحق تمام الظهور، ويقوم فيه العدل، والذي يستحق ويجب أن يستعد له تمام الاستعداد.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، أي: فمن شاء جعل إلى ربه مرجعًا ومنقلبًا وطريقًا يؤدي به إلى مرضاة الله عز وجل، وذلك بسلك طريق الحق والهدى، المؤدي إلى الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وفي الآية إثبات المشيئة للعبد؛ لكنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [٢٨] وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٩] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

والمراد بالمآب هنا: المآب الخاص، مآب أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين.
وإلا فإن الناس كلهم آيبون وراجعون إلى الله عز وجل ومصيرهم إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].
وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣].
﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ﴾، أي: حذرناكم وخوفناكم بما أنزلنا من الكتب وعلى السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب يوم القيامة؛ لأنه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، ومن مات قامت قيامته، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيرَةً أَوْ صُحُفًا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يوم نشر الدواوين وتطابير الصحف، فأخذ كتابه

بيمينه وأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، فيرى كل امرئ الذي قدمته يده، أي: جميع أعماله من خير أو شر، مما بطشته يده، أو مشت إليه رجلاه أو تكلم به لسانه، أو انطوى عليه جناحه، وكل ما عملته جوارحه الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [٦] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] ﴿الزلزلة: ٦-٨﴾.

فقدم أخي المسلم خيراً تجده غداً، واحذر من ضد ذلك قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

وهذا ما عناه ليبد بقوله^(٢):

وما الناس إلا عاملان فعامل
يتبر ما بيني وآخر رافع
وقال الآخر:

فلم أجد الإنسان إلا ابن سعيه
فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
فلم يتأخر من أراد تقدماً
ولم يتقدم من أراد تأخراً^(٣)
وقال الآخر:

قدم لنفسك توبة مرجوة
قبل المات وقبل حبس الألسن^(٤)
بادر بها غلق النفوس فإنها
ذخر وغنم للمنيب المحسن

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٥٦.

(٣) هذان البيتان لابن هاني انظر «ديوانه» ص ١٤٠.

(٤) البيت لمحمود الوراق. انظر: «ديوانه» ص ١٩٣.

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل^(١)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح^(٢)

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار^(٣)

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، أي: يتمنى الكافر ويود حين ينظر إلى أعماله السيئة، ويرى عذاب الله تعالى وأحوال ذلك اليوم أنه كان في الدنيا تراباً لم يخلق ولم يوجد، أو أنه لم يبعث.

وذلك حين يقضى بين البهائم، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من الشاة القرناء^(٤)، ثم يقال لها: كوني تراباً. فحينئذ يود الكافر أن لو كان تراباً مثلها، ولكن هيهات ذلك.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات عظمة الله تعالى وهيبته وجلاله، وقيام الروح والملائكة بين يديه صفًا لا يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾.
- ٢- فضل جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.
- ٣- خضوع جميع الخلائق لله عز وجل يوم القيامة، وقيامهم بين يديه صفوفًا؛ لقوله تعالى: ﴿...يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾.
- ٤- عدم قدرة أحد في ذلك اليوم على الكلام- هيبة من الله عز وجل وتعظيمًا له

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص ١٢٤.

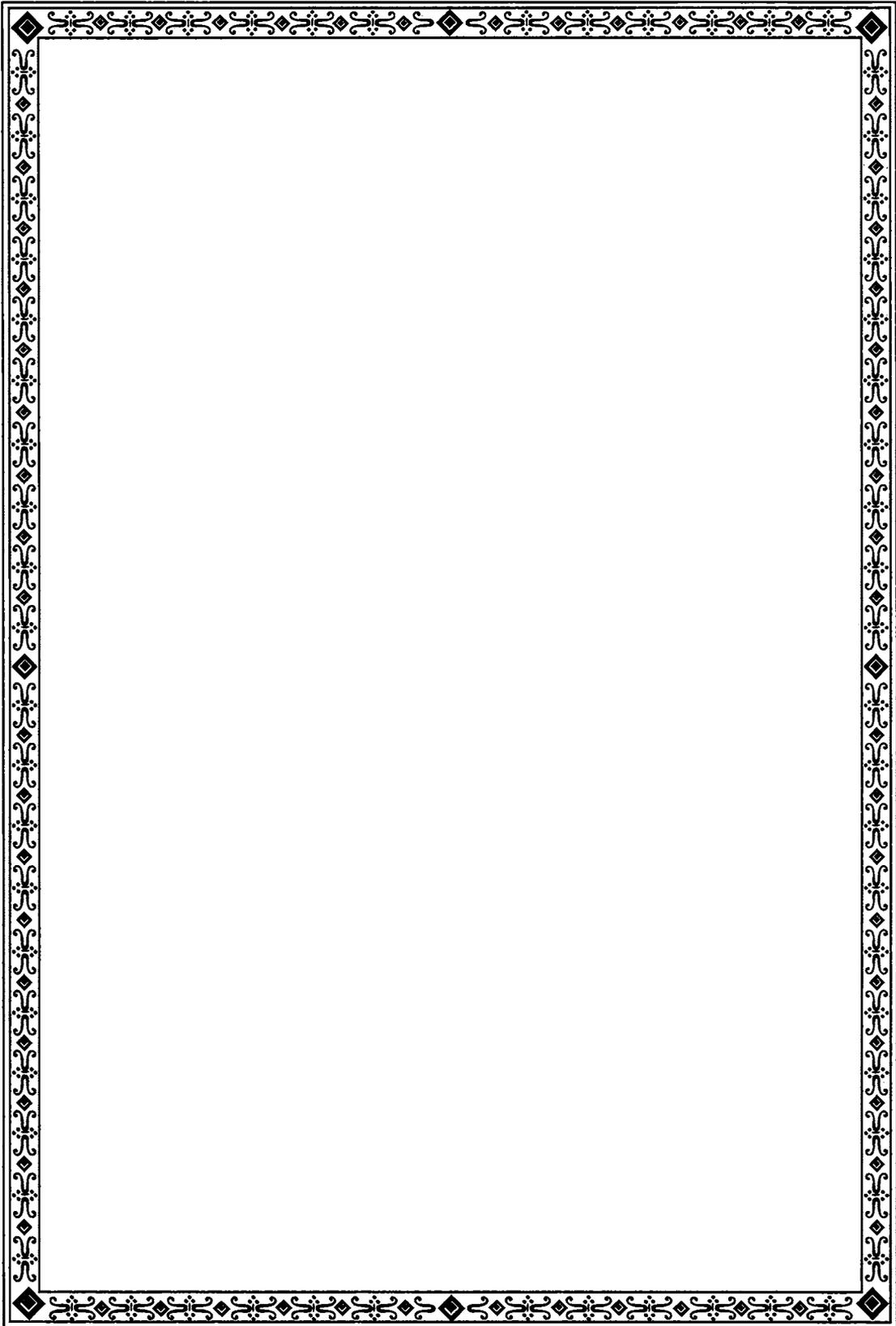
(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص ١.

(٣) انظر: «الأمثال المولدة» ص ٣٢٤، «التمثيل والمحاضرة» ص ٣٤٥، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤، «زهر الأكم» ٣/ ٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

- وإجلالا- إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.
- ٥- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام.
- ٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.
- ٧- أن يوم القيامة محقق الوقوع، كائن لا محالة، به يظهر الحق تمام الظهور، وهو اليوم الذي يستحق بل يجب أن يستعد له تمام الاستعداد؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ^٥ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾.
- ٨- إثبات المشيئة للعبد، وأنه ليس مجبوراً على فعله كما تقوله المبتدعة الجبرية لقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾.
- ٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لمن تاب وأناب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾.
- ١٠- الترغيب في سلوك الطريق المؤدي إلى مرضاة الله عز وجل.
- ١١- أن المرجع والمآب إلى الله عز وجل.
- ١٢- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم وإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.
- ١٣- قرب القيامة وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾.
- ١٤- رؤية الإنسان يوم القيامة لكل ما قدم من خير أو شر، قليلاً كان أو كثيراً ومحاسبته ومجازاته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنظَرُ أَلْمَرَّةُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾.
- ١٥- تمني الكافر في ذلك اليوم عندما يرى العذاب والأهوال كونه تراباً؛ لقوله: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾؛ ليسلم من ذلك وهيئات أن يحصل له ذلك.
- ١٦- الترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّازِعَاتِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة النازعات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١).

وتسمى: «سورة الساهرة»، و «سورة الطامة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- إثبات وتأکید البعث والقيامة، وشدة أهوالها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَزُجُّ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) تَبْعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَيْ ذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤).

٢- ذكر حديث موسى إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى، وأرسله إلى فرعون، وتكذيبه له وإهلاكه: ﴿هَلْ أُنثِيَكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرَى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْسَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْسَى (٢٦)﴾.

٣- ذكر دلائل قدرته على البعث ومظاهر نعمته: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) سَبَّحًا لِلَّهِ لَمَّا تَلَاهَا (٣٣)﴾.

٤- تذكّر الإنسان سعيه في ذلك اليوم العظيم، وإبراز النار يراها الناس في ذلك الموقف العظيم، ومأوى من طغى وآثر الحياة الدنيا إلى الجحيم، ومأوى من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى إلى جنات النعيم: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٢٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾.

٥- ذكر سؤال الناس له ﷺ عن الساعة وبيان أن علمها إلى الله تعالى، وما مهمته

﴿إِنذَارٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا﴾: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٦﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَنَرَّ يَلْبَسُوا لِالْأَعْيُنِ أَوْضِحَهَا﴾ ﴿٤٦﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ مَسْبَا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدْرِيَاتِ﴾ (٥) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاادَةُ﴾ (٧) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩) ﴿يَقُولُونَ﴾ (١٠) ﴿أَوْنَا لَمْرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ (١١) ﴿أَوْ ذَا كُنَّا عِظْمًا تَخْتَرَةٌ﴾ (١٢) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٤) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٥).

قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ الواو حرف قسم وجر، و«النازعات» وما عطف عليها مقسم به، أي: أقسم بالنازعات.

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: الملائكة تنزع أرواح بني آدم من أجسادهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (١١) [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿غَرْقًا﴾، أي: نزعًا بشدة وعنف وهذا بالنسبة لأرواح الكفار؛ لأنها إذا دعتها الملائكة للخروج تفرقت في الجسد فتغرق الملائكة في نزعها بشدة وعنف وتنتزع من الجسد كما ينتزع السَّفُود^(١) من الصوف المبلول، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول»^(٢).

﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ الواو: عاطفة، والناشطات: الملائكة، تنشط أرواح المؤمنين، أي: تسلبها برفق ولين ويسر وسهولة وسرعة وخفة، فتخرج روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه.

وسميت الملائكة الناشطات أخذًا من الأنشطة، وهي العقدة والربط الذي ينفك

(١) السَّفُودُ: بالتشديد حديدة ذات شعب معقفة معروفة يشوى بها اللحم.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦.

بسرعة وسهولة، بمجرد سل أحد طرفيه.

﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾: الملائكة تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، والأفلاك في السماء، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وتسبح بأمر الله عز وجل، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿قَالَسَيِّقَاتِ سَبْقًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: الملائكة تسبق وتسرع إلى فعل ما أمرت به، لا تبطئ عنه، ولا تتأخر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿قَالَمُدِيرَاتِ أَمْرًا﴾، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله بتدبيره من أمور الخلق، فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالمطر والنبات، وملاك الموت موكل بقبض الأرواح، ورضوان موكل بالجنة، ومالك موكل بالنار، ومنهم حملة العرش، وخزنة النار والموكلون بحفظ العباد وكتابة أعمالهم وغير ذلك.

فأقسم عز وجل بالملائكة في أوصافها الخمسة، وهي نزعها لأرواح الكفار، ونشطها لأرواح المؤمنين، وكونها تسبح بالهواء وتسرع بأمر الله وتسبق إلى فعل ما أمرت به، وتدبر ما أمرها الله بتدبيره، وفي هذا تعظيم لها والله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وحذف جواب القسم لتعظيمه وتفخيمه وتهويله. والتقدير: والله لتبعثن. وعلى هذا يدل قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وما بعده.

قال ابن القيم^(١): «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ، وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبارة بالمقسم به دون أن يراد مقسمًا عليه بعينه، وهذا يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا...»

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: لتبعثن ونحو ذلك والراجفة: النفخة الأولى في الصور نفخة الصعق؛ ليموت كل مخلوق إلا من شاء الله. ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، أي: تتبعها النفخة الثانية في الصور المرادفة لها؛ لبعث الناس

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٢٠.

وقيامهم من قبورهم، وبينهما أربعون عامًا، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].
وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» (١).

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ وهي قلوب الكفار والعصاة. ومعنى ﴿واجفة﴾ أي: خائفة قلقة مضطربة منزعجة.

﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾، أي: أبصارها ذليلة حقيرة لما تشاهده من الأهوال، ولما تترقبه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَدُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ ظُرُوفٍ حَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأضاف الأبصار إلى القلوب؛ لأن القلوب هي لب الأبدان عليها مدار الصلاح والفساد، وعليها مدار النعيم والعذاب. وقيل أضيفت إليها للملابسة.

﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول المشركون المنكرون للبعث والمعاد والحساب.
﴿أَيْنَا لَمَرَّةٌ وَدُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والاستبعاد والتعجب والاستغراب، أي: أئنا لمعادون ومرجعون، أي: لا يمكن أن نرد.

﴿فِي الْحَاوِرَةِ﴾، أي: في الحياة بعد الموت، أي: أئنا لمبعوثون بعد الموت.
﴿أَيُّ ذَا كُنَّا عِظْمًا﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أئذا متنا وكنا عظامًا.

﴿نَخْرَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ناخرة» بالألف.
وقرأ الباقون: ﴿نَخْرَةٌ﴾ بغير ألف.

والمعنى على القراءتين، أي: بالية متفتتة، نخرتها الرمال والرياح، أي: فكيف نرد إلى الحياة بعد ذلك كقولهم: ﴿أَيُّ ذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَيُّنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٦١].

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٧، وأحمد ١٣٦/٥ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٤٩، [٩٨]، وقولهم: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٥٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوَعَّدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٧]، وقولهم: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيَّنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦].

وقال بعض المفسرين: المراد بالحافرة النار، وهذا لا ينافي القول الأول، لأنهم يردون إلى النار بعد إحيائهم وبعثهم.

﴿قَالُوا نَلَكَ إِذَا كَرَّةٌ﴾، أي: قال المشركون المكذبون المنكرون للبعث تلك، أي: الرجعة للحياة بعد الموت إن كانت حقاً ﴿إِذَا﴾، أي: حينها ﴿كَرَّةٌ﴾، أي: رجعة. ﴿خَاسِرَةٌ﴾، أي: سنخسر فيها غاية الخسران، وهم بهذه الشهادة على أنفسهم بالخسران يؤكدون تكذيبهم وإنكارهم للمعاد، وكأنهم يقولون تمادياً منهم بالإنكار والاستبعاد إن بُعثنا بعد الموت فنحن نقبل أن نخسر الصفقة ذلك اليوم.

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾، أي: فإنما هي أمر من الله عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة هي نفخة البعث، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحاقة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُوكَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَنَطْنُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة: وجه الأرض وظاهرها، أي: فإذا هم قيام في المحشر على ظهر الأرض، بعد أن كانوا في باطنها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١٩].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة بأوصافهم وأعمالهم المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّزِعَاتِ غَرَقَاتٍ ۝١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَّطَّاتٍ ۝٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبَعًا ۝٣﴾ فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾، والله عز وجل أن يقسم بها شاء من مخلوقاته لأن؛ إقسامه بها يدل على عظمته هو؛ لأنه يقسم بها خلق.

٢- إثبات وجود الملائكة.

٣- فضل الملائكة وعظم منزلتهم عند الله عز وجل وعظم أعمالهم وما أعطاهم الله عز وجل من القوة والخفة والسرعة والقدرة على تدبير ما يأمرهم الله عز وجل به.

٤- إثبات البعث والمعاد؛ لأن الله عز وجل أقسم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

٥- إثبات النفختين، وتتابعهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾. وهما من أعظم أهوال القيامة، النفخة الأولى؛ ليموت من في السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا من شاء الله، والنفخة الثانية؛ لإحياء الخلق وبعثهم وقيامهم بين يدي الله عز وجل.

٦- انزعاج قلوب الكفار العصاة يوم القيامة، وشدة خوفهم وقلقهم واضطرابهم وذل أبصارهم وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩﴾.

٧- إنكار المشركين واستبعادهم للبعث والمعاد بعد الموت وللنار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.

٨- اعتراف المشركين والمكذبين وإقرارهم بالصفقة الخاسرة يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١١﴾.

٩- عظم قدرة الله تعالى، وأن بعث الخلائق وإعادةهم أمر يسير على الله عز وجل، فبأمره عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة فإذا الخلائق قيام بين يديه عز وجل ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنثِقُ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ تَقُولُ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكِّيَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ تَكْذِبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرْتَنِي ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على إثبات القيامة ردًا على المكذبين بالبعث المنكرين للمعاد، وذكر ما ينتظرهم فيها من الأهوال والعقوبات الآجلة في ذلك اليوم. ثم أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وتكذيبه له وعصيانه وسعيه ضد الحق، بل وادعائه الربوبية، وما حل به من العقوبة العاجلة والآجلة؛ تسلياً للنبي ﷺ، وتخويلاً لقومه، ولتيعظ بذلك من يخشى الله.

قوله: ﴿هَلْ أُنثِقُ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يتأتى خطابه.

أي: هل جاءك خبر موسى، أو هل سمعت بخبره.

وفي هذا الخطاب تشويق للمخاطب والسامع للتأمل في هذه القصة.

وموسى هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل، أنزلت عليه التوراة أفضل الكتب المنزلة بعد القرآن الكريم.

وقد ذكر الله عز وجل حديث موسى وقصته في القرآن الكريم أكثر من غيره وأشمل وأوسع؛ لأنه نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها، وهم من أشد الأمم تكذيباً و عناداً.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾، أي: حين ناداه ربه عز وجل نداءً سمعه موسى عليه السلام، وكلمه سبحانه تكليماً بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم:

٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿بِالْوَادِ﴾ الوادي: مجرى السيل بين الجبال والتلال والأكام.

﴿الْمُقَدَّسِ﴾: المطهر المعظم.

﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم هنا وفي سورة طه: ﴿طُوًى﴾

بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين في الموضعين، وهو: اسم للوادي الذي نادى الله فيه نبيه

موسى عليه السلام وأوحى إليه فيه.

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أرسله إلى فرعون بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، أي: امض إلى فرعون، وهو ملك مصر آنذاك، ثم صار فرعون علماً على كل من ملك مصر كافرًا. ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أي: إنه تجاوز الحد في الكفر والتجبر والتكبر والتمرد والعتو حتى وصل به الأمر إلى أن ادعى الربوبية والألوهية، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿بِنَاتَيْهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّىٰ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب بتشديد الزاي: «تَزُكَّىٰ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿تَزُكَّىٰ﴾.

قوله: ﴿فَقُلْ﴾، أي: فقل له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّىٰ﴾ استفهام للتشويق وتعبير لطيف لاستماتته إلى الحق، وليس هناك ألطف من هذا وألين منه، فلم يقل له: لم لا تزكى؟ ولم يأمره بذلك، فيقول: تزك، بل تلتطف معه في التعبير، وألان له في القول، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. ومعنى قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّىٰ﴾، أي: هل لك إلى أن تتطهر من الشرك والكفر بالتوحيد والإيمان.

﴿وَأَهْدِيكَ﴾، أي: أدلك وأرشدك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى خالقك ومالكك ومدبرك والمنعم عليك بسائر النعم فتقر له بالربوبية والألوهية وحده.

﴿فَنَخْشَىٰ﴾، أي: فتخاف الله عز وجل وعقابه العاجل والآجل. فأخرج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر تلتطفًا في الخطاب وتليينًا له، وعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق، وهو التزكي الذي معناه النماء والطهارة والبركة والزيادة، وأسند التزكي وأضافه إلى المخاطب بينما أضاف الهداية والدلالة إلى نفسه فكأنه يقول: أنا أدلك وأسير بين يديك، وأنت تزكي نفسك وتخشى ربك الذي خلقك، ورباك بنعمه العظيمة. وفي هذا استعطاف له وتذكير له بنعم الله عليه^(١).

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢١، ١٢٣.

وينبغي للدعاة إلى الله - عز وجل - والمربين والمصلحين والوالدين في تربية أولادهم وغيرهم استلهام الدروس من هذه التوجيهات الإلهية العظيمة لتحقيق بإذن الله - عز وجل - الفائدة المرجوة. فقد قال الله تعالى لسيد الرسل وأفضل الخلق: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى﴾، أي: فأرى موسى عليه السلام فرعون وأظهر له العلامة الكبرى، والحجة العظمى، والدليل الواضح على صدق ما جاء به من عند الله عز وجل، ومن ذلك أن يلقي عصاه في الأرض فتقلب حية تسعى، ثم يأخذها فتعود إلى حالتها الأولى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء آية من آيات الله من غير عيب من برص أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ [طه: ١٧ - ٢٣].

وقد يراد بالآية الكبرى جنس الآيات التي جاء بها موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾ [طه: ٥٦].

وإنما كانت هتان الآيتان من أعظم الآيات التي أرسل الله بها موسى عليه السلام وهما العصا واليد، لأن السحر كان منتشرًا شائعًا آنذاك، فأعطاه الله عز وجل آيات يبطل بها كيد السحرة الذين تصدوا لموسى عليه السلام ودعوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾، أي: فكذب فرعون وجحد وكفر بقلبه بما جاء به موسى عليه السلام، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٢٧﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿وَعَصَى﴾، أي: أبى أن ينقاد بجوارحه، فكذب الخبر، وعصى الأمر، وخالف أمر الله وارتكب نهيته، كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾ [طه: ٥٦].

وهو مع هذا يعلم أن ما جاء به موسى عليه السلام هو من عند الله، كما قال موسى عليه السلام فيما ذكر الله عنه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ﴿١٠٢﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾ [النمل: ١٤].

﴿ثُمَّ أَذْبَرْتَسَى﴾، أي: ثم لم يكتف بالتكذيب والعصيان، بل أدبر وتولى يسعى لرد الحق ومضادته بالباطل، فرمى موسى بالسحر، وقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

وجمع السحرة لإبطال الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾، أي: فجمع قومه، فنادى بهم بصوت مرتفع:
﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ادعى أنه الرب الذي هو الأعلى، الذي لا أحد فوقه؛ لأن «الأعلى»: اسم تفضيل من العلو، أي: الذي لا أحد أعلى منه.

كما ادعى الألوهية فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الفصص: ٣٨]، وقال أيضًا: ﴿يَنْهَمْنُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴿٣٦﴾﴾ [الفصص: ٣٦]، وقال أيضًا: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وبهذا صار فرعون وأتباعه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الفصص: ٤١].

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾، أي: فعاقبه الله تعالى عقوبة الآخرة في النار وعقوبة الدنيا في الغرق، ونكّل به فصار نكالًا لغيره، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾﴾ [الزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإشارة لأخذه عز وجل لفرعون وتنكيله به بعقوبة الدنيا والآخرة ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لعظة وزجرًا ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾، أي: لمن يخاف الله عز وجل، فيتعظ وينزجر

بها، بخلاف من لا يخشى الله فلا تؤثر فيه المواعظ والزواجر.

الفوائد والأحكام:

- ١- تسلية النبي ﷺ بذكر حديث موسى عليه السلام حين أرسله الله عز وجل إلى فرعون وما جرى بينهما وتكذيب فرعون، وأخذ الله عز وجل وعقوبته له؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾، وفي ذلك تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من قومه ﷺ.
- ٢- إثبات الكلام لله عز وجل على ما يليق بجلاله وأنه عز وجل نادى موسى عليه السلام وكلمه تكليماً. وشرفه بذلك، وبربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ الْكَوْكَبَاتِ﴾. ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٧).
- ٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام.
- ٤- شرف بعض الأماكن على بعض بتشريف الله لها بجعلها أماكن لرسالاته ونزول وحيه وعبادته، ولهذا شرف الله عز وجل وادي «طوى» وطهره؛ لأنه عز وجل نادى فيه نبيه موسى عليه السلام وأرسله.
- ٥- تجاوز فرعون وتماديه بالكفر والطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.
- ٦- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بالتلطف مع فرعون وتلين القول له لاستماتته للحق لعله يتطهر ويخشى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَهُ﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَسِّنْ﴾ (١٩).
- ٧- يجب على الدعوة إلى الله عز وجل التلطف مع من يدعون؛ لأن الله أمر بهذا موسى في دعوته لفرعون الذي بلغ الغاية في الطغيان، فغيره من باب أولى وأحرى، وكما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].
- ٨- إثبات هداية الدلالة والإرشاد، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام هداة إلى الله، أي: مرشدون إليه وإلى طريقه المستقيم، وكذا من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَسِّنْ﴾.
- ٩- أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالدعوة إلى التزكي والتطهر من الذنوب والمعاصي، وإلى خشية الله عز وجل.

- ١٠- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.
- ١١- إقامة موسى عليه السلام الحجة الواضحة والبرهان القاطع على صدق ما جاء به، وأنه رسول من عند الله بما أظهره لفرعون من الآيات الكبرى الدالة على ذلك من انقلاب العصا حية واليد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾.
- ١٢- تمادي فرعون بالكفر والطغيان وتكذيبه لموسى عليه السلام وعصيانه له وإدباره وسعيه في الصد عن الحق ومكابرتة، وادعائه الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿تَكذَّبَ وَعَصَىٰ ۖ ثُمَّ أَذْبَرَ سِنِينَ ۖ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۖ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.
- ١٣- أخذ الله عز وجل لفرعون وعقوبته له في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾.
- ١٤- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.
- ١٥- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما أحل الله بفرعون من العقوبة والحذر من أخذ الله عز وجل وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُغْبَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٣٢﴾ مِمَّا لَكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل خبر موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون وتكذيبه له وعصيانه، وسعيه لمضادة الحق بالباطل وادعائه الربوبية، وأخذ الله عز وجل له بالعقوبة العاجلة والآجلة وفي ذلك تحذير للمكذبين بالبعث أتبع ذلك بالاستدلال على قدرته عز وجل على بعث الناس بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار، والامتنان عليهم بذلك.

قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع، والخطاب لعامة الناس ويدخل فيه المشركون المنكرون للبعث دخولا أوليا. والمعنى: أنتم أيها الناس أشد وأعظم خلقا.

﴿أَرِ السَّمَاءَ﴾ «أم»: عاطفة، والسماء معطوف على الضمير «أنتم»، أي: أم السماء أشد خلقا في كيفية خلقها وعظمتها وسعتها، وفي هذا تقرير أمر البعث والمعاد، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧١].

﴿بَنَاهَا﴾ فسرهُ بقوله: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾، أي: رفع سقفها وجرمها وبناءها، وجعلها سقف المخلوقات كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِعَرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾، أي: فجعلها مستوية البناء، محبوكة الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوكِ﴾ [٧].

[الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [المالك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أي: وأظلم ليلها وجعله أسود حالگًا.
 ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، أي: وأظهر نهارها وأناره وجعله مشرقًا مضيئًا، كما قال تعالى:
 ﴿وَجَعَلْنَا آتِلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ آتِلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
 وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن أعظم نعم الله عز وجل أن جعل الليل مظلمًا؛ ليسكن الناس فيه ويناموا ويستريحوا بعد عناء النهار، ومن رحمته أن جعل النهار مشرقًا منيرًا؛ ليتصرف فيه الناس لطلب معاشهم. قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْآتِلَ وَالنَّهَارَ لِيَتَسَكَّنُوا فِيهِ وَلِيَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتًا للعمل، وجعل النهار وقتًا للنوم.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ الإشارة بقوله: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ترجع إلى خلق السماء وبنائها وتسويتها فذلك واقع قبل دحو الأرض، فخلق عز وجل الأرض ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَ كُمُ لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ لِمَن يَكْفُرُ﴾ (٢) ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٣) ﴿فَقَضَّسْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤) [فصلت: ٩-١٢].

وبهذا جمع ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف بين الآيات في هذا (١).
 وقوله: ﴿دَحَاهَا﴾ فسرته بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٥) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾، أي: أخرج منها الماء والمرعى وأرساها بالجبال وأودع فيها ما أودع من الخيرات من المعادن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٥٤-١٥٥.

وغير ذلك وبسطها.

ومعنى قوله: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَهَا﴾، أي: ثبتها في أماكنها، وأرسي الأرض بها؛ لثلاث تيميد بأهلها، كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ﴾ متاعاً: مفعول لأجله، والمتاع: ما يتمتع به في الحياة وفي السفر، ثم ينتهي، والحياة كلها سفر.

أي: دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها وأرساها بالجبال لأجل أن تتمتعوا بها أخرج منها من الماء والمرعى، وتستقروا وتعيشوا على ظهرها أنتم وأنعامكم.

الفوائد والأحكام:

١- الاستدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار وإخراج الماء والنبات، وأن الذي قدر على هذا فهو سبحانه على بعثهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَّا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا﴾ (٣١) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٣٢) ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ﴾ (٣٣).

٢- أن دحو الأرض بعد خلق السماء، أي: أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَّا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) ﴿وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَصَلت: لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الآيات: ٩-١٢].

٣- الامتنان على العباد ببناء السماء فوقهم، وإظلام ليلها وإظهار نهارها، وبما أودع لهم في الأرض من الخيرات، وما أخرجهم منها من الماء والمرعى، وبارسائها بالجبال ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بخيراتها هم وأنعامهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن بَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَوَأْتَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِهَا لَوْ لَبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾.

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على أن القيامة حق، ثم ختمها بذكر بعض أهوالها وأحوال الناس فيها، وأن منتهى علمها إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، أي: فإذا أتت ووقعت.

﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تطم وتزيد على كل أمر هائل مفضع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾، أي: يوم مجيئها ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: يتذكر الإنسان سعيه، أو الذي سعاها، أي: عمله وما قدمه من خير أو شر، عندما يقرأ كتابه، ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيا لها من ذكرى ليست كالذكريات، ذكرى يشيب لها الوليد قال تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ ﴿٣٣﴾ يَقُولُ بَلْيَدَّتْ يَدَايَ ﴿٣٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فما أعظم الحسرات آنذاك.

﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ﴾، أي: وأظهرت الجحيم، وهي النار، سميت بذلك لعظمتها وشدة توقدها وحرها وبعد قعرها، وظلمتها.

﴿لِمَن بَرَىٰ﴾، أي: لكل من يشاهد وينظر، فرآها الناس عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقد قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» (١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك»^(١).

فيا ترى ما حال الناس في ذلك الموقف، اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة. والله لو شب حريق كبير في جانب من البلد لصعق كثير من الناس، وأصيب كثير منهم بالحيرة والذهول والدهشة وهرع الكثير منهم فارين هارين لا يلوون على أحد، ولو كان أقرب الناس إليهم وأعزهم لديهم، ولربما دهس بعضهم بعضاً من شدة الهروب والتدافع.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ «أما» في الموضوعين: أداة تفصيل، و«من» في الموضوعين: موصولة، أي: فأما الذي طغى.

ومعنى ﴿طَغَى﴾: تجاوز حدود الله في التكذيب والكفر والتمرد والعتو والعناد. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: قَدَّم الحياة الدنيا الفانية على أمر دينه وما خلق له وعلى الآخرة الباقية، كما قال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢].
فإيثار الحياة الدنيا والانشغال بها سبب للطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).
﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ﴾، أي: فإن الجحيم وهي النار.

﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ الذي يأوي ويرجع إليه وينتهي ويصير إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَأْوَانِكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

فمن أثار الحياة الدنيا الفانية الحقيرة فإن الجحيم مأواه؛ ولهذا جاء في الدعاء: «ولا

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرفائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»^(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾، أي: وأما الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: خاف قيامه غدًا بين يدي ربه عز وجل فاستعد لذلك المقام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخاف من نظر الله - عز وجل - إليه وإطلاعه عليه فراقبه وخشيه واتقاه، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل تقل
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا أن ما يُخفي لديه يغيب^(٢)

وقال القحطاني:

وإذا خلوت بريئة في ظلمة
والنفس داعية إلى العصيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني^(٣)

﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾، أي: ونهى النفس الأمارة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾، أي: عن اتباع هواها وما تشتهيه من الشهوات المحرمات والشبهات، وألجمها بلجام التقوى، فإن الهوى مُردٍ، ومُهْلِكٌ، والنفس غالباً أمارة بالسوء، كما ذكر الله عز وجل عن امرأة العزيز أنها قالت: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، أي: فإن الجنة دار المتقين هي مأواه ومصيره ومنقلبه ومستقره، كما قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يسألك الناس ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾، أي: عن

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي «حسن غريب».

(٢) هذان البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ٣٤.

(٣) انظر: «النونية» للقحطاني ص ٢٥.

القيامة.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بالمضارع، ولم يقل: سألوكم، وذلك لكثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر واستمرار وروده منهم، وذلك لعظمتها وشدة أهوالها، ولهذا جاء ذكر السؤال عنها في هذه السورة وسورة الأعراف وهما مكيتان، وفي سورة الأحزاب وهي مدنية.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الآية: ١٨٧]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الآية: ٦٣].
وسميت القيامة - والله أعلم - بالساعة؛ لتحقيق وقوعها وقربها، وتحديدده في علم الله - عز وجل - كما سميت بالواقعة والحاقة وغير ذلك.

﴿أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾، أي: متى وقوعها ومجيئها.

فمنهم من يسأل عنها سؤال استعجال واستبعاد وإنكار لها، وهم المشركون المنكرون للبعث، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وهؤلاء أكثر الخلق.

ومنهم من يسأل عنها؛ ليستعد لها بالعمل الصالح، كالذي قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال له: «ماذا أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»^(١).

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾، أي: ليس عندك علمها، ولا فائدة لك بمعرفة ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ﴾، أي: إلى ربك وحده منتهى علمها؛ متى وقوعها، وكيف وقوعها، لا إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].
ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين: «منذر». وقرأ الباقون بغير تنوين.
و«إِنَّمَا»: أداة حصر، والحصر هنا إضافي؛ لأن الرسول ﷺ منذر ومبشر، ومأمور مكلف كغيره.

والمعنى: إنما أنت في موضوع الساعة مجرد منذر من يخشاها ليس لديك علم وقوعها، وكيف وقوعها، ولا فائدة لك ولا للأمة ولا مصلحة لكم بمعرفة ذلك، بل المصلحة في إخفائها عن الخلق.

ومعنى «منذر»، أي: مخوف ومحذر.

﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يخشاها ويخافها؛ لما فيها من الأهوال والعذاب والنكال.

وهو ﷺ منذر لجميع الناس من يخشى الساعة ومن لا يخشاها، وإنما حصر إنذاره ﷺ فيمن يخشاها، لأن الذي يخشاها هو المنتفع بالإنذار المستفيد منه دون من لا يخشاها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وأيضاً فهو ﷺ منذر ومبشر لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وهو أيضاً مكلف بالعبادة كغيره كما سبق.

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾، أي: كأن هؤلاء السائلين عن الساعة المنكرين لها يوم يشاهدونها وأهوالها وشدائدها.

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٠، ومسلم في الإبان ٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَتَرْبَبُنَّوْا﴾ في الحياة الدنيا.

﴿لَا عَشِيَّةَ أَوْ صُحْحًا﴾ العشية: آخر النهار من الظهر إلى غروب الشمس والضحى: أول النهار من طلوع الشمس إلى منتصف النهار، وقد تحمل العشية على الليل كله، والضحى على النهار كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُّهَا﴾ [النازعات: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى: ١، ٢].

فما أقصر الدنيا بالنسبة للآخرة، وما أقصر ما مضى بالنسبة لما بقي، وما أقصر عمر الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]. ولو سألت معمرًا في سن التسعين أو المئة أو ما فوق ذلك عما مضى من عمره لقال لك كأني لم أعش إلا هذه اللحظة.

والإنسان بين ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه، ويوم مستقبل بما فيه لا يدري الإنسان أيديركه أو لا يدركه، ويوم حاضر ينبغي أن يستغله الإنسان بما ينفعه في دينه ودنياه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة وفضاعتها، وأنها أطم وأشد وأدهى من أي شدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ﴾.

٢- تذكر الإنسان يوم القيامة ما قدمه من عمل خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾.

٣- إظهار الجحيم وإبرازها ليراها الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾.

٤- أن مأوى الناس ومآلهم يوم القيامة حسب أعمالهم فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه الجحيم، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فمأواه جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ٤١﴾.

٥- التحذير من الطغيان وتجاوز الحد وإيثار الدنيا على الآخرة، والترغيب في

مراقبة الله عز وجل، وخوف الوقوف بين يديه، ونهي النفس عن الهوى.

٦- كثرة سؤال الناس للنبي ﷺ عن الساعة متى قيامها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾

٧- تفرد به عز وجل بعلم الساعة متى وقوعها وكيف يكون؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ

مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى

ضميره ﷺ.

٩- أن النبي ﷺ لا يعلم متى الساعة، وإنما هو منذر ومحذر منها؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾.

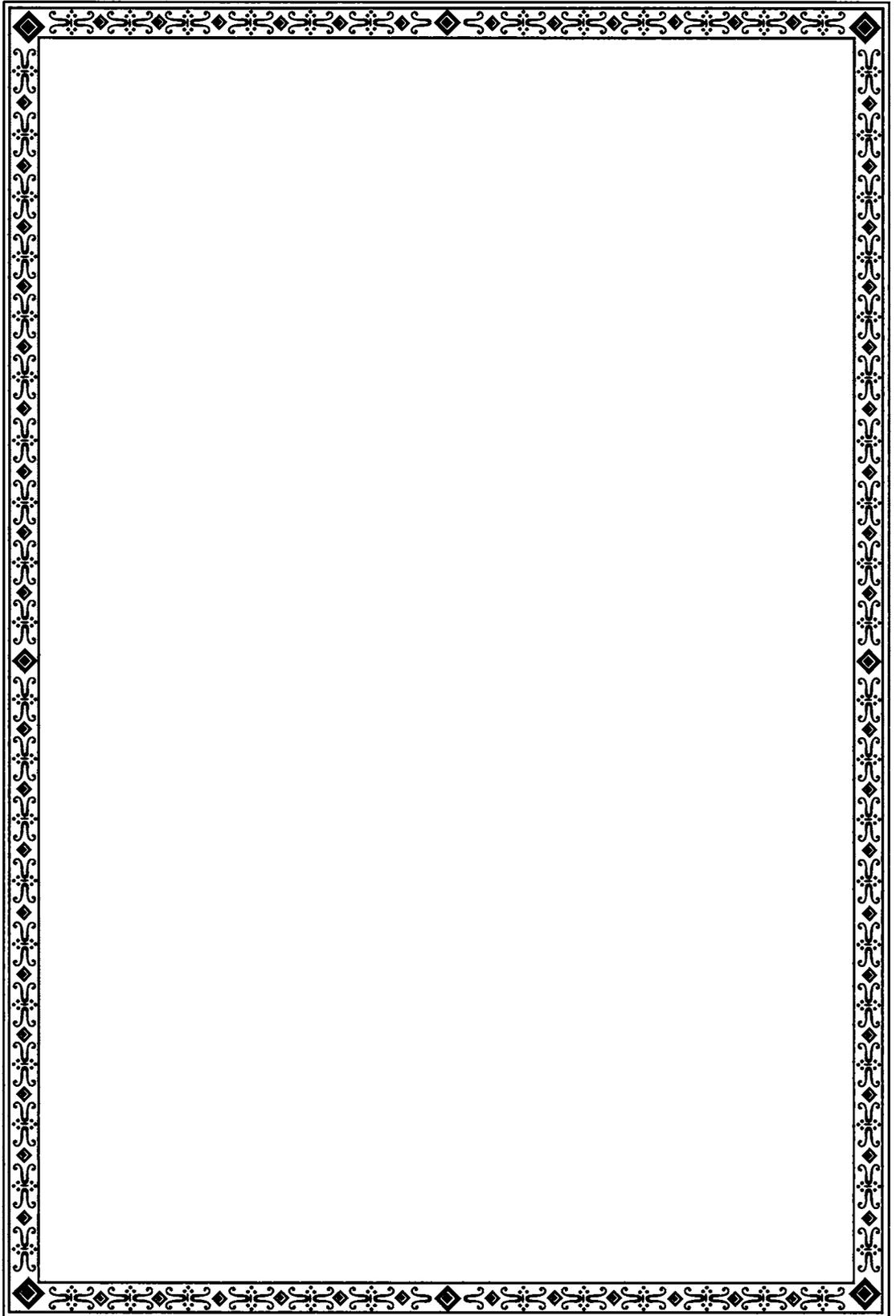
١٠- أنه لا ينتفع بالإنذار والتخويف من الساعة إلا من يخشاها.

١٠- قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وقصر عمر الإنسان فيها؛ لقوله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة عبس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى: «سورة الصاخة» و «سورة السفرة» و «سورة الأعمى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بعتاب لطيف له ﷺ، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْغَيْنِ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾.

٢- امتداح الله لما أنزله من الآيات في هذه السورة وغيرها، وامتداح حملتها من الملائكة: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفَعُهُمْ مَطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾.

٣- لعن الإنسان الذي كفر بالله وجحد نعمته؛ فنسي أصل خلقه وحقارته وضعفه، وتذكيره بكمال قدرة الله تعالى؛ وتمام نعمته عليه: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢١﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٢﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٣﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٤﴾ وَعَسَبًا وَفَضًّا ﴿٢٥﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٦﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٢٧﴾ وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿٢٨﴾ مَنَّاعًا لُكْرًا وَلَأَنْعَمِ كُرًّا ﴿٢٩﴾.

٤- التذكير بأحوال القيامة وأحوال الناس فيها: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٢﴾ وَصَخِيْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٣﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٤﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ﴿٣٥﴾ صَاحِكَةٌ مُنْتَبِشَةٌ ﴿٣٦﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلْيَا غَبْرَةٌ ﴿٣٧﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٣٨﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٣٩﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ٤ أَلَمْ يَأْتِ مِنَ اسْتَفْتَى ٥ فَانْتَبَهَ لَهُ تَصَدَّى ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٨ وَهُوَ يَخْشَى ٩ فَانْتَ عَنده نَلَهَى ١٠ كَلَّا إِنهَا تَلَكُّرَةٌ ١١ مَن شَاءَ ذَكَرَهُ ١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦ ﴾ .

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ ﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ من عطاء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى فيما أقول بأسًا؟، فيقول: لا، ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾» (٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أنزل الله قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ ﴾ في ابن أم مكتوم» (٣).

قوله: ﴿ عَبَسَ ﴾، أي: قطب جبينه، وما بين عينيه.

﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض. والمراد بهذا النبي ﷺ وجاء الكلام بضمير الغيبة في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ ﴾ تَلَطُّفًا معه ﷺ في العتاب.

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣٤٣/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «تفسير سورة «عبس» ٣٣٣١، والطبري في «جامع البيان» ١٠٢/٢٤ وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٣٩٩/١٠.

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو رجل أعمى جاء إلى النبي ﷺ يستقرئه ويطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، وكان ﷺ منشغلاً في دعوة من يطمع في إسلامهم من أشراف وعظماء قريش؛ ليُسلم بإسلامهم خلق كثير فعبس وجهه ﷺ وأعرض عنه طمعاً في إسلام أولئك فعاتبه الله عز وجل على ذلك.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم استفهام، والخطاب للنبي ﷺ، ﴿لَعَلَّهُ يَزْكَى﴾، «يزكى»، أصلها: «يتزكى»، فأدغمت التاء بالزاي للتخفيف، أي: وما يعلمك يا محمد لعل هذا الرجل الأعمى يتطهر وتزكو نفسه.

قال بعض المفسرين: كلما جاء في القرآن: «وما يدريك» فإنه لا يُدريه، أي: لا يعقبه بما بينه ويوضحه، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى﴾، وكما في قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا جاء: «وما أدراك» فإنه يُدريه، أي: يعقبه بما يوضحه وبينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِيَّةُ الْقَدْرِ﴾ ثم قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢-٥]، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ﴾ ثم قال: ﴿نَارُ حَامِيمَةٍ﴾ [القارعة: ١٠، ١١].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ قرأ عاصم: ﴿فَتَنْفَعُهُ﴾ بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، أي: أو لعله يتعظ فتنفعه الموعظة.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَى﴾ «أما» حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين، أي: وأما الذي استغنى بهاله وقوته وجاهه، فأعرض عن الموعظة، ورأى أنه في غنى عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ وهو يَحْتَسِي ﴿٨﴾ فَاتَّعَتْهُ نَلَهَى ﴿١٠﴾ [الليل: ٨-١٠].

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد الصاد «تصدى»، وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فأنت تتعرض له وتقبل عليه، وتطلب إقباله طمعاً في هدايته وإسلامه.
﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى﴾، أي: وما عليك ألا يتطهر هذا المستغنى، أي: لست ملزماً بهدايته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ

إِلَّا الْبَلْغُ ﴿[الشورى: ٤٨].

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ ﴿، أي: وأما الذي جاءك مقبلاً.

﴿يسعى ﴿ في طلب التطهر والموعظة.

﴿وَهُوَ يَحْتَشِي ﴿ الجملة: حالية، أي: وهو يخاف الله عز وجل بقلبه.

﴿فَأَنَّتَ عَنْتَ لَلَّهِ ﴿، أي: تتشاغل عنه بغيره.

وفي هذا وما قبله إشارة إلى حرص هذا الرجل الأعمى على التزكي والتذكر وأنه أرجى بالتزكي والتذكر من أولئك الأشراف الذين يرون أنهم في غنى عن ذلك. ولقد كان لهذا الرجل الأعمى شأن عظيم في الإسلام، فهو الذي أنزل الله فيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿ [النساء: ٩٥]، لما جاء يشتكي إلى رسول الله ﷺ ضرارته، وأنه لا يستطيع الجهاد^(١)، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، وروى عنه عدة من الأحاديث رضي الله عنه.

وفي هذه الآيات ما يبين بجلاء قيام هذا الدين الإسلامي على العدل في جميع أحكامه، ومن ذلك المساواة في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، الغني والفقير، والشريف والوضيع، والسادة والعيبد، والرجال والنساء، والكبار والصغار. فلا يجوز تحت أي مبرر كان ترك المساواة في هذا، فمع أنه ﷺ إنما تشاغل عن هذا الأعمى بمن يرى أن في إسلامه أثراً في إسلام غيره لمكانته في قومه، وأيضاً فإن هذا الأعمى قد آمن وإنما يريد زيادة الاسترشاد، لكن الله عز وجل عاتبه على ما حصل منه تأكيداً لوجوب المساواة بين الناس في دعوتهم إلى الله عز وجل.

ولقد حاول المكذبون وأعداء الرسل التمييز بين طبقات الناس في الدعوة إلى الله فقال قوم نوح عليه السلام له: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣، وأحمد ١٨٤/٥، ١٩١- من حديث زيد بن ثابت- رضي الله عنه- وأخرجه البخاري أيضاً ٢٨٣١، ومسلم في الإمامة ١٨٩٨ وغيرهما من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه.

هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴿ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، فقال لهم نوح عليه السلام ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يُضْرَبُ مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وهكذا قال المشركون للنبي محمد ﷺ اطرده هؤلاء المستضعفين وتبعك فقال الله تعالى له: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]. وفي الآية دليل على القاعدة المشهورة أنه «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وفي هذا أعظم الدلالة على أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، والرد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افتراه من عند نفسه إذ كيف يعاتب المرء نفسه. وفيه أن الرسول ﷺ ليس بمعصوم لا هو ولا غيره من الرسل من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرَّون عليها، ولا يؤخرون التوبة، بل سرعان ما يحدثون توبة منها بتوفيق الله لهم، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها. وهم معصومون فيما يخبرون به عن الله، وفي تبليغ رسالاته بإجماع الأمة (١).

﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِنَّهَا﴾، أي هذه الموعظة، أو هذه السورة، أو آيات القرآن الكريم ﴿تَذِكْرَةٌ﴾، أي: موعظة يتعظ بها ويعتبر من وفقه الله، كما قال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾﴾ [طه: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨].

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾، أي: فمن شاء ذكر الله عز وجل، وذكر مواعظ القرآن بقلبه ولسانه، وجوارحه الظاهرة والباطنة، فاتعظ بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٥﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ فَخُذْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾

(١) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٨٩، ٢٩٦.

سَيِّلاً ﴿١١﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ و صحف و صحائف: جمع صحيفة. ﴿مُكْرَمَةٍ﴾، أي: معظمة عند الله عز وجل.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ عالية القدر والمنزلة عند الله عز وجل.

﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص والتحريف والتبديل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة. وسفرة: جمع سفير، يقال في جمعه: سفرة، وسفراء. وسمي الملائكة سفرة؛ لأنهم كتبة يكتبون الوحي والأعمال ونحو ذلك.

والسُّفْر بالكسر الكتاب، والجمع أسفار، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْجَحْمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، أي: كتباً في العلم لا ينتفع بها.

وسمي الملائكة سفرة أيضاً من السفارة وهي الوساطة، لأنهم وسطاء بين الله وبين رسله وخلقه، فجبريل عليه السلام هو السفير والواسطة بين الله عز وجل وبين رسله في تبليغ وحيه عز وجل إليهم.

والكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم سفراء بين الله وبين خلقه في ذلك، وكذلك الحفظة للإنسان والموكلون بتدبير أوامر الله في خلقه وغيرهم كل هؤلاء سفراء بين الله وبين خلقه.

والسفير هو الوساطة بين الناس. وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وكنت السفير بينهما»^(١).

قال الشاعر:

وما أَدَعِ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وما أمشي بغش إن مشيت^(٢)

(١) أخرجه مسلم في النكاح - تحريم نكاح المحرم ١٤١١.

(٢) البيت لموسى بن جابر اليمامي. انظر: «البصائر والذخائر» ١٩٢/٢.

﴿كِرَامٍ﴾ في أخلاقهم، أي: ذوي أخلاق كريمة، وصفات شريفة، خُلُقًا، وخلقًا مكرمين عند الله عز وجل، ومكرمين عند خلقه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، أي: حديث ضيوفه المكرمين من الملائكة.

﴿بِرَّوٍ﴾ في قلوبهم وأعمالهم، أي: بارين مطيعين لله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وهكذا ينبغي لحامل القرآن وقارئه أن يتدبره فيتخلق بأخلاقه، ويتأدب بأدابه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- معاتبه الله عز وجل لنبيه ﷺ في عبوسه وإعراضه عن هذا الرجل الأعمى وإقباله على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَّ وَتَوَلَّى ۖ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى ۚ ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ٤ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ۚ ٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۚ ٧ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ ٨ وَهُوَ يَخْشَى ۚ ٩ فَانْتَ عَنْهُ نُلْهِى ۚ ١٠﴾.

٢- أنه ﷺ ليس معصومًا من الوقوع في الصغائر وغيره من الرسل من باب أولى لكنهم لا يُقَرَّون عليها وسرعان ما يتوبون منها بتوفيق الله لهم.

٣- إثبات صدق رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى.

٤- وجوب التسوية في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، والعناية بدعوة وتعليم من جاء مقبلًا يريد التذكر والتطهر، وعدم الانشغال عنه بدعوة المعرضين.

٥- أن هداية القلوب وتركيتها بيد الله عز وجل، فقد يتزكى ويتذكر ويهتدي من لا يظن به ذلك، وقد لا يتزكى، ولا يتذكر، ولا يهتدي من طمع في هدايته.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٤٩٣٧، ومسلم في الصلاة- فضل الماهر بالقرآن والذي يتتبع به ٧٩٨، وأبو داود في الوتر- ثواب قراءة القرآن ١٤٥٤، والترمذي في فضائل القرآن- فضل قارئ القرآن ٢٩٠٤، وابن ماجه في الأدب- ثواب القرآن ٣٧٧٩، وأحمد ٤٨/٦، ٩٤.

٦- ثناء الله - عز وجل - على الأعمى عبد الله بن أم مكتوم - رضي الله عنه - حيث جاء مقبلاً على الله طالباً الهداية والتذكرة يرجو ثواب الله ويخشى عقابه، وذم المعرض عن ذلك المستغني عن التذكرة وعن ربه.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التذكير إقامة للحجة على الخلق لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعِظْمَائِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

٨- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾. وفي هذا رد على الجبرية.

٩- عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته ورفعته عند الله عز وجل وحفظه من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير؛ لقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤).

١٠- فضل الملائكة وكرامتهم عند الله عز وجل وطاعتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١٦).



قال الله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَمَّامَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿١٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ﴿١٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿١٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿١٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا وَأَخْلَجْنَا عِلْبًا ﴿١٩﴾ وَحَدَّيْنِ غَلْبًا ﴿٢٠﴾ وَفَكَهَمُوا وَابًّا ﴿٢١﴾ مَنَعْنَا لَكُمُ الْوَيْسُوكَ ﴿٢٢﴾ وَتَجَلَّى ﴿٢٣﴾

بعد ما بين عز وجل أن آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة لمن يتعظ أتبع ذلك بلعن الإنسان الذي كفر بذلك وأنكر البعث، وطرده عن رحمة الله وإهلاكه، وتوبيخه وتذكيره بأصل خلقه وضعفه وحقارته ومراحل حياته، وقدرته عز وجل التامة على ذلك للاستدلال بذلك على قدرته التامة على بعثه بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

قوله: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾، أي: لعن وطرده عن رحمة الله، وأهلك الإنسان الكافر المكذب بالبعث، المنكر له.

﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ «ما»: استفهامية، أي: ما الذي حملة على الكفر.

ويجوز أن تكون «ما»: للتعجب، أي: ما أعظم كفره وما أشده، كذب الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وأنكر البعث والمعاد والحساب والجزاء مع قيام الحججة ووضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ الاستفهام: للتقرير. وكلمة «شيء»: نكرة في سياق الاستفهام تفيد التحقير والتقليل، أي: من شيء حقير مهين ضعيف خلقه وأوجده.

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ النطفة: الماء القليل، أي: من ماء قليل، وهو المنى، كما قال تعالى:

﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُطْفَئُونَ مِنْ مَنِيِّ يَسْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ لَجَعَلْنَاهُ الرَّجُلَ الذَّكْرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا سُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ^ط وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

﴿فَقَدَّرَهُ﴾، أي: فقدّر خلقه أطوارًا: نطفة، ثم علقه، ثم مضغه إلى آخر أطواره.
وقدّر أجله ورزقه وعمله، وهل هو وشقي أو سعيد، كما في حديث عبد الله بن
مسعود رضي الله عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن
أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقه مثل ذلك، ثم مضغه مثل
ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»^(١).

وقدّره أيضًا بأن سوى خلقه وأتمّه وأكمله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾﴾
[القيامة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿ثُمَّ النَّسِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم الطريق للخروج من بطن أمه يسره وسهله، وكذا الطريق لمعرفة
الخير والشر يسره وبينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾
[الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير والشر.
﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾، أي: ثم بعد أن أحياه عز وجل ما شاء من العمر أماته بقبض روحه
وإخراجها من البدن.

﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ جعله ذا قبر، أي: جعل له قبرًا يوارى جسده؛ سترًا وإكرامًا له وتشريفًا
واحترامًا.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾، أي: ثم متى شاء عز وجل بعثه وأحياه بعد موته للحساب
والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ ﴿١١﴾﴾
[المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال:
«اللهم بك أحيا وأموت وإذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي
في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

النشور»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»^(٢).

فاستدل عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من نطفة على قدرته على بعثه من باب أولى وأحرى كما قال عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُوَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدِّ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

﴿كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمَرَهُ﴾ «كلا»: للردع والزجر، أي: كلما يقض الإنسان، أي: لم يؤد الذي أمره الله عز وجل به من الفرائض والواجبات.

أو ﴿كَلَّا لَمَآ يَفِضْ﴾ الله ﴿مَا أَمَرَهُ﴾، أي: ما أمر به، أي: الذي أمر به كونًا وقدرًا، أي: أنه لم يأت ولم يحن وقت أمره بنشر الخلائق وبعثهم وحسابهم، بل له موعد منتظر.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾^(١٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا^(١٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(١٦) فَأَبْتُنَا فِيهَا جَبًّا^(١٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًّا^(١٨) وَزَيَّنَّا وَغَلَّا^(١٩) وَحَدَّابِقَ غُلًّا^(٢٠) وَفَكَهَمَهُ^(٢١) وَأَبَّا^(٢٢) مَنَّاعًا لَّكُمْ^(٢٣) وَلَا تَنْعَمُكُمْ^(٢٤).

استدل عز وجل بالآيات السابقة على قدرته التامة على البعث بخلق الإنسان من النطفة، ثم استدل على ذلك بإحياء الأرض بعد موتها في هذه الآيات وفي هذا وذاك امتنان على الإنسان، وتذكير له بنعم الله عز وجل عليه.

قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾، أي: فلينظر الإنسان إلى طعامه نظر تفكر، ويتأمل فيه، من أين هو، وما هي أسبابه ومراحله؛ وليعلم أن من وراء ذلك خالقًا عظيمًا، ومدبرًا حكيمًا، ومنعمًا كريهاً، وأن لذلك أسبابًا ومراحل قدرها وأوجدها العليم الخبير،

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٩٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤١٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن - ما بين النفتين ٢٩٥٥ وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦، وأحمد ٢/٣١٥.

كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٦﴾ أَنَسْتَرْزَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاعُونَ ﴿٦٦﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها: «إنا».

أي: أنا أنزلنا الماء من السماء والسحاب على الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَشُقِيهٖ، مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأْسِيًّا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾، أي: ثم شققنا الأرض للنبات ﴿شَقًّا﴾ كثيرًا فنبت ونما وظهر على وجه الأرض.

﴿فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا﴾، أي: فأنبتنا في الأرض أنواع الحبوب، كالبر والأرز والذرة والشعير وغير ذلك.

﴿وَعِنَبًا﴾ يأكلونه طريًا وجافًا، وهو من أفضل وأنفع الفواكه، ولهذا خصه بالذكر من بين الفواكه.

كما امتن الله عز وجل به على أهل الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ [النبا: ٣١-٣٢].

مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين عنب الجنة وعنب الدنيا.

﴿وَقَضْبًا﴾ القضب: هو العلف الذي تأكله الدواب من القت وغيره.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ الزيتون من أفضل الأشجار وأكثرها بركة يؤكل ثمرها، ويتخذ زيتها أدماً، ويدهن ويستشفى به، ويستصبح به، وغير ذلك، أقسم الله تعالى به في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ [التين: ١]، وامتدح شجرته بقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَتَخْلًا﴾ يؤكل ثمرها بسرًا ورطبًا وتمرًا، وهي من أفضل وأبرك الأشجار، وثمرها من أفضل الثمار، إن لم يكن أفضلها، ويعد غذاء كاملاً، قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا

طَلَعُ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ [ق: ١٠].

وقال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن - النخلة» (١)
وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها لما أخبرته أنه يمر
الشهران ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة: فقلت: يا خالة ما كان
يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء» (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة بيت لا تمر فيه
جياح أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياح أهله، أو جاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثاً» (٣).
ولفضل النخل وثمرها ذكرها الله عز وجل من أشجار الجنة فقال تعالى: ﴿فِيهَا
فَلَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] مع الاختلاف الكبير بين نخل الجنة ونخل الدنيا.

﴿وَحَدَائِقُ غُلْبًا﴾، أي: وبساتين ذات أشجار طويلة كبيرة، كثيرة متنوعة
﴿وَفَاكِهَةٌ﴾ الفاكهة: كل ما يتفكه به من أنواع الثمار ويؤكل طرياً رطباً.
أي: وأنبتنا لكم فيها الأشجار المختلفة ذات الفواكه والثمار المتنوعة.
﴿وَأَبًا﴾ الأب: الكلاً والعشب الذي ترعاه البهائم والأنعام.
وقد روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا﴾
فقال: «أي: سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم» (٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ﴾
فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟، فقال:

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦١، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١ - من حديث ابن عمر - رضي الله
عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة
٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٥.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن
ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي، قال: سئل أبو بكر - إلى آخره - ذكره ابن كثير في
«تفسيره» ٣٤٨ / ٨، وقال: «وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق».

لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف»^(١).

وقد امتن الله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بإنزال الماء وإخراج النبات والزرع والفواكه والثمار، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ﴾ [العد: ٤]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبْدِئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَعْيُنِكُمْ ﴾، أي: متعة ومعاشاً لكم ولأنعامكم تتمتعون بها في هذه الدار الفانية، وفي إخراج طعام الإنسان من الأرض دليل على إخراجه منها بعد موته، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴾ الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- حكم الله عز وجل الكوني على الإنسان الكافر بالإهلاك والطرده من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾، وجواز الدعاء عليه بذلك.

٢- الإنكار على الإنسان الكافر وتوبيخه، والتعجب من إعراضه وكفره وإنكاره البعث مع وضوح الحجة وبيان المحجة، وتام قدرة الله وإنعامه عليه في أطوار خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ، فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٣- تذكير الإنسان بضعفه، وبتام قدرة الله ومنته تعالى عليه في تقدير أطوار خلقه

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ١٢٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٣٤٨: «إسناده صحيح».

في بطن أمه، ثم تيسير ولادته، ثم موته ودفنه سترًا له، ثم بعثه ونشره إذا شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ، فَقَدَرَهُ، ١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ٢٠﴾ ثُمَّ أَمَّانَهُ، فَأَقْبَرَهُ، ٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ، ٢٢﴾؛ ليستدل بذلك على عظيم قدرة الله عز وجل، وقدرته التامة على بعثه، ويعرف نعمة الله عز وجل عليه فينقاد لأمره، فيشكر ولا يكفر.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإثبات المعاد، وأن نشر الخلائق وبعثهم وحشرهم له موعود ووقت قضاه الله لم يأت بعد، وإذا جاء لا يؤخر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ، ٢٢﴾.

٥- زجر الإنسان الكافر وردعه في عدم امتثاله لما أمره الله عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَآ يَفِضْ مَا أَمَرَهُ، ٢٣﴾.

٦- يجب على الإنسان النظر والتأمل في طعامه، وأسبابه، ومراحل تكوينه من صب الماء من السماء، وشق الأرض وإنبات النبات من الحبوب والعبس والقضب والزيتون والنخل والفاكهة والأب والتي أخرجها الله متعة للناس ولأنعامهم للامتنان عليهم بذلك وليعرفوا تمام قدرة الله تعالى، وعظم نعم الله عليهم فيشكروها بطاعته - عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، ٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ٢٥﴾ ثُمَّ سَقَقْنَا الْأَرْضَ سَقًّا، ٢٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا، ٢٧﴾ وَعَنَبًا وَقَضْبًا، ٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، ٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غَلًّا، ٣٠﴾ وَفِكَهًا وَأَبًّا، ٣١﴾ مِّنْعًا لَّكُمْ، ٣٢﴾ وَلَا تَنعِمِكُمْ، ٣٣﴾.

٧- الإشارة لحقارة الدنيا وفنائها، وأنها مجرد متاع ثم تنقضي وتزول؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْعًا لَّكُمْ، ٣٢﴾ وَلَا تَنعِمِكُمْ، ٣٣﴾.



قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٢﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة من دلائل قدرته على البعث قدرته على خلق الإنسان وعلى إحياء الأرض بعد موتها، ثم ختم عز وجل السورة بذكر أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم يوم القيامة كما ختم سورة النازعات قبلها بنحو من هذا.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾، كقوله في سورة النازعات ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣١﴾﴾ و«الصاخة»: القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تصخ الآذان بصيححتها وأهواها. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٢﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ﴾، أي: يوم مجيء الصاخة والقيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾، أي: يهرب الإنسان من عظم الخطب وشدة الكرب من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه، مع رؤيته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيًّا حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ الأخ من شارك الإنسان في أصله أو في أحدهما، فقد يكون شقيقًا، وقد يكون أخًا لأب، وقد يكون أخًا لأم. وليس الأخ بأقرب، ولا بأحق ممن ذكروا بعده، ولا بأحب منهم غالبًا لكنه قدم عليهم - والله أعلم - لأن الإخوة غالبًا يعتد بعضهم ببعض للنصرة في الدنيا، وبخاصة الإخوة من جهة العصبية والنسب، كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بدون سلاح (١)

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾، أي: ويفر ويهرب من أمه الحنون العطوف، حلوة اللبن، ومن أبيه الذي كان يحوطه ويرعاه، وقد كانا سبب وجوده في هذه الحياة، وأعظم الناس حقًا

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص ٢٩، «الأغاني» ١٧١ / ٢٠، ١٧٣. وينسب له ولابن هرمة. انظر: «فصل المقال» ص ٢٦٩، وينسب لقيس بن عاصم. انظر: «حماسة البحري» ص ٢٤٥. ويذكر كثيرًا بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ٤ / ٤٧٩، «تلخيص الشواهد» ص ٦٢، وغير ذلك.

عليه، قرن الله عز وجل حقها بحقه في آيات عدة، وقدم عز وجل الأم هنا لعظم حقها كما قال ﷺ للرجل الذي سأله: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال في الرابعة: ثم من؟، قال: «أبوك»^(١).

﴿وَصَلِّحْهُ﴾ زوجته، أي: ويهرب من زوجته الحبيبة رفيقة عمره، وسكنه الذي يسكن إليه في الدنيا، والتي يحفظها ويصونها، ولا يسمح لأعين الآخرين أن تنظر إليها في الدنيا.

﴿وَبَيْنِهِ﴾ جمع ابن، أي: ويهرب الإنسان من أبنائه الذين هم فلذة كبده وثمره فؤاده يتزين بهم في الدنيا ويعتز ويفتخر، وهم أقرب الناس وأحبهم إليه.

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يَفِيئُهُ﴾، أي: لكل إنسان من هؤلاء يوم القيامة أمر يشغله عن غيره، أي: كل منهم منشغل بطلب الخلاص لنفسه، لا يلوي على شيء سواها، ويخاف أيضًا من حقوق الآخرين عليه، وأن يروا ما ينزل به؛ ولهذا ولغيره فهو يفر من أقرب الأقربين إليه وأحبهم وأغلاهم لديه.

ولهذا لما قال ﷺ: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأناه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟، قال ﷺ: «الأمم أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء كل منهم يقول: «نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري» حتى تنتهي إلى محمد ﷺ فيشفع لهم إلى ربه عز وجل^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلوة والآداب ٢٥٤٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في صفة الجنة- فناء الدنيا ٢٨٥٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

غراً، فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أو ما أشغله عن النظر»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعمورات؟ وفي رواية أنها قالت يا رسول الله: واسوأناه الرجال والنساء، قال يا عائشة: «الأمر أعظم من ذلك ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(٢).

وعن عكرمة قال: «يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي: بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبها لي لعلني أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُومُ مِنْ أَخِيهِ﴾^(٣) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ، وَبَنِيهِ﴾»^(٣).

فما أصعب هذا الموقف، وما أشده، وما أعظمه إذ كيف يهرب الإنسان من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه؛ أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه؟ وكيف تذهل فيه المرضعة عما أرضعت كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]. إنها شدائد القيامة وكرباتها وأهوالها العظام - اللهم ارحمنا برحمتك والطف بنا يا لطيف.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة «عبس» ٣٣٣٢، وقال «حديث حسن صحيح»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٠٠/١٠.

(٢) أخرجه النسائي في الجنازات - باب البعث ٢٠٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٠٠/١٠، وروي من حديث سودة بمعناه، أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢٥/٢٤.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣٤٩/٨.

تبرأ الشركاء والأنصار، وفر الأقارب والأصهار، وانقطع الرجاء إلا من الواحد القهار، وانشغل كل بنفسه عن غيره يبغى لها النجاة من النار. اللهم إنا نسألك الثبات والنجاة.

وقد أحسن القائل:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل^(١)

وقال الآخر:

ومن بعد ذا حشر ونشر وموقف ويوم به يكسى المذلة مذنب

إذا فر كل من أبيه وأمه كذا الأم لم تنظر إليه ولا الأب^(٢)

وإذا كان الإنسان سينشغل بنفسه عن أعز الناس لديه وأقربهم وأحبهم إليه في ذلك اليوم، فيا ليت الكثيرين - اليوم - ممن يرى الواحد منهم القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه يتذكرون هذا فينشغلون في هذه الحياة بعيوبهم عن عيوب الآخرين ويا ليت من يتناصرون بينهم من أقارب وغيرهم بالباطل يتذكرون هذا الموقف العصيب فيرتدعون.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، أي: في ذلك اليوم العظيم ينقسم الناس إلى فريقين: فريق وجوههم ﴿مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهم المؤمنون - نسأل الله تعالى من فضله.

ومعنى ﴿مُسْفِرَةٌ﴾، أي: مشرقة مضيئة مستنيرة، كما جاء في الحديث: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر»^(٣).

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾، أي: ظاهر عليها السرور والبشر، الدال على سرور القلب وابتهاجه، مستبشرة بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) البيت للربيع بن خيثمة. انظر: «ربيع الأبرار» ٣٢٢/٢، «المستطرف» ص ٩٥، «مجاني الأدب» ١١٨/٢.

(٢) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص ١٨٨-١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[فصلت: ٣٠].

﴿وُجُوهٌ﴾، أي: وفريق وجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبْرَةٌ﴾، أي: عليها غبار.

﴿زَهَقَهَا فَتْرَةٌ﴾: تغشاها وتعلوها ظلمة شديدة وسواد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾، أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمُ الْكُفْرَةُ﴾ الذين كفروا بالله بقلوبهم فأنكروا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وآياته وشرعه ورسالاته.

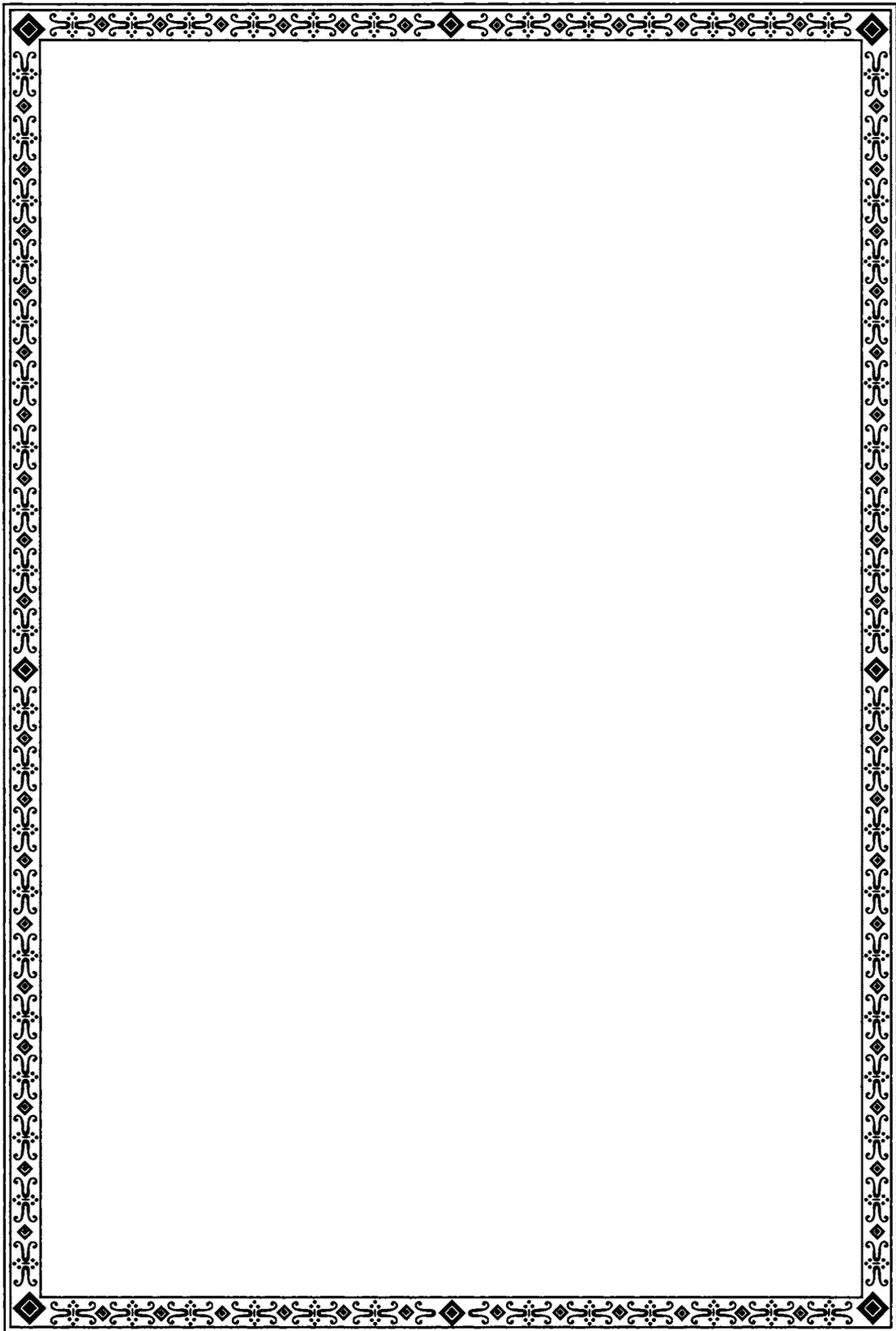
﴿الْفَجْرَةُ﴾ الذين ارتكبوا الفجور بجوارحهم وأعمالهم الظاهرة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

- ١- شدة أهوال القيامة وصيحتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾.
- ٢- انشغال كل إنسان في ذلك اليوم بخلاص نفسه، وفراره من أقرب الناس إليه، أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ، وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧).
- ٣- يجب استحضار هذا المشهد، وأنه في ذلك اليوم لا ينفع أحد أحدًا.
- ٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين حسب أعمالهم فريق وجوههم مسفرة مستنيرة ضاحكة مسرورة مستبشرة بما أعد لها من النعيم والكرامة، وهم المؤمنون، وفريق وجوههم يعلوها الغبار، وتغشاها الظلمة والسواد، وهم الكفرة الفجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلْتٌهَا غَبْرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا فَتْرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢)﴾.
- ٥- الترغيب في الإيثار والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والفجور.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكْوِيْرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكوير» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١). وتسمى «سورة إذا الشمس كورت»، و«سورة كورت».

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ (١) [الانشقاق: ١] (١).

عن عمرو بن حريث قال: «صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعتة يقرأ: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُفْسِ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنْزِ﴾ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٨)» (٢).

د- موضوعاتها

١- ذكر علامات القيامة وأهوالها والوعيد بالنار والوعد بالجنة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢).

إلى قوله: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ (١٣) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٥).

٢- إثبات وتأکید أن القرآن الكريم كلام الله تعالى نزل به جبريل على النبي ﷺ،

ذكر للعلمين: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُفْسِ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنْزِ﴾ (١٦) إلى قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

* * *

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (إذا الشمس كورت) ٣٣٣٣، وأحمد ٢/ ٢٧، ٣٦ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٧٥، وأبو داود في الصلاة ٨١٧، والنسائي في الافتتاح- القراءة في الصبح بإذا الشمس كورت ٩٥١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨١٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّمَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَعِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَتْ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ «إذا»: ظرفية شرطية غير جازمة. وتكوير الشيء بمعنى لفه، أي: إذا الشمس لفت وذهب بنورها ورمي بها في النار.
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»^(١).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة»^(٢).

وفي ذلك إغاظه للذين عبدوها من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].
﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، أي: انتشرت وتساقطت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، أي: جعلت تسير تمهيداً لدكها ونسفها، كما قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبا: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَعَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا﴾

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - صفة الشمس والقمر بحسبان ٣٢٠٠.

(٢) أخرجه البزار فيها ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٣٥٢.

دَكَّةً وَجِدَّةً ﴿١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَتَلَوْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا عُجَا وَلَا أُمَّتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ العشار: النوق الحوامل في الشهر العاشر، واحدها عُشراء، وهي خيار الإبل، وأنفس الأموال آنذاك.

﴿عُطِّلَتْ﴾، أي: تخلى عنها أهلها وأهملوها بلا راع ولا حلب وسُيِّت، وهي من أنفس الأموال، وذلك لظهور علامات القيامة ومقدماتها، وانعقاد أسبابها.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ الوحوش: جمع وحش، وهو الحيوان المتوحش الذي ينفر من الناس بخلاف الحيوان الإنسي والأهلي، والمراد بالوحوش هنا- والله أعلم- جميع الحيوانات والبهائم، وإنما خصت الوحوش بالذكر؛ لأنها إذا حشرت مع توحشها فغيرها من باب أولى.

﴿حُشِرَتْ﴾، أي: جمعت في أرض المحشر. والحشر: الجمع، قال تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ بِطَيْرٍ يُخَافِيهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مُحْشَرَةً كُلًّا لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩].

فتجمع الوحوش والبهائم ليقص لبعضها من بعض، كما في الحديث، «حتى إنه ليقص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها كوني ترابًا» (١).

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «سُجِّرَتْ» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقر بتشديدها: «سُجِّرَتْ»، أي: وإذا البحار العظيمة التي تمثل نحو ثلاثة أرباع الأرض أو أكثر أشعلت وأوقدت فصارت نارًا تتأجج، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: المؤجج نارًا.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، أي: جمع كل شكل إلى نظيره ومثيله وشكله، كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢].

فجمع أهل الخير إلى بعضهم، وجمع أهل الشر إلى بعضهم.

(١) سبق تخريجه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧) فقال: «يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس» (١).

وقيل: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧)، أي: زوجت الأرواح بالأجساد، أي: ردت كل روح إلى جسدها.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ﴾ الموءودة: هي البنت تدفن وتدس في الأرض وهي حية بعد ولادتها كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فإذا ولد لأحدهم أنثى ساء ذلك كراهة منهم للبنات، مخافة العار والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩) [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) أَوْ مَن يُنثَوُا فِي الْخِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) [الزخرف: ١٧، ١٨].

فيوم القيامة تسأل الموءودة هذا السؤال ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء: «قُتِلَتْ»، وقرأ الباقر بتخفيفها، أي: بسبب أي ذنب «قُتِلَتْ»، وهذا السؤال لتوبيخ قاتلها، وجوابه: أنها قتلت بلا ذنب.

ومن الوأد إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه، أي: بعد مضي مائة وعشرين يوماً عليه، من غير ضرورة، وقد عد ﷺ العزل من ذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي» (٢).

وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الوائدة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٠٤ / ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح - جواز الغيلة، وهي: وطء المرضع وكراهة العزل ١٤٤٢، وأبو داود في الطب - باب في الغيل ٣٨٨٢، والنسائي في النكاح - باب الغيلة ٣٣٢٦، والترمذي في أبواب الطب - ما جاء في الغيلة ٢٠٧٢، وابن ماجه في النكاح - باب الغيل ٢٠١١، وأحمد ٤٣٤ / ٦.

والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»^(١).
وعن حسناء ابنة معاوية بن الصريمة عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة»^(٢).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الموءودة هي المدفونة فمن زعم أنها في النار فقد كذب، بل هي في الجنة».
وفي رواية عنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾»، قال ابن عباس: هي المدفونة»^(٣).

ولو صح قول من قال الموءودة في النار فيما إذا كان أبوها غير مسلم، فإنه لا يصح أن يقال: إنها في النار إذا كان أبوها مسلمًا، لأنه لا إشكال أن أطفال المسلمين معهم في الجنة، وفي أولاد المشركين الخلاف هل هم في الجنة أو في النار مع آبائهم، أو يمتحنون في عرصات القيامة وهذا هو الأظهر، وفيه جمع بين الأقوال.
وروي عن خليفة بن حصين، قال: «قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية، أو ثلاث عشرة، قال: «أعتق عددن نسماً» فأعتق عددن نسماً»^(٤).

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب وعاصم بتخفيف الشين، وقرأ الباقر بتشديدها: «نُشِرَتْ» والصحف جمع صحيفة، وهي ما تكتب فيها الأعمال.

ومعنى ﴿نُشِرَتْ﴾، أي: أعطي كل إنسان صحيفته وكتاب أعماله يمينه أو بشماله - مفتوحًا - يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلزَمْنَهُ طَرَفَهُ فِي

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٥٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٠٣ - ٣٤٠٤، ٣٤٠٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٠٧.

عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾
[الإسراء: ١٣، ١٤].

أي: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، بِمِيسِنِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُ وَنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، بِمِيسِنِهِ، فَيَقُولُ هَٰؤُمُ أَقْرَأُ وَأُو كِتَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلْتَنِنِي لَوْ أُوْتِ كِتَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، بِمِيسِنِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنشاق: ٧، ١٢].

وهذا مما يوجب على المسلم الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة كمحاسبة الشريك الشحيح لشريكه، بل أشد، والحرص على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾، أي: كشفت وأزيلت عن مكانها وطويت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان وحفص بتشديد العين ﴿سُعِرَتْ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «سعرت»

و﴿الْجَحِيمُ﴾: اسم من أسماء النار سميت به؛ لشدة لهبها وحرها ولظاها ﴿سُعِرَتْ﴾، أي: أشعلت وأوقدت.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، أي: قربت لأهلها وأدنت إكرامًا لهم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ وما بعده. و«ما»: موصولة، أي: إذا وقعت هذه الأحوال وتبدلت الأحوال عند ذلك علمت كل نفس الذي أحضرته.

أي: الذي قدمته من عمل، من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]،

وقال تعالى: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) ﴿الكهف: ٤٩﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ (النبأ: ٤٠).

الفوائد والأحكام:

- ١- عظم أهوال يوم القيامة وشدتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (الآيات).
- ٢- تبدل الأحوال في ذلك اليوم وتغيرها فالشمس تكور، والنجوم تتساقط، والجبال تسير، والبحار تؤجج نارًا، والسماء تزال عن مكانها إلى غير ذلك. وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحى القيوم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧) ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (٨) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١).
- ٣- انشغال الناس عند ظهور علامات القيامة وأهوالها عن أنفس أموالهم.
- ٤- بلاغة القرآن الكريم في مخاطبة الناس بما يعرفون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وقد كانت حين نزول القرآن الكريم هي أنفس الأموال عند العرب.
- ٥- جمع الوحوش والبهائم يوم القيامة ليققتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني ترابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.
- ٦- جمع كل شكل إلى نظيره وقرينه في ذلك اليوم الأخيار مع الأخيار والأشرار مع الأشرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.
- ٧- سؤال الموءودة عن سبب قتلها وبأي ذنب؛ توبيخًا وتقريعًا لقاتلها وانتصارًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (٨) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٩).
- ٨- تطاير الصحف ونشرها بين الخلائق، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.
- ٩- تسعير الجحيم وإيقادها؛ لتعذيب الكافرين والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾.
- ١٠- تقريب الجنة لأهلها المتقين تكريمًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾.

١١- أن من كرم الضيافة أن يؤتى بالطعام إلى الضيوف، ويوضع بين أيديهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾، لا أن يهيا ثم يقومون إليه، أو يترك كل منهم يخدم نفسه بنفسه، كما يفعله أدمعاء المدنية الزائفة.

١٢- علم كل نفس بما قدمته من خير أو شر بعد معايتها لهذه الأهوال، واطلاعها على صحيفة أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۖ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُفِ ۖ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۖ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا
 نَفَسَ ۖ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۖ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۖ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ
 بِمَجْنُونٍ ۖ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۖ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۖ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۖ (٢٥) فَأَيْنَ
 تَذْهَبُونَ ۖ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ (٢٩)﴾.

قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ﴾ الفاء: استثنائية. و«لا» للتنبية وتأکید القسم. والتقدير: أقسم بالخنفس. والله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه عز وجل بها يدل على عظمته هو - سبحانه وتعالى - وهذا بخلاف المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وخبر الله عز وجل صدق، وقوله حق، بلا قسم، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
 صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام،
 وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
 اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وإنما جاء القسم في القرآن الكريم جريًا على أسلوب العرب في تأكيدهم الكلام بالقسم، وكذلك الحال بالنسبة لخبر الرسول ﷺ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه
 «أخبرنا رسول الله ﷺ؛ وهو الصادق المصدوق»^(١).

و«الخنفس»: النجوم تخمس، أي: تختفي بالنهار، بعد ظهورها بالليل. ومنه سمي الشيطان بالخناس؛ لأنه يخنس ويختفي عند ذكر الله عز وجل. وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - حين لقي النبي ﷺ وهو جنب قال: «فانخنست»^(٢) أي: اختفيت.

﴿الْجَوَارِ﴾: جمع جارية، يقال في جمعها: جوار، وجاريات، أي: أنها تجري، أي: تسير، وليست بثابتة، ومن هنا سميت الكواكب السيارة.

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، وأبو داود في الطهارة ٢٣١، والترمذي في الطهارة ١٢١.

﴿الْكُنُيْسُ﴾: الغَيْبُ، أي: اللاتي يغبن بالليل، فهن يظهرن فيه، ثم يغبن فأقسم عز وجل بالنجوم في أحوالها كلها، من طلوعها وجريانها وغروبها واختفائها.

﴿وَأَيْلٍ إِذَا عَسَسَ﴾، أي: إذا أدبر وولى وذهب، ولهذا قال بعده:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾، أي: إذا أقبل وانفلق وأضاء وأسفر، عقب إدبار الليل، كما قال

تعالى: ﴿فَالَيْقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا دَبَّرَ﴾ (٣٣) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٣٤)

[المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ (٢) ﴿[الليل: ٢].

قال الشاعر:

حتى إذا الصبح له تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا^(١)

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا عَسَسَ﴾، أي: إذا أقبل بظلامه، فيكون، كقوله

تعالى: ﴿وَأَيْلٍ إِذَا بَغَى﴾ (١) [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَالصُّحَى﴾ (١) ﴿وَأَيْلٍ إِذَا سَجَى﴾ (٢) [الضحى:

٢، ١]، والأول أظهر، وأعظم في الدلالة والعبارة.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالنجوم والليل إذا أقبل

أو أدبر، والصبح إذا انفلق وأضاء على أن القرآن قول رسول كريم.

والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر في السورة لأنه

معلوم معهود.

فأقسم عز وجل بهذه الآيات العظيمة، وما فيها من الدلائل التامة على عظيم قدرة

الله عز وجل ونعمه الجسيمة على أمر عظيم، وهو أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: لتبليغ رسول كريم - وهو جبريل عليه السلام - كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

الْأَمِينُ﴾ (١٣٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فأضافه عز وجل إلى

جبريل عليه السلام؛ لأنه هو الواسطة بين الله عز وجل وبين الرسول ﷺ، كما أضافه

إلى النبي ﷺ في قوله في سورة الحاقة ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾

[الآيتان: ٤٠، ٤١]؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل.

(١) البيت لعقمة بن قرط. انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٨٧-٢٨٨، «جامع البيان» ٢٤/ ١٦٢.

فهو كلام الله عز وجل سمعه جبريل من الله عز وجل، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، وكل من جبريل ومحمد ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، ورسول من عنده. وقسمه عز وجل في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصِّرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٣٨-٤١] أعظم من قسمه في قوله هنا ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ﴾ الآيات؛ لأن المقسم به في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصِّرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أعم فهو يعم الإقسام بكل شيء.

وقوله: ﴿رسول﴾، أي: ملك مرسل من عند الله عز وجل؛ لتبليغ القرآن الكريم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام ونكره؛ تعظيماً له عليه السلام. ﴿كريم﴾: شريف حسن الأخلاق والصفات، جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير أجرى الله على يديه نقل رسالاته عز وجل إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، والتي فيها خير الدنيا والآخرة وهو أفضل الملائكة، وأعظمهم وأشرفهم عند الله عز وجل. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، أي: ذي قوة وشدة في خلقه، وفي بطشه وفعله، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥، ٦].

فجبريل - عليه السلام - بما منحه الله - عز وجل من قوة وشدة لا تستطيع الشياطين الدنو منه، ولا التعرض لما يحمله من وحي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. وهو بما منحه الله من قوة يوالي الرسول ﷺ ويناصره على من عاداه، وينفذ بقوته ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط عليهم فجعل عاليها سافلها فهلكوا بأمر الله عز وجل.

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عند الله عز وجل صاحب العرش العظيم، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

وذو العرش صاحب العرش سبحانه وتعالى الذي استوى على العرش، كما قال

تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

﴿مَكِينٍ﴾، أي: له عند الله عز وجل مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ووجاهة، وهو أقرب الملائكة إلى الله عز وجل.

﴿مُطَاعٍ ثُمَّ﴾ «ثم»: بمعنى «هناك، أي: مطاع أمره، مسموع قوله في الملأ الأعلى؛ لوجاهته وشرفه بين الملائكة.

﴿أَمِينٍ﴾، أي: ذو أمانة عظيمة على ما أوثمن عليه من الوحي.

فوصف عز وجل جبريل عليه السلام بخمس صفات عظيمة، وهي كونه: كريماً، قوياً، ذا مكانة عند الله تعالى، مطاعاً في السموات، أميناً.

وكل هذه الصفات تتضمن تزكية سند القرآن الكريم، وأنه أجل وأرفع الأسانيد، وأصحها وأعلاها، سمعه جبريل عليه السلام من رب العالمين، وسمعه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام.

وفيه تشريف وتعظيم للقرآن الكريم، كما أن فيه مدحاً وتشريفاً لجبريل عليه السلام.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة جواب القسم، فهي من جملة المقسم عليه، والخطاب لأهل مكة، أي: وما صاحبكم يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، أي: بمختل العقل، كما تزعمون، وهم- وإن تفوهوا بهذا وزعموه- فهم يعلمون أنه ليس بمجنون، وأنهم كاذبون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ أي: الذي تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته وكمال عقله، كما قال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل، كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام للقسم، أي: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، له ستائة جناح.

﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾، أي: بالأفق البين الظاهر العالي، أفق السماء الشرقي وهي الرؤية

الأولى التي كانت بالأبطح، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥ - ١٠].

﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء: «بظنين»، أي: وما محمد على ما أنزل إليه من الوحي بمتهم بالكذب، بل هو صادق أمين، كما كان ﷺ يلقب بين قومه بالأمين وعلى هذا فالرسول الملكي أمين والرسول البشري أمين.

وقرأ الباقر بالضاد: ﴿بِضَنِينٍ﴾، أي: وما محمد بما أنزل إليه من الوحي ببخيل، يقال: ضنّ، أي: بخل - كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة
وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام^(١)

أي: وإن بخلوا. وقال الآخر:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل
وضنت علينا والظنين من البخل^(٢)

أي: وبخلت علينا.

والمعنى: وما محمد ﷺ على الوحي ببخيل، بل بذله ﷺ ونشره، وبلغه لكل أحد وأشهد على ذلك أمته، وربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾، أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: ما هو مما توحيه شياطين الجن إلى شياطين الإنس من الكهنة ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

والشيطان: كل متمرّد، عات، خارج عن طاعة الله عز وجل من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢].

(١) انظر: «البلاغة الواضحة» ص ٨٧.

(٢) البيت للبيث. انظر «لسان العرب» مادة: «ضنن».

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» (١).

و«رجيم»: «فعليل» بمعنى: «مفعول، أي: مرجوم حسًا ومعنى، بالرمي بالشهب وإخراجه من الجنة، وبلعنه وطرده عن رحمة الله عز وجل.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، أي: أيّ طريق تسلكون، أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المسلمات: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَدَلِّلْكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بالقرآن وزعمكم أنه ليس بكلام الله، ورميكم الرسول ﷺ بالجنون، وإعراضكم عن طاعة الله تعالى مع وضوح الحق. كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: «ويحكم أين يذهب بعقولكم، والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله» (٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»؛ لأنها جاءت بعدها «إلا».

أي: ما هو يعني القرآن الكريم إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْسَأُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]. يذكرهم بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، ووجوب عبادته ويذكرهم بمبدئهم ومعادهم، وما فيه سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإنما يُخص بالتذكرة به المتقون والمؤمنون ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلذِّكْرُ لَلْمُنْقِبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به، ولهذا قال بعد هذا:

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٣٦٢/٨.

شاء منكم الاستقامة على الطريق المستقيم، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١١) [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

فلا سبيل للاستقامة على هذا الطريق إلا باتباع القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ (١١) مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ (١٠١) [طه: ٩٩-١٠١].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١٢٣) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَد كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٤) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ آتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (١٢٥) [طه: ١٢٣-١٢٦].

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ «ما»: نافية، أي: وما تشاءون من شيء من استقامة أو غيرها إلا أن يشاء الله ذلك. فلا يمكن أن يشاء الخلق إلا ما شاءه الله وأراده.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم. و«العالمين»: كل ما سوى الله عز وجل من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد، وغير ذلك، فما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالنجوم في أحوالها الثلاث حال اختفائها، وحال جريانها وحال غيبتها وبالليل في حال إقباله وإدباره وبالصبح في حال بروزه وظهوره على أن القرآن الكريم قول رسول كريم بلغه عن الله عز وجل، وهو جبريل عليه السلام؛ بلغه للنبي محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَنِيِّسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٢١) .

٢- شرف جبريل عليه السلام، وفضله من بين الملائكة حيث خصه الله عز وجل بتبليغ وحيه إلى رسله، وامتدحه عز وجل بالكرم والقوة ورفعة منزلته عنده، وطاعته في الملأ الأعلى، وأمانته على وحي الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) .

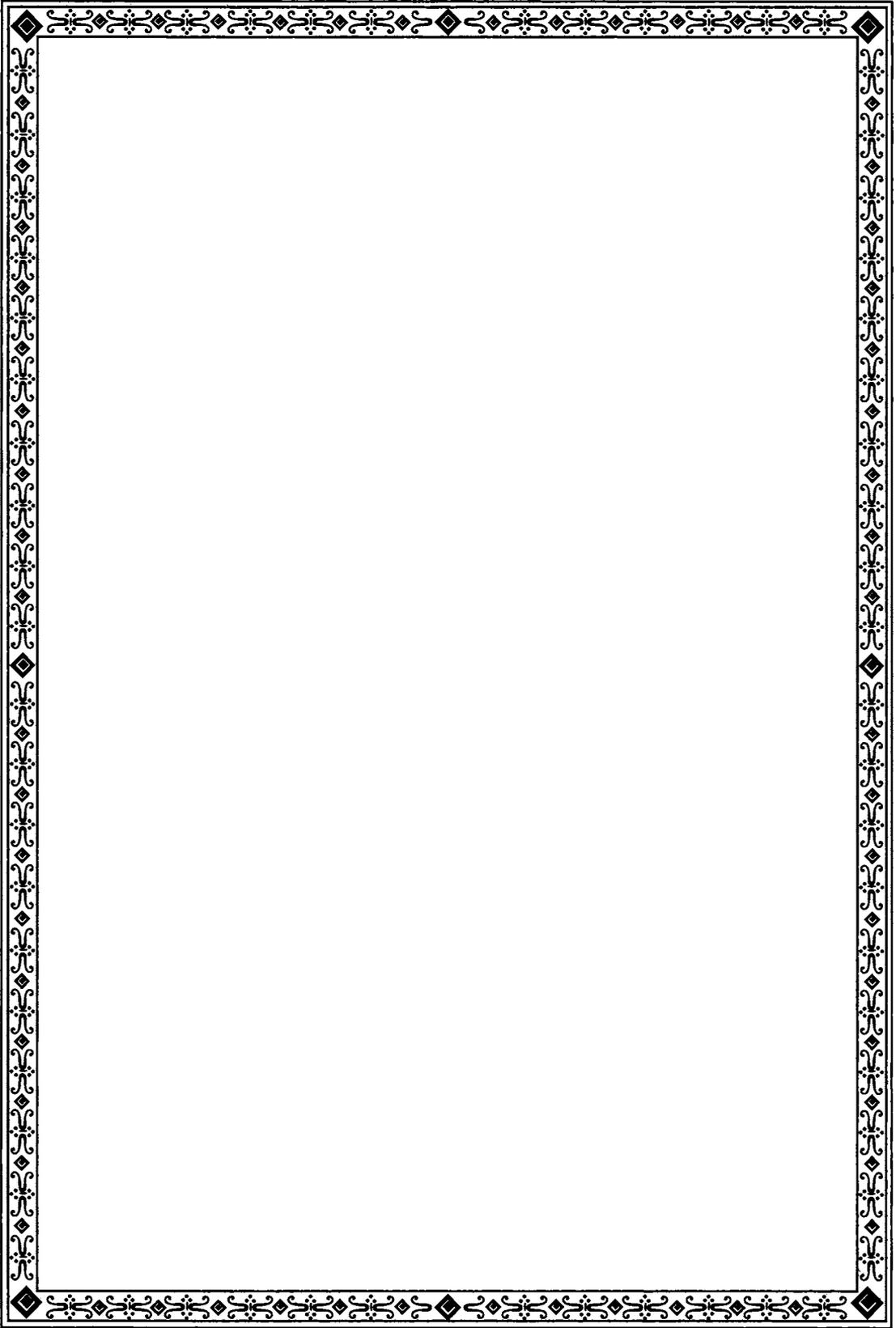
٣- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات قوة سنده حيث إن الوساطة بين الله عز وجل

- وبين النبي ﷺ هو جبريل عليه السلام الأمين، الموصوف بها ذكر.
- ٤- تعظيم الله عز وجل، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾.
- ٥- الرد على المشركين في رميهم النبي ﷺ بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.
- ٦- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق الظاهر الأعلى على صورته التي خلقه الله عليها، وله ستائة جناح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.
- ٧- إثبات كرمه ﷺ في تبليغ الوحي وأمانته عليه، ونفي كونه بخيلاً به أو متهماً عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.
- ٨- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، وليس بقول شيطان رجيم، كما زعم المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.
- ٩- إثبات وجود الشياطين، من الإنس والجن.
- ١٠- انقطاع حجة المكذبين للقرآن الكريم، إذ لا طريق أبين وأوضح من طريق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾.
- ١١- أن القرآن الكريم ذكر وموعظة للعالمين كلهم من الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.
- ١٢- أن من يتذكر بالقرآن ويتعظ به هو من شاء الاستقامة وسلك طريق الحق وتحرى الرشد، وهم المؤمنون المتقون، دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.
- ١٣- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وأنه ليس مجبوراً على أفعاله كما يقول الجبرية.
- ١٤- أن الدين الإسلامي وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.
- ١٥- إثبات مشيئة الله - عز وجل - وإرادته الكونية، وإثبات ربوبيته العامة لجميع العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٦- أن مشيئة الخلق ليست مستقلة لوحدها، بل هي تابعة لمشيئة الله عز وجل،
فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد مستقل بمشيئته ويخلق فعله-
تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْاِنْفِطَارِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانفطار» لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾ (١)، وتسمى: «سورة إذا السماء انفطرت»، وتسمى: «سورة انفطرت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ
«أفتان يا معاذ؟! أفتان يا معاذ؟! أين كنت عن «سبح اسم ربك الأعلى»، و«الضحى»،
و«إذا السماء انفطرت» (١).

وسبق في حديث ابن عمر قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى
عين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء انشقت» (٢).

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة، ومعرفة كل نفس أنذاك ما قدمت وما أخرت: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْتَثَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (٥).

٢- توبيخ الإنسان: ما الذي غره بربه الكريم الذي خلقه وسواه، حتى كفر به
وكذبه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ
رَبِّكَ﴾ (٨) ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٩) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كِرَامًا كَنِينِينَ﴾ (١١) ﴿يَعْلَمُونَ مَّا
تَفْعَلُونَ﴾ (١٢).

٣- وعد الأبرار وبشارتهم بما لهم من النعيم، ووعيد الفجار وتهديدتهم بما أعد لهم

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح- القراءة في العشاء الآخرة: «سبح اسم ربك الأعلى» ٩٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

من الجحيم والعذاب المقيم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُونَهَا يَوْمَ
الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾.

٤- تعظيم يوم القيامة، وبيان تفرد عزه وجل فيه بالملك والأمر: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرِنَاكَ مَا يَوْمُ

الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿انفَطَرَتْ﴾، أي: انشقت كقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ﴾ [المزمل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَكِيَّةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩].
﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾، أي: تساقطت، كقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢].
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾، أي: فجر بعضها على بعض، فاختلط ما لحها بعضها وصارت بحرًا واحدًا.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾، أي: قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى، فقاموا لله عز وجل.
﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾، أي: إذا وقعت هذه الأهوال والأحوال والعلامات الأربع آنذاك علمت كل نفس الذي قدمته من الأعمال الصالحة، والذي أخرته منها فلم تعمله، أو علمت الذي قدمته من خير أو شر، والذي أخرته من خير أو شر، وذلك بعد العرض وتطير الصحف.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنظَرُ الْمُرءُ مَا قَدَمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ [النبا: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ ﴿١١﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب،

و«ها» للتنبية. والمراد بالإنسان الكافر أو جنس الإنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول كفار.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ «ما» استفهامية، و«غرك»، أي: خدعك، أي: أي شيء خدعك يا أيها الإنسان بربك، خالقك ومالكك ومدبرك.

﴿الْكَرِيمِ﴾: كثير الخير والنوال، وعظيم النعم والأفضال، فكذبت خبره، وأنكرت البعث، وعصيته وخالفت أمره، وارتكبت نهيته. كما رُوِيَ في الأثر: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»^(١).

قال جمع من المفسرين: غرّه والله جهله، وشيطانه، ونفسه الأمارة بالسوء، وهواه وديناه.

وقال بعضهم: غره كرم الله وحلمه وستره وإمهاله؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢). والآية تحتل المعنيين، أي: كيف عصيت ربك وخالفت أمره، وأنكرت نعمه وأفضاله عليك.

فقوله: ﴿رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ مع دلالته على عظيم فضل الله على الإنسان، بربوبيته وخيره المسدى إليه - فيه أيضًا تذكير وتنبية إلى أن الواجب على الإنسان مقابلة نعم الله عليه بالشكر لا بالكفر.

وفي الآية: تهديد ووعيد وتحذير للإنسان أن يغره الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى والدنيا.

قال الشاعر:

إني بليت بأربع لم يخلفوا
إلا الشدائد شقوتي وعنائي^(٣)
إليس والدنيا ونفسي والهوى
كيف الخلاص وكلهم أعدائي

فعلى الإنسان أن لا يغتر بستر الله وكرمه وإمهاله، فإن الله عز وجل يمهل ولا

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٤.

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٠٨.

(٣) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني ١/ ٤٠.

يهمل، قال تعالى: ﴿سَسْتَدرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾، أي: الذي أوجدك وأنشأك من العدم.

﴿فَسَوَّيْتُكَ﴾ جعلك مستوي الخلقه متناسب الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿أَكْفَرْتَ

بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيْتُكَ رَجُلًا﴾ (٣٧) [الكهف: ٣٧].

﴿فَعَدَّلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الدال: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بتشديدها. أي: جعلك معتدل الخلق منتصب القامة في

أحسن الهيئات والأشكال.

عن جبير بن نفير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: ابن آدم، أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»^(١).

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾، أي: في أي صورة من الصور، وأي شكل من الأشكال.

﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، أي: كيفما شاء عز وجل ركب صورتك وشكلك، وقد سوى

خلقتك وعدل قامتك وحسن صورتك، بفضله وكرمه عليك، فاشكره ولا تكفره ولو شاء لجعل صورتك قبيحة كصورة قرد أو خنزير أو كلب أو حمار، أو غير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً

أسود؟ قال: «هل لك من أبل؟» قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر قال: «فهل

فيها من أورك؟»، قال: نعم، قال: «فأنى أتأها ذلك؟»، قال: عسى أن يكون نزعه

عرق، قال: «هذا عسى أن يكون نزعه عرق»^(٢).

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق- إذا عرّض بنفي الولد ٥٣٠٥، ومسلم في اللعان ١٥٠٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٠، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٨، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٨، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٢.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ قرأ أبو جعفر بالياء: «يكذبون» وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾. ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، والوعيد والتهديد، و«بَلْ»: للإضراب الانتقالي، أي: مع هذا الخلق، والإعداد والإمداد ﴿تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾، أي: بما جاء به الرسول ﷺ من الوحي والرسالة، كما قال المكذبون للرسول ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُكَذِّبُونَ﴾ [يس: ١٥]. [١٥].

وتكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، كما قالوا ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إن عليكم لحافظين من الملائكة يحفظونكم ويحسون أعمالكم.

وأكد الجملة بـ «إن»، واللام، وحذف الموصوف الملائكة واكتفى بالصفة إشارة لشدة حفظهم وضبطهم لأعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَقِيبٍ عِنْدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿كِرَامًا﴾، أي: ذوي أخلاق كريمة وصفات حميدة، وعندهم من الكرم والأمانة والصفات الحميدة ما يجعلهم يقومون بما وكلوا به أتم قيام، دون زيادة أو نقصان.

كرامًا عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كرام بررة﴾ [عبس: ١٦].

﴿كَنِينٍ﴾، أي: يكتبون جميع أعمالكم وأقوالكم، فاحذروا واستحيوا منهم، وأكرمواهم فلا تقابلوهم بالقباح، وأجلوهم من أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، فالملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يعلمون الذي تفعلون، أو يعلمون فعلكم.

أي: يعلمون فعلكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وجميع أحوالكم بما أعلمهم الله عز وجل وأقدرهم عليه حتى أعمال القلوب؛ ولهذا قال ﷺ: «فمن هم بحسنة فلم

يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة» (١).

الفوائد والأحكام:

١- عظم أهوال يوم القيامة وتبدل الأحوال فيها وتغيرها، فالسواء المحبوكة تنفطر، والكواكب تتشر وتتساقط، والبحار يفجر بعضها على بعض، والقبور يخرج ما فيها من الأموات؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوَكِبُ انشَرت ﴿٢﴾ وَإِذَا الْيَحَاذُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾.

٢- إثبات البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٥﴾ وَقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٦﴾.

٣- علم كل نفس في ذلك اليوم بما قدمته من الأعمال وما أخرته، فلم تعمله، ودقة الحساب ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٧﴾.

٤- الحث والترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر والسوء.
٥- توبيخ الإنسان على جهله واغتراره بربه وكرمه وإمهاله، وتفريطه في حقه عز وجل وتحذيره من غرور الشيطان والنفس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَّا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٨﴾.

٦- تذكير الإنسان بربوبية الله - عز وجل - له، وكرمه - عز وجل - وتمام قدرته، وعظيم نعمه عليه، خلقه فسواه وعدل صورته فجعله في أحسن خلقه وأجمل صورة، مما يوجب عليه شكر نعمة الله عليه وعبادته والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٩﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿١٠﴾.

٧- الردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين بالدين والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿١١﴾.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان - إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١٣١ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

- ٨- إثبات وجود الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة، وكتابتهم لأعمال العباد، ووجوب الإيمان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينًا ﴿١١﴾﴾
- ٩- علم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين بأفعال العباد الظاهرة والباطنة، وكتابتهم لها بأمانة، دون زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

بين عز وجل في الآيات السابقة أنه أوكّل على الخلق ملائكة حافظين كرامًا كاتبين يعلمون أفعال العباد ويكتبونها لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها، ثم أتبع ذلك بذكر أن مآل الأبرار إلى النعيم وأن مآل الفجار إلى الجحيم.

قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ الأبرار: جمع «برّ» والبرّ: كثير الطاعة، كثير الخير والإحسان، محسن في عبادة الله، ومحسن إلى عباد الله.

والبرّ: حسن الخلق، وما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، كما قال ﷺ (١) وهو كلمة جامعة لخصال الخير كلها، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من الإيمان بالله وبجميع أركان الإيمان الستة، وبكل ما يجب الإيمان به، وأنواع القربات والطاعات من الإنفاق على المحتاجين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وتقوى الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف الملائكة: ﴿كِرَامٌ بَرَرُوا ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، أي: كرام مطيعين. وجماع ذلك تقوى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومنه سمي بر الوالدين، وهو طاعتهم والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُن جَبَارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما ساءهم الله الأبرار،

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

لأنهم بروا الآباء والأبناء»^(١).

والمراد بالأبرار أصحاب اليمين، وهم المقتصدون، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا
الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَصْطَفَيْنَا مِنْ أَعْبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يراد بالأبرار هنا ما يشمل المقربين، السابقين إلى الخيرات بإذن الله، وذلك لأن
الله ذكرهم في مقابل الفجار أصحاب الجحيم.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، والنعيم: ما يتنعم ويلتذ به، أي: إنهم في نعيم معنوي،
وهو نعيم القلب، ونعيم حسي، وهو نعيم البدن، في جنات النعيم.

وهم أيضاً في نعيم معنوي وقلبي في حياتهم الدنيا لطمأنيتهم ورضاهم بقضاء الله
وقدره، وذكرهم له، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن
أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الفجار: جمع فاجر، وهم أهل الكفر والفجور، ضد الأبرار.

﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد. والجحيم هي النار سميت بذلك؛ لشدة توقدها
ولظاها وحرها، فهم فيها في عذاب معنوي للقلب وعذاب حسي للبدن.
كما أنهم في الدنيا في شقاء معنوي للقلب، وشقاء حسي للبدن.

قال ابن القيم^(٣): «لا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾
مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في
دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة
الرب تبارك وتعالى، ومحبتة، والعمل على موافقته، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣٦٦/٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ - من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ١٤٩/٥ - ١٥٠.

القلب السليم..».

وقال في موضع آخر: «وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب، وأيُّ عذاب أشد من الخوف والهَم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب».

﴿يَصَلُّونَهَا﴾، أي: يدخلونها ويغمرون فيها ويقاسون حرها من كل جهة ومن كل جانب.

﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾، أي: يوم القيامة، وسمي يوم الدين؛ لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي: يجازون بها ويحاسبون عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، أي: وما هم عن الجحيم بغائبين، أي: أنهم مقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون عنها أبداً ولو ساعة، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكُوثٌ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [٤١] ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَأْتِكُمْ رُسُلَكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْتُوا إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ «ما»: للاستفهام في الموضعين، وهو للتعظيم والتفخيم، أي: وما أعلمك.

﴿مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾، أي: ما هو يوم الدين، أي: هو يوم عظيم، لا كالأيام، يوم طويل، ثقيل عبوس قمطير، عسير، شره مستطير، يشيب من هوله الوليد، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ
عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿الْأَبْطُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين: ٤، ٥]، وقال
تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]،
وقال تعالى: ﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَلِكِ
يَوْمَ يَمْيزُ يَوْمَ عَسِيرٍ ﴿١﴾ عَلَى الْكٰفِرِينَ عَذِيبٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا
﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِءٍ﴾ [الزمل: ١٧].

﴿ثُمَّ مَا آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ تأكيد لعظمة ذلك اليوم، أي: ثم ما أعلمك ما هو يوم
الدين؟

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَا آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ
﴿١٧﴾﴾ ثم ما آذَرْنَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وإيضاح له، أي: يوم الدين، هو ذلك اليوم الذي لا تملك
فيه نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ ﴿١﴾ وَمَا آذَرْنَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ ثم فسره بقوله:
﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق: ١-٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا آذَرْنَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿فَكُ رَقَبَةٌ
﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣].

وقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا آذَرْنَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ ثم فسره
بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ١-٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةً ﴿١﴾ وَمَا آذَرْنَاكَ مَا هِيَةَ ﴿١٠﴾﴾ ثم فسره بقوله:

﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ۝١١ ﴾ [الفارعة: ٩-١١].

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

ولهذا قال المفسرون إذا قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فإنه يدرىه بمعنى: يفسر ذلك له، وإذا قال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه لا يدرىه، أي: لا يفسر ذلك له، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝٣ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيكَ ۝٣ ﴾ [عبس: ٣].

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الميم: «يَوْمٌ»، وقرأ الباقون بنصبها.

«شَيْئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: يوم لا تملك نفس لنفس أي شيء، مهما كان صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، من جلب نفع أو دفع ضرر أو غير ذلك. كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فالناس في الدنيا يتناصرون ويدافع بعضهم عن بعض لكن في الآخرة هيهات ذلك. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٣٦ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٥٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في التفسير ٣١٨٥، وأحمد ٣٦٠/٢.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، أي: والأمر في ذلك اليوم كله لله عز وجل وحده بلا منازع، كما قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

قال قتادة رحمه الله: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وَالْأَمْرُ - والله - اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد»^(١).

وإن المسلم لتأخذه الدهشة أن يمر كثير من المسلمين على هذه الآية ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ولا يستوقفه معناها، وهل كان الأمر في يوم من الأيام لغيره سبحانه؟ كلا، بل له الأمر اليوم وقبله وبعده، وفي ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وإنما معنى ذلك أنه يظهر للناس جميعاً تمام الظهور في ذلك اليوم كمال ملكه عز وجل، حيث يخضع جميع الخلق لأمره وحكمه، الملوك وما ملكوا بلا منازع، بخلاف الحال في الدنيا فإن الكثير من الناس من الملوك والمملوكين يتقبلون في ملك الله، ويتمتعون بنعمه ويبارزون بالمعاصي فهذا كله ينتهي وينقطع كما قال تعالى: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِذُنُوبِهِ﴾ [هود: ١٠٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟»^(٢).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ١٨٤.

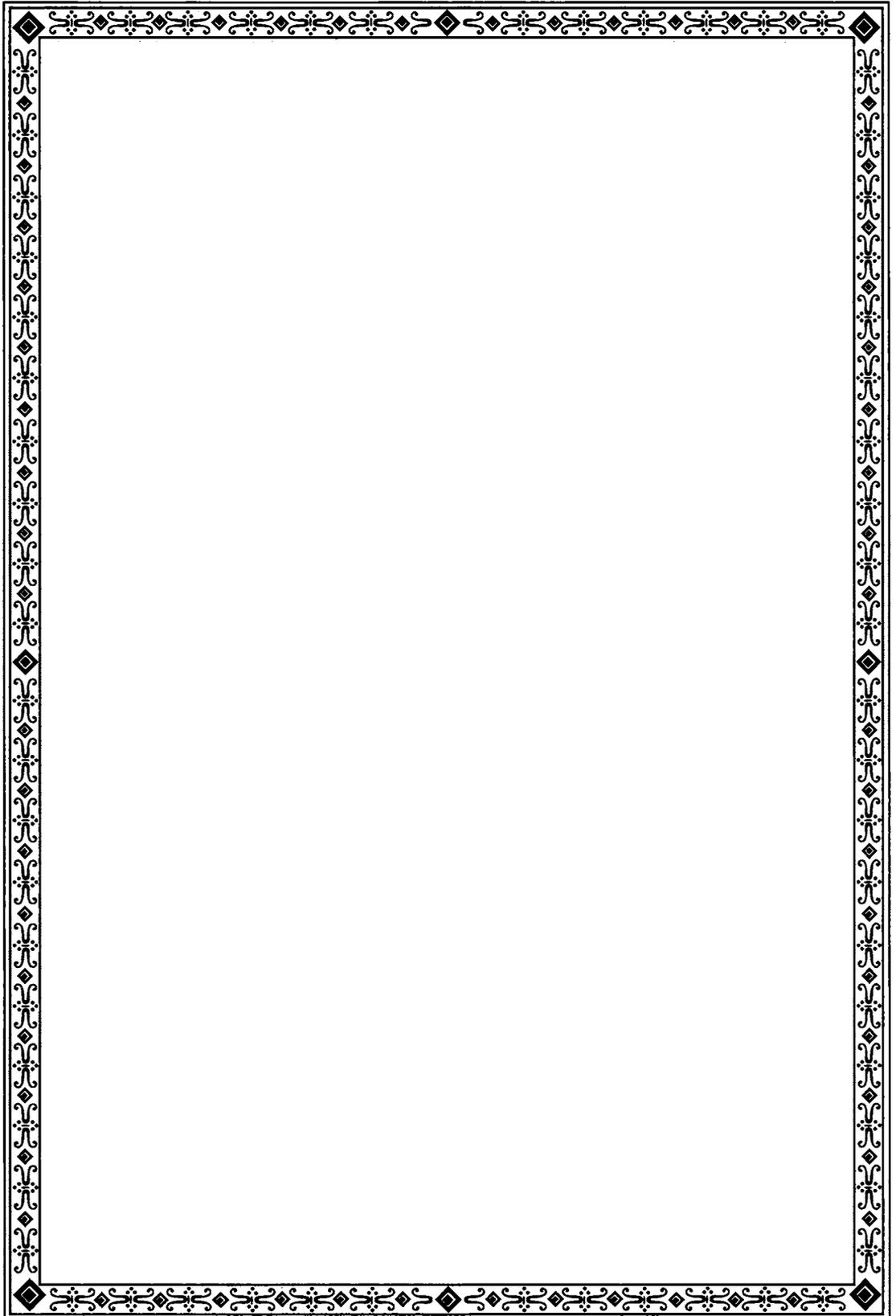
(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وأخرجه البخاري مختصراً في التوحيد ٧٤١٣.

الفوائد والأحكام:

- ١- أن مآل الأبرار إلى النعيم في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.
- ٢- أن مآل الفجار إلى الجحيم والعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي
جَحِيمٍ﴾.
- ٣- إصلاء الفجار بالنار وغمرهم فيها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ
الَّذِينَ﴾.
- ٤- خلود الفجار والكفار في النار، وعدم خروجهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا
بِعَائِينَ﴾.
- ٥- عظم يوم القيامة وشدة أهواله، وتأکید ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّتِي ﴿١٨﴾﴾.
- ٦- يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئاً، لا نصراً ولا دفعاً، ولا منعاً ولا نفعاً؛
لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.
- ٧- ظهور انفراده عز وجل بالملك والأمر تمام الظهور يوم القيامة؛ لقوله تعالى:
﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المطففين»؛ لأن الله توعدهم في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ [الآيات: ١-٥].

وتسمى: «سورة ويل للمطففين»، و«سورة التطفيف».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقال بعضهم: مكية، وقيل بعضها مدني، وبعضها مكّي.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعيد المطففين الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون حقهم وإذا كالأوا لغيرهم نقصوهم حقهم، وتهديدهم بيوم القيامة العظيم: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢- بيان وتأکید أن الفجار في سجين؛ لتكذيبهم بيوم الدين، وبآيات الله، ووعيدهم باصطلاء الجحيم وتفريعهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ يَكُونُوا وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَتِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ أَنِ ابْنُوا قَالِ اسْطِرْجِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٣- بيان أن مال الأبرار إلى عليين يتمتعون فيها بألوان النعيم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْحُورٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مِنْ مَسْكٍ ﴿٢٦﴾ فَلَئِنَّ أَفْسِسَ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرَاجِمُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤- ذكر ما كان من المجرمين والكفار في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء والتندر بهم، ووصفهم بالضلال. والوعيد لهم بمجازاتهم يوم القيامة بمثل

فعلهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا
 أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ
 حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ .

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك» (١).
ولهذا روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنه سئل من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلاً؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾» (٢).

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رجل: «يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» (٣).

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وخسار وهلاك.
و﴿المطففين﴾: جمع مطفف، والتطفيف: البخس والنقص في المكيال والميزان، ولهذا فسره بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: إذا اكتالوا لأنفسهم وتقاضوا من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: يأخذون حقهم تاماً وافيّاً.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾، أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم.
﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: يبخسون الكيل والوزن وينقصونه ويعطون الناس حقهم ناقصاً، فجمعوا بين الشح في طلب حقهم كاملاً بلا مسامحة، والبخل بمنع ما يجب عليهم من

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات- التوفي في الكيل والوزن ٢٢٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٤٠٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ١٨٥ - ١٨٦.

إتمام الكيل والوزن لغيرهم.

وهذا الوعيد والتهديد يوجب على الإنسان العدل فيما له وما عليه في الكيل والوزن وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وِزْنًا بِالْقِسْطِ السُّبْحَانَ لِلَّهِ حَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

وذكر الله عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال لهم: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بَخِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٨٤) وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

وإنما توعد الله عز وجل المطففين بهذا الوعيد الشديد لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، ولا بد من أدائها إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بأعمال مثل الجبال، ثم يأتي وقد شتم هذا، ولطم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرح عليه، ثم طرح في النار» (١).

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحسي، فيأخذون حقهم وأفياء، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، فإن بخص الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم، وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

فالحذر الحذر من بخص حقوق الآخرين حسية كانت أو معنوية من الوالدين والأولاد والأزواج والإخوة وغيرهم من الأقارب والجيران وسائر الناس.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

فكم من زوج يقصّر في حق زوجته ويطالبه بحقه كاملاً، وكم من قريب يبخس حق قريبه ويطالبه بحقه كاملاً، وقد أحسن القائل:

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ مهذب في الدنيا ولست المهذبا^(١)

وكم من إنسان يدعي الدين والتقوى والزهد والورع، ويهمهم بالتوبة ويوجه الناس ويدعوهم لكنه لا ينصف من نفسه، ولا يقول الحق عليها، بل ولا يقبله، يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، يكيل بمكيالين، ينتقد الآخرين ولا يقبل أن ينتقد، بل لا يقبل أن يُنصح.

ولا شك أن هذا ونحوه يدل على مرض القلب وفساده، فإن المسلم الحق من أنصف من نفسه، وقال الحق وقبله له وعليه وشغلته عيوبه عن عيوب غيره، واعترف بضعفه، واتهم نفسه بالتقصير، وقبل النصح، بل وشكر عليه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُؤًا قَوْمِينَ بِالْأَقْسَطِ لِرَبِّهِمْ لَوْ عَسَّيَ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعِدَلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُؤًا قَوْمِينَ لِرَبِّهِمْ شَهَادَةً بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعِدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فما أصعب الإنصاف من النفس، وما أشده على النفوس، فكم من إنسان يستطيع قيام الليل، وصيام النهار، والقيام بكثير من الطاعات وأعمال البر لكنه يقف دون مرتبة الإنصاف من نفسه، وإن ادعى ذلك، فهو كما قيل:

وكل يدعي وصلاً بليلي وليلى لا تقر لهم بذاكا^(٢)

عن المعرور بن سويد رضي الله عنه قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ:

(١) البيت لابن الرومي. انظر: «الخصائص الواضحة» ص ٥٤٦، «زهر الأكم» ١/ ٣٠١.

(٢) البيت ينسب لمجنون ليل. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

«يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم حولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(١).

وفي هذا أروع الأمثلة في الإنصاف فرضي الله عنك يا أبا ذر.

وقد أعجبني موقف لأحد الإخوة رحمه الله جاء يخطب لأحد أبنائه ابنة خال له رحمه الله فقال له خاله يا أبا محمد هل تشير بولدك، يعني هل تنصحنى أن أزوجه ابنتي فقال له رحمه الله تعالى: لا والله يا خال ما أشير به، يعني لا أنصحك بتزويجه، وكان رحمه الله لاحظ على ابنه أمراً لا يُؤثر على ترويجه. اللهم اغفر له وارحمه جاء يخطب لولده وأشار على والد البنت ألا يزوجه لما استشاره، ما أصعب هذا وأشدّه على النفوس. اللهم وفقنا للإنصاف من أنفسنا وقول الحق، وقوله وإن كان علينا.

﴿أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيَاكَ﴾ «ألا» الهمزة: للاستفهام الإنكاري، و«لا»: نافية، أي: ألا يتيقن أولئك المطففون، والظن يأتي في القرآن كثيراً بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون ذلك.

﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾، أي: أنهم مخرجون من قبورهم أحياء بعد موتهم.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: ليوم القيامة الذي فيه يحاسبون ويجازون على أعمالهم وهو يوم عظيم، ثقيل عسير عبوس قمطير شره مستطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② [الحج: ١، ٢].

ولهذا نكر «يوم»، ووصفه بأنه عظيم، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: يوم يقوم الناس من قبورهم ويقفون بين يدي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ③

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٠، ومسلم في الأيمان ١٦٦١، وأبو داود في الأدب ٥١٥٧.

[الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُنْفَخِ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١].

ومن هنا سمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: خاف القيام بين يديه عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ولقيام الحساب والجزاء فيه والعدل الحقيقي كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقيام الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١].
ولقيام الروح فيه والملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»^(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم - أحد رواة الحديث - ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجمامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل: يكبر عشرًا،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ الْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿٤٩٣٨﴾، ومسلم في الجنة - صفة القيامة ٢٨٦٢، والترمذي في القيامة ٢٤٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٨، وأحمد ١٣/٢، ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢١، وأحمد ٦/٣-٤. وأخرجه أحمد ٥/٢٥٤ بنحوه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ٤/١٥٧.

ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»^(١).

ولهذا خوف الله عز وجل المطففين بهذا اليوم العظيم؛ لأن الإيمان به وبما فيه من الأهوال والحساب والثواب والعقاب من أعظم ما يحمل على العمل وقد روي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في المعاصي والشرور.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للمطففين الذين يأخذون حقهم وافيًا من الناس ويبخسون حقوق الناس، والإنكار عليهم، وتذكيرهم بالبعث والمعاد والقيام بين يدي الله في ذلك اليوم العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ يَوْمَ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

٢- وجوب الإيمان بالبعث والمعاد والقيام بين يدي رب العباد يوم القيامة وأن ذلك من أعظم الأسباب التي تحمل على تقوى الله ومراقبته وأداء الحقوق، ولهذا خوف الله المطففين بهذا اليوم العظيم.

٣- وجوب مراقبة الله عز وجل وإيفاء الكيل والوزن، والعدل في التعامل مع الخلق.
٤- لا يجوز أن يكيل الإنسان بمكيالين يأخذ حقه من الناس وافيًا ويتنقص حقوق الناس، ويجب الإنصاف من النفس وإعطاء كل ذي حق حقه مادياً كان أو معنوياً.

٥- عظمة يوم القيامة وشدة أهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ عَظِيمٍ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٧٦٦، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦١٧.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلْوَمُونَهُمُ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ أَيَّامَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ابْتِئَاءَ قَالَ أَسْطُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعَالِ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع، وفي الموضعين بعده: للردع والزجر والوعيد والتهديد.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ «كتاب» بمعنى مكتوب، و«الفجار» جمع فاجر، وهم الكفرة أصحاب الفجور المكذبون بالبعث.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾، اللام: للتوكيد و«سجين» مأخوذ من السَّجَن وهو الحبس والتضييق، أي: إن مصيرهم ومأواهم إلى مكان ضيق ضنك مظلم موحش، في أسفل النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّفْظَيْنِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في قبض روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»^(١).
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما سجين؛ سفوله شديد، وضيقه عظيم، وسجنه مقيم، وعذابه أليم.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ توكيد لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى سجين.

ومعنى ﴿مَّرْقُومٌ﴾، أي: مكتوب مختوم مفروغ منه لا يغير ولا يبدل ولا يزداد فيه ولا ينقص منه، وذلك أن هذا من الكتابة والقضاء الكوني الذي لا بد أن يقع قطعاً.

﴿وَيَلْوَمُونَهُمُ الْكَاذِبِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وهلاك ودمار وخسار

(١) أخرجه أبو داود في السنة - المسألة في القبر ٤٦٥٣، وأحمد ٤/٢٨٧، والحاكم ١/٣٧ - وقال «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

والمعنى: ما أشد عذاب المكذبين في ذلك اليوم، ويقال أيضاً: إنه واد في جهنم.
عن معاوية بن حيدة عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب؛ ليضحك الناس، ويل له، ويل له»^(١).

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾: تفسير وبيان ﴿لِلْمُكْذِبِينَ﴾، أي: الذين يكذبون بيوم القيامة الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، ويعتقدون استحالة وقوعه، ولا يصدقون به.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ﴾، أي: وما يكذب بيوم الدين وينكر وقوعه.

﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ «إلا»: للحصر، أي: إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى

الحرام في أقواله وأفعاله ﴿أثيم﴾ كثير الإثم، أي: كثير الذنوب.

وقيل: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿أثيم﴾ في أقواله.

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ﴾، أي: إذا تقرأ عليه ﴿آيَاتُنَا﴾، أي: آياتنا الشرعية، القرآن الكريم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال عن آيات الله إذا سمعها هذه ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ «الأساطير» جمع

أسطورة، أي: خرافاتهم وحكاياتهم التي تذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، أي: هذا مجموع مما سطره الأولون في كتبهم من أخبار وخرافات وغير ذلك، كما قال تعالى

عنهم: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٥﴾

[الفرقان: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا

إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا

أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [النحل: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وءِآبَاؤُنَا

أَيُّنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا لَحْنٌ وءِآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

وهكذا كل من لم يصل نور الإيمان إلى قلبه.

﴿كَلَّا﴾، أي: كلا، ليس الأمر كما زعموا: أن لا بعث ولا حساب، ولا كما ادعوا

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/٥-٦، ٧.

أن القرآن أساطير الأولين، فالبعث حق وصدق، والقرآن كلام رب العالمين سبحانه وتعالى.

﴿بَلَّ﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: غلب عليها، وغشيتها وغطاها، وحجبها وأعمها عن الحق. والرين: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانتقياد له.

﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: كسبهم، أو الذي كانوا يكسبون من الذنوب المتراكم بعضها على بعض، أي: حال بين قلوبهم وبين معرفة الحق والاهتداء إليه ما عملوه من الذنوب والمعاصي المتراكمة فصارت هذه الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وبينهم وبين ربهم وخالقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰئِكَ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، حتى تعلق قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في قوله: ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٠﴾﴾» (١).

فالمعصية سبب للمعصية بعدها، والمعاصي سبب لانطاس القلوب، وعمى البصائر وحيرتها؛ ولهذا تجدد كثيراً من الناس، بل كثيراً من المسلمين يتخبطون في كثير من أمورهم وأحوالهم، ولا يوفقون فيها للحق والصواب بسبب الذنوب والمعاصي. وما تعيشه الأمة اليوم من أحداث وتفرق وخلافات أدت إلى اختلاف القلوب كل ذلك سببه الذنوب والمعاصي وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المطففين ٣٣٣٤، وابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٤، وأحمد ٢/٢٩٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٠٠، وقال الترمذي «حديث صحيح».

فلا طريق لمعرفة الحق والاهتداء إليه والخروج من الحيرة والتذبذب أمام كل القضايا والمشكلات، إلا بالرجوع إلى الله عز وجل وسؤاله الرشد والهداية، كما قال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر، في أمور الدين والدنيا، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، وإن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١).

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة^(٢).

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٣).

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا»^(٤).

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ﴾، أي: عن رؤية ربهم في الآخرة.

﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾، أي: لمنوعون عقوبة لهم.

ومفهوم هذا أن المؤمنين يرون ربهم في ذلك اليوم، وأنهم يتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، لأن رؤيتهم له عز وجل أعظم نعيمهم وأعلاه. ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقاءك في

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣١٩، وأحمد ٣٨٨/٥ - من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غير ضراء مضره ولا فتنة مضلة» (١).

وقد قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَأُحْسِنَنَّ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسر عليه السلام الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم (٢).

وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّومِذِرُ نَارَ رَبِّهَا نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعلى هذا دلت السنة وأجمع الصحابة والأئمة. قال عليه السلام: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحب» (٣).

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته» (٤).

﴿ثُمَّ إِنَّمَا لَصَلُّوا الْجَحِيمَ﴾، أي: لداخلوها ومغمورون فيها ومقاسون حرها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾، أي: ثم يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتبكيث والتحقير والتصغير:

﴿هَذَا﴾، أي: حرمانكم من رؤية الرب الغفار، وإصلاؤكم الجحيم والنار.

﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذَّبُونَ﴾ فتقولون: لا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا

عقاب.

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على القلوب، والذي لا يقل عن العذاب الحسي.

الفوائد والأحكام:

١- أن كتاب الفجار ومصيرهم ومأواهم في مكان ضيق ضنك في أسفل النار في

الأرض السفلى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾.

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٠٥ - من حديث عمار بن ياسر - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد - قوله: ﴿وَجُوهٌ يُّومِذِرُ نَارَ رَبِّهَا نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٧٤٤٠، ومسلم في الإيمان ١٨٢، ١٨٣، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

- ٢- تأكيد شدة سوء هذا المكان سفولاً وضيقاً وظلمة ووحشة، وتحتّم مصير الفجار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آذْرَبَكَ مَا يَحْسَبُونَ أَنَّهُ مُبْعَثٌ قَوْمٌ﴾.
- ٣- الوعيد والتهديد للمكذّبين بالحق وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُؤْمِنَنَّ لِلْمُكذِّبِينَ﴾.
- ٤- إثبات البعث وأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل والحلال، إلى الحرام كثير الإثم والذنوب، مكذب للقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وما يكذبُ به إلا كل مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾ إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتِنَا قَالَ أَسْطِرُّهُ أَأُولِيْنَ﴾.
- ٥- ذم الفجار والمكذّبين، وبيان أن الذنوب والمعاصي تغشى القلوب وتعميها عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
- ٦- حرمان الفجار من رؤية ربهم عز وجل في الآخرة، وحجبهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾.
- ٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.
- ٨- إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لقوله في الفجار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ ومفهوم هذا أن المؤمنين يرونه. وعلى هذا دل الكتاب والسنة، وعليه أجمع الصحابة وسلف هذه الأمة.
- ٩- إدخال الفجار الجحيم وإصلاؤهم وغمرهم فيها وإحاطتها بهم من كل جهة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.
- ١٠- الجمع للفجار بين العذاب الحسي في الجحيم، والعذاب المعنوي المنصب على القلوب من التقرّيع والتوبيخ والتبكيّت والتحقير؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ثم يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكذِبُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلْتُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ الْجَهَنَّمَ مِنْ
تَسْنِينٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة مآل الفجار المكذبين بالبعث والحساب، وتوعدهم بالويل والهلاك والدمار، والحرمان من رؤية الجبار، وإصلائهم بالجحيم والنار ثم أتبع ذلك بذكر مآل الأبرار وما أعد الله لهم في أعالي الجنان من النعيم. على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ﴾ هذا مقابل قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، و«كلا»: حقًا.
«كِتَابٌ» أي: مكتوب.

و﴿الْأَبْرَارِ﴾: جمع بر، وهم المؤمنون المتبعون لأوامر الله والمجتنبون لنواهيه كثير والخير والإحسان وضدهم الكفار الفجار.

﴿لَفِي عَلْتَيْنِ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿عَلْتَيْنِ﴾: مأخوذ من العلو والارتفاع، أي: إن مصيرهم ومآلهم في مكان عال مرتفع، وهو أعلى الجنة في السماء السابعة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلْتُونَ﴾: تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما عليون منزل رفيع ومكان وسيع، ومجلس كريم، فيه ألوان النعيم.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾: توكيد لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنِ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى عليين.

﴿مَرْقُومٌ﴾، أي: مكتوب، لا يتغير ولا يتبدل ولا يزداد فيه ولا ينقص منه.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: يحضره المقربون عند الله عز وجل من الملائكة والنبين وسادات المؤمنين تنويًا بهذا الكتاب وإشهارًا له، وتعظيمًا لشأن الأبرار وإشادة بذكرهم.

«والمقربون»: جمع «مقرب»، وهم الذين تقربوا إلى الله عز وجل بالإيمان والأعمال

الصالحة، فقربهم إليه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَابْتَغُوا إِلَيْهِ

الْوَسِيلَةَ ﴿ المائدة: ٣٥ ﴾، أي: اطلبوا إليه القربة والزلفى عنده.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ هذا بيان لما كتب لهم في عليين.

و«النعيم» كل ما تتنعم وتسره به القلوب وكل ما تلتذ به وترتاح له النفوس، من المآكل والمشارب والأزواج والمسكن والبساتين وغير ذلك من ألوان النعيم المعنوي نعيم القلب والنعيم الحسي نعيم البدن.

﴿عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ﴾ هذا إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ تفصيل للنعيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

و«الأرائك» جمع أريكة، وهي السرر المزينة المزخرفة الرفيعة عليها الفرش الناعمة الحسنة البهية، وضع عليها مثل الظل.

﴿ينظرون﴾، أي: ينظرون إلى ما أعطاهم الله من النعيم والملك الكبير، والذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكة مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أذناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين»^(١).

وهذا في مقابل ما أعده الله للفجار من العذاب الأليم، والحرمان من رؤية الرب الرحيم.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء: «تَعْرِفُ» ورفع «نضرة».

وقرأ الباقر بفتح التاء وكسر الراء: «تَعْرِفُ»، ونصب «نضرة».

أي: تعرف وترى في وجوههم إذا نظرت إليها نضارة التنعم وحسنه وبهاءه وبريقه، وبهجة الفرح والسرور لأن أثر ذلك يبدو واضحاً على الوجوه.

وفي الحديث: «أنه ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر»^(٢).

(١) أخرجه أحمد ١٣/٢، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢ - من حديث =

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾، أي: يسقون من شراب الرحيق، وهو الخمر، الذي يطوف به عليهم الولدان المخلدون كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧-١٩].

﴿مَخْتُومٍ﴾، أي: مختوم عليه عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾ قرأ الكسائي: «خاتمته»، وقرأ الباقون: ﴿خِتْمُهُ﴾، أي: آخر شربة منه، براءة المسك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيا مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيا مؤمن أطمع مؤمناً على جوع، أطمعه الله من ثمار الجنة، وأيا مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة»^(١).

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصفات: ٦١].

قوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما أعده الله عز وجل للأبرار من ألوان النعيم السابقة وغيرها.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ التنافس والمنافسة: المسابقة يقال نافسته، أي: سابقته سابقاً بلغ بي النفس.

أي: وفي الحصول على هذا النعيم والعيش الكريم والخير العميم فليتسابق المتسابقون بأعمال البر من فعل الطاعات والقربات والخيرات والأعمال الصالحات والبعد عن المنهيات.

﴿وَمَزَاجُهُ﴾، أي: ما يمزج به ويخلط هذا الرحيق الذي يسقى منه الأبرار.

﴿مِن تَسْنِيرٍ﴾، أي: من شراب من عين تسمى: ﴿تَسْنِيرٍ﴾، تنبع من الفردوس في أعلى الجنة، وهو أفضل شراب أهل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سألت الله فسلوه الفردوس،

كعب بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه أحمد ٣/١٣ - ١٤.

فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»^(١).
ولهذا فسر ذلك بقوله:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: هذا التسنيم. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ «عينا»
مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني، أو أمدح، أو يسقون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفاً وتمزج لأصحاب
اليمين مزجاً»^(٢).

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون منها ويرتوون، ولهذا قال ﴿بِهَا﴾ ولم يقل
«منها» فضمن «يشرب» معنى «يروى» فعدي بالباء، كما في قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نسيج^(٣)

و﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾: جمع مقرب، وهم المقربون عند الله عز وجل وهم السابقون
المذكورون في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾^(١٠) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١١) [الواقعة: ١٠، ١١].

وهم السابقون بالخيرات كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمعنى: أن هذه العين المسماة «تسنيم»، والتي نبعها وشرابها أفضل وأعلى شراب
أهل الجنة يشرب منها صرفاً بلا خلط المقربون ويرتوون منها بينما تمزج مزجاً للأبرار
وهم أصحاب اليمين بالرحيق، كما في قوله هنا ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾^(٢٥) ﴿خِتَمُهُ،
مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٢٦) ﴿وَمِرْآةً مِنْ تَسْنِيمٍ﴾^(٢٧) [المطففين: ٢٥-٢٧].

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا﴾^(٥)؛ فهذا خليط من الخمر والكافور للأبرار، ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٦) [الآيتان: ٥، ٦]، أي: عين الكافور يشرب منها المقربون خالصة صرفاً،

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- كان عرش الرحمن على الماء ٧٤٢٣.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ١٢/٦.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ٥١/١، ٥٢.

بلا مزج ويرتوون.

والجزء من جنس العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بغيرها مزج لهم شرابهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.
- ٢- أن كتاب الأبرار ومصيرهم ومأواهم إلى عليين؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.
- ٣- تعظيم منزلة الأبرار وعلو مكانتهم في الجنة وتأکید ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٩) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (٢٠).
- ٤- تشریف الأبرار وتكريمهم بشهود المقربين كتابهم المرقوم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (٢٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١).
- ٥- عظم ما أعده الله للأبرار من النعيم، فهم على الأسرة ينظرون إلى ما أعد لهم من الملك العظيم، مع بهجة القلوب ونضارة الوجوه، شرابهم الرحيق المختوم بالمسك المزوج بالتسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٥) ﴿خِتَمُهُ مِسْكَ﴾ (٢٦)، وقوله: ﴿وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧).
- ٦- أن هذا النعيم العظيم الذي أعده الله للأبرار هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون ويتسابق إليه المتسابقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.
- ٧- أن المقربين يشربون صرفاً من عين التسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨).
- ٨- أن الجزاء على قدر الإيوان والعمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل مآل الفجار، وما أعد لهم من أنواع العذاب، وذكر مآل الأبرار وما أعدده لهم من ألوان النعيم، ذكر ما كان يلقاه المؤمنون من المجرمين الفجار في الدنيا من الضحك والاستهزاء بهم ورميهم بالضلال فجعل الله العاقبة للمتقين وجوزي الكفار بما كانوا يفعلون.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، أي: الذين ارتكبوا الجرائم والموبقات.

﴿كَانُوا﴾، أي: في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون من المؤمنين استهزاء وسخرية بهم بسبب إيمانهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾، أي: إذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين يغمز بعضهم بعضاً بالإشارة باليد، أو بالعين أو بغير ذلك تنقصاً للمؤمنين واحتقاراً لهم وسخرية منهم.

ويجتمل أن المعنى: وإذا مر الذين آمنوا بهؤلاء المجرمين ﴿يَتَغَامَرُونَ﴾، أي: يغمز المجرمون بعضهم بعضاً.

والمعنى متقارب، وهو أن هؤلاء المجرمين إذا رأوا المؤمنين يتغامزون احتقاراً لهم وسخرية منهم.

وقريب من هذا قول المنافقين في غزوة تبوك فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيره: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء- يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ^١ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَآيِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْدِرُوا فَدْ كَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ^٢ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعِدْ بَطَآئِفَةٍ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]»^(١).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/٥٤٣.

﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾، أي: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من أزواج وأولاد وغيرهم.

﴿أَنْقَلَبُوا فَكَيْهِنَ﴾ قرأ أبو جعفر وحفص: ﴿فَكَيْهِنَ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: «فاكهيـن» بالألف.

أي: رجعوا حال كونهم متفكهيـن متلذذين بتنقصهم للمؤمنين واحتقارهم لهم، واستهزائهم بهم وسخريتهم منهم، ومن هنا قيل للغيبة: فاكهة المجالس.

ومتفكهيـن بنعم الله عليهم التي لا تحصى، لكنهم لم يشكروها، بل كفروها واشتغلوا بالاستهزاء بالمؤمنين واحتقارهم، فجمعوا بين الكفر بالله وبنعمه وأذية عباده المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾، أي: وإذا رأى هؤلاء المجرمون الذين آمنوا قالوا: إن هؤلاء القوم.

﴿لَضَالُّونَ﴾، أي: لتائهون عن الحق والصواب، وليسوا على هدى.

وهذا دأب المكذبين في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وإذا كان هذا يقال للرسول - صلوات الله وسلامه عليهم - فمن دونهم سيرمى بالضلال ونحو ذلك من باب أولى. فانتبه أخي المسلم لهذا، ولا يفت في عضدك ما دمت على الحق.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾، أي: وما بعث هؤلاء المجرمون على المؤمنين

﴿حافظين﴾ يرقبونهم ويحفظون أعمالهم ويحسونها ويحكمون عليهم، فلم اشتغلوا بهم

وأهملوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿قَالَ أَحْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [١٠٨] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي

يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٠٩] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي

وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [١١٠] إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١].

ولهذا فإن من ضعف العقل وانطماس البصيرة انشغال المرء بعيوب غيره عن

عيوب نفسه، أن يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، وكما قيل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى

ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

وقد استفحل هذا الأمر حتى أصبح كثير من الناس يفرط فيما يعنيه وما يجب عليه من العمل في إصلاح نفسه وأهله وأقاربه وجيرانه وما يقدر عليه، وما سيسأل عنه غداً، وينشغل بما لا يعنيه من الكلام في الآخرين ونقدهم وذمهم، ممن لا يطلب منه إلا الدعاء لهم- وأسأل وسائل الاتصال عما يدور فيها- وهذا من أعظم المصائب، وأشدّ البليات وأكبرها، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن (١)

﴿قَالِيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الجزء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان فكما ضحك المجرمون والكفار من المؤمنين في الدنيا فإن المؤمنين يضحكون منهم يوم القيامة جزاء وفاقاً.

﴿عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ﴾ الأرائك: جمع أريكة، أي: على الأسرة والفرش الحسنة الناعمة ينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم. وأيضاً ينظرون إلى هؤلاء المجرمين وهم في النار يعذبون.

فتبين بهذا أن الذين آمنوا هم المهتدون حقاً، لا الضالون، كما زعم المجرمون.

﴿هَلْ تُؤَبَّ الْكُفَّارُ﴾ «هل»: للاستفهام التقريري، أي: هل جوزي الكفار.

﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يفعلون، أو فعلهم.

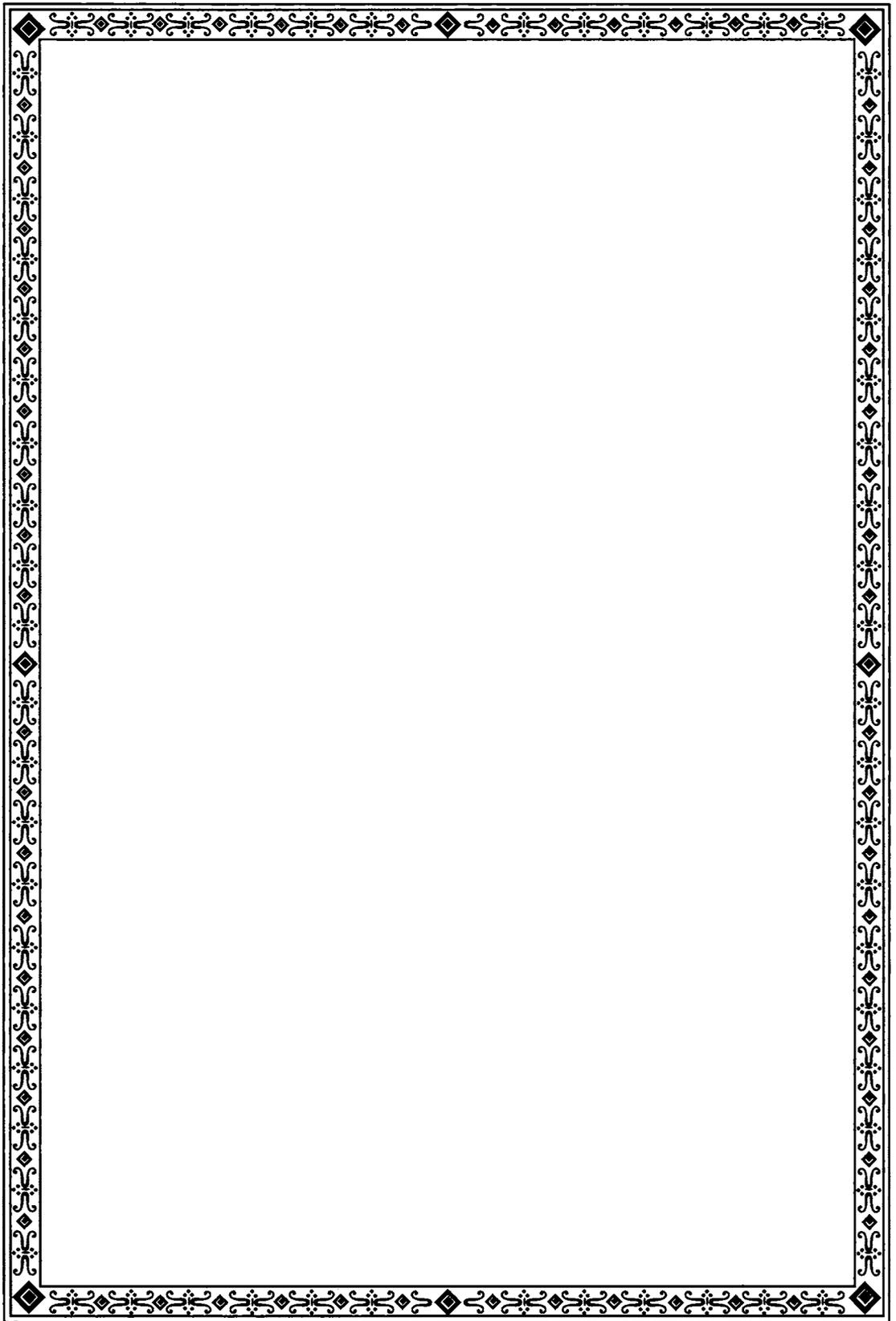
والجواب: نعم جوزي الكفار على فعلهم أوفر الجزاء وأتمه وأكمله حتى إنه قوبل ضحكهم من المؤمنين في الدنيا بضحك المؤمنين منهم في الآخرة، والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

(١) انظر: «نفع الأزهار» ص ٦٠.

الفوائد والأحكام:

- ١- شدة عداوة الكفار والمجرمين وأذيتهم للمؤمنين وضحكهم منهم في الدنيا واستهزاؤهم بهم، وتنقصهم واحتقارهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.
- ٢- تفكه هؤلاء المجرمين عند رجوعهم إلى أهلهم باستهزائهم بالمؤمنين وباحتقارهم لهم، وتفكههم بنعم الله عز وجل وكفرهم به وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.
- ٣- وجوب الحذر من الاستهزاء أو السخرية بأحد من المؤمنين، أو بشيء من الدين أو كفر النعم فهذا دأب الكفار والمجرمين والمنافقين.
- ٤- جرأة المجرمين والكفرة والمنافقين على رمي المؤمنين بالضلال، واتهامهم لهم بأشد الاتهامات تنفيراً للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾﴾.
- ٥- الرد على المجرمين في حكمهم على المؤمنين بالضلال، وانشغالهم بهم، وبما لا يعينهم عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.
- ٦- الحذر من انشغال المرء عما يعنيه بما لا يعنيه، وعن عيوب نفسه بعيوب الآخرين، كما هو حال كثير من الناس.
- ٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فكما ضحك المجرمون من المؤمنين في الدنيا، وتفكهوا في ذلك، ضحك منهم المؤمنون في الآخرة وهم على الأسرة ينظرون إلى ما هم فيه من النعيم، وإلى أولئك المجرمين يعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.
- ٨- مجازاة الكفار بفعلهم، عدلاً منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ الْاِنْشِقَاقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانشقاق»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
أَنْشَقَّتْ﴾ (١).

وتسمى: «سورة إذا السماء انشقت»، و«سورة انشقت» اختصارًا.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

سبق في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر
إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: «إذا الشمس كورت»، و«إذا السماء انفطرت»،
و«إذا السماء انشقت» (١).

د- موضوعاتها:

١- ذكر علامات القيامة وأهوالها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ
مَدَّتْ (٣) وَالْقَتَمَ مَا فِيهَا وَنَحَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾.

٢- إثبات القيامة ولقاء اله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)﴾

٣- ذكر انقسام الناس إلى فريقين فريق يعطى كتابه بيمينه، ويحاسب حسابًا يسيرًا،
وفريق يعطى كتابه من وراء ظهره، يدعو ثورًا ويصلي سعيًا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ،
بِئْسَ مَا يَمِينُهُ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠)
فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصَلِّي سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ
بِهِ بَصِيرًا (١٥)﴾.

٤- تقلب أحوال الناس وانتقالهم من حال إلى حال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْأَشْفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا

وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾.

(١) سبق تخريجه.

٥- الإنكار على المكذبين والكفار عدم إيمانهم، وتكذيبهم وكفرهم وتهديدهم
 ووعدهم بعذاب أليم، ووعد المؤمنون بالأجر العظيم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
 عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
 وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ
 بِعَمَلِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنُقَلِّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
 ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾
 بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا
 فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾﴾.
 قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾
 [الرحمن: ٣٧].

أي: إذا السماء انفطرت وتصدعت وانفتحت وانفجرت وذلك يوم القيامة.
 كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ
 فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [النبا: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿١﴾﴾ [المسرات: ٩]، وقال
 تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْعَنَمِ ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي: استمعت لربها - خالقها ومالكها والمتصرف فيها.
 ومنه الحديث: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن»^(١)، أي: ما استمع الله
 لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.
 ومنه قول الشاعر^(٢):

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة
 ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
 (٢) نسب هذا البيت إلى قنعب بن أم صاحب. انظر «الحماسة» لأبي تمام ١٧٠ / ٢، و«عيون الأخبار» لابن
 قتيبة ٨٤ / ٣، و«لسان العرب» مادة «أذن».

أي: سمعوا.

فالمنعنى: استمعت لربها وأطاعت أمره لها بالانشقاق، كما أطاعته في ابتداء خلقه لها
قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾
[فصلت: ١١].

﴿وَحَقَّتْ﴾، أي: وحق لها، ووجب عليها أن تسمع وتطيع لأمره، لأن هذا من أمره
الكوني وهو نافذ لا محالة، لأنه عز وجل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال
تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، أي: ذك ما عليها من جبال وبناء وغير ذلك ووسعت، ومدت
كما يمد الأديم وبسطت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، أي: وألقت ما في باطنها من الأموات وتخلت عنهم، وذلك بعد
النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾
[يس: ٥١].

وأيضاً ألقَتْ ما فيها من الكنوز وتخلت عن ذلك كما جاء في حديث أبي هريرة رضي
الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب
والفضة فيجيء القاتل، فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي،
ويجيء السارق، فيقول في هذا قطعت يدي. ثم يدعونهم فلا يأخذون منه شيئاً»^(١).

﴿وَأَذَنْتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾: توكيد لاستماعها لربها وطاعتها له.

وجواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وما بعده محذوف، وهو مفهوم من
السياق وتقديره: حوسب الإنسان وجوزي ورأى ما قدم من خير أو شر.
وعلى هذا يدل قوله بعده ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا مَّا مَلَاقِيهِ﴾ الآيات.
﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾: نداء وخطاب للإنسان جنس الإنسان، من مؤمن، وكافر.

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الكدح: السعي والعمل.

قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح^(١)

ومعنى الآية: إنك عامل وساع إلى ربك، أي: حتى تصل إلى ربك وتنتهي إليه.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا

إِيَابَهُمْ﴾ [٥٥] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿كدحاً﴾: مصدر مؤكد، أي: عملاً وسعيًا حثيثًا بجد ومشقة، إما خيرًا، وإما

شرًا، وشتان بين الكادحين.

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٢).

قال لبيد^(٣):

وما الناس إلا عاملان فعامل يُتبر ما بيني وآخر رافع

﴿فمَلْفَيْهِ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي فملاق ربك عن قريب وسيجازيك بما

عملت قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وكل أت قريب.

والعمر مهما طال في هذه الحياة فهو قصير، قال تعالى: ﴿قَلِيلٌ مَّا لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ

سِنِينَ﴾ [١١٣] قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣].

والحياة البرزخية مهما طالت أسرع وأقرب من ذلك؛ ولهذا قال الذي أماته الله مائة

عام ثم بعثه: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال أصحاب الكهف: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا

أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وقد لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

فما أسرع ملاقاته الإنسان لربه، وما أقرب ذلك.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما

(١) البيت لابن مقبل. انظر: «ديوانه» ص ٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣ - من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٥٦.

شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»^(١).
وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»^(٢).

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ (١١) وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٤) بَلَىٰ إِنْ رُبُّهُ كَانَتْ يَدُهُ بِصِيرًا﴾ (١٥).

بعد ما بين عز وجل أن كل إنسان كادح في هذه الحياة، وساع إلى ربه، فملاقيه فيجازيه بعمله ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وتفصيل حال كل منهما في ذلك اليوم.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من»: اسم شرط جازم، أي: فأما من أعطي كتاب عمله بيده اليمنى تكرمًا له، وهو المؤمن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

أي: فسوف يحاسب حسابًا سهلًا خفيفًا، أي: عرضًا بلا مناقشة كما جاء في عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣٧٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة - الصدقة قبل الرد ١٤١٣، ومسلم في الزكاة - الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، ٤/٢٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٤٩٣٩، ومسلم في كتاب الجنة - إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في تفسير سورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٢٤٢٦، وأحمد ٤٧/٦.

وعنها رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلواته: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا» فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه»^(٢)، ويقرره بذنوبه فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول أي ربي. فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»^(٣).

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾، أي: ويرجع من موقف الحساب إلى أهله في الجنة من الحور العين، ومن من الله عليهم من أهله في الدنيا بدخول الجنة من الأزواج والأولاد والوالدين وغيرهم بعد الفراق بينهم في الدنيا.

﴿مَسْرُورًا﴾، أي: قد سر، واستنار وجهه وظهرت عليه آثار سرور قلبه وفرحه واغبطاه بإعطائه كتابه يمينه، وما فيه من الأجر والفضل من الله عز وجل، وبتيسير حسابه وتخفيفه، فيا حسن منقلبه ومرجعه.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، يَمِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، يَمِينُهُ، فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَوْفَىٰ كِتَابِيَّةٍ﴾^(١٩) إني ظننت أني ملئت حسبيئة^(٢٠) فهو في عيشة راضية^(٢١) في جنة عالية^(٢٢) قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ^(٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ^(٢٤) [الحاقة: ١٩-٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما من أعطي كتاب عمله.

﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾، أي: بشاله بعد أن تلوى وراء ظهره، وهو الكافر، كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وإنما أعطي كتابه بشاله إهانة له واحتقارًا وإذلالًا، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

(١) أخرجه أحمد ٤٨/٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣٧٩/٨: «صحيح على شرط مسلم»، وأخرجه

الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٢٣٦ - ٢٣٩.

(٢) أي: ستره ورحمته.

(٣) سبق تخريجه.

عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ [الأنعام: ٩٣]،
وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١٤﴾
[الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴿١٥﴾ [الحج: ١٨].

ولويت يده وراء ظهره؛ لأنه نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره، ولم يرفع به رأساً
والجزء من جنس العمل.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾، أي: فسوف ينادي بالثبور والهلاك والخسار: واثبوره
واهلاكاه واخساراه، كما قال تعالى عنه في سورة الحاقة: ﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَأَرْثُ كَنِيَّةَ ﴿٢٥﴾ وَلَوْلَا
أَذْرٌ مَاجِسِيَّةَ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ [الآيات: ٢٥-٢٧].

﴿وَيَصِلَى سَعِيرًا﴾.

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام:
﴿وَيَصِلَى﴾، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام: ﴿وَيَصِلَى﴾.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مستعرة متوقدة، وهي «فعل» بمعنى «مفعول»، أي: مسعورة.

والمعنى: ويدخل النار المستعرة ويغمر ويُقَلَّب فيها ويقاسي حرها.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾، أي: إنه كان في الدنيا في أهله؛ وزوجه وأولاده وأقاربه فرحًا
مغتبطًا بما هو عليه من الباطل، وذلك لموت قلبه، وعدم تفكيره في العواقب، وعدم
خوفه مما أمامه.

وشتان بين هذا السرور الفاني الذي يعقبه الحزن والندم الدائم، وبين السرور في
جنات النعيم؛ ولهذا قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١).

وليس في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ما يدل على حظر أن يكون المسلم في أهله
مسرورًا، أو أنه ينبغي أن يكون محزونًا، أو أن لا يسر بشيء أبدًا، بل إن المسلم هو الأولى
بالسرور والسعادة حقًا في الدنيا والآخرة.

لكن سرور الدنيا وسعادتها مشوب بالكدر، لهذا ينبغي أن لا يطمئن إليها المسلم،

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأن يكون منها على وجل.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾، أي: إنه اعتقد أنه لن يرجع إلى ربه، فهو لا يؤمن بالبعث، ولا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا.

والظن يستعمل كثيرًا في القرآن بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يعتقدون أنهم ملاقوا ربهم.

والْحُورُ: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور»^(١).
قال لييد^(٢):

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلى الله، ولن يبعث بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

﴿بَلَّغْ﴾ حرف جواب؛ لإيجاب المنفي، أي: بلى سيرجع إلى ربه، ويقف بين يديه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١٦].

﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾، أي: إن ربه عز وجل كان به بصيرًا في الدنيا، خبيرًا بأعماله، محصيًّا لها، بصيرًا به في الآخرة، سيحاسبه ويمجازه عليها، ولا يمكن أن يتركه سدى بلا تكليف ولا مجازاة.

الفوائد والأحكام:

١- انشقاق السماء يوم القيامة واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۙ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحِفَّتْ ۙ﴾.

٢- مد الأرض، وإلقاؤها ما في باطنها من الأموات والكنوز، وتخليها عن ذلك واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۙ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾.

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٣، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٩٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٨- من حديث عبد الله بن سرجس - رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٥٦.

وَنَحَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾.

٣- أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة لا محيد عنه، ولا مفر منه؛ لقوله تعالى:

﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: وحق لها ووجب عليها أن تسمع وتطيع.

٤- سعي الإنسان سعيًا حثيثًا، وكدحه حتى يلقي ربه فيجازيه بعمله خيرًا كان أو

شرًا، ولا محيد له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾.

٥- إثبات لقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمُلْقِيهِ﴾.

٦- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى سعيد، يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حسابًا

يسيرًا ويرجع إلى أهله في الجنة فرحًا مسرورًا، وإلى شقي يعطى كتابه بشماله من وراء

ظهره، يدعو على نفسه بالويل والثبور ويصلى السعير، لاغتباطه وسروره بين أهله في

الدنيا بما هو عليه من الباطل وإنكاره البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابِهِ،

يَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابَهُ، وَرَاءَ

ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾.

٧- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الله بصير بالعباد في دنياهم وأخراهم، مطلع على أعمالهم، عليم بها،

وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَّغْ إِنَّا رَبُّكَ، كَانَ يَدْعُ بِصِيرًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا كَانَ يَدْعُ

بصِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝﴾ ١٨ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾ ١٩ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾ ٢٠ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝﴾ ٢١ ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ ٢٢ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ ٢٣.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض علامات وأهوال القيامة، من انشقاق السماء، ومد الأرض، وإخراجها ما في باطنها من الأموات، وأن الإنسان ساعٍ إلى ربه فملاقيه، فأخذ كتابه بيمينه مخفف حسابه، وأخذ كتابه بشماله مثل حسابته.

ثم أتبع ذلك بالقسم في هذه الآيات على تأكيد ما سبق، وأن الإنسان سينقل من حال إلى حال حتى يصل إلى مأواه الأخير إما الجنة، أو النار.

قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ الفاء: استثنائية، و«لا»: للتنبيه وتأكيد القسم. والمعنى: أقسم بالشفق، والشفق: هو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق» (١).

وقال بعض المفسرين: المراد بالشفق النهار كله، لقوله بعده: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وقال بعضهم: المراد به الشمس؛ لقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾. والأشهر والأظهر القول الأول.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾: معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به. و«ما»: موصولة، أي: والذي وسق، أي: والذي ضم وحوى وجمع من نجم ودواب ووحوش وهوام وظلمة وغير ذلك.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، أي: إذا اجتمع نوره، وتم وكمل، واستوى واستدار، وذلك ليالي الإبدار.

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦١٢، وأبو داود في الصلاة ٣٩٦، والنسائي في المواقيت ٥٢٢، وأحمد ٢/٢١٠، ٢٢٣.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبِقٍ﴾ هذا هو جواب القسم، واللام واقعة في جواب القسم. فأقسم عز وجل بثلاثة أشياء متعلقة بالليل، وهي: الشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا كمل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبِقٍ﴾.

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف: «لَتَرْكَبُنَّ» بفتح الباء، خطابًا للمفرد، أي: لتركبن أيها الإنسان، أي: لتنتقلن من حال إلى حال.

وقرأ الباقر بضمها: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء خطابًا للجمع، أي: لتركبن أيها الناس حالًا بعد حال، أي: لتنتقلن من حال إلى حال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبِقٍ﴾ (١٩): حالًا بعد حال» (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» (٢).

وعن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلًا بمثل» (٣).

فقد كان الإنسان عمدًا لا ذكر له، ثم خلقه الله عز وجل، وانتقل في بطن أمه من حال إلى حال ومن طور إلى طور، ثم ولد، وانتقل من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم إلى الهرم والشيخوخة.

وهو في ذلك بين رخاء وشدة، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وعز وذل، وسرور وحزن، إلى غير ذلك من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو في ذلك كله معرض لما هو أشد وأعظم، وهل يوفق للإيمان والاستقامة على

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٠

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣٤٠ / ٥، وأخرجه أيضًا من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه ٢١٨ / ٥، والترمذي في الفتن ٢١٨٠، وقال: «حديث حسن صحيح».

طاعة الله، فيسعد في دينه ودنياه وأخراه، أو يخذل، فيختار الكفر على الإيمان، فيشقى في دينه ودنياه وأخراه. وما دام المرء حيًّا فهو عرضة للفتنة، فعلى المؤمن أن يلزم الدعاء بقوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (١).

كما أن الإنسان متنقل في حياته ينتقل من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار إلى أن يموت فينتهي إلى مصيره ومأواه في دار القرار، فإما إلى الجنة دار المقربين والأبرار وإما إلى النار مثوى الكافرين والفجار.

عن ابن شهاسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلاً، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرّك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرّك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أجد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبائعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بهاذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» وما كان أحد أحب من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطققت لأني لم أكن أملاً عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها..» الحديث (٢).

ولما كان المقسم به والمقسم عليه في قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾ فيه أعظم الأدلة على ربوبيته عز وجل ووحدانيته وكماله وصدق رسله، وعلى المعاد، عقبه بقوله:

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام الإنكاري، أي: فما الذي يمنعهم من الإيمان؛ أو أي شيء يمنعهم من الإيمان مع وضوح البرهان، وتحقق انتقاهم من حال إلى حال إلى أن ينتهوا إلى دار القرار، قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوِءَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، أي: وما الذي يمنعهم إذا تلى عليهم القرآن أن يخضعوا له وينقادوا لأوامره ويصلوا، ويسجدوا على الأعضاء السبعة عند سجدهاته تعظيماً له، وشكراً لله عز وجل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ سجد في هذه السورة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ﴾^(١) و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)»^(١).

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له. قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»^(٢).

وقد استدل بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة بعض أهل العلم.

والصحيح أنه سنة مؤكدة، وليس بواجب لما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة النمل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد، فقال رضي الله عنه: «إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٧، والنسائي في الافتتاح السجود في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ٩٦٣، والترمذي في الجمعة ٥٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٠٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٨، والنسائي في الافتتاح ٩٦١.

(٣) أخرجه البخاري في سجود القرآن - من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ١٠٧٧ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكر عليه أحد. وقد قال ﷺ: «عليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»^(١).

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا يكذبون بالحق ولا يصدقون به؛ جحودًا وعنادًا، فهذا هو سبب عدم إيمانهم وعدم سجودهم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ «أعلم»: أفعل تفضيل، أي: أنه عز وجل أعلم من كل أحد. ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾، أي: بما يجمعون ويضمرون، وهو - عز وجل - أعلم بهم من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. والمعنى: والله أعلم بالذي يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من أعمال باطلة، وأموال هي زادهم إلى النار. قال عبيد بن الأبرص^(٢):

الخير يبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد
أي: أخبث ما جمعت من زاد.

﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ الخطاب والأمر للرسول ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: فبشرهم أيها المبشر، وأخبرهم ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِّينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٨].

والبشارة في الأصل تستعمل فيما يسر، أخذًا من انبساط البشارة واتساعها عند ورود الخبر السار لها، واستعملت هنا في البشارة بالعذاب الأليم على سبيل التهكم والاستهزاء.

﴿أَلِيمٍ﴾: «فعليل» بمعنى: «مفعل»، أي: مؤلم حسًا ومعنى. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «إلا»: أداة استثناء؛ بمعنى «لكن»، فالاستثناء: منقطع، أي:

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢ - من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) انظر «ديوانه» ص ٤٩، «لسان العرب» مادة «وعى».

لكن ﴿الذين آمنوا﴾.

والإيمان في اللغة: التصديق كما قال إخوة يوسف ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: لن نصدق بهذا القرآن ولا بالذي سبقه من الكتب السماوية.

والمعنى: إلا الذين آمنوا، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للأرحام وأداء لحق الجار، وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك.

وحذف الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي ﴿الصَّالِحَاتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل، وفق سنة رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ «لهم» جار ومجرور خبر مقدم، و«أجر» مبتدأ مؤخر، أي: لهم خاصة دون غيرهم. ونكر «أجر»: للتعظيم، أي: ثواب عظيم.

وسمي الثواب أجراً، تشبيهاً له بأجرة الأجير، لأن الله عز وجل بكرمه وفضله وامتنانه تكفل بهذا الثواب وأوجبه على نفسه.

﴿غَيْرِ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، ولا ممنوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٍ﴾ [هود:

١٠٨].

وغير ممنون به عليهم، كمنة الخلق بعضهم على بعض، وإلا فإن الله عز وجل المنة والفضل والإنعام على جميع خلقه بنعمة الربوبية العامة وله المنة والفضل والإنعام على أوليائه المتقين وحزبه المفلحين بنعمة الربوبية الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا اكتمل - على انتقال الناس من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١١﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا

وَسَقَّ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرَ إِذَا آسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرَكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾.

٢- أن دوام الحال من المحال، والبقاء للحي القيوم- سبحانه وتعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرَكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾.

٣- لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو وعظمة مخلوقاته.

٤- الإنكار على الكافرين في عدم إيمانهم، وعدم خضوعهم وسجودهم عند تلاوة القرآن مع ما فيه من المواعظ والأحكام، وتحقق انتقاهم من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٥- تكذيب الكفار للرسول ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾.

٦- سعة علم الله عز وجل، وعلمه بما يجمع الكفار ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من الأعمال الباطلة والأموال المحرمة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

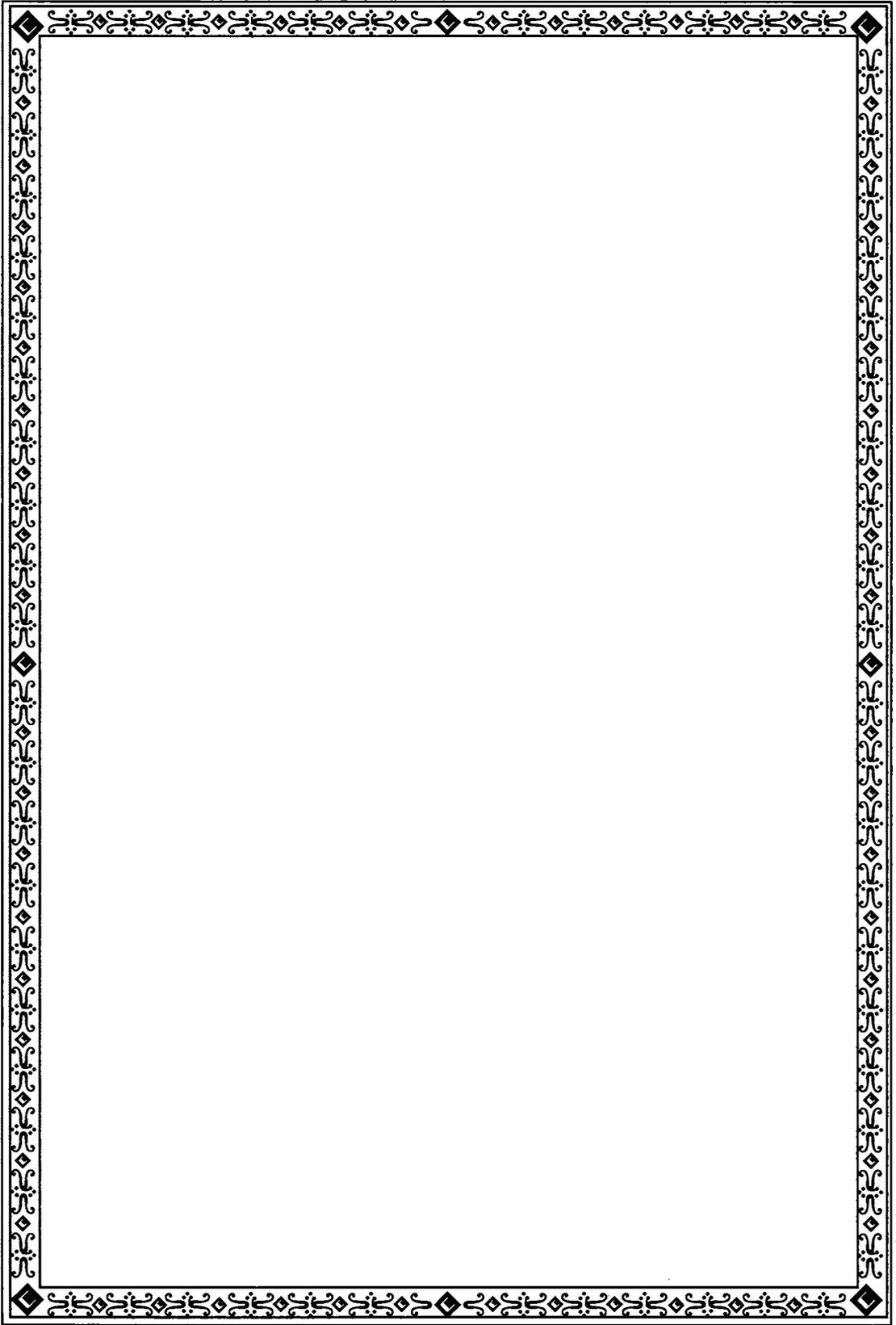
٧- البشارة للكفرة المكذبين بالعذاب الأليم حسًا ومعنى تهكمًا بهم وسخرية منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالثواب العظيم غير المقطوع، ولا المنوع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

٩- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبُرُوجِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة البروج»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَأَسْمَاءَ ذَاتِ
الْبُرُوجِ﴾.

وتسمى: «سورة والسماء ذات البروج».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة: «والسماء
ذات البروج»، «والسماء والطارق»^(١).

وعنه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء»^(٢).

ومعنى قوله «بالسموات» أي بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر:
«والسماء ذات البروج»، و«السماء والطارق» ونحوهما^(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالقسم بالسماء ذات البروج وما عطف عليه بلعن أصحاب
الأخدود الذين عذبوا المؤمنين بالنار وفتنوهم، ووعدهم بعذاب جهنم وعذاب
الحريق: ﴿وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُلْ أَحْسَبُ الْأَخْدُودِ (٤) ﴿
إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١٠)﴾.

٢- وعد المؤمنين بالجنات والأجر الكبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح والقراءة في الركعتين الأولتين من صلاة العصر ٩٣٦، وأحمد ٥/١٠٣.

جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ .

٣- إثبات شدة بطشه عز وجل، وكمال قدرته وتمام تدبيره: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾

إِنَّهُ هُوَ يُدْعَى وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَفْوَازُ أُوذُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ .

٤- التذكير بفرعون وثمود، وإهلاكهم، وتهديد المكذبين وتمجيد القرآن: ﴿هَلْ

أَنْتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ

قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَضْحَبُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هَرَعْتَنَّا قَعُودٍ ﴿٦﴾ وَهَمَّ عَلَيْنَا مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٍ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور.

﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، أي: صاحبة البروج.

كما قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦٦﴾﴾

[الفرقان: ٦٦].

والبروج: جمع برج، مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، وهي النجوم والكواكب العظام، أو منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلاثا، فذلك ثمان وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين.

وهذه البروج الاثنا عشر هي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾: يوم القيامة، الموعود وقوعه وبعث الناس فيه، كما قال تعالى:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ تُعِيدُهُ، وَعَدَّا عَلَيْهَا وَإِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَشَاهِدٍ﴾: يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: اليوم الموعود: يوم القيامة واليوم المشهود: يوم عرفة، و«الشاهد»:

يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل منه» (١).

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٣٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٦٢، ٢٦٥، وقال الترمذي:

وقد رواه بعض الأئمة موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة»^(١).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا»^(٢) (٣).

فاليوم الموعود يوم القيامة بلا خلاف، وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَشَاهِدٌ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٌ﴾ يوم عرفة.

وقيل: الشاهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩، ١٦٦، الفتح: ٢٨].

وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وكذا أمته شهود، والملائكة والجوارح شهود أيضاً.

وقيل: الشاهد يوم عرفة، وقيل: الشاهد يوم الذبح، وقيل الشاهد الإنسان.

كما قيل: المشهود يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: المشهود يوم الجمعة لما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة»^(٤).

قال ابن القيم^(٥): «وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني، وما عداه من المعاني ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه

«حديث حسن غريب».

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٨-٢٩٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٦٢-٢٦٤.

(٢) أي: خصنا به وهدانا إليه دون من قبلنا.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٦٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٧٠.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٦٩.

التخصيص».

﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ﴾: هذا هو جواب القسم والمقسم عليه عند أكثر المفسرين فأقسم عز وجل بالسما ذات البروج، وبشاهد ومشهود على أنه ﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ﴾.

وقال ابن القيم^(١): «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ﴾».

ومعنى ﴿قِيلَ﴾، أي: لعن أشد اللعن، وطرد وأبعد عن رحمة الله، أشد الطرد والإبعاد وأهلك.

﴿أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ﴾، الأخدود: مفرد، وجمعه أخاديد، وهي الحفر المستطيلة في الأرض.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ «النار» بدل اشتغال من الأخدود.

﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾، أي: صاحبة الوقود، وهو الحطب الكثير المتأجج ناراً.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين، أي: حين هم على جوانب هذه النار جلوس على الأسرة يتفرجون ويتفكهون.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وهم على الذي يفعلونه بالمؤمنين، أو على فعلهم بالمؤمنين من فتنهم لهم في دينهم وطرحهم في النار وتعذيبهم.

﴿شُهُودٌ﴾، أي: يشاهدون وينظرون مغتبطين بهذا الإجماع في حق المؤمنين، مما يدل على قسوة قلوبهم، ونزع الرحمة منها وجبروتهم، يقحمون المؤمنين في النار ويرونها تلتهمهم، ولا تتحرك مشاعر الرحمة في قلوبهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾، أي: وما وجدوا عليهم في شيء إلا من أجل أنهم

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٧١.

آمنوا بالله، وكان هذا يوجب إكرامهم ومحبتهم لا أذيتهم وقتلهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنِّي ٱلَّذِينَ ءَامَنَآ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿الْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعليل» يدل على اتصافه عز وجل بالعزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فهو عز وجل قوي قاهر غالب ممتنع أن يُنال بسوء.

﴿الْحَمِيدِ﴾: اسم من أسماء الله عز وجل، أيضًا على وزن «فعليل» يدل على اتصافه عز وجل بالحمد فهو عز وجل حميد ومحمود في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، له الحمد على ذلك كله، له الحمد في السموات والأرض وعلى الدوام كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨].

وله الحمد في الأولى والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الفصص: ٧٠].

وله عز وجل الحمد على كل حال، ولهذا قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الحمد لله على كل حال»^(١).

وهو عز وجل حميد يحمد من يستحق الحمد من عباده بثنائه عليهم ورضاه عنهم، قال ﷺ: «إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»^(٢).

ولهذا فإن معنى صلاة الله - عز وجل - على أنبيائه ورسله وأوليائه هو الثناء عليهم في الملأ الأعلى.

وفي اقتران هذين الاسمين في ختام هذه الآية بعد لعن أصحاب الأعداء: إشارة

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٣٨، وقال: «حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الأدب - فضل الحامدين ٣٨٠٣، والحاكم في المستدرک، كتاب الدعاء ١/٤٤٩، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦ - من حديث أنس رضي الله عنه.

إلى أنه عز وجل ذو العزة التامة لا يضام من لاذ بجنابه، فلو شاء لانتصر للمؤمنين. الحميد على ما قدر على هؤلاء المؤمنين، ولو شاء لم يقدر ذلك عليهم، لكن له في ذلك كله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهو المحمود على كل حال.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: صفة ثالثة له عز وجل.

وقدم الخبر «له»؛ لإفادة التخصيص، أي: الذي له وحده ملك السموات والأرض فهو وحده المالك للسموات والأرض، وما فيها وما بينهما. والخلق كلهم وما يملكون ملك الله عز وجل، وملكهم لما يملكون ملك نسبي قاصر، لا يجوز لهم التصرف فيه إلا فيما أباحه الله عز وجل.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: على كل شيء مطلع، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من فتنهم لهم في دينهم وإحراقهم في النار، وسيجازيهم بعملهم.

وقدم متعلق الخبر، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على الخبر «شاهد»؛ لتأكيد عموم اطلاعه على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

وقد اختلف المفسرون في المراد بأصحاب الأعداء، ومن أصح ما ورد في ذلك ما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الملك والساحر والراهب والغلام، وفي آخره قوله ﷺ: «ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنه إذا فعلت ذلك قتلتنني، ففعل، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنة برب الغلام، فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخذت فيها الأحاديث، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن

تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماء فإنك على الحق»^(١).
وفي رواية فقال في آخره: «يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ
الْوُقُودِ﴾ حتى بلغ: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾»^(٢).
وجاء في بعض الآثار: أن الملك الذي خد هذا الأخدود هو ذو نواس ملك
نجران، وأن الذين وقع عليهم التعذيب هم نصارى نجران وفي ذلك أنزل الله عز وجل
﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقيل: إنهم أهل فارس، وقيل
غير ذلك^(٣).

والأهم من هذا كله أخذ العبرة، واستلهام الدروس من هذه القصة، وذلك من
وجهين:

الأول: جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم الوحشية بالمؤمنين من
تحريق وقتل وغير ذلك، وخلو قلوب كثير منهم من الرحمة، بل ومن الإنسانية مع ما
يزعمونه من الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وما المقابر الجماعية والقتل الجماعي
والوحشي في مذابح صبرا وشاتيلا، وفي البوسنة والهرسك وغيرها، وما التعذيب
الوحشي في سجن غوانتانامو، وفي سجن أبو غريب وغير ذلك إلا نتاجاً وصوراً لما عليه
أعداء الإسلام من الوحشية والهمجية، فأين مناداتهم بالحرية والديمقراطية واحترام
حقوق الإنسان، والإنسانية؟! وصدق الله العظيم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهُكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً
وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [المتحنة: ٢].

ولهذا ينبغي ألا يغتر بهم فهم وإن أظهروا الصداقة، فهم في الحقيقة الباطنة أعداء
وذئاب، ولو لبسوا جلود الضأن، وكما قيل:

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق - قصة أصحاب الأخدود والصاحب والراهب والغلام ٣٠٠٥،
والترمذي في تفسير سورة نوح ٣٣٤٠، وأحد ١٦/٦ - ١٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٢٧٣ -
٢٧٥.

(٢) جاء هذا في رواية الترمذي.

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١ / ٣٤ - ٣٧، «جامع البيان» ٢٤ / ٢٧٠ - ٢٧٦.

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها
وقال الآخر:

لا تأمنن عدواً إن جانبه
خشونة الصل عقبى ذلك اللين^(٢)

والوجه الثاني مما يستلهم من هذه القصة:

صبر هؤلاء المؤمنين على هذا الابتلاء العظيم، وتقديم أرواحهم للنار فداءً لدينهم إذ لا بقاء لشيء بعد الدين، وفي هذا أعظم الدروس والعبر للمؤمنين بعدهم وبخاصة الدعاة إلى الله عز وجل والموجهين والمربين وأهل الحسبة وغيرهم؛ ليعلموا أن طريق الجنة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق مخوف بالمكاهة كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٦١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(٣).

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم
به الأشواك تكثر لا الورود

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: فتنوهم في محاولتهم صددهم عن دينهم كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أي: الفتنة في الدين والصد عنه وأيضاً فتنوا المؤمنين والمؤمنات بإحراقهم في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يعذبون.

(١) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص ١١.

(٢) البيت للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص ١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص ١٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾، أي: ثم لم يرجعوا إلى الله عز وجل ويقبلوا عما هم عليه من الكفر ويندموا على ما سلف منهم، ويعزموا على عدم العودة إليه.

فعرض الجواد الكريم التوبة عليهم مع ما ارتكبه من الكفر به، والظلم والقتل لعباده المؤمنين ولو تابوا لغفر لهم ولم يعذبهم، وقد قال عز وجل لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون وقد ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾: خبر «إن، أي: فلهم مجازاة لهم على فعلهم بالمؤمنين ﴿عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ وجهنم: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدّة حرها.

﴿وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ فالجزاء من جنس العمل، أي: فلهم عذاب الإحراق في النار كما أحرقوا المؤمنين في نار الأخدود.

فانتصر عز وجل وهو الحكيم العليم - للمؤمنين بمجازاة أصحاب الأخدود بإحراقهم وتعذيبهم بنار جهنم وهو القوي العزيز.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماة صاحبة البروج، واليوم الموعود وشاهد ومشهود على لعن وإهلاك أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم وحرقوهم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْهَا فُوعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾.

٢- أن الله عز وجل أن يقسم بها شاء من مخلوقاته الكونية وآياته وأحكامه الشرعية.

٣- التنبيه على عظمة الله - عز وجل - وتمام قدرته في خلق السموات وما فيها من البروج، وعظمة يوم القيامة وشدّة أهواله، وعظمة شاهد ومشهود.

٤- أن الله عز وجل في تسليط هؤلاء الكفار على المؤمنين حكماً، منها استدراج هؤلاء الكفار من حيث لا يعلمون، ومنها رفعة درجات المؤمنين، ولتكون عبرة وعظة لمن بعدهم، إذ لا بد من الابتلاء والامتحان.

- ٥- جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم في حق المؤمنين من تحريق وقتل بأبشع الصور، وخلو قلوبهم من الرحمة في الوقت الذي يزعمون فيه احترامهم لحقوق الإنسان والحرية والإنسانية.
- ٦- أن هؤلاء الكفار فتنوا المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وهكذا أعداء الرسل وأعداء أتباعهم في كل زمان ومكان يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.
- ٧- إثبات اسم الله «العزیز»، وصفة العزة التامة لله عز وجل: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾.
- ٨- إثبات اسم الله «الحميد»، وأن له عز وجل الحمد كله، وهو المحمود في كل حال وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾.
- ٩- إثبات أن الله عز وجل له ملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٠- إثبات اطلاع الله عز وجل على كل شيء، ومن ذلك فتنة هؤلاء الكفار للمؤمنين وفي هذا تبشير وتحذير، ووعد ووعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.
- ١١- كرم الله عز وجل وواسع حلمه وعفوه ورحمته وتوبته، حيث عرض التوبة على هؤلاء الكفرة المجرمين مع كفرهم به وفتنتهم لأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا كَفَرُوا﴾.
- ١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لهؤلاء الكفرة المجرمين إن لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
- ١٣- أن الجزء من جنس العمل فكما أحرق هؤلاء الكفرة المجرمون أولياء الله المؤمنين بالنار جازاهم الله بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبَعِيدٌ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

بعد ما بين عز وجل ما أعدده للكفرة المجرمين قتلة المؤمنين من عذاب جهنم وعذاب الحريق أتبع ذلك بيان ما أعدده للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والفوز الكبير، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك بيان قدرته عز وجل التامة على تنفيذ هذا الوعد، وذلك الوعيد فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة.

وحذف الموصوف وهو: «الأعمال» واكتفى بالصفة «الصَّالِحَاتِ»؛ لأن المهم أن يكون العمل صالحًا، يتوفر فيه شرطًا صلاح العمل، وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة عند الله عز وجل ﴿جَنَّاتٌ﴾ وهي ما أعدده الله عز وجل لنزول أوليائه من البساتين ذات الأشجار الكثيرة، والثمار المتنوعة، والمسكن العالية، والغرف الرفيعة وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - ما جاء في صفة الجنة ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب صفة الجنة ٢٨٢٤ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

فقط» (١).

﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ «جنات، أي: تجري من تحت أشجارها، ومسكنها وغرفها الأنهار، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ عُرْفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَغْمُرُ الْبِحَارُ الْعَمَلِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨] والأنهار: جمع نهر، وهي كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرْبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وهي تجري بغير أهدود. قال ابن القيم (٢):

أنهارها في غير أهدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان
﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الإشارة لما أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات
من الجنات والأنهار.

و«الفوز»: النجاح والفلاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أعظم منه، ويكفي أن العلي الكبير وصف هذا الفوز بالكبير، فلا يقدر قدر كبره، إلا العلي الكبير سبحانه وتعالى.
ولم يرد وصف الفوز بالكبير إلا في هذا، ولعل في هذا إشارة لعظم ما لقيه أصحاب الأهدود وشدة صبرهم وعظيم ما لهم عند الله.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾، أي: إن انتقام ربك يا محمد وأخذه للكفرة المجرمين والطغاة الظالمين.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: ذو شدة، أي: عظمة وقوة، من حيث كمه وكيفه؛ لأنه عز وجل القوي العزيز، ذو القوة المتين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤١٦/١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦٦/١.

(٢) في «النونية» ص ٢٢٩.

أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُ﴾، أي: إنه عز وجل من تمام عزته وقوته وكمال قدرته ﴿هُوَ يَدْبِرُ﴾، أي: يخلق ابتداءً ﴿وَيُعِيدُ﴾، أي: يبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهو عز وجل الذي يُبدئ كل شيء ويعيد كل شيء، له الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو سبحانه الذي يبدئ ويعيد، يقلب الليل والنهار، ويداول الأيام، ويبدل الأحوال؛ من عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى مرض ومن مرض إلى صحة ومن شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة وهكذا؛ ولهذا لا يجوز الأمن من مكر الله، ولا القنوط من رحمته، وكما قيل:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال^(١)

﴿وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّؤُوفُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل الصالحات، وهذه الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يَدْبِرُ وَيُعِيدُ﴾، كقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

فأخذه للظالمين بعدله أخذ عزيز مقتدر، ومغفرته للتائبين - بفضلها - مغفرة متودد إلى عباده يحبهم ويحبونه.

و«الغفور» و«الودود» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعلول» ف«الغفور»: مشتق من المغفرة، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة. أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب التائبين من عباده.

و«الودود»: مشتق من المودة، وهي: خالص المحبة، فهو عز وجل ودود، محب ومحبوب، يحب أوليائه المؤمنين ويحبونه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

(١) البيت لمسفر بن مهلهل الينبيعي. انظر: «السحر الحلال في الحكم والأمثال» ص ٨٩.

اللَّهُ ﴿آل عمران: ٣١﴾، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالودود المحب لأوليائه، المتحبيب إليهم بنعمه الحبيب إليهم، الذي محبته لهم ومحبتهم له أقوى من كل محبة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدَّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال عن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي اقتران اسم «الودود» بالرحيم وبالغفور معنى لطيف، وهو أنه عز وجل يرحم عبده، ويغفر له، إذا تاب إليه ويحبه مع ذلك، ولو كان ممن أسرف على نفسه بخلاف المخلوق فإن الإنسان قد يرحم ويعفو عن أساء إليه ولكن لا يحبه.

وهو عز وجل يحب الأقوال والأعمال الصالحة، قال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(١).

وقال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»^(٢). وهو عز وجل يحب الأماكن الفاضلة، قال ﷺ عن مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولو لا أني أخرجت منك ما خرجت»^(٣). وقال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها»^(٤).

وفي الحديث: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم»^(٥).

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش. وفي إضافته العرش إلى نفسه دلالة على عظمة

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧- من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة ٣٩٢٥- من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري- رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد- فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد ٦٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١ / ٨٤- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

العرش، فهو سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها.
 وفي ذلك دلالة على قربه منه سبحانه غاية القرب واختصاصه به غاية الاختصاص
 واستوائه عز وجل عليه، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿طه: ٥﴾.
 ﴿الْمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض الدال: «المجيد» على أنه صفة
 للعرش، وقرأ الباقر برفع الدال: ﴿الْمَجِيدُ﴾ على أنه صفة للرب عز وجل، كما قال تعالى:
 ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿هود: ٧٣﴾.
 فعلى هذه القراءة يكون معنى «المجيد»، أي: الممجّد المعظّم ذو العلو والعظمة
 والكبرياء.

كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائي»^(١).
 ذو الصفات الكثيرة التي لا تحصى الكاملة الواسعة، وذو الخير الكثير الدائم،
 المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم.
 وعلى قراءة خفض الدال يكون «المجيد» صفة للعرش، والعرش عظيم كبير، بل
 هو أكبر المخلوقات، وسع السموات والأرض والكرسي.
 وفي الحديث في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله
 رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»^(٢).
 ورُوي عن أبي ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في
 العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»^(٣).
 وقد قال الله تعالى عن الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
 وإذا كان العرش مجيداً فخالقه عز وجل - أحق بالمجد - كما دلت عليه قراءة الرفع،
 وغيرها.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد
 ٤١٧٤، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.
 (٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٤٥، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٣٠، والترمذي
 في الدعوات ٣٤٣٥، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٣ - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.
 (٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٥٣٩/٤. وهو منقطع. وانظر: «فتح المجيد» ص ٦١٦.

وخص العرش بالذكر من بين المخلوقات؛ لعظمته، ولاستوائه عز وجل عليه،
ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه عز وجل.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل بإرادته كل ما يريد، ومهما أراد من شيء فعله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا يُسأل عما يفعل.
الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قيل لأبي بكر رضي الله عنه وهو في مرض الموت: «ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رأي الطبيب، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد»^(١).

ويؤخذ من الآية أنه يفعل بإرادته عز وجل، وأنه إذا أراد شيئاً فعله فلا يعجزه شيء وأن إرادته وفعله متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعّال لما يريد إلا الله وحده، وفعله عز وجل كله لحكمة علمناها أو لم نعلمها.

﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾، أي: هل جاءك يا محمد خبر الجنود ممن عصوا الله وكذبوا رسله، وماذا أحل بهم من العقوبات والبأس الشديد، وفي هذا وما بعده تسليية له ﷺ على تكذيب قومه وتقوية لعزيمته، وفيه تحذير وتهديد للمكذبين من أمته.
فهذا وما بعده تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ «فرعون»: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكابر وعاند وادعى الربوبية والألوهية، وأهلكه الله وجنوده بالغرق، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للحرق بالنار، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَتَمُودَ﴾ هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، مساكنهم شمال الجزيرة في العلا، المعروفة الآن بمدائن صالح. كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة فأهلكهم الله

(١) أخرجه أحمد في «الزهدي» ص ٩٣، (٥٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٤/١، وانظر: «الجامع الكبير» للسيوطي ١٦٢/١٤ (٢٤٢/١).

بالصيحة والصاعقة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا ووجدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماؤه وصفاته وشرعه.

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: في تكذيب للرسول ﷺ، ولما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾، أي: أنه عز وجل محيط بهم من كل جانب، لا يعجزونه ولا يفوتونه، محيط بهم بعلمه وقدره وقدرته وسلطانه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَاعِمُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصِدِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ﴾، أي: بل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله من الوحي العظيم المعلوم. ﴿فَرَّانٌ مَجِيدٌ﴾، أي: قرآن عظيم كريم، رفيع المنزلة واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم، معجز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه، ووعدته ووعدته وغير ذلك لأنه كلام الحميد المجيد.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ قرأ نافع برفع الظاء: «محفوظ»، وقرأ الباقون بخفضها.

أي: في لوح كتب الله عز وجل فيه كل شيء قضاه وقدره.

﴿محفوظ﴾ عند الله عز وجل في الملاء الأعلى من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل والتغيير، وتناول الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وهو محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير بعد إنزاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ مَّجِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ.

٤- عظم ما أعدده الله عز وجل من الثواب للمؤمنين، من الجنات والأنهار والفوز الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

٥- شدة بطشه عز وجل وأخذه للمكذبين الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ﴾.

٧- قدرته عز وجل التامة على إبداء الخلق وإعادته، وعلى تبديل الأحوال وإعادتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْعُ وَيُعِيدُ﴾.

٨- إثبات اسم الله «الغفور» وما يدل عليه من إثبات صفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْغَفُورُ﴾.

٩- إثبات اسم الله «الودود» وما يدل عليه من إثبات صفة المودة والمحبة له عز وجل وأنه يُحِبُّ وَيُحَبُّ؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش، وعظمته وكبريائه، وكمال صفاته، وكثرة خيره وإفضاله وإنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

١١- إثبات عظمة العرش وسعته وأنه أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

١٢- إثبات صفة الفعل والإرادة لله عز وجل وأنه يفعل بإرادته، ومهما أراد شيئًا فعله، وفعله لحكمة علمناها أو لم نعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لِمَا يُرِيدُ﴾.

١٣- التذكير بقصص المكذبين، فرعون وثمود، وما أحل الله بهم من العقوبات لما عصوا رسله وخالفوا أمره - تسلياً للنبي ﷺ - وتحذيرًا للمكذبين من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

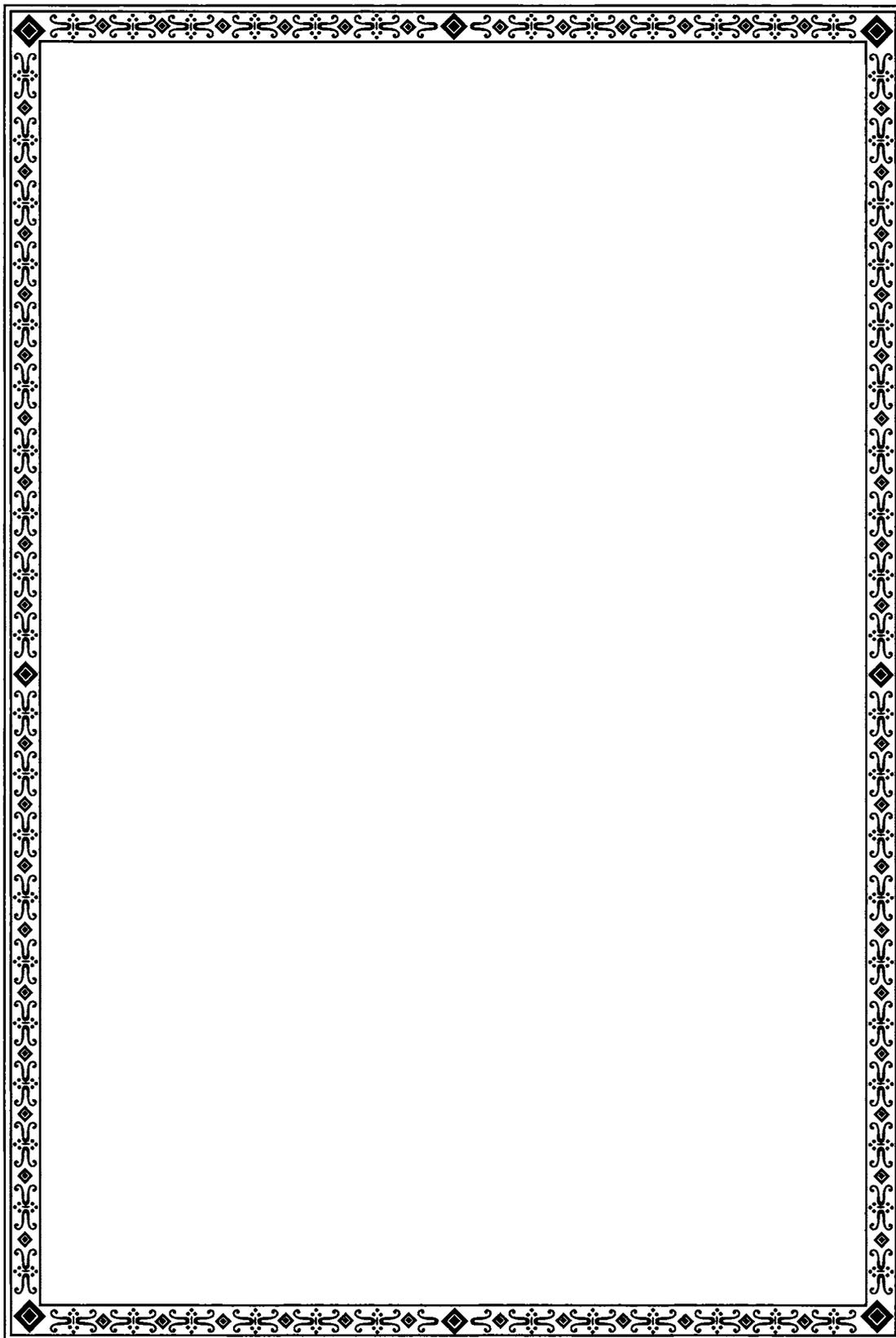
١٤- مكابرة الكفرة في تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

١٥- سعة علم الله تعالى وإحاطته، والوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بأن الله محيط بهم، ولن يفلتوا من قبضته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.

١٦- عظمة القرآن وسعة معانيه وإعجازه، وحفظ الله عز وجل له في اللوح المحفوظ، وبعد إنزاله على محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿١٢﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الطارق» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١).
وتسمى: «سورة السهاء والطارق»، و«سورة والسهء والطارق» بالواو.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة
﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١).
وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر:
﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١).

د- موضوعاتها:

- ١- إثبات وتأکید وجود الحفظة على بني آدم: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢)
النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤).
- ٢- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦)
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَآلَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ (١٠).
- ٣- إثبات وتأکید أن القرآن حق وقول فصل ليس بالهزل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ
بِالْهَزْلِ (١٤)﴾
- ٤- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ
رَوِيًا (١٧)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ ١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ٢ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ٣ ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ٤ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ٥ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ٦ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ٧ ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ٨ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ٩ ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٌ﴾ ١٠ .

قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السما» مقسم به مجرور.

﴿وَالطَّارِقِ﴾ معطوف على السماء.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تعظيم وتفخيم له، أي: وما أعلمك ما الطارق، ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وسمي النجم طارقاً؛ لأنه لا يرى إلا بالليل، ومن يأتي بالليل يسمى طارقاً. ومنه الحديث: «أنه ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً» (١). وقوله في الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن» (٢).

قال الشاعر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب عليك سلام هل لما فات مطلب

ومعنى ﴿الثاقب﴾ المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا هو جواب القسم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمة بتشديد الميم: ﴿لَمَّا﴾ وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لَمَّا﴾. وإن بمعنى «ما» النافية و«لَمَّا» بمعنى «إلا، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

فأقسم عز وجل بالسماء، وبالطارق، وهو النجم المضيء: أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ من الملائكة موكل بحفظها من أمر الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿لَهُ مَعْقِبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ويحفظ أعمالها كما قال تعالى: ﴿وَلِإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ ١٠ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري في الحج، ١٨٠١، ومسلم في الإمارة - كراهية الطروق وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر ٧١٥، والترمذي في الاستئذان والآداب ٢٧١٢ - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٩/٣ - من حديث عبد الله بن خنيس - رضي الله عنه.

[الانفطار: ١٠-١٢].

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ الفاء للتفريع، أي: فليُنظر الإنسان نظر تأمل وتفكر واعتبار.

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، أي: من أي شيء خلق؛ ليعرف أصل خلقه وضعفه، وليعلم عظيم قدرة الله عز وجل، ويعترف بالمعاد؛ لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على إعادته من باب أولى.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو مني الرجل الذي يندفق بلذة وقوة وهو دافق ومدفوق.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ نَفَخْنَا مِنْ مِّمِّي يَمْعَنِي ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ لِمَجْعَلِ مِيْنَهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

﴿يَخْرُجُ﴾، أي: يخرج هذا الماء، ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ وهي عظام ظهر الرجل، ﴿وَالْتَرَائِبِ﴾ وهي: عظام صدر المرأة.

ويحتمل أن المراد بالترائب ترائب الرجل، أي: عظام صدره، لأنه قال ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم يقل: يخرج من الصلب والترائب، وهذا كقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]. ولأن الله أخبر أنه خلقه من نطفة. والنطفة: ماء الرجل، وهو الذي يوصف بالدفق. وقيل المراد بالصلب: ظهر كل من الزوجين، والترائب أطرافهما.

﴿إِنَّهُ عَلَيَّ جَعِيءٌ﴾، أي: إنه عز وجل على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته وفنائته ﴿لِقَارِرٍ﴾، أي: لذو قدرة تامة على ذلك؛ لأن من قدر على البداء قادر على إعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمٍ﴾، أي: يوم القيامة، الذي فيه ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، أي: تمتحن وتختبر القلوب التي عليها مدار الصلاح والفساد، وعلى ما فيها يرتب الثواب والعقاب، فيظهر ما فيها من الأسرار والمكنونات، ويصبح السر علانية، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء يوم

القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»^(١).

﴿قَالَ﴾، أي: فما للإنسان في ذلك اليوم الذي أعيد فيه خلقًا جديدًا، وظهر ما كان يسره ويخفيه فصار علانية ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾، أي: فما له من قوة في نفسه يستطيع بها إنكار ما ظهر من قبح سريره، ويدفع بها عنه عذاب الله.

﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي: وما له من ناصر ولا معين من خارج نفسه، يدفع عنه ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِينُونَ نَصَرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّابُونَ﴾^(٤٣) [الأنبياء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١١١) [المؤمنون: ١٠١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء، والطارق أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويحفظ أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾^(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ^(٢) النَجْمُ الثَّاقِبُ^(٣) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ^(٤).

٢- يجب على الإنسان أن ينظر ويتأمل في أصل خلقه؛ ليرى ضعفه، وعظيم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

٣- أن أصل خلق الإنسان من ماء، وهو المنى الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ^(٧).

٤- إثبات البعث؛ لأن الذي قدر على الخلق الأول هو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

٥- امتحان القلوب يوم القيامة، وإظهار ما انطوت عليه من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

٦- الوعيد لمن كذب أمر الله عز وجل يوم القيامة، وأنه لا يستطيع دفع عذاب الله عنه لا بنفسه ولا بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هُوَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥، وأبو داود في الجهاد ٢٧٥٦، والترمذي في السير ١٥٨١.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ مَوْلَا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور والمراد بها العلو.

﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، أي: صاحبة الرجع، وهو المطر، وسمي المطر بالرجع؛ لأنه يرجع ويتكرر، والمطر سبب الرزق، وأيضًا: هي ذات الرجع بأقدار الله وأوامره، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به، ومعنى ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾، أي: صاحبة الصدع، والصدع: هو الشق للنبات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر لكنه معلوم معهود.

﴿لَقَوْلٌ فَصَّلُ﴾، اللام للتوكيد، أي: لقول حق، وحكم عدل، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾، أي: وما هو باللعب واللغو والعبث، الذي لا جد فيه ولا ثمرة له ولا فائدة منه.

وفي الحديث: «وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله»^(١).

فهو جد وأبيّ جد، فيه البشارة والوعد الصادق، وفيه النذارة والوعيد الشديد والتهديد الأكيد. قال الشاعر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح^(٢)
وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل^(٣)

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في فضل القرآن ٢٩٠٦ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص ١.

(٣) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص ١٢٤.

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة فإن الله عز وجل أقسم بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات وفي هذا إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها والمقسم عليه القرآن الكريم الذي به حياة القلوب بعد موتها.

﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: الكفار والمكذبون ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ الكيد: هو المكر والتدبير بخفية، أي: يمكرون مكرًا عظيمًا لصد الناس عن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، أي: وأكيد لهم كيدًا، أي: أمكر بهم مكرًا أشد وأعظم من مكرهم مقابلة ومجازاة لهم على مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكيده عز وجل لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَدَرَبِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِي اللَّهُ لَعْنَتَهُ مِمَّن كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

والله عز وجل لا يوصف بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء ونحو ذلك إلا على سبيل المقابلة والمجازاة في حق الكائدين والماكرين والمخادعين والمستهزئين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ﴾ أنظرهم ولا تستعجل لهم الانتقام والعذاب.

﴿أَمَهُلَهُمْ رُبْدًا﴾، أي: أنظرهم قليلاً وسترى ما يحل بهم من العقوبات العاجلة والآجلة والعذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَدَرَبِي وَالْمَاكِرِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [الزلزل: ١١]، وقال تعالى: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمان: ٢٤].

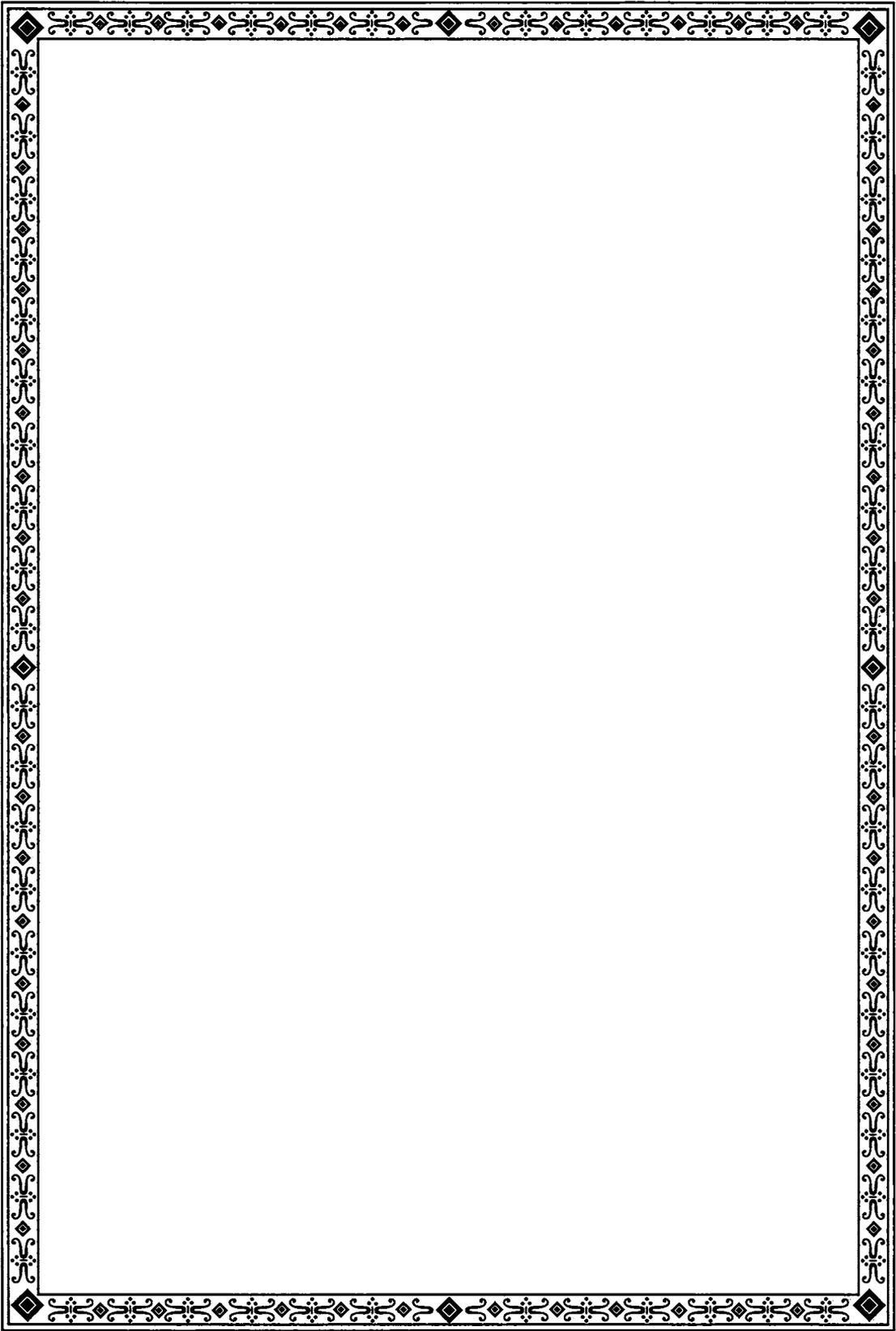
وقال تعالى: ﴿فَأَمَّتْهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].
والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلاً، وفي هذا تسليية له ﷺ وتهديد للمشركين من قومه.

الفوائد والأحكام:

- ١- إقسام الله عز وجل بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات أن القرآن الكريم قول فصل وحق، جد ليس بالهزل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِحِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.
- ٢- تعظيم القرآن الكريم ووجوب اتباعه.
- ٣- أن الكفار لا يألون جهداً في الكيد للحق وأهله، ولكن الله محيط بهم يكيد لهم ويمكر بهم وهو خير الماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.
- ٤- تقوية قلب النبي ﷺ تجاه أذى الكافرين وتطاوهم على الحق، وأنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، وهو عز وجل لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكٰفِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.
- ٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين وأن العذاب لهم على الأبواب.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْلَى



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الأعلى»؛ لذكر اسم الله «الأعلى»، والأمر بتسيحه في مطلعها بقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١).

وتسمى: «سورة سبح اسم رب الأعلى»، و«سورة سبح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن البراء عن عازب رضي الله عنه قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا يقرئنا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، في سور مثلها» (١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)» (٢).

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: «صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء، فطول عليهم، فانصرف رجل فصلي. فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أفتان أنت؟! ثلاثاً، اقرأ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾ و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ونحوها»، وفي رواية: «اقرأ ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾، ﴿وَالصُّحَى﴾، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَى﴾، و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ونحو هذا» (٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «سبح اسم ربك الأعلى» ٤٩٤١.

(٢) أخرجه أحمد ٩٦/١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٠٦، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٥، وأبو داود في الصلاة

٧٩٠، والنسائي في الافتتاح ٩٨٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٦.

الجمعة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ونحوها، وفي الصبح بأطول من ذلك (٣).

د- موضوعاتها:

١- الأمر بتسبيح الله وبيان مظاهر قدرته: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥).

٢- وعده عز وجل له ﷺ بإقراءه القرآن وطمأنته بعدم نسيانه، وتيسيره لليسرى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨).

٣- الحث على التذكير والتذكر، والوعيد لمن أعرض عن الذكر: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْفَى (١٠) وَنَجِّنَهَا مِنَ الشَّقَى (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣).

٤- الحث على التزكي، وذكر الله والصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥).

٥- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، والترغيب في الآخرة وتعظيم شأنها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩).



(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٢، والنسائي في الجمعة ١٤٢٤، والترمذي في

الجمعة ٥٣٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٨١، وأحمد ٤ / ٢٧١.

(٢) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٣) أخرجه أحمد ٥ / ٨٦، ٨٨..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سُنِّبْتُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَبَيَّنَّاكَ لِلْإِنْسَانِ (٨) فَذَكَرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيِّدُكَرُّ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَبِشَجْنَبِهَا الْأَشْفَى (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣).

قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل: سبحان ربي الأعلى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى» (١).

ومعنى تسيبحه عز وجل تنزيهه بالقلب واللسان عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره عز وجل وعبادته ودعاؤه.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» (٢).

وهذا يدل على وجوب التسيبح في الركوع والسجود.
والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿الْأَعْلَى﴾ على وزن «أفعل» لا مثل «الأكرم»، أي: الذي هو أعلى وأجل من كل شيء، وفوق كل شيء.

ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- الدعاء في الصلاة ٨٨٣، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣١٠/٢٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسيبح في الركوع والسجود ٨٨٧.

تجيئونه؟»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»^(١).

فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [النحل: ٦٠، الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وله عز وجل علو القدر، قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

وله عز وجل علو القهر كما قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

قال ابن تيمية^(٢): «فتبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتزويجه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه».

قال ابن القيم^(٣):

فهو العلي بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا بيان
وهو العلي فكل أنواع العلو له فثابتة بلا نكران
ولهذا ناسب أن يقول المسلم وهو معفر وجهه بالسجود لله عز وجل «سبحان ربي الأعلى»؛ إعلاناً منه بأن الله عز وجل العلو المطلق سبحانه وتعالى.

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، أي: الذي أوجد جميع المخلوقات.

﴿فَسَوَّيْنِ﴾، أي: فسوى بين خلقه في الأحكام والإتقان، وسوى خلقه بأن جعله على أحسن خلقه وأتمها؛ الإنسان والحيوان والسموات والأراضين، وسائر المخلوقات.

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٥٩.

(٣) انظر «النونية» ص ١٤٦.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ مَا عَرَّفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٨].
وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].
﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي: «قَدَّر» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرَ﴾، أي: والذي قَدَّر مقادير كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٢].

﴿فَهَدَى﴾، أي: فهدى كل مخلوق وأرشده لما خلق له وقُدِّر. وهذه هي الهداية الكونية العامة، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

ومن ذلك بيان طريق الخير والشر للإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(١).
وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»^(٢).
وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ماذا أكتب؟، فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣).
وفي هذا إثبات قدر الله السابق للخلق، وأنه قدر المقادير وكتبها وعلم بها قبل

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥ - وقال «حديث غريب».

كونها، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وفيه إشارة إلى أنه خلق كل مخلوق لحكمة وغاية مقصودة، فلا تتم مصلحته إلا بهدائه لتلك الغاية، من الحيوانات والنباتات والجمادات وسائر المخلوقات.

فسبحان ربنا الأعلى الذي خلق فسوى خلقه في أحسن صورة وأتمها، والذي قَدَّر المقادير وهدى كل مخلوق لما قَدَّر له.

سبحان من هدى النحل يصنع العسل المصفى.

سبحان من هدى النمل لا يحفر جحره إلا في مرتفع من الأرض خشية السيول، ويدخر في الصيف قوته للشتاء؛ لأنه لا يخرج في الشتاء.

سبحان من هداه يقرض أطراف الحبوب حتى لا تنبت إذا جاءها الماء، ويخرجها من الجحر وينشرها لئلا تتعفن فإذا يبست أدخلها؛ ولهذا يقال: إن أذكى ما يكون من الحيوان النمل، ينظر للمستقبل.

سبحان من هدى البعير، يضل صاحبه في وسط الصحراء فيهديه إلى الطريق، وإلى مواضع الماء، وسبحان من هداه أن يتحاشى في سيره وطء أي كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾، أي: والذي أخرج النبات من الأرض، مما ترعاه البهائم وغيرها، فكسا به الأرض وجملها، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقد أحسن القائل:

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك ^(١)

(١) الأبيات لأبي نواس. انظر: «اللطائف والظرائف» ص ٢٠٥، «توضيح المقاصد شرح الشافية الكافية»

والعطف في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ من عطف الصفات.

والعطف يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه، وأن بينهما مغايرة، إما في الذات، وإما في الصفات، فهو عز وجل موصوف بكل صفة من هذه الصفات ممدوح بها مثني عليه بها، وكل صفة منها مستوجبة لذلك.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾، أي: فجعل هذا المرعى هشيماً يابساً متكسراً بعد أن كان غصاً رطباً، بهيجاً نضراً.

﴿أَحْوَىٰ﴾، أي: أسود بعد أن كان أخضر، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]، أي: كالليل الأسود البهيم.

وهذا مثل للحياة الدنيا وزوالها، وللعمر وفنائه، وللكافر المغتر بالدنيا وسوء عاقبه ومآله.

﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: سنقرئك يا محمد القرآن فلا تنساه، وهذا وعد منه تعالى وتطمين للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا ما شاء الله أن ينسبك إياه وينسخه، قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

وأيضاً: إلا ما شاء الله أن يقع منك من النسيان فتذكر بعد ذلك كغيرك من البشر ولهذا نسي في صلاته ﷺ وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»^(١).

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: يعلم الذي يظهره الخلق ويعلنونه والذي يضمرونه ويسرونه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة.

أي: يعلم جهرهم وإعلانهم، وإخفاءهم وإسرارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَجَّهَرُ بِالْقَوْلِ

١٨/١، «أحسن ما سمعت» ص ١٠.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٠١، ومسلم في المساجد ٥٧٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٢٠، والنسائي في السهو ١٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٠٣ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى ﴿٧﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾، أي: نوفقك للطريقة اليسرى في جميع أمورك ونسهل عليك، ونجعل شريعتك سهلة سمحة، لا حرج فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَرَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَرَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾» (١).

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: عظ الناس وذكرهم بالله وآياته وأيامه ونعمه وشرعه، والخطاب للنبي ﷺ، والأمة أسوة به في ذلك.

﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ قال بعض المفسرين: «إن» شرطية، أي: إن نفعت الذكرى فذكر، وإن لم تنفع فلا تذكّر.

وقال بعضهم: المعنى ذكر بكل حال، فإن الذكرى سوف تنفع. والأظهر أن معنى الآية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، أي: حيث نفعت الموعدة. بأن تكون الموعدة نافعة مفيدة واقعة موقعها، من غير إطالة فيها تجلب الملل، ولا إكثار منها يحدث السأم، وقد كان ﷺ يتخول أصحابه في الموعدة.

فعن أبي وائل قال: كان عبد الله - يعني ابن مسعود - يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعي من ذلك أني أكره أن أملككم، وإني أتخولكم بالموعدة كما كان النبي ﷺ يتخولنا مخافة السامة علينا» (٢).

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢١، والترمذي في الأدب ٢٨٥٥.

والعبرة بالموعظة بالكيف لا بالكم، وخير الكلام ما قل ودل، وقصير غير مخل، خير من طويل ممل.

وبأن تكون الموعظة مناسبة لمستوى عقول وأفهام المخاطبين بها، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»^(١). وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(٢).

وبأن تكون في الوقت والحال المناسبين بحيث تكون الأنفس متهيئة مقبلة فإن للنفس إقبالًا وإدبارًا، فلا تكون في وقت حاجة الناس إلى الراحة والنوم، ولهذا كره النبي ﷺ الحديث بعد العشاء الآخرة^(٣).

ولا في وقت شدة ألم وغضب، ولا في وقت شدة جوع أو ظمأ، ولا في حر أو برد مزعجين.

ولا في وقت الناس منشغلون فيه بالسلام على بعضهم البعض كما يحصل في بعض المناسبات يتكلم بعضهم ويقرأ القرآن، والناس يتوافدون ويسلم بعضهم على بعض بعد طول غيبة مع كثرة الصخب واللغط، فإذا سلم الناس بعضهم على بعض وانتظم المجلس فلا بأس بذلك بعد إذن صاحب المنزل بذلك.

ولهذا فإن الأولى عدم الموعظة بعد خطبة وصلاة الجمعة لعدة أمور:

أولاً: أن هذا مخالف لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فقد أمر الله عز وجل بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والتفرق فيها لا بتغاء الرزق من الله.

ثانياً: أن في هذا مخالفة لهديه ﷺ في كونه يتخول أصحابه في الموعظة مخافة السامة

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة - النهي عن الحديث بكل ما سمع ٥.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٦٨، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ٣٩٨، والنسائي ٤٩٥ - من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها».

والمثل عليهم.

ثالثاً: أن في الموعظة في هذا الوقت حبساً للناس وإحراجاً لهم، ففيهم ذو الحاجة والحاقدن- وبخاصة من جاؤوا في الساعات الأولى.
رابعاً: أن الموعظة بعد خطبة الجمعة قد تنسي موضوع وخطبة الجمعة ومضمونها وهو في الغالب أهم.

ويفهم من قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أنه إذا لم تنفع الذكرى ولم تجد شيئاً ولم تكن واقعة موقعها فلا ينبغي التذكير في هذه الحال.
فإذا كان المخاطب بالموعظة في حال غير مناسبة للتذكير فالأولى، بل ينبغي عدم تذكيره في هذه الحال لأنه قد يؤدي التذكير في غير وقته المناسب إلى مفسدة تفوق المصلحة المرجوة من ذلك، ولهذا قيل: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»^(١).

ومع وجوب مراعاة أن تكون الذكرى مناسبة في الوقت والحال ونحو ذلك إلا أنه لا يجوز أن يجعل من هذا ذريعة للتساهل في التذكير أو تركه، بحجة أن الذكرى قد لا تنفع فقد قال الله عز وجل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].
قال السعدي^(٢): «﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود، أو بعضه، ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأموراً بها، بل هي منهي عنها».

﴿سَيَذَكِّرُ﴾، أي: سيتعظ وينتفع بالذكرى ﴿مَنْ يَخْشَى﴾، أي: الذي يخاف الله وقيامه بين يديه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

والخشية أخص من الخوف، لأنها تدل على عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ١٢٦/٢٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦١٢/٧-٦١٣.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَيَنْجَنِيهَا﴾، أي: ويترك الموعدة جانباً ويعرض عنها بقلبه وبدنه ﴿الْأَشَقَى﴾: اسم تفضيل، أي: الذي بلغ الغاية في الشقاء، وكتب عليه ذلك، وهو الكافر، الذي لا ينتفع بالذكرى، فهذا لا سبيل إلى إسعاده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقه مثل ذلك، ثم مضغته مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»^(١).

ومن هنا ينبغي للإنسان أن يوطن نفسه في مواضع التذكير، فإنه لا يعدم فائدة وأجرًا على ذلك، وقد ضعفت أنفس كثير من الناس حتى أصبح لا يستطيع الانتظار لسماع حديثين أو ثلاثة يقرأهما الإمام بعد الصلاة، وربما وقف في الشارع طويلاً يتكلم مع الآخرين - دون أن يحسب لهذا الوقت حساباً، ولا شك أن النفس تحتاج إلى ترويض وتوطين لفعل الخير وسماعه. قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد أحسن القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم^(٢)

﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾^(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشَقَى﴾^(١٥)

[الليل: ١٤، ١٥].

أي: الذي يدخل النار الكبرى ويغمر فيها ويقاسي حرها، وهي نار الآخرة، وسميت الكبرى؛ لأنها ضوعفت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً كما قال ﷺ: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) البيت للبوصري. انظر: «البلاغة الواضحة» ص ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٣، والترمذي في

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، أي: ثم لا يموت في النار، فيستريح من العذاب.
 ﴿وَلَا يَمُوتُ﴾، أي: ولا يموت حياة طيبة، بل هي حياة شقاء وعذاب، كما قال تعالى:
 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ
 كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِقَاضٍ عَلَيْكَ تَارِكٌ قَالَ إِنَّكُمْ تُكْتَبُونَ ﴿٧٧﴾﴾
 [الزخرف: ٧٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجاء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان في البادية»^(١).

وهذا الحديث يدل على أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أهل النار الذين هم أهلها، وهم الكفرة المخلدون فيها.

الفوائد والأحكام:

- ١- وجوب تسبيح الرب سبحانه وتعالى لأمر الله عز وجل نبيه بذلك وهو أمر له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾.
- ٢- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ.
- ٣- إثبات اسم الله «الأعلى»، وصفة العلو المطلق له عز وجل؛ علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿الْأَعْلَىٰ﴾.
- ٤- كمال عظمة الله عز وجل وقدرته، فهو الذي خلق الخلق فسواه، وقدر مقادير الخلق، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وأخرج النبات، ثم جعله أسود يابساً؛ لقوله تعالى:

صفة جهنم ٢٥٨٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحد ٣/٥، ١١، ٢٠.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

٥- الرد على القدرية القائلين بأن الله لم يقدر أفعال العباد.

٦- الإشارة إلى أن الحياة الدنيا متاع قليل، وإلى قصر عمر الإنسان فيها، لقوله

تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

٧- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بأن يقرئه القرآن فلا ينسى، إلا ما شاء الله أن

ينسيه إياه مما ينسخه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

٨- إثبات المشيئة والإرادة لله - عز وجل - وأنه - عز وجل - قد ينسي نبيه ما شاء

وينسخ ما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

٩- علم الله عز وجل بما يجهر به الخلق وما يخفونه، وما يُظهر وما يُسر؛ لقوله

تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

١٠- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بتيسيره لليسرى في شريعته وفي أمور دينه

ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

١١- أمر الله عز وجل لرسوله بالتذكير حيث تنفع الذكرى، وهو أمر له ﷺ

ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾.

١٢- ينبغي أن يكون التذكير في الوقت المناسب والحال المناسب.

١٣- إنما يتذكر ويتنفع بالموعظة من يخشى الله عز وجل، ويصرف عنها الأشقي

الذي هو من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَىٰ ﴿١١﴾﴾.

١٤- إثبات وجود النار الكبرى، نار الآخرة وأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لنار

الآخرة، فهي النار الكبرى العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾.

١٥- أن المعذب في النار لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل هو في شقاء أبدي

وعذاب سرمدي - نسأل الله السلامة والعافية - لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ .
قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ «قد»: حرف تحقيق «أفلق»: فاز ونجح ونجا من المرهوب وظفر بالمطلوب؛ زحزح عن النار وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَنْ تَزَكَّى﴾، أي: الذي تطهر، أي: طهر نفسه ظاهراً وباطناً من الشرك والمعاصي، وطهرها بالعمل الصالح ومن ذلك أداء زكاة المال وزكاة الفطر، وغير ذلك.
﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بأنواع الذكر من التسيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة.
﴿فَصَلَّى﴾، أي: فصلى الصلوات الخمس في أوقاتها، وغيرها من الصلوات، كصلاة العيد وغيرها.

وفي عطف قوله: ﴿فَصَلَّى﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ دلالة على عظم منزلة الصلاة بين أنواع الذكر؛ لأن الصلاة من ذكر الله، فهذا من عطف الخاص على العام.
وقد حمل بعض المفسرين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ على أداء زكاة الفطر، وقوله: ﴿فَصَلَّى﴾ على أداء صلاة العيد، والآية أعم من هذا، فهي تشمل هذا وغيره.
وفي تقديم قوله: ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ إشارة إلى أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد. كما أن في ذلك إشارة إلى عظم حقوق الخلق؛ لأن في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾: حثاً على الإحسان إلى عباد الله.

كما أن في قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾: حثاً على الإحسان في عبادة الله عز وجل.
وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي.

قرأ أبو عمرو بالياء: «يؤثرون»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾.

أي: تقدمون الحياة الدنيا، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة وسميت هذه الحياة «الدنيا»؛ لقربها، فهي قبل الآخرة؛ ولهذا سميت الأولى، كما قال

تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

ولأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة.

والمعنى: بل تقدمون الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فتعملون للدنيا وتركون العمل للآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، وقال: «أثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم، فقال: أثرنا الدنيا؛ لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل»^(١).

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: والدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى منها كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فالدنيا لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٣٨]. وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(٣).

وذلك أن الدنيا دار كبد ونكد ونصب، دار الهموم والأحزان والمصائب، والآخرة لمن وفقه الله دار النعيم والثواب والسرور والحبور.

والآخرة أبقى من الدنيا؛ لأن الدنيا تفنى وتزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتَيْنَاهَا امْرَأًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٣٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ - من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه أحمد ٦ / ٧١.

كَانَ لَمْ تَغْفِكَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ [الكهف: ٤٥].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بأخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، فأثروا ما يبقى على ما يفنى»^(١).

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ ﴿١٧﴾ وَأَبْقَى﴾.

رُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: هل عندنا مما في صحف إبراهيم؟ فقال ﷺ: «نعم»، وقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾^(٢).
ويحتمل رجوعه إلى قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾
ويحتمل رجوعه إلى كل آيات السورة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى»^(٣).

والصحف: جمع صحيفة، و«الأولى» بمعنى الصحف السابقة المتقدمة.
وصحف إبراهيم: هي ما أنزله الله عز وجل على نبيه وخليله إبراهيم - عليه السلام - سهاها الله «صحفاً» هنا وفي قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

(١) أخرجه أحمد ٤١٢/٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/١٦٦ - ١٦٩ من حديث طويل وقد ذكر الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» قطعة منه في باب الترهيب من الظلم وفي باب الترغيب في الصمت، وقال في

آخره: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: «صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه النسائي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٤٠٥.

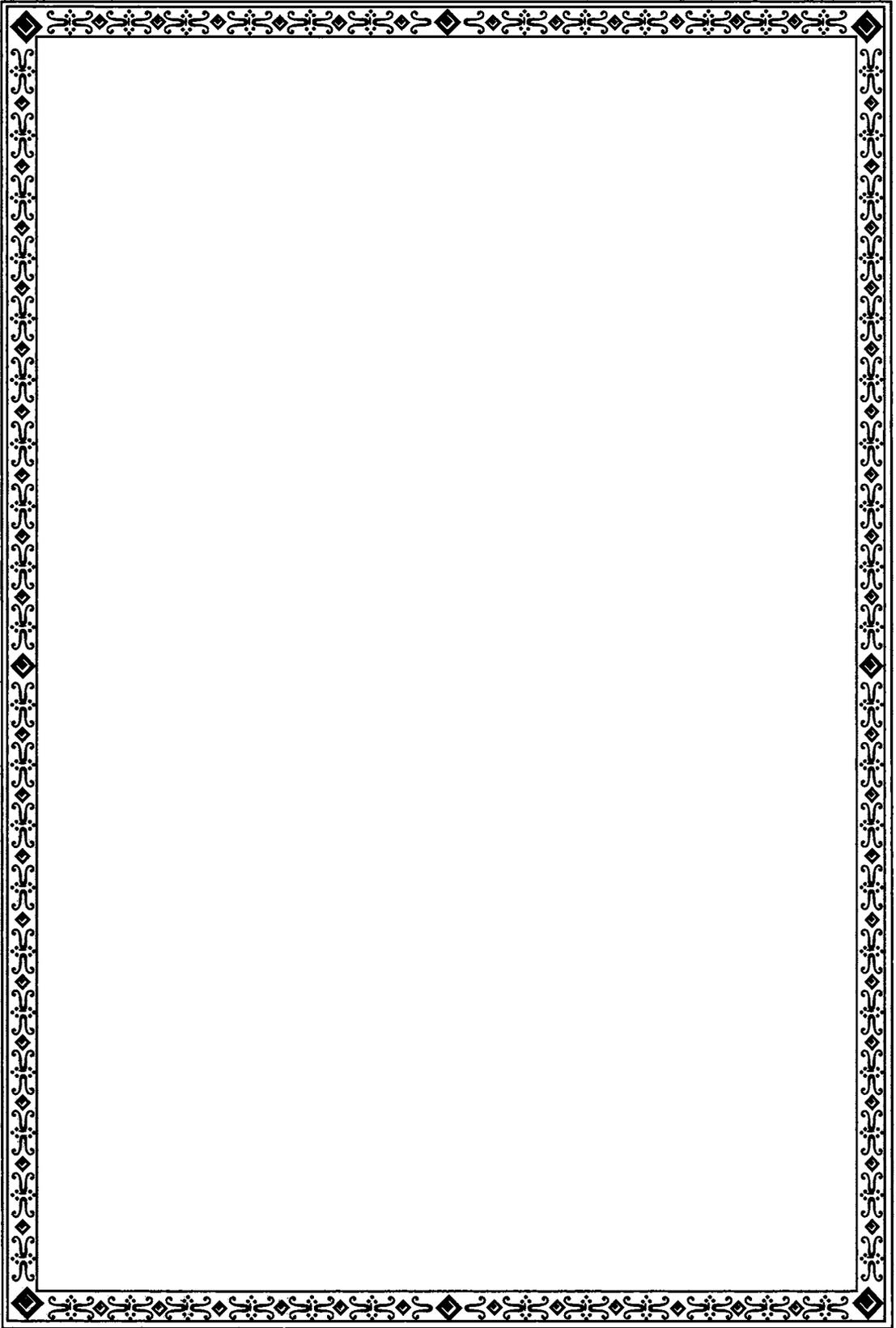
ولم يرد تسميتها باسم كتاب معين كالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل.
 وصحف موسى هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه السلام، كما
 قال الله عز وجل عن القرآن: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِيَاذِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾
 [عبس: ١٣-١٦].

ويؤخذ من هذا التوافق بين القرآن الكريم وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من
 الكتب السماوية وبخاصة في أصول الشرائع حيث اشتمل القرآن على كل ما في هذه
 الكتب من أصول الشرائع والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر وبهذا صار مهيمناً
 عليها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
 وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفوائد والأحكام:

- ١- تحقيق فلاح من زكى نفسه وماله، وذكر اسم ربه وصلّى له، وفوزه بالمطلوب
 ونجاته من المهوب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾.
- ٢- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة - لمن تطهر وذكر اسم ربه وصلّى له؛
 لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.
- ٣- إيثار كثير من الناس وتقديمهم للحياة الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة
 العظيمة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٤- إثبات اليوم الآخر والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
- ٥- الترغيب في الاستعداد للآخرة التي هي خير وأبقى، وهي الحياة الحقيقية؛
 لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
- ٦- توافق الكتب السماوية في أصول الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ
 الْأُولَى﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.
- ٧- إثبات صحف إبراهيم وموسى؛ لقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، واشتمالها
 على ما جاء في هذه السورة أو بعضه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الغاشية» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
الْغَاشِيَةِ﴾ (١).

وتسمى: «سورة هل أتاك حديث الغاشية»، و«سورة هل أتاك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم
الجمعة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، و: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وربما اجتمعا
في يوم واحد فقرأ بهما^(١) وفي رواية عن الضحاک بن قيس أنه سأل النعمان بن بشير رضي
الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
الْغَاشِيَةِ﴾ (٢).

د- موضوعاتها:

١- بيان حال الكفار والمؤمنين يوم القيامة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) و﴿وَجُوهُ
يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٢) و﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) لِسَعْمِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ﴾ (١٠) إلى قوله: ﴿وَنَارُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥) و﴿زَرَأِي مَبْنُوتَةٌ﴾ (١٦).

٢- توبيخ الكفار لعدم نظرهم في دلائل عظيم قدرة الله تعالى في خلقه: ﴿أَفَلَا
يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٣، والنسائي في الجمعة ١٤٢٣، وابن ماجه في إقامة
الصلاة ١١٩.

٣- تسليته ﷺ وتقوية قلبه، وبيان أن مهمته التذكير، وليس إليه هداية القلوب،
 والوعيد للكافرين: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى
 وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيِنَةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ⑧ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ⑨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَّةٌ ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ⑭ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ⑮ وَزُرَّاقٌ مَبْتُوثَةٌ ⑯ ﴾ .

قوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾، الاستفهام: للتنبيه والتعظيم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب. وهذا كقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ⑫ ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ⑮ ﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑰ ﴾ [فِرْعَوْنَ وَتَمُودَ ⑱] [البروج: ١٧، ١٨].

أي: هل جاءك نبأ وخبر الغاشية، وهي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها، وتذهلهم بشدتها.

ولهذا ذكر بعد هذا أحوال الناس فيها وانقسامهم إلى فريقين، فقال تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَزُرَّاقٌ مَبْتُوثَةٌ ﴾

قوله: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾، أي: وجوه في ذلك اليوم ذليلة من الخزي والفضيحة، وهي وجوه الكفار والمكذبين، فهم في ذلك اليوم أشد ما يكونون ذلاً وخوفاً كما قال تعالى: ﴿ وَرَرَّوهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾، أي: عاملة في ذلك اليوم عملاً يكون فيه النصب والتعب من جر السلاسل والأغلال الثقيلة والخوض في العذاب في نار جهنم.

وقيل: قد عملت في الدنيا عملاً كثيراً، نصبت وتعبت فيه لكنه لم ينفعها، لأنه عمل غير صالح، ليس خالصاً لله ولا على سنة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ⑲ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ⑳ ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

عن أبي عمران الجوني قال: «مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٢) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ فذاك الذي أبكاني» (١).

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أن دلالة السياق على المعنى الأول أظهر، لأن السياق في أهوال وأحوال القيامة.

وهذا المعنى الذي أشار إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - موجود في بعض المنتسبين إلى الإسلام، كمن يزكي ويصوم ويحج، ويعمل بعض الطاعات لكنه يقع في الرياء والشرك، أو لا يصلي ونحو ذلك، فهذا عمله يذهب هباءً منثورًا.

كما أنه قد يفوت على كثير من المسلمين أجر كثير من الأعمال التي يقومون بها في خدمة الأمة والقيام بمسؤولياتها كالتدريس والأعمال الوظيفية في الوظائف الشرعية وغيرها بسبب غياب النية والاحتساب مما يسبب أيضا مع فوات الأجر التبرم من العمل والإحباط وانحطاط المعنويات وانتظار التقاعد المبكر، وما علموا أن العمل في خدمة الأمة ومصالحها جهاد يؤجرون عليه إذا هم أخلصوا النية وأحسنوا العمل.

فوا أسفا على أعمار وأعمال تضيع سدى بسبب غياب النية والاحتساب فهذا موظف يشكو من الدوام، وهذا مدرس يشكو من النصاب، وهذا إمام ومؤذن يشكو من الارتباط وهكذا وكل هذا بسبب غياب حسن النية والاحتساب.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس، احتسبوا أعمالكم، فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر احتسابه» (٢).

وقال معاذ رضي الله عنه: «فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي» (٣).

فيا أخي الكريم لتربح جميع عمرك أحسن العمل واستحضر النية الصالحة في عملك وفي جلوسك مع أهلك وأولادك وإخوانك، وفي أكلك وشربك ونزهتك

(١) أخرجه أبو بكر البرقاني - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، «لسان العرب»، مادة «حسب».

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٤١ - من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

وبيعك وشرائك ونومك وجميع أحوالك في أمور دينك ودنياك، ولا تكن من الغافلين. واعلم أن الموقنين عاداتهم عبادات، وأن المخذولين عباداتهم عادات. وانظر أين أنت من هؤلاء وهؤلاء.

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بضم التاء: «تُصَلَّى»، وقرأ الباقر بفتحها: ﴿تَصَلَّى﴾، أي: تدخل نارًا شديدة الحرارة تغمرها من كل جانب، وتُقلَّب فيها.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ﴾، أي: تسقى من عين بالغة الغاية في الحرارة.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آيٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾، أي: ليس لهم في النار طعام يأكلونه.

﴿إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾، أي: إلا طعامًا من ضريع، وهو شجر في النار خبيث، شديد المرارة، متن الرائحة، كثير الشوك، ينشب في الحلق، كما قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ سَجْرَتَ الزَّقْوِمِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ﴾، أي: لا يحصل به سمن الجسم، ولا يدفع الجوع، ولا ينفع الجسم لا ظاهراً ولا باطناً، فمسكنهم النار الحامية، وشرابهم المهل والحميم، وطعامهم الضريع والزقوم، فبئس الحال والمآل.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ذكر في الآيات السابقة حال ومصير وعذاب الأشقياء وهم الكفار المكذبون ثم أتبع ذلك بذكر حال ومصير ونعيم السعداء، وهم المؤمنون، فقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَرَأِي مُبْتُوئَةٌ﴾.

قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿نَاعِمَةٌ﴾، أي: تظهر عليها آثار الترف والنعمة، ونضارة النعيم، وبهجة القلوب وسرورها، وهي وجوه المؤمنين.

﴿لَسَعِبَهَا رَاضِيَةٌ﴾، أي: لعملها الذي قدمته في الدنيا.

﴿رَاضِيَةٌ﴾؛ لأنه كان سبب دخولها الجنة وتنعمها فيها، وسعادتها في دنياها وأخرها.

﴿فِي جَنَّةٍ﴾ الجنة: دار النعيم التي أعدها الله لأولياته المتقين وحزبه المفلحين ﴿عَالِيَةٍ﴾، أي: رفيعة المنزلة، فوق السموات في أعلى عليين وسقفها عرش الرحمن، قال تعالى: ﴿لَهُمْ عُرُشٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرُشٌ مَّبْنِيَةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] وهي عالية أيضًا، أي: عظيمة القدر. ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء المضمومة: «لا يُسمع»، و«لاغية» بالرفع، وقرأ نافع بالتاء المضمومة: «تُسمع»، وقرأ الباقون بالتاء المفتوحة: ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ ونصب: ﴿لَغِيَةً﴾، أي: لا تسمع في الجنة كلمة ساقطة، أو لا معنى لها.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، ﴿عَيْنٌ﴾: اسم جنس، أي: فيها عيون جاريات، أي: سارحات، تجري بغير أخذود، يفجرونها، ويشربون منها، ويصرفونها كيف شاءوا كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

منها: عين التسنيم، والكافور والسلسبيل، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [٢٧] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُفَرِّقُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [٥] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك» (١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٤٠٨/٨.

وهذه العيون والأنهار تجري في غير أخطود.

قال ابن القيم^(١):

أنهارها في غير أخطود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿فِيهَا سُرٌّ﴾، السرر: جمع سرير، وهي موضع الجلوس والاضطجاع.

﴿مَرْفُوعَةٌ﴾، أي: عالية مرتفعة السمك، كثيرة الفرش، ناعمة الملمس، عليها الخور

العين، فهي مرفوعة مرتفعة حسًا ومعنى.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾: أقداح معدة للشراب.

﴿وَنَارِقٌ﴾ نارق: جمع نمرقة - بكسر النون، أي: وسائد ومرافق يتكأ عليها

﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، أي: مصفوف بعضها إلى بعض، فجمعت بين لذة الاتكاء إليها وجمال

الصف، وحسن الترتيب.

﴿وَزَرَائِبٌ﴾، أي: وبسط جميلة فاخرة.

﴿مَبْتُوثَةٌ﴾ مفرقة مبسوطة في المجالس ههنا، وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «ألا

مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلأأ، وريحانة تهتز، وقصر

مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام

أبدًا في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية»، قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله،

قال: «قولوا إن شاء الله»، ثم ذكر الجهاد وحض عليه^(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ

حَدِيثُ الْغَدِيشَةِ﴾.

٢- تشریف الله - عز وجل - لنبيه ﷺ في خطابه له، وتنبئيه وأتمه لعظيم يوم

(١) انظر «النونية» ص ٢٢٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣٣٢.

القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾.

٣- انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: فريق وجوههم ذليلة مصيرهم النار الحامية وما فيها من ألوان العذاب، وفريق وجوههم ناعمة مصيرهم الجنة وما فيها من أصناف النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ الآيات.

٤- ذلّ المعذبين وعملهم ونصبهم بجر السلاسل والخوض في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.

٥- عمل الكفار وأهل البدع أعمالاً كثيرة ونصبهم فيها، لكنها لا تنفعهم، بل تكون هباءً منثوراً.

٦- الجمع للمعذبين بين اصطلاء النار الحامية، وشراب الحميم، وطعام الضريع المتن المر الذي ينشب بالخلق، ولا يسمن ولا يغني من جوع؛ لقوله تعالى: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيعٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

٧- نعومة وجوه أهل الجنة؛ لعظم ما هم فيه من النعيم المعنوي والحسي؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾.

٨- رضى المنعمين في الجنة عن سعيهم، وما أعد لهم، وهذا من أعظم النعيم المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

٩- علو الجنة ومنازلها ورفعة سررها وفرشها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

١٠- سلامة أهل الجنة من المنغصات والمكدرات، ومن سماع اللغو لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾.

١١- عظم ما أعد لأهل الجنة من ألوان النعيم، فعيون جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ووسائد مصفوفة، وبسط مفرقة مبسوطة في المجالس؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَوَاجٍ مُتَبَوِّئَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

بعد ما ذكر عز وجل انقسام الناس يوم القيامة إلى أشقياء وسعداء، وذكر حال ومآل كل منهم وما أعد له من الجزاء، أتبع ذلك بالأمر بالتأمل والنظر في عظيم مخلوقاته، الدالة على كمال قدرته وعظمتها، واستحقاقه للعبادة وحده وقدرته على بعث الناس وحسابهم.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمكذبين بالبعث المنكرين للمعاد.

أي: أعموا فلا ينظرون نظر تأمل وتفكر ﴿إِلَى الْإِبِلِ﴾ هذه المخلوقات العجيبة التي بين أيديهم يركبونها ويحلبونها ويأكلون لحمها، ويتفجعون بأوبارها وجلودها وغير ذلك من منافعها.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، أي: كيف خلقت على هذه الكيفية العظيمة من كبر الأجسام وقوتها، وتركيبها الغريب العجيب، ولين انقيادها، وشدة صبرها وتحملها، وكثرة منافعها، تحمل الركاب والأثقال، ويستخرج بها الماء من الآبار، وتشرب ألبانها، التي تعد من أنفع وأحسن الأغذية للجسم كما يستشفى بألبانها وأبوالها من الحمى ومن كثير من الأمراض المستعصية والجلدية وغيرها، وتؤكل لحومها، التي هي أنفع اللحوم وأجودها؛ وأصحها؛ لأنها لا تتغذى بالنجاسات ولا تأكلها مطلقاً ولو ماتت جوعاً. ويتنفع بوبرها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها العظيمة وفوائدها الكثيرة؛ ولهذا خصها بالذكر من بين سائر بهيمة الأنعام، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا حَقَّقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَافِيهِ إِلَّا سِيقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧].

فتحمل الأثقال العظيمة، بل من قوة هذه الإبل أن الأثقال تحمل عليها وهي

باركة، ثم تقوم بحملها، وهذا من عناية الله عز وجل بالإنسان، حيث لا يمكنه الحمل عليها وهي قائمة لارتفاعها، فأعطاها الله عز وجل هذه القوة وأقدرها على القيام بحملها، كما أقدرها على قطع المسافات الطويلة، وتحمل شدة الحر والظمأ وشدة البرد وظروف الحياة الصحراوية القاسية على اختلاف فصول السنة، ويقال أنها تصبر عن الماء وتحمل العطش نحو عشرة أيام في شدة الحر.

وتدل صاحبها إذا تاه عن الطريق، كما تدله إلى مورد الماء، وتفي لصاحبها إذا أحسن إليها، وتتفم منه ولو بعد حين إذا أساء إليها، وتتحاشى في سيرها وطء أي كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

وقد ذكر أن رجلاً كان يسير خلف جملة في الصحراء في آخر الليل وكان مجموعة من اللصوص «الحنشل» نائمين في وسط الطريق لعل أحداً يأتي فيأخذوا ما معه، فأبصرهم الجممل وتنحى عنهم جانباً، أما صاحبه فاستمر في طريقه حتى وقع عليهم، فقاموا وأخذوا جملة وما معه.

ويقال: إنها إذا فقدت فصيلها بين الإبل رجعت إلى آخر مكان درّت فيه على ولدها وأرضعته فيه ولا تكاد تحطى ذلك غالباً، وهو كذلك إذا كان يستطيع المشي، يبحث عنها في آخر مكان رضعها فيه. وتحزن وتصاب بحالة نفسية عندما يؤخذ وليدها، أو يذبح أمامها جمل آخر، وتحس بمصدر الخطر على أهلها إذا أقبل وجهته فتسرع في السير إن كانت في مسير، وتشنف آذانها وتمد عنقها وتضطرب وتنهض إذا كانت باركة إنذاراً لأهلها بالخطر.

وأهل الإبل يعرفون من عجائب أحوالها الشيء الكثير.

لكن مما يستغرب من الإبل مع ما ذكر عنها عدم ابتعادها عن السيارات في الطرقات العامة بينا كثير من الحيوانات تبتعد عنها. فقد يكون هذا بسبب غرورها وكبرياتها واعتدادها بقوتها أو غير ذلك.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: معطوف على الإبل، أي: وينظرون إلى السماء كيف رفعها الله عز وجل فوقهم بلا عمد، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

[الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الجبال كيف نصبت، أي: كيف جعلت منصوبة قائمة أمام أعينهم راسخة راسية في الأرض لثلاثاً تميد بأهلها في وسط الماء المحيط بها من كل جانب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].
وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، مع ما أودع الله فيها من المنافع من المعادن وغيرها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن ما نشاهده من الجبال فوق سطح الأرض هو مقدار ثلثها فقط، وثلثاها راسخة في الأرض.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الأرض كيف سطحت، أي: كيف بسطت ومدت ومهدت وفرشت، فجعلت مسطحة يسهل العيش والبناء عليها وزراعتها والاستفادة من خيراتها مع أنها في الأصل كروية الشكل، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّوْنَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

فوجه الله عز وجل العرب إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية التي بين أيديهم ويشاهدونها: الإبل التي يركبونها، ويحملون عليها أثقالهم، ويحلبونها ويأكلون لحومها، ويتنفعون بأوبارها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها، وإلى السماء التي فوقهم، وإلى الجبال المنصوبة أمام أعينهم، وإلى الأرض التي يعيشون عليها ويسرون، ويتنفعون بخيراتها، وهذا أدعى لقبولهم، وأقوى في قيام الحجة عليهم.

وكان شريح القاضي رحمه الله يقول لأصحابه: «اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت»^(١).

وهذا بخلاف ما لو وجهت أنظارهم لما لم يكن مشاهدًا لهم ولا معلومًا مما جد من المخترعات والمصنوعات من السيارات والطائرات وانتقال الأصوات بواسطة الآلات،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/٤٠٨-٤٠٩.

وغير ذلك مما هو داخل تحت قوله عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾ [النحل: ٨].
وعن أبي تيمية عن رجل من قومه أتى النبي ﷺ أو قال شهدت النبي ﷺ وأتاه رجل
فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم» قال: إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى
الله عز وجل وحده، من إذا كان بك ضر دعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام سنة
دعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قفر، فأضللت فدعوته رد عليك..» (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان
يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل
البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال:
«صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»،
قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق
السماء والأرض ونصب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن
علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك
بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق»، قال:
فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت
من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «صدق»، قال: ثم ولي، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد
عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة» (٢).

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: ذكر الناس يا محمد، أي: عظمهم بما أنزل الله إليك من الكتاب
والحكمة، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى:
﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].
﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾، ﴿إِنهَا﴾: أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه

(١) أخرجه أحمد ٤/٦٥.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في العلم - ما جاء في العلم ٦٣، وأخرجه موصولاً مسلم في الإيثار - في بيان
الإيمان بالله وشرايع الدين ١٢، والنسائي في الصيام - وجوب الصيام ٢٠٩١، والترمذي في أبواب
الزكاة - ما جاء إذا أدت الزكاة فقد قضيت ما عليك ٦١٩.

عما عداه، أي: ما أنت إلا مذكر فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَاعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقد ذكر ﷺ وبلغ البلاغ المبين حتى أتاه من ربه اليقين، وكان يردد ﷺ وهو يجود بنفسه «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»^(١).

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾، أي: لست يا محمد على الناس بمتسلط جبار تكرههم على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل ثم قرأ: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢)».

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم محمد ﷺ، سيدهم وأفضلهم هي التذكير وتبليغ الدعوة فقط، وهكذا مهمة الدعوة إلى الله والمصلحين والمرين، أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب.

وفي هذا تسلية له ﷺ وهي تسلية للدعاة والمصلحين من أمته؛ لأنه إذا كان ﷺ تمرد عليه من تمرد من قومه بل من قرابته، وقال الله عز وجل له: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ مع أنه مرسل من عند الله عز وجل مؤيد بالوحي، فتمرّد كثير من الناس على الدعوة من بعده من باب أولى وأحرى.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من أعرض عن اتباع الحق

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/٢٩٠، ٣١١، والبخاري في «معالم التنزيل» ١/٤٢٦ - من حديث أم سلمة - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان - الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

والعمل به بيدنه وجوارحه، ﴿وَكَفَرَ﴾، أي: وجحده بقلبه ولسانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَٰٓءَ ۖ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٣٣﴾ [القيامة: ٣١-٣٢].

﴿فِعَذَابُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو عذاب الآخرة في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي»، قالوا: يا رسول الله، و من يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي» (١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كل كلم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله» (٢).

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾ في هذا وعد لمن آمن، ووعد لمن كفر، كما أن فيه تسلية للرسول ﷺ تجاه من تولى وكفر من قومه.

قرأ أبو جعفر بتشديد «الياء»: «إِيَابَهُمْ»، وقرأ الباقر بتخفيفها: ﴿إِيَابَهُمْ﴾. أي: إلينا رجوعهم ومآبهم ومصيرهم، وعلينا طريقهم ونحن لهم بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾ ﴿١٤﴾ [الفجر: ١٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾، أي: ثم إن علينا محاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

لكن المؤمنين يحاسبون حساباً يسيراً، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه، فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟، فيقول: نعم ربي، فيقول الله عز

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٢٥٨.

وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

وأما الكافرون فيحاسبون حساباً عسيراً كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ
يَلَيِّنَنِي لَأُوتِيَ كِتَابِيَّةً ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَدْرِمَ مَاحِشَايَةَ ﴿٦٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ تَرَاهُ جَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٢].

فتحصى عليهم أعمالهم ويناقشون عنها أمام الملائة وعلى رؤوس الأشهاد، ويقال:
﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «من نوقش الحساب هلك»، وفي
رواية: «عذب»^(٢).

الفوائد والأحكام:

- ١- الحث على النظر والتأمل في آيات الله ومخلوقاته العظيمة، والإنكار على من يغفل عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾.
- ٢- عظم آيات الله عز وجل وتما قدرته في خلق الإبل ورفع السماء، ونصب الجبال وسطح الأرض.
- ٣- مخاطبة الناس بما يعرفون فقد وجه الله العرب للنظر فيما بين أيديهم من المخلوقات إقامة للحجة عليهم ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾.
- ٤- أن مهمة الرسول ﷺ والواجب عليه، وعلى أتباعه التذكير، وهداية الناس بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.
- ٥- أن الرسول ﷺ ليس بمسلط على الناس يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٤٩٣٩، وفي الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

٦- الوعيد لمن تولى وكفر بالعذاب الأكبر يوم القيامة عذاب النار؛ لقوله تعالى:

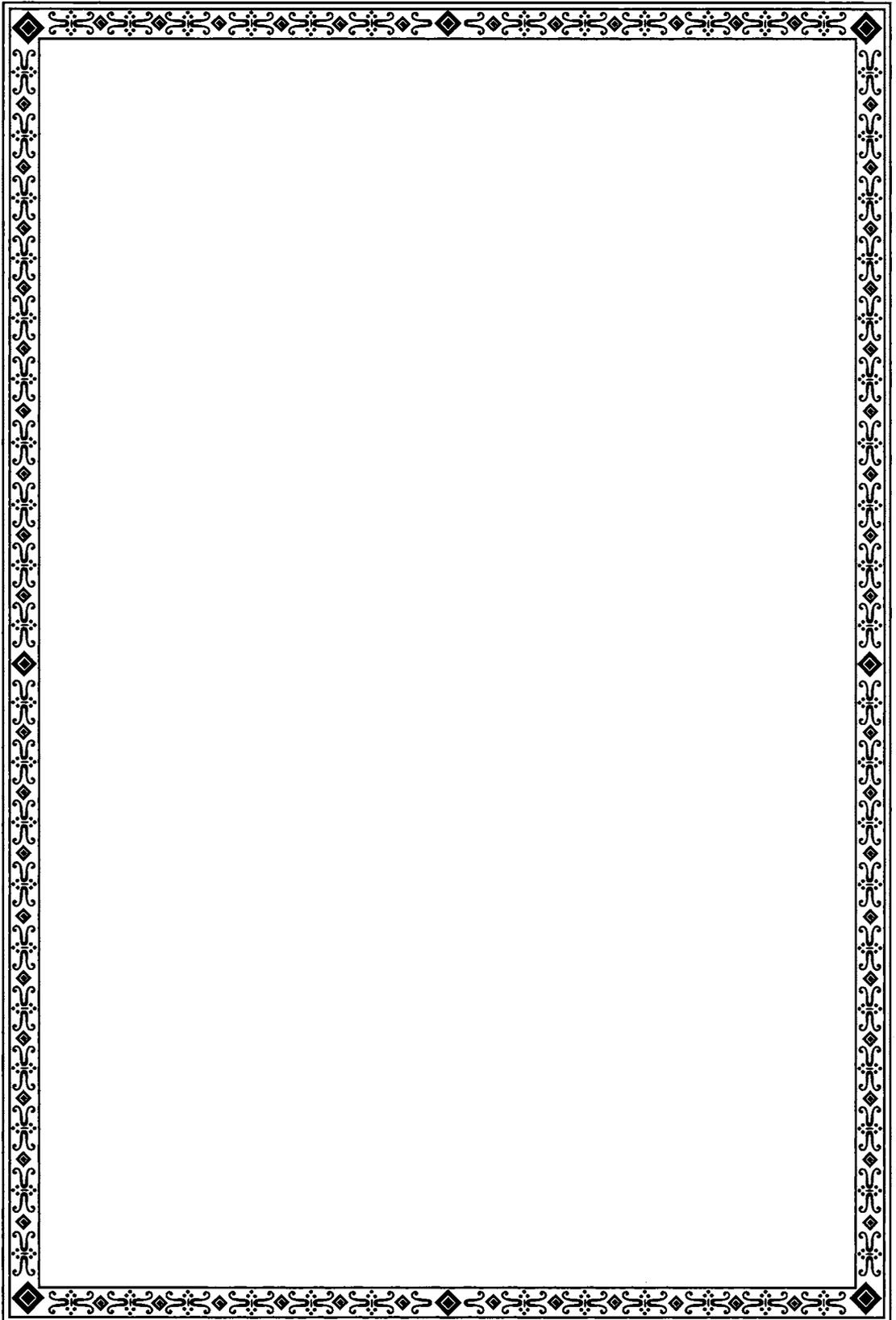
﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤).

٧- أن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله عز وجل وعليه حسابهم،

ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٥).

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَجْرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفجر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه: «صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذًا، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه، فطوّل عليّ فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١﴾» (١).

د- موضوعاتها:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر وما عطف عليه تعظيمًا لذلك: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١﴾.

٢- التذكير بما حل من العقوبات بعباد وثمود وفرعون بسبب استكبارهم

وكفرهم وطغيانهم وفسادهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لِيَالْمُرْصَادِ ١٤﴾.

٣- بيان طبيعة الإنسان إنسان حاله ومقاله عندما بالسراء والنعمة، وعندما يبتلي

بضد ذلك: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ، فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَحْمَةً أَوْ كَرَمًا ١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦﴾.

(١) أخرجه النسائي بهذا اللفظ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤١٢/٨. وقد سبق تحريجه في تفسير سورة الأعلى، وليس فيه: «والفجر».

٤- الحث على إكرام اليتيم وإطعام المسكين، وعدم الافتتان بأكل التراث وحب المال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨﴾ وَأَكَلْتُمُ التَّرَاثَ أَكَلًا لَمًّا ۝١٩ وَتَحْتَضِرُونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾

٥- التهديد بأهوال القيامة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۝٢٣﴾.

٦- تذكر الإنسان عمله، وندم المفرط على تفريطه، ومجازاة كل بما عمل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۝٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا ۝٢٦﴾ يَتَابَعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۝٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ۝٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾.

قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾.

الواو: حرف قسم وجر، و«الفجر» وما عطف عليه وهو قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾ كل ذلك مقسم به مجرور، والله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما فيها من الدلالة على عظمته هو، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو الصبح والنور الساطع الذي يكون متصلًا بالأفق الشرقي ويمتد شمالًا وجنوبًا، قبل طلوع الشمس بساعة ونصف إلى ساعة وربع تقريبًا حسب اختلاف الفصول، وهو الفجر الصادق الذي لا ظلمة بعده، بل يتلوه طلوع الشمس، وهو وقت عظيم؛ لأنه وقت إقبال ضوء النهار وإدبار ظلمة الليل، ووقت صلاة الفجر، التي قال الله عنها: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهو وقت إمساك الصائم عن المفطرات.

وعُرِّفَ «الفجر» باللام؛ لأنه معروف لكل أحد.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: عشر ذي الحجة، والمراد أيامها، أقسم الله عز وجل بها؛ لعظيم فضلها، قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»^(١).

(١) أخرجه البخاري في العيدين - فضل العمل في أيام التشريق ٩٦٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧ - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

وقيل: إن المراد بهذه الليالي العشر الاواخر من رمضان، لقوله: «وليل»، ولم يقل «وأيام» فأقسم الله عز وجل بهذه الليالي؛ لشرفها وفضلها؛ لأن فيها ليلة القدر، وكان الرسول ﷺ يقومها ويعتكف فيها ويرغب في ذلك.

﴿وَالشَّفْعُ﴾ يوم النحر ﴿وَالْوَتْرُ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو: ﴿وَالْوَتْرُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَالْوَتْرُ﴾ بفتحها ﴿وَالْوَتْرُ﴾ يوم عرفة.

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»^(١).

وقال بعض المفسرين: الشفع الخلق كله، والوتر: الخالق سبحانه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(٢).

وقال بعضهم: الشفع والوتر: المخلوقات منها شفع ووتر، وكذلك العبادات كلها منها ما هو شفع، ومنها ما هو وتر، أي: في عددها فالصلاة منها ما هو شفع كالثنائية والرباعية، ومنها ما هو وتر كالثلاثية.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر»^(٣).

قال ابن القيم^(٤): «هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفات وتر، وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٣٤٨. قال ابن كثير في «تفسيره»: «إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة».

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٤٣٧، والترمذي في تفسير سورة الفجر ٣٣٤٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٣٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٢٣.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/٢٠٦-٢٠٧.

وتر، والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وترًا، وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع.. إلى أن قال: وذكرت أقوال آخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين: أحدها أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات، والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق».

﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَسَّرَ﴾، أي: والليل إذا سار ومضى وذهب وأدبر.

والسرى: السير في الليل، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى»
ويحتمل أن المعنى: والليل إذا أقبل بظلامه فيكون عز وجل أقسم بالليل إذا أقبل بظلامه وبالفجر إذا أقبل بضياؤه، كقوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا عَسَّسَ ۝١٧ وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

فأقسم عز وجل بالليل في سريه إقبالا وإدبارا؛ لما فيه من الآيات العظيمة، والأوقات الفاضلة من أوقات الصلوات والنزول الإلهي، وغير ذلك.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾، «هل»: حرف استفهام، للتحقيق والتقرير.

﴿فِي ذَلِكَ﴾ الإشارة للقسم السابق، وما أقسم به.

﴿لِذِي حِجْرٍ﴾، أي: لصاحب عقل ولب وحجًا وبصيرة.

وسُمي العقل حجرا؛ لأنه يحجر على صاحبه ويمنعه عما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

والمعنى: في هذا القسم الذي أقسم الله به في هذه الآيات أعظم الإقناع والكفاية لمن كان ذا عقل ولب وألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: ألم تعلم

كيف فعل ربك بهم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

و«عاد إرم» هم أولاد عاد بن إرم ينتهي نسبهم إلى نوح عليه السلام، وهم عاد الأولى أرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام ومنازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾: عطف بيان، أي: صاحبة العمد، نسبة إلى الأعمدة الشديدة الطويلة

التي ترفع بها بيوت الشعر والخيام التي يسكنونها.

﴿أَلَيْسَ لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ﴾، أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في جميع البلاد، من

حيث كبر وطول أجسامهم وعظم خلقهم وقوة تركيبهم، وشدة قوتهم وبطشهم، حتى إنه رُوي أن الواحد منهم يحمل الصخرة العظيمة فيلقبها على الحي فيهلكهم؛ ولهذا ذكّرهم نبي الله هود عليه السلام بهذه النعمة التي خصهم الله بها من بين أهل بلادهم وزمانهم؛ ليشكروا الله تعالى على ذلك فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا عِوَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩].

لكنهم لم يزدادوا بهذه النعمة إلا استكباراً في الأرض، وعتوّاً وتجبراً، وتكديباً لـ«هود» عليه السلام، وجحوداً لآيات الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [فصلت: ١٥].

وحيث كانوا يفتخرون ويتعاضمون بقوتهم أهلكتهم بالطف الأشياء وهي الريح العقيم وجعلهم عبرة لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَجْرَارٌ مَنحَلٍ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿وَتَمُودَ﴾: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام.
﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ﴾، أي: الذين قطعوا الصخر ونحتوها وخرقوها؛ لما أعطاهم الله من قوة، قال تعالى: ﴿وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَدَرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ [الشعراء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ [الحجر: ٨٢].

ومنه قوله في الحديث: «مجتابي النهار»^(١)، أي: مقطعو النهار^(٢) وخرقوها.

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧ - من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) النهار: هي الأزر والشمال المخططة من صوف.

﴿بِالْوَادِ﴾، أي: بواد القرى، وادي الحجر شمال الجزيرة.

وقد كذبوا صالحًا عليه السلام، وعصوا أمر الله عز وجل، وعقروا الناقة التي أرسلها الله عز وجل لهم آية إجابة لطلبهم، وقد أهلكهم الله عز وجل بالصيحة والصاعقة والرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أعماق أجوافهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَاتِنَاهُمْ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمُ صَيعَةً الْعَذَابِ أَلْوَنَ ﴿٧٦﴾ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥٠﴾﴾ [الحاقة: ٥].
ومساكنهم معروفة الآن وهي المسماة الآن «مدائن صالح» في العلا شمال الجزيرة، وقد مر عليها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنع رأسه، وقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذيين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(١).

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: ملك مصر، الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وهو أعظم الفراعنة جراً على الله عز وجل حيث ادعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] واستدل بني إسرائيل يُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾، أي: صاحب الأوتاد، والأوتاد: جمع وتد، أي: صاحب الأوتاد التي يعذب بها الناس يوتدهم ويعلقهم بها.

ومنهم امرأته آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، فقد روي أنه ضرب لها أربعة

(١) أخرجه البخاري في التفسير - تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٤٧٠٢، ومسلم في الزهد - النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيًا ٢٩٨٠، من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما.

أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت.
وقيل: إن المراد بقوله: ﴿ذِي الأوتاد﴾، أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما ثبتت الأرض بالأوتاد.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الأَلْبَدِ﴾ «الذين» اسم موصول يعم من ذكر قبل، وهم عاد إرم، وشمود وفرعون.

ومعنى ﴿طَغَوْا فِي الأَلْبَدِ﴾، أي: تجاوزوا الحد، فخالفوا أمر الله وعتوا وتجبروا.
﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ﴾، أي: أكثروا فيها الفساد المعنوي بالكفر والمعاصي وإضلال وأذية العباد، المؤذن بفساد وخراب البلاد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ﴾، أي: أنزل عليهم ربك يا محمد.

﴿سَوَّطَ عَذَابٍ﴾، أي: رجزاً من العذاب والعقاب العاجل في الدنيا أهلكهم به، كل منهم بقدر جرمه وذنبه.

ونكر «سوط عذاب»، إما؛ لتعظيمه، وإما لتقليله، وأنه يسير من عذابه أهلكهم واستأصلهم جميعاً، مع جبروتهم وطغيانهم.

فأهلك عاداً بالريح العقيم، وأهلك ثمود بالصيحة والصاعقة والرجفة، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لِمِرْصَادٍ﴾ بعد ما ذكر الله عز وجل ما أنزله من العذاب على عاد وشمود وفرعون أتبع ذلك بأنه عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: إن ربك يا محمد ﴿لِيَا لِمِرْصَادٍ﴾ لجميع خلقه يسمع أقوالهم، ويرى أعمالهم، وطريقهم كلهم عليه، ومردهم وإياهم إليه وحسابهم عليه، فلا يمكن أن يفلت منهم أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [٢٥] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [٢٦] [الغاشية: ٢٥، ٢٦] فالطريق

عليه والمرجع إليه، والطريق إلى غيره مسدودة وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر، وعشر ذي الحجة، والشفع والوتر والليل إذا يسر تعظيماً لنفسه عز وجل وشرعه وقدرته، وتنبهياً إلى فضل هذه الأوقات خصوصاً، وإلى أهمية الوقت عموماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ و﴿لَيْلٍ عَشْرٍ ٢﴾ و﴿الشَّفَعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾.

٢- أن في إقسامه عز وجل بما ذكر ما يشفي ويكفي لمن كان ذالِب وعقل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ سَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥﴾.

٣- التذكير بما فعل الله عز وجل بعاد إرم وشمود وفرعون مع قوتهم وجبروتهم حيث عذبهم أهلكتهم بسبب طغيانهم وفسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ ٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرَصَادٍ ١٤﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه، وتخويف وتحذير لهم.

٤- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ ٦﴾.

٥- أن الله عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق، فمرورهم عليه، ومصيرهم إليه، وحسابهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرَصَادٍ ١٤﴾.

٦- التذكير بوجوب مراقبة الله تعالى، والتحذير من الغفلة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْتَضِنُونَ عَلَى طَعْمِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ الفاء: استثنائية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، ﴿الإنسان﴾ جنس الإنسان.

﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾، أي: إذا ما امتحنه ربه، واختبره. والابتلاء: الامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].
فيتلى الإنسان بالشر أي صبر أم يجزع ويفجر، ويتلى بالخير أي شكر أم يكفر.
وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويتلى الله بعض القوم بالنعم^(١)

﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالأموال والأولاد والصحة وغير ذلك، أي: أكرمه مطلق إكرام، لا الإكرام المطلق. ونعمه مطلق إنعام، لا الإنعام المطلق.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، أي: فبدل أن يشكر نعمة الله عليه ويعترف له بها يظن أن هذا الإكرام والتنعيم الدنيوي إكرام من الله عز وجل له فيغتر بذلك، وأنه إنما أوتي ذلك؛ لأنه أهل له، وما علم أن ذلك قد يكون استدراجاً له، كما قال تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بتشديد الدال: «فقدَّر»، وقرأ الباقر بتخفيفها: «فَقَدَرَ»، أي: وأما إذا ما امتحنه، فضيق عليه رزقه وعطاه.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ معترضاً على قضاء الله وقدره، وظاناً أن ما حصل له من تضيق رزقه إهانة من الله عز وجل له، فأعجب بنفسه عند الإكرام، ولم يشكر نعمة الله عليه، وجزع عند تضيق رزقه، واعترض على ربه. وهذا حال الإنسان من حيث العموم

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

ظلوم جهول.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعم واعتقد، فليس في الابتلاء بتوسيع الرزق أو تضييقه دلالة على إكرام الله عز وجل للإنسان أو إهانته، أو محبة منه له أو عدمها، بل هذا مقتضى حكمة الله عز وجل وعدله؛ لأن الله عز وجل يتلى بالنعيم، كما يتلى بالمصائب والنقم، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويمنعها ممن يحب وعمّن لا يحب. ويتلى عبده بنعمة قد تجلب له نقمة وينقمة قد تجلب له نعمة. وإنما الشأن كل الشأن في توفيق الله للعبد لتقواه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعلى من ابتلي بالمال والغنى أن يشكر ولا يغتر بذلك وعلى من ابتلي بالضيق والفقر أن يصبر، ولا يجزع، والعاقبة للمتقين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه»^(١).

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»^(٢).

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى المرء على قدر دينه»^(٣).
فالحمد لله الذي لم يجعل إعطاء الدنيا دليلاً على الكرامة عنده، بل جعل الأكرم من الخلق أتقاهم له عز وجل، لينال ذلك من وفقه الله من الفقراء والأغنياء، والأصحاء والمرضى، بل جعل الابتلاء بالفقر والمرض والمصائب من دلائل محبته، وأسباب القرب إليه.

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٣، والدارمي في الرقاق ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ويقوى هذا المعنى ويتأكد عند المؤمن حقاً، ويضعف عند ضعف الإيمان، وينعدم عند عدم الإيمان، فالؤمن إذا أكرمه الله ونعمه اعترف بفضل الله عليه وشكره، ولم يزعم أن هذا باستحقاقه لذلك، بل يخاف أن يكون ذلك استدراجاً له، وعندما يتلى بالفقر وضيق الحال يصبر، ويخاف أن يكون ذلك بشؤم ذنوبه، ويعلم أن ما عند الله خير له.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ «بل»: للاضراب الانتقالي، أي: بل إنكم إذا أكرمكم الله ونعمكم ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الْثَرَثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُجْبَوْنَ أَمْالًا حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾.

قرأ أبو عمرو ويعقوب، بالياء في قوله: «بل لا يكرمون» وقوله: «ولا يحاضون» وقوله: «ويأكلون»، «ويجبون»، وقرأ الباقون بالتاء.

و«اليتيم»: من مات أبوه قبل بلوغه، من ذكر أو أنثى؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام» (١). وسمي يتيمًا من الانفراد، لانفراده عن أبيه أو عن أBOيه. والمراد بإكرام اليتيم: الإنفاق عليه وتوجيهه والدفاع عنه وعن حقوقه، وتعويضه ما فقد من عطف أبيه أو من عطف أBOيه.

وفي الآية ترغيب وحث على إكرام اليتيم وأداء حقوقه وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْنِمَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» (٢). وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب- حق اليتيم ٣٦٧٩.

الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينها شيئاً^(١).

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث بعضكم بعضاً على إطعام المسكين. و«المسكين» هو المحتاج الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئاً، وهو الفقير، وسمي بـ«المسكين» أخذاً من السكون واللصوق في الأرض وعدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله نسأل الله العافية.

ومن لا يحض غيره على إطعام المسكين، فهو من باب أولى وأحرى لا يطعم المسكين. ولعل من الحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولم يقل: ولا تطعمون المسكين أن كل إنسان يستطيع الحث على إطعام المسكين، لكن قد يكون هناك الكثير من الناس لا يقدرّون على إطعام المسكين بأنفسهم لفقرتهم، فاشترك الجميع في أجر الإطعام الحاث عليه والمطعم من ماله.

وفيه أيضاً أنه ينبغي للمجتمع المسلم التواصي بهذا، وأن يحض بعضهم بعضاً عليه، وأن يكون من يتولى تدبير الطعام من زوجة أو ولد، أو خادم أو غيرهم قد أعطي الإذن في هذا.

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾، أي: وتأكلون الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾، أي: من أي جهة حصل من حلال أو حرام، أي: أكلا يَلُمُّ ويلف كل شيء من حلال أو حرام، من ميراث الشخص أو ميراث غيره.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، أي: وتحبون المال حباً كثيراً عظيماً شديداً.

قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما
وأبي عبد لك لا ألمّا^(٢)
الفوائد والأحكام:

١- جهل الإنسان في ظنه أن ابتلاء ربه له بالنعمة إكرام له، وأن ابتلاءه له بتضييق رزقه إهانة له، والحقيقة غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ،

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر «لسان العرب» مادة «جم».

فَيَقُولُ رَبِّ أَكْرَمَ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّ أَهْنَنِ (١٦) .

٢- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ .

٣- ليس الإكرام للإنسان بتوسيع رزقه، وليست الإهانة له بتضييقه، وإنما حقيقة الإكرام للإنسان بتوفيقه لتقوى الله عز وجل، والإهانة في خذلانه وعدم توفيقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وقد قال عز وجل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

٤- أن الله يتلي بالغنى كما يتلي بالفقر من يجب ومن لا يجب.

٥- أن الابتلاء بالنعم أشد وأعظم من الابتلاء بالنقم؛ لهذا قدم قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ﴾ على قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، إذا قليل من الخلق من يشكر النعمة ولا يكفرها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى (٧)﴾ [العلق: ٦، ٧].

٦- الزجر والوعيد لمن لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث من حل أو حرام ويتهاكفون على حب المال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (٧) وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٨) وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (١٠)﴾ .

٧- وجوب إكرام اليتيم وإطعام المسكين، والإحسان إليهما والعطف عليهما.

٨- عناية الدين الإسلامي باليتامى والمساكين.

٩- التحذير من أكل الميراث وجمع المال من أي طريق كان ولو كان حراماً، ومن

التهاكف في حب المال.



قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَتَابَعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ۞

قوله: ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر للكافرين المكذبين.

﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، أي: إذا هدم ما عليها من بناء وسويت جبالها مع سهولها وبسطت، قال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَجِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق: ٣]، أي مدت كما يمد الأديم، وزيد في سعتها. وقال تعالى عن الجبال: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٥-١٧].

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، أي: وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد وهو مجيء يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ «الملك»: جنس الملائكة، أي: وجاء الملائكة بين يدي الله عز وجل صفوفًا صفوفًا، وصفًا بعد صف.

﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، أي: وأتى في ذلك اليوم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ وهي: النار سميت بهذا الاسم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَعُ الْإِنْسَانَ﴾، أي: في ذلك اليوم عندما يرى جهنم، وتبدو الحقيقة

(١) أخرجه مسلم في الجنة- باب في شدة حر جهنم وقعرها، وما تأخذه من المعذنين ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم- ما جاء في صفة النار ٢٥٧٣.

عياناً، يتذكر الإنسان حاله في الدنيا وتفريطه في عمل الخير والاستزادة منه، كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾، أي: وأين له الذكرى وقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: يقول متمنياً نادماً على تفريطه في جنب الله ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ عملاً صالحاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لِحَيَاتِي﴾ الآخرة الباقية الدائمة، والتي هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب» (١).

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله لحقره ذلك اليوم، ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب» (٢).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ يعقوب والكسائي: «لا يعذب» بفتح الذال مع تشديدها، «ولا يوثق وثاقه أحد» بفتح الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذب مثل عذاب هذا المكذب أحد، ولا يوثق ويقيّد مثل تقييده أحد، فهو أشق الناس عذاباً، وأشدّهم وثاقاً وتقييداً لكفره وتكذيبه.

وقرأ الباقون: ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ بكسر الذال مع تشديدها، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكسر الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، بل عذابه أشق، ووثاقه وتقييده أشد، لمن كفر به وكذب رسله وشرعه.

وفي هذا أشد التهديد والوعيد للكفرة والمجرمين والعصاة.

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٥/٤ ورواه عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ ١٨٥/٤.

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بعد ما ذكر شدة عذابه عز وجل ووثاقه لمن كفر به وكذب رسله، أتبع ذلك بذكر ما أعدّه للنفس المؤمنة من الرضا والكرامة في الجنة فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآيات، أي: يا أيها النفس المؤمنة الآمنة الساكنة الثابتة التي رضيت بقضاء الله وقدره، واطمأنت إلى ذكره، وأيقنت بوعدته وثوابه، وأمنت من عذابه، كما قال عز وجل ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ لَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل اللهم إني أسألك نفسًا بك مطمئنة، تؤمن بلفائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»^(١).

﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: يقال لها عند الاحتضار، ويوم القيامة: ارجعي وعودي إلى ربك وجواره وجنته، وما فيها من ألوان النعيم، الذي أعلاه النظر إلى وجهه الكريم، كما قال مؤمن آل فرعون فيما ذكر الله عز وجل عنه ﴿وَأَنَّا مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ويجوز أن يكون المراد بـ «ربك»: صاحبك، أي: ارجعي وعودي أيها النفس المطمئنة إلى صاحبك، أي: إلى بدنك.

﴿رَاضِيَةً﴾ حال، أي: حال كونك راضية مرضية، أي: راضية في نفسك عن ربك وعمّا أعد لك من النعيم، ﴿مَرْضِيَةً﴾، أي: قد رضي الله عنك بسبب إيمانك وعملك الصالح.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [٧] ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل قوله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٢٣/٨.

في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملام من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسماؤه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا...»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا حضر المؤمن أته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان..»^(٢).

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾، أي: في عدادهم، وفي جملتهم، كما قال ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»^(٣).

وفي إضافتهم إليه عز وجل تشريف وتكريم لهم؛ لأنهم أهل العبودية الخاصة. ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، أي: وادخلي جنتي التي أعددتها لعبادي الصالحين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي إضافتها إليه عز وجل تشريف وتعظيم لها.

وهذا النداء وهذا الخطاب الذي يبهج القلوب ويشرح الصدور، يقال لها عند لقاء الله عز وجل يوم احتضارها، وعند لقاء الله عز وجل يوم قيام الناس لرب العالمين. كما تبشرهم الملائكة بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

أُولَآئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِن عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي ندائه عز وجل للنفس المطمئنة، ووصفها بهذا الوصف، وأمرها بالرجوع إليه عز وجل، وإضافة ضميرها إلى اسمه عز وجل «الرب»، وجعلها ضمن أهل ربوبيته الخاصة بأوليائه، وإرضائها والرضا عنها، وأمرها بالدخول ضمن أهل عبوديته الخاصة، وفي جنته كل هذا تشریف وتكریم لها نسأل الله - تعالى - من فضله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٣٢﴾ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٣١﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال يا رسول الله، ما أحسن هذا فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»^(١).

ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل تحت هذه الآية من الأمة، لأنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

وفي الأثر: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»^(٢).

الفوائد والأحكام:

١- التهديد والوعيد بالقيامة وأهوالها من اندكاك الأرض، ومجيء الرب عز وجل والملائكة، والإتيان بجهنم على أهل الموقف؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿٣١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٣٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿٣٣﴾.

٢- إثبات مجيء الرب عز وجل يوم القيامة للفصل بين عباده، وإثبات وجود الملائكة ومجيئهم بين يدي الله تعالى ذلك اليوم صفاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل نفس مؤمنة مطمئنة؛

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٢٩ - ٣٤٣٠.

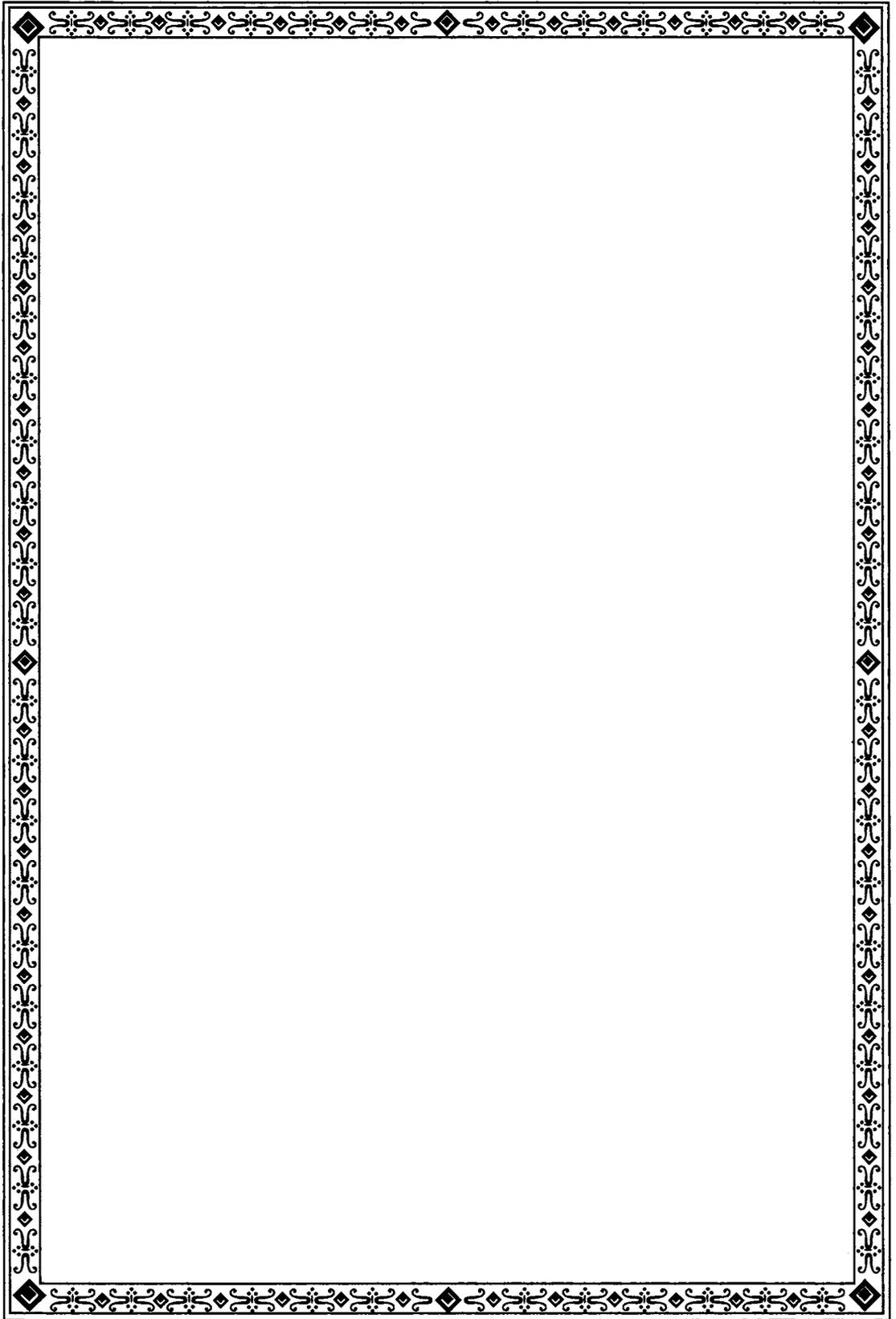
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» ١/١٥٢ (١٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنن» ٢/٥٧٦ (١٢٢٤)، والآجري في «الشريعة» ٤/١٨٤٤ (١٣٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣/٣٢٥.

لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾.

- ٤- تذكر الإنسان في ذلك اليوم عندما يشاهد أهوال القيامة لكن لا تنفعه الذكرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْدَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.
- ٥- ندم الكافر على تفريطه، وتمنيه أنه آمن وقدم عملاً صالحاً في الدنيا لحياته الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ولكن هيهات.
- ٦- تعذيبه عز وجل في ذلك اليوم للكفرة المجرمين عذاباً لا يعذبه أحد وإيثاقه لهم وثاقاً لا يوثقه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿١٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴿١٦﴾﴾، وفي هذا من الوعيد والتهديد للكافرين ما فيه الكفاية.
- ٧- البشارة والتهنئة للنفس المؤمنة المطمئنة برجوعها إلى ربها راضية مرضية، ودخولها ضمن عباد الله المخلصين المكرمين، وفي جنته؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾، وهذا غاية التكريم.
- ٨- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى ولقائه.
- ٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل عبوديته الخاصة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البلد»؛ لإقسامه تعالى في مطلعها به في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ
بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- موضوعاتها:

١- تشریف مكة البلد الحرام

٢- بيان مكابدة الإنسان لمصائب الدنيا وشدائدها.

٣- تعداد بعض نعم الله على الإنسان في خلقه، وبيان الحق له.

٤- الترغيب في الإيمان ومكارم الأخلاق، من فك الرقاب وإطعام الطعام والصبر
والرحمة.

٥- تهديد الكافرين بآيات الله.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ .

قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، «لا»: للاستفتاح والتبنيه، وتوكيد القسم، وليست نافية، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والمراد بـ«البلد» مكة أم القرى، أقسم الله عز وجل بها لشرفها وعظمتها، فهي أحب أرض الله إلى الله عز وجل، كما قال ﷺ: «والله إنك خير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» (١).

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الواو: الحالية، والخطاب للنبي ﷺ.

والتقدير: أقسم بهذا البلد حال كونك يا محمد ﴿حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي: يحل لك أن تقاتل فيه، وذلك ساعة من نهار، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة» (٢).

ويحتمل أن المعنى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي: حال كونك حالاً فيه، أي: ساكناً محلاً غير محرم؛ لأن حلول النبي ﷺ بهذا البلد يزيده شرفاً إلى شرفه ولأن أمن هذا البلد إنما تظهر به النعمة حال الحل من الإحرام، والحرمة هنا للمكان، وفي حال الإحرام للفعل، وأيضاً: فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب - فضل مكة ٣٩٢٥ - من حديث عبد الله بن عدي الزهري - رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح»

(٢) أخرجه البخاري في الحج جزاء الصيد ١٨٣٤، ومسلم في الحج - تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقظتها إلا لمنشد على الدوام ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، والترمذي في السير ١٥٩٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٣.

﴿وَوَالِدٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأقسم بالوالد، وهو آدم. ﴿وَمَا وُلَدٌ﴾، أي: والذي ولد وهم ذريته، فأقسم عز وجل بأصل المكان ومرجعه وهي مكة: «أم القرى». وبأصل السكان ومرجعهم، وهو آدم عليه السلام. وقيل: المراد كل والد من بني آدم وما ولد، أو كل والد من الحيوانات مطلقاً وما ولد. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالبلد الحرام حال كون النبي ﷺ حلاً فيه، وأقسم عز وجل بالوالد وما ولد على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد.

واللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في وجوب القسم، و«قد»: للتحقيق والتوكيد فأكد عز وجل هذه الجملة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، و«قد». ومعنى قوله: ﴿في كبدٍ﴾، أي: منتصباً مستويّاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وهذا مما يوجب عليه شكر هذه النعمة العظيمة، لا أن يتجبر وتبطره النعمة. ويحتمل أن المعنى: في نصب، في جميع أطوار حياته يكابد متاعب الدنيا ومصائبها، وأشد ذلك مجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا، والمجاهدة في الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة إلى أن يدخل الجنة إن كان من المقبولين، وإلا استمر على ذلك بل ازداد شقاء إلى شقاء إن كان من أصحاب الجحيم. وكلا المعنيين صحيح، ولا مانع من حمل الآية عليهما معاً.

﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أيعظن الإنسان. ﴿أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أنه قد يغتر بعنفوان شبابه وكبريائه وقوته فيظن هذا الظن وأنه متروك سدى، فيقول أنا أعمل ما شئت بنفسي ومالي، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَأَبْدَأُ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الباء: «لَبْدًا»، وقرأ الباقون بتخفيفها:

﴿لَبْدًا﴾.

أي: أنفقت وأفنيت مالا كثيرا يُلبَّد بعضه على بعض، فهو يفتخر في إفنائه المال الكثير في شهواته وفي غير وجهه، ولو أنفقه في وجهه لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل إبقاءً له، كما قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» وفي رواية «فأبقيت»^(١).

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ وهذا أيضًا إنكار عليه، أي: أيظن الإنسان أن الله عز وجل لم يطلع عليه فيما أهلك من ماله، وفي جميع أحواله فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، وفي هذا وعيد وتهديد لمن يغتر بقوته وماله.

﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: ألم نصير له عينين يبصر بهما الأشياء، وهما من أعظم نعم الله عز وجل عليه ينظر بهما في آيات الله الشرعية والكونية ويبصر بهما الطريق، وينظر بهما إلى ما يريد، وهما الحبيبتان، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن جزاء إذا أخذت حبيبتيه فصبر إلا الجنة»^(٢).

﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به ويتكلم، ويعبر به عما في نفسه، ويفصح به عما في ضميره، فتميز بذلك عن سائر الحيوانات، وعمن ابتلي بالكم فأصبح لا يستطيع الإفصاح عما في نفسه إلا بلغة الإشارات القاصرة.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما في الكلام وأكل الطعام، وهما جمال لوجهه وفمه. وخص هذه الأعضاء الثلاثة: العينين، واللسان، والشفتين؛ لأنها أكثر الأعضاء حركة وأكثرها كسبًا للأعمال.

إما للإنسان بالتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، وفي ذكره وشكره والدعوة

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢ من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى - فضل من ذهب بصره ٥٦٥٣، والترمذي في الزهد - ما جاء في ذهاب البصر ٢٤٠٠، وأحمد ٢٨٣/٣ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وأخرجه أحمد أيضًا ٢/٢٦٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليه، وتعليم العلم ونحو ذلك، وإما على الإنسان بالنظر إلى ما حرم الله، وفي الكلام في الباطل والزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، أي: ودللناه وبيننا له طريق الخير والشر، واهدى والضلال والرشد والغى، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) [الإنسان: ٢، ٣].

فذكر عز وجل الإنسان وقرره بأعظم نعم الله عليه؛ ليستدل بها على عظيم فضل الله عز وجل عليه، وعلى إثبات الخالق، وصفات كماله، وصدق رسله، ووعدته ووعدته كما قال عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١١) [الذاريات: ٢١].

وليشكر الله عليها ويقوم بحقوقه.

لا أن يكفر به ويستعين بنعمه على معاصيه، كما هو واقع كثير من الناس وصدق الله العظيم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالبلد الحرام مكة حال كونه ﷺ حلاً بها، وبالوالد وما ولد على أنه خلق الإنسان في كبد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٍ﴾ (٣) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (٤).

٢- تعظيم الله عز وجل للبلد الحرام، وتشريفه لرسوله محمد ﷺ، وتكريمه للإنسان.

٣- نعمة الله عز وجل وفضله على الإنسان حيث سوى خلقه وجعله معتدل الخلقة، متناسب الأعضاء.

٤- أن الله عز وجل خلق الإنسان في كبد في هذه الحياة يعاني متاع الدنيا ومصائبها، وشدائد الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

٥- خطأ الإنسان وجهله في ظنه أن الله لن يقدر عليه، ولن يراه؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (٥) ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا﴾ (٦) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٧).

٦- أن ما أنفقه الإنسان من المال في غير مرضاة الله عز وجل فهو خسارة

وسيحاسب عليه.

٧- تقرير تمام قدرة الله تعالى، وواسع بصره واطلاعه على كل شيء.

٨- تقرير الإنسان بنعم الله عز وجل عليه من العينين واللسان والشفقتين، وهدايته

النجدتين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهُدًى لِّلنَّجْدَيْنِ (١٠)﴾.

٩- إقامة الحجة على الإنسان ببيان طريق الخير وطريق الشر له بإرسال الرسل

وإنزال الكتب إعدارًا وإنذارًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بِنَايِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أقسم الله عز وجل بالبلد الحرام، وبآدم وولده على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد مستوي الخلق يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وبين أنه قادر عليه ومطلع عليه، وذكّره بما أنعم به عليه من العينين واللسان والشفقتين وبيان طريق الخير والشر له. وهذا كله يشير إلى الأمانة التي حملها الإنسان، وعظم الهدف الذي خلق من أجله، ولهذا قال بعده ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الفاء عاطفة، و«لا»: نافية، أي: فلا هو اقتحم العقبة، كقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١].

ويحتمل أن تكون «فلا» للتحضيض، أي: فهلا اقتحم العقبة. ومعنى ﴿أَقْنَمَ﴾، أي: تجاوز. والاقترحام: التجاوز بمشقة. ﴿الْعَقَبَةُ﴾ «العقبة» في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، وتطلق على الأمر الشديد الصعب الشاق. وهي هنا مثّل ضربه الله عز وجل لمجاهدة النفس والشيطان في فعل الطاعات والبعد عن المنهيات.

وقيل: المراد بالعقبة الصراط الذي يضرب على متن جهنم. وفي الحديث: «إن العقبة كؤود لا يجوزها المثلون»^(١). فهذه العقبة شديدة حسية كانت أو معنوية، لا يجتازها إلا المضمرون المخفون المشمرون، ويهلك دونها المنقطعون، وهم أكثر الخلق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ «ما»: اسم استفهام، والجملة اعتراضية بين العقبة وتفسيرها،

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٤ / ٦١٨، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والمراد بها تعظيم أمر العقبة وتفخيم شأنها، والتشويق لها، أي: وما أعلمك ما العقبة.
﴿فَكَرَبَّةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لقوله: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾، أي: بيان لكيفية اقتحام العقبة، وبماذا تقتحم.
قوله: ﴿فَكَرَبَّةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «فك» بالفتح و﴿رَبَّةٍ﴾ بالنصب،
وقرأ الباقون برفع ﴿فَكَرَبَّةٍ﴾ وخفض ﴿رَبَّةٍ﴾.

أي: عتق رقبة وتحريرها وتخليصها من الرق، أو من القتل، أو الأسر.
وفي تقديمها في الذكر تعظيم لعتق الرقاب، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه
قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من
النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»^(١).
وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا
رسول الله: علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت
المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟، قال: «لا، إن
عتق النسمة أن تنفرد بعقتها، وفك الرقبة أن تعين في عقتها. والمنحة الوكوف»^(٢)
والفيء على ذي الرحم الظالم، قال: فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر
بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير»^(٣).

وعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من
ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته
إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في
سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له كعدل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق

(١) أخرجه البخاري في الكفارات- قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ٦٧١٥، ومسلم في العتق- فضل
العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور- ثواب من أعتق رقبة ١٥٤١، وأحمد ٤٢٢ / ٢.

(٢) أي: المنحة كثيرة اللين.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩٩ / ٤.

الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها»^(١).

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار»^(٢).

﴿أَوْ إِطْعَمٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أو أطعمتم»، وقرأ الباقون: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ﴾.

﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، أي: في يوم ذي مجاعة شديدة، والسغب: الجوع الشديد.
﴿بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ اليتيم: من فقد أباه دون البلوغ؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»^(٣).

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: ذا قرابة لمن أطعمه؛ لأن الصدقة على القريب أفضل، كما قال ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصل»^(٤).
والمعنى: أو أطعم في يوم ذي مجاعة شديدة يتيمًا من أقاربه، جمع بين الصفتين اليتيم والقرابة.

﴿أَوْ مَسْكِينًا﴾، أي: أو أطعم «مسكينًا»، و«المسكين» هو الفقير المحتاج الذي لا شيء عنده.

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: لاصقًا بالتراب، يلتحف الثرى والتراب من شدة الفقر والحاجة،

(١) أخرجه أحمد ٤/١١٣، ٣٨٤، ٣٨٦، وأبو داود في العتق- أي الرقاب أفضل ٣٩٦٥، ٣٩٦٦، والنسائي في الجهاد ٣١٤٣، ٣١٤٤، ٣١٤٥. وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٤٢٢، وقال ابن كثير عن أسانيد هذا الحديث عند أحمد «وهذه أسانيد جيدة قوية» (تفسير ابن كثير) ٨/٤٢٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٤٧، ١٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في الزكاة- الصدقة على الأقارب ٢٥٨٢، والترمذي في الزكاة- الصدقة على ذي القرابة ٦٥٣، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، وأحمد ٤/٢١٤- من حديث سلمان بن عامر الضبي- رضي الله عنه. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/٤٣٠ «وهذا إسناد صحيح».

ومن هنا سمي المسكين مسكيناً للصوقه إلى الأرض وسكونه فهو ساكن لا يتحرك، كالملقى على الأرض، ساكت لا يتكلم؛ لأنه إن تكلم لم يسمع، وإن سُمع لم يصدق، أذله الفقر - الذي يذل أعناق الرجال، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر» (١).

وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم والمسكين، لأن اليتيم فقد من ينفق عليه ويعوله ويدافع عنه وعن حقوقه، ولأن المسكين أذله الفقر والمسكنة.

ويعظم حق اليتيم والمسكين ويزداد عندما تطغى الأنانية والشح وتضعف الرحمة أو تنعدم عند كثير من الناس فيضيع اليتيم والمسكين في خضم الحياة، وبين الفواتح والخواتم والله المستعان.

﴿تُعْرَفُكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «ثم»: عاطفة، وهي للتراخي في الفضل والرتبة، فالإيمان مؤخر في اللفظ مقدم في الفضيلة والرتبة.

وفي تقديم فك الرقبة وإطعام الجائع يتيماً ذا قرابة أو مسكيناً ذا فاقة شديدة على الإيمان دليل على عظم هذه الأعمال.

أي: ثم هو مع هذا الإحسان العظيم إلى عباد الله بعثت الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين في وقت المجاعة من الذين آمنوا، أي: من الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإحسان إلى عباد الله، والإحسان في عبادة الله عز وجل، وبين العمل والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر.

والصبر: من صبر إذا حبس ومنع، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عما حرم الله، من لطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك، وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ - من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

والصبر منزلة عظيمة فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤِتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(١).

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالرحمة للخلق التي هي من أنبل وأعظم الصفات، وأحبها إلى الله عز وجل، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعها الله»^(٢).

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»^(٤).

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الِئْمَنَةِ﴾، أي: أصحاب اليمين، أي: المتصفون بهذه الصفات، والذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، هم الذين يأخذون كتبهم بأيامهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقد أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾؛ تعظيماً لشأنهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ما ذكر صفات المؤمنين ومآلهم، أتبع ذلك بذكر الكافرين ومآلهم.

أي: والذين كفروا بآياتنا الكونية والشرعية وجحدوها وكذبوا بها.

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤ - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في الرحمة ٤٩٤١، والترمذي في البر - ما جاء في رحمة الناس ١٩٢٤ - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٧، ومسلم في الفضائل ٢٣١٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٨، والترمذي في البر والصلة ١٩١١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب - باب في الرحمة ٤٩٤٣، والترمذي في البر والصلة ١٩١٩ وقال: «حديث غريب».

﴿هُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، أي: هم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال، الذين يعطون كتبهم بشئائهم من وراء ظهورهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. وقد أكد هذا الوصف فيهم بثلاث مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: مطبقة مغلقة الأبواب، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، كما قال تعالى في سورة الهمزة: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الآيتان: ٨، ٩].

الفوائد والأحكام:

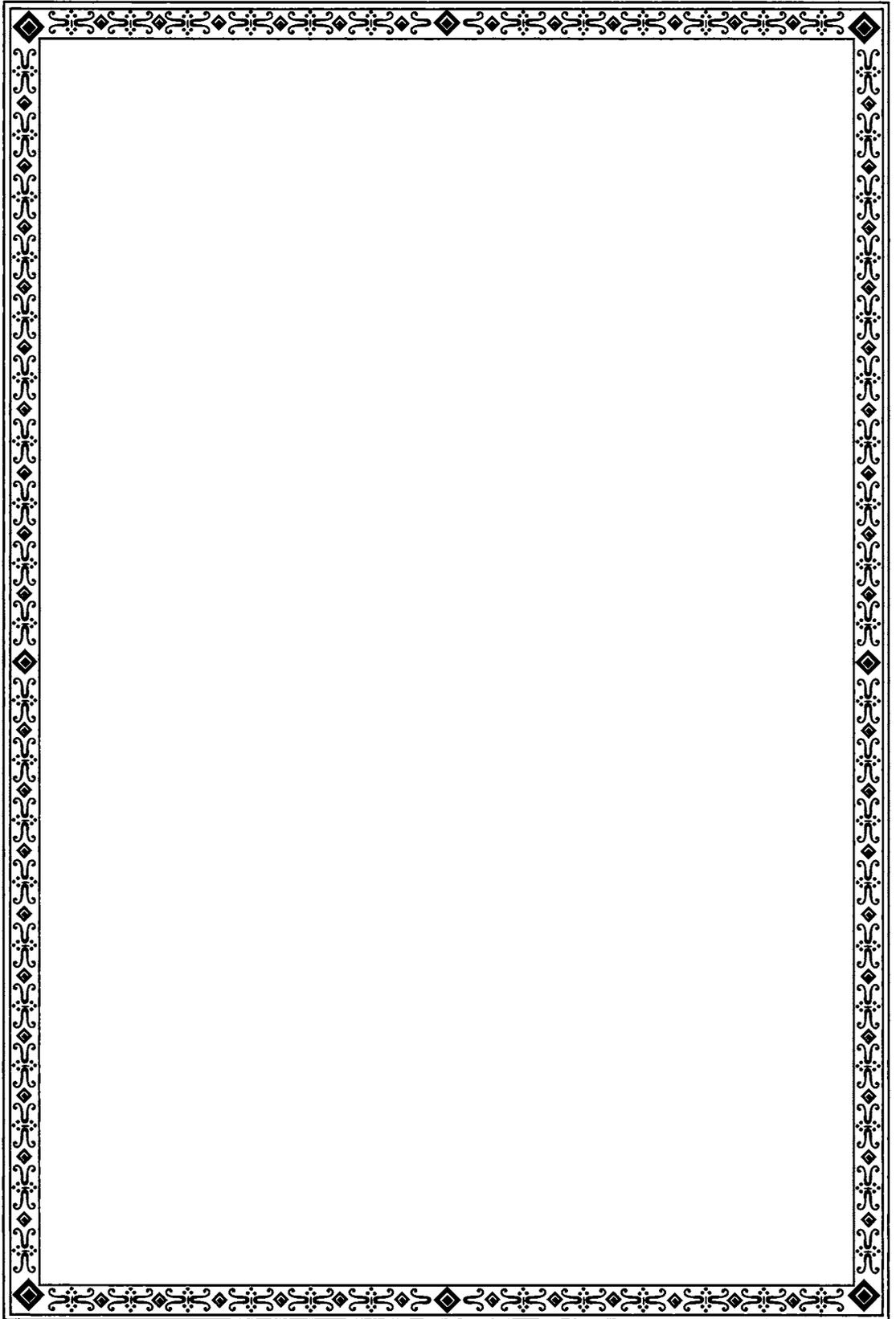
- ١- عظم الأمانة التي حملها الإنسان، وأن أمامه عقبة كؤودًا لا يجتازها إلا المشمرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقَبَةَ﴾.
- ٢- حصّ الإنسان وحثه على اجتياز العقبة بعثق الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين، مع الإيثار والتواصي بالصبر والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَرْبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾﴾.
- ٣- أن الصدقة على اليتيم القريب صدقة وصله، وأنه كلما اشتدت الحاجة كانت الصدقة أفضل.
- ٤- رعاية الإسلام لليتامى والمساكين؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.
- ٥- أن الإيثار شرط لقبول الأعمال من العتق والإطعام وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾﴾.
- ٦- الإشارة إلى عظم عتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، لتقديمهما على شرط الإيثار.
- ٧- الترغيب في الصبر والرحمة، والتواصي بهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾.
- ٨- أن من جمع بين الإيثار والعمل الصالح فهو من أصحاب اليمين؛ لقوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

٩- سوء حال ومآل الذين كفروا بآيات الله عز وجل فهم أصحاب الشؤم
السالكون ذات الشمال إلى النار المؤصدة المطبقة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
هُم أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾.

* * *

تَقْسِيرُ سُورَةِ الشَّمْسِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الشمس» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١).
وتسمى: «سورة والشمس وضحاها».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ» ﴿سَجَّ اسْرَرِيكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ و﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَقِيَ﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾ (١).

د- موضوعاتها:

- ١- ذكر دلائل تمام قدرة الله تعالى في آياته الكونية وعظمته.
- ١- تأكيد فلاح من زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك وخيبة من أهانها بالكفر والمعاصي، والتحذير من ذلك.
- ٢- ذكر تكذيب ثمود لرسولهم صالح عليه السلام بسبب طغيانهم، وعقرهم الناقة، ومن ثم إهلاكهم.

* * *

(١) سبق تخرجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ١ ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ٢ ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ٣ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ٤ ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ٥ ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا حَمَلَهَا﴾ ٦ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ٨ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ ٩ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ١٠ ﴿﴾

قوله: ﴿وَالشَّمْسُ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الشمس»: مقسم به مجرور ﴿وَضُحَاهَا﴾: معطوف على الشمس، والمراد به ضوءها، وهو النهار كله، كما في قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ١ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢].
وإنما أضاف الضحى إليها؛ لأن الشمس هي سبب النهار، وهي آية النهار المبصرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ نَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ الواو: عاطفة هنا وفي المواضع بعدها إلى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وكل هذا داخل في جملة المقسم به.

أي: وأقسم بالقمر إذا تلا الشمس، أي: إذا تبعها في المنازل والنور.
﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾، أي: وأقسم بالنهار حين يجلي الشمس ويظهرها، وإن كان ظهورها هو سبب النهار.

أو حين يجلي ظلمة الليل ويزيلها، أو يجلي الأرض والخليقة وبينها ويظهرها ويضيئها بنوره، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، أي: والليل حين يغشى الشمس ويسترها وإن كان مغيبها هو سبب الليل. أو حين يغطي الأرض والخليقة ويسترها بظلامه.

﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾، أي: والسماء، والذي بناها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا﴾ [النبا: ١٢].

فأقسم عز وجل بالسماء، وبنفسه الكريمة. وتكون «ما» هنا موصولة، بمعنى

«من» التي تطلق على العالم.

وقيل: إن «ما»: مصدرية، أي: والسماء وبنيانها العظيم.

وهكذا في قوله: ﴿وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾.

ومعنى ﴿بَنَيْهَا﴾: خلقها ورفعها وجعلها سقفا محفوظا، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ثم فسر ذلك فقال: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ (٢٨) [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّيْنَاهَا﴾، أي: والأرض، والذي طحاها، أي: بسطها وفرشها ومهدها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وهتان الآيتان كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) [ق: ٦، ٧].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾، أي: ونفس والذي سواها، وهو الله عز وجل، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ عام في كل نفس، أو خاص بنفس الإنسان المكلف بدليل ما بعده.

ومعنى ﴿سَوَّيْنَاهَا﴾: خلقها وجعلها مستوية الخلق، مستقيمة على الفطرة كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ رِجْلُهُ الْكَبِيرِ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبُّكَ (٨) [الانفطار: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَعِنُ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) [القيامة: ٣٦-٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» (١).

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز

(١) أخرجه البخاري في الجنايز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(١).
﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، أي: جعلها محلاً للفجور والتقوى، وبين لها الفجور ونهاها عنه وحذرهما منه، وأرشدتها إلى التقوى وأمرها بها ورغبها فيها، وهداها ويسرها لما قدره لها كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبينهم، وثبتت الحجة عليهم؟، فقال: «لا، بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾»^(٢).

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ الآية»^(٣).

وفي هذه الآية رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله وخلقه لأفعال العباد.
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم الله عز وجل بالشمس وضوئها والقمر إذا تبعها، والنهار إذا جلى الظلمة، والليل إذا غطى البسيطة بظلامه، وبالسماء والذي بناها، وبالأرض والذي بسطها ومهدها، والنفس والذي سواها على أنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق في الموضوعين وحذفت منه اللام؛ لطول الكلام وقوله: ﴿أَفْلَحَ﴾: فاز وأنجح وسعد ونجا من المرهوب، وحصل على المطلوب، وزحزح عن النار، وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].
﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾، أي: الذي زكا نفسه، أي: طهرها بالإيمان والعمل الصالح من

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥ - من حديث طويل.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٠، وأحمد ٤/٤٣٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨ - من حديث علي - رضي الله عنه.

الشرك والمعاصي والردائل والأحداث، وسائر النجاسات الحسية والمعنوية- كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

وفي هاتين الآيتين إثبات فعل العبد وكسبه، وتعليق فوزه وعدمه على ذلك، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝﴾ فآلمها فجورها وتقونها ﴿وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»^(٢). وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»^(٣).

وعن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(٤).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾، أي: وقد خسر من أخفاها وأخلمها، وأرداها، وأوبقها بالمعاصي وأهانها ودنسها، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٣٦/٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٣٦/١٠.

(٣) أخرجه أحمد ٢٠٩/٦.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر- التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة

٥٤٥٨، وأحمد ٣٧١/٤.

فشتان بين من طهر نفسه وأكرمها بطاعة الله تعالى، والبعد عن معصيته، ووضعها موضعها اللائق بها، فأفلح وسعد في دنياه وأخراه، وبين من أخلها وأخفاها، وأهانها وأذلها، فظلمها وبخسها حقها، وقد كرمها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

وقد حكى هذا المعنى لبيد بقوله:

وما الناس إلا عاملان فعامل يُتبر ما بيني وآخر رافع^(٢)

قال ابن القيم^(٣): «والفاجر أبداً خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الرى ويفاع الأرض لتشهر نفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبوأت بيتك في معلّم
كفيت العفاة طلاب القري
ريح المباءة والمسرح
ونيح الكلاب لمستنجح^(٤)

وقد أحسن القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
وقال الآخر:

هوانا بها كانت على الناس أهونا^(٥)

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان لبيد» ص ٥٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٤) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٢/ ١٤٦، «الحيوان» ٥/ ٧٤.

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص ٣٢٠، «الدر الفريد» ٢/ ٣٦٧.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه
وقال الآخر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال
يعش أبدا الدهر بين الحفر (٣)
فانتبه أخي الكريم لهذه المعاني وضع نفسك موضعها اللائق بها، واحملها على ما فيه
سعادتها في دينها ودنياها، وخذ نصيبك من ربك، ولا تأت يوم القيامة من المفلسين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بعدد من آياته الكونية، بالشمس والقمر، والنهار والليل،
والسما والأرض، وبالنفس الإنسانية، وبنفسه عز وجل للدلالة على عظمته، وكمال
قدرته، والتأمل في آياته وشكره على نعمه وآلائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ١﴾ وَالْقَمَرُ
إِذَا نَلَّهَا ٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ٤﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا ٦﴾ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّيَهَا ٧﴾.

٢- إقسام الله عز وجل على فلاح من زكى نفسه بطاعة الله وخيبة من أخفاها
ودنسها بمعصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ٢﴾.

٣- التريغيب في تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من
تدنيسها وإهانتها بالمعاصي.

٤- إثبات القدر وأن الله خالق أفعال العباد، والرد على القدرية، وإثبات فعل العبد،
والرد على الجبرية لقوله تعالى ﴿فَالهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا ١﴾ وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾.



(١) البيت لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص ١٥.

(٢) البيت للمتنبى. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

(٣) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص ٧٠. والبيت فيه: «ومن لا يحب صعود الجبال».

قال الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۖ ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۖ ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۗ ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۗ ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على فلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها ثم أتبع ذلك بذكر قصة تكذيب ثمود وطغيانهم وعقرهم الناقة، وردهم الحق بعد ما عرفوه، وعقوبة الله عز وجل لهم. وفي هذا تهديد ووعد للمكذبين من هذه الأمة. قوله: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ﴾، أي: كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام فيما جاءهم به من الحق من عند الله عز وجل.

﴿بَطَّغُونَهَا﴾، أي: بسبب طغيانها ومجاوزتها الحد في الكفر وتجبرها وتكبرها. والطيغان: مجاوزة الحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. فحملهم الطغيان ومجاوزه الحد في الكفر والمعاصي على التكذيب بالحق بقلوبهم، لأن من عقوبة المعصية المعصية بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۗ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ تفسير لتكذيبهم وطغيانهم، أي: إذ انطلق مسرعاً لعقر الناقة ﴿أَشْقَاهَا﴾، أي: أشقى ثمود، أي: أعظمها شقاء، وهو أحيمر ثمود، واسمه: قدار بن سالف، وكان رجلاً شريراً صعب المرام.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟»، قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي هذا - يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه، يعني لحيته»^(١).

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني: قدار بن سالف، وكان رجلاً شديداً عزيزاً منيعاً فيهم. عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٣٨.

الذي عقرها، فقال: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا﴾: «انبعث لها رجل عارم^(١)، عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»^(٢).

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾، أي: ذروا ناقة الله، أو لا تمسوا ناقة الله بسوء، وهي الناقة التي طلبوها آية لهم فأخرجها الله لهم من صخرة صماء، وجعلها آية وحجة عليهم قال تعالى عن صالح عليه السلام أنه قال لهم ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال أيضًا: ﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿وَسُقِيهَآ﴾: شربها، أي: ولا تعتدوا على شربها يوم وردها. قال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكَمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا رسول الله صالحًا عليه السلام فيما جاءهم به، وما حذرهم منه من الاعتداء على الناقة وشربها، وما توعدهم عليه من العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقروا الناقة، أي: قتلوها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ وَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَبِّئُ بِنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَادَاؤُا

(١) أي: صعب على من يرومه، كثير الشر.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ٤٩٤٢، ومسلم في صفة الجنة ونعيمها - النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٥، والترمذي في تفسير سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ٣٣٤٣، وأحمد ١٧/٤.

صَاحِبِهِمْ فَغَاطَىٰ فَعَقَّرَ ﴿٢٩﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾، أي: أطبق عليهم ربهم العذاب بسبب ذنوبهم. ﴿فَسَوَّاهَا﴾، أي: جعلهم في العقوبة سواء؛ لأنهم اتفقوا وأجمعوا على عقر الناقة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيرِ﴾ [القمر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَيْحَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالفاء: «فلا يخاف».

وقرأ الباقون بالواو: «ولا يخاف».

أي: ولا يخاف عز وجل عاقبتها وتبعتها، أي: لا يخاف تبعة إهلاكه لهم، وإطباقه العذاب عليهم، وجعلهم في العقوبة سواء؛ لأنه عز وجل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتتفعلوني»^(١).

الضوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود رسول الله إليهم صالحًا عليه السلام بسبب طغيانهم وإقدامهم على عقر الناقة التي طلبوها، وجعلها الله لهم آية، بعد تحذيره - عليه الصلاة والسلام لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَانَهَا ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَانَهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

٢- أن الطغيان سبب للتكذيب والكفر، وأن المعصية تجر إلى المعصية بعدها.

٣- إهلاك الله عز وجل لثمود، وإطباق العذاب عليهم على السواء بسبب ذنوبهم؛

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله - عز وجل - العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ

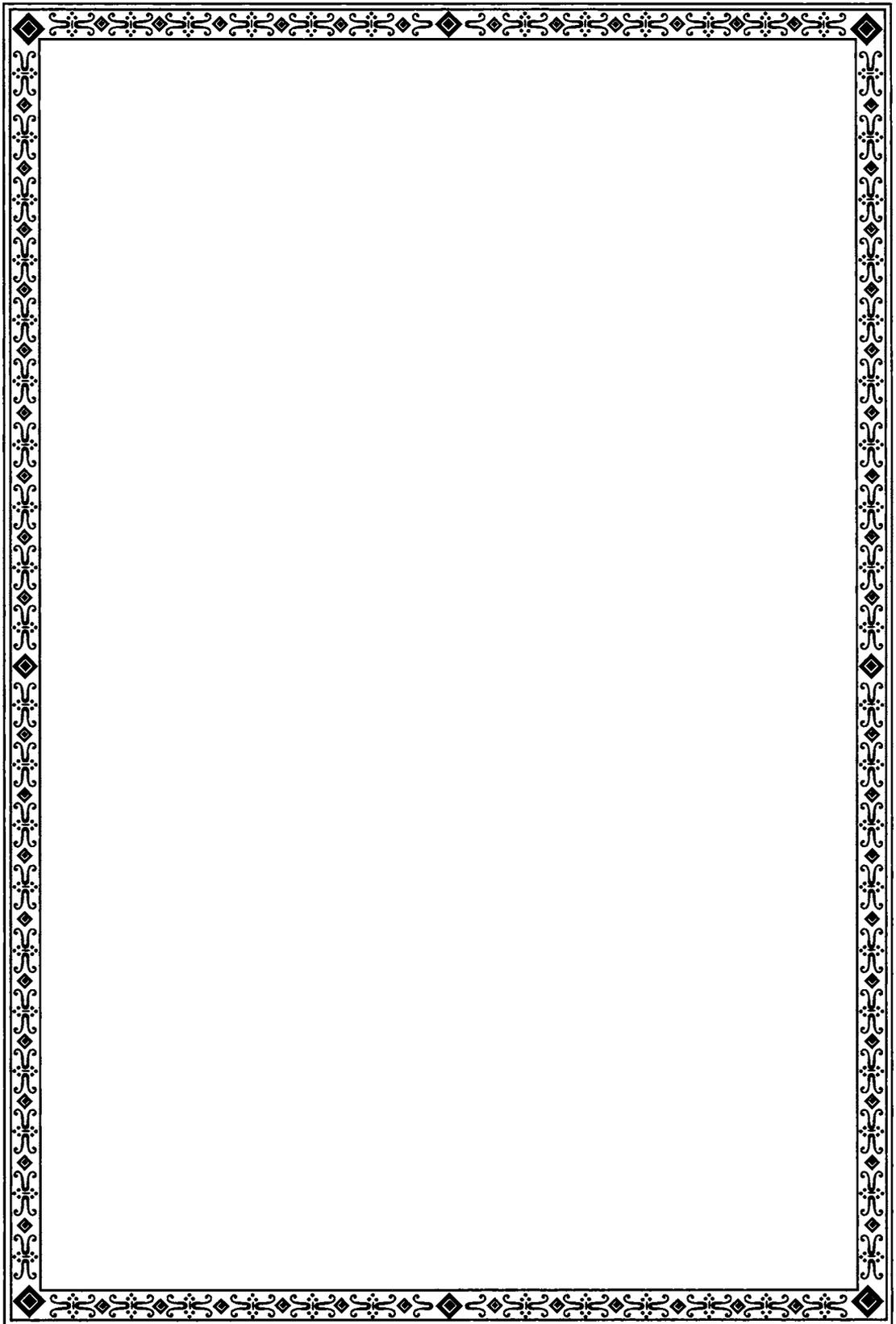
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

٥- أن الله عز وجل لا يخاف عاقبة ما أوقعه بهم من العذاب؛ لأنه القوي العزيز،

الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ اللَّيْلِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الليل»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالليل بقوله تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (١).

وتسمى: «سورة والليل إذا يغشى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

تقدم في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ و﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و﴿وَالضُّحَىٰ﴾» (١).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أو في العصر نحو ذلك، وفي الفجر أطول من ذلك» (٢).

د- موضوعاتها:

- ١- تأكيد اختلاف سعي الناس؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في إيباقها.
- ٢- الوعد لمن أعطى واتفى وصدق بالحسنى بتيسيره لليسرى، والوعيد لمن بخل واستغنى وكذب بالحسنى بتيسيره للعسرى.
- ٣- تهديد من كذب وتولى بالنار، وبشارة من اتقى، وزكى ماله بالنجاة منها، وبرضى الله تعالى.

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ١٠١/٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَفْتُنِي﴾ (١) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَمَّى﴾ (٢) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٣) ﴿إِنْ سَعَيْتُمْ لَشِقَى﴾ (٤) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾ (٥) ﴿وَأَنْفَى﴾ (٦) ﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ﴾ (٧) ﴿فَسَنِيئِهِ لِيُسْرَى﴾ (٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ يَكْتُمُ﴾ (٩) ﴿وَكَذَبَ بِالْحَسَنِ﴾ (١٠) ﴿فَسَنِيئِهِ لِيُعْرَى﴾ (١١) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١٢).

قوله: ﴿وَأَلَيْلٍ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الليل» مقسم به.

﴿إِذَا يَفْتُنِي﴾، أي: حين يغطي الأرض والخلقة بظلامه.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَمَّى﴾ الواو: عاطفة في هذا الموضع والذي بعده، أي: وأقسم بالنهار إذا ظهر وبان، وأشرق وأضاء البسيطة بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ «ما»: موصولة، أي: وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى، من الإنس والجن وسائر الحيوانات والنباتات، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال بعضهم: إن «ما»: مصدرية، والمعنى: وخلق الذكر والأنثى.

عن إبراهيم النخعي، قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم فقال: «أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟، فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَفْتُنِي﴾؟ قال علقمة: ﴿وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والله لا أتابعهم» (١).

وفي لفظ عن إبراهيم عن علقمة: أنه قدم الشام، فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين، وقال: «اللهم ارزقني جليسا صالحا»، قال: فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو

(١) أخرجه البخاري - تفسير سورة ﴿وَأَلَيْلٍ إِذَا يَفْتُنِي﴾ ٤٩٤٤، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٩.

الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ: ﴿وَأَيْلِيلَ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾؟ قال علقمة: ﴿وَالذَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر، الذي لا يعلمه أحد غيره^(١)، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ، صاحب الوساد: ابن مسعود، وصاحب السر: حذيفة، والذي أجير من الشيطان: عمار^(٢).

﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَيْءٌ﴾: جواب القسم.

والسعي: هو العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه حسب الإمكان.

﴿لَشَيْءٌ﴾، أي: لمختلف متفرق.

فأقسم عز وجل بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه، وبالنهار إذا بان وظهر وأضاء البسيطة بنوره، وبنفسه عز وجل، وهو الذي خلق الذكر والأنثى - أقسم على أن سعي العباد وأعمالهم واهتماماتهم وجهودهم مختلفة، متنوعة متفرقة، فعامل خيرًا، وعامل شرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٣).

فستان بين من يعمل لخلاص نفسه ونجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وبين من يعمل لهلاكها وشقائها في الدنيا والآخرة.

ستان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان مجتمعان^(٤)

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

(١) الوساد: المخدة، وفي رواية للبخاري: «صاحب السواك، أو صاحب السرار». وصاحب السر: أي صاحب سر رسول الله ﷺ، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد أسر إليه النبي ﷺ بأساء المنافقين.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤٩/٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البيت لابن القيم ضمن القصيدة «النونية» ص ١١.

رُوي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان يعتق الأرقاء من المساكين ابتغاء وجه الله تعالى (١).

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الفاء: استثنائية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين.

أي: فأما الذي أعطى، أي: أخرج ما أمر به من النفقات الواجبة والمستحبة كالزكاة والإنفاق على الأهل والأولاد، وسائر الصدقات، وقام بفعل المأمورات من الواجبات، كالصلاة والصيام والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغيرها، ومن المستحبات كنافل العبادات وغيرها.

﴿وَاتَّقَى﴾، أي: واتقى الله بالبعد عن المنهيات.

وفي تقديم قوله: ﴿أَعْطَى﴾ إشارة إلى أهمية أداء حقوق الخلق، وأهمية النفع المتعدي إلى الخلق، وأهمية فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، أي: صدق بلا إله إلا الله، وبما يستوجبه الإيمان بها من الإيمان بجميع أصول الدين وفروعه، كما جاءت في الكتاب والسنة.

وصدق بالثبوت الحسنى على ذلك من الله عز وجل بالخلف في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

رُوي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» (٢).

وهذه هي المراتب الثلاث التي يدور عليها الدين: فعل المأمور، وترك المحذور، وتصديق الخبر.

﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والسين للتحقيق، أي: فسنييره لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ونوفقه لعمل الخير ونهيء له أسبابه، لأن من جزاء الحسننة الحسننة بعدها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:

(١) انظر «جامع البيان» ٢٤/٤٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/١٦٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/١٩٤٥.

[٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].
 ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخُلْ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما الذي يخل بها آتاه الله من المال، فمنع حق الله فيه، ولم يقم بها أمره الله بالقيام به.

﴿وَأَسْتَغْنَى﴾، أي: واستغنى بنفسه وماله عن ربه ورحمته وتقواه.
 وقابل قوله: ﴿اتقى﴾ بقوله: ﴿استغنى﴾؛ تبشيعاً لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه، وأنه بهذا المسلك فعل فعل المستغني عن ربه، مع أن كل مخلوق لا غنى له عن ربه طرفه عين.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى﴾، أي: وكذب بلا إله إلا الله، وبالثبوة الحسنى والمجازاة على العمل في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعَسْرَى﴾، أي: فسيسره في أموره كلها للعسرى، ونهيء له الشر وأسبابه، لأن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرُغُهُمْ فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْزَمُونَ ۖ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ﴾ [الصف: ٥].

ولا يُعْتَر بما عليه الكفار من النعم الظاهرة فهم في شقاء وضيق نفسي قال تعالى:
 ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۗ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو أيضًا استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۗ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۗ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس^(١)، فجعل ينكت بمخصرته،

(١) المخصرة: ما أخذته الإنسان بيده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكئ عليه وقوله «فنكس»، أي: خفض رأسه وطأه على هيئة المهموم.

ثم قال: «ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة^(١) إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة»، قال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟، فقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾»^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً»، وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾»^(٣).

﴿وَمَا يَفْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ «ما» استفهامية، أي: وأي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به. ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾، أي: إذا هلك وألقي في النار.

والجواب: لا ينفعه هذا المال، ولا يدفع عنه شيئاً.

ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: وما ينفعه ماله، ولا يدفع عنه، إذا هلك وألقي في النار.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه، وبالنهار إذا تجلى وظهر، وبنفسه الشريفة، وهو الذي خلق الذكر والأنثى، أن سعي الناس مختلف، فساع في

(١) منفوسة، أي: مخلوقة ومولودة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَأَلِيلٌ إِذَا غَشَى﴾ ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر- ما جاء في الشقاء والسعادة ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة- باب القدر ٧٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٤٦٩-٤٧١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٤٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٤٤١.

خلاص نفسه وفكاكها، وساع في إهلاكها وإياقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

٢- أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن يقسم بنفسه لما في ذلك كله من الدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته.

٣- الترغيب في التأمل في آيات الله عز وجل الكونية، الليل والنهار، وفي خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات، وشكره عز وجل على هذه النعم.

٤- شتان بين من يسعى في فكاك نفسه وإعتاقها، وبين من يسعى في هلاكها وإياقها.

٥- البشارة لمن أعطى من ماله وقام بفعل ما أمر به، واتقى بترك ما نهي عنه، وصدق بالمشوبة الحسنى على ذلك بتوفيقه للخير، وتيسير أموره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَرَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝٧﴾.

٦- وجوب دفع الإنسان ما عليه من حقوق مالية وغيرها كالزكاة والنفقة على الأهل، واستحباب السخاء والبذل مما أعطاه الله من مال وغيره، ووجوب تقوى الله وتصديق شرعه، والثقة بوعده.

٧- أن الأعمال الصالحة يأخذ بعضها برقاب بعض، والحسنة سبب للحسنة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٨- التحذير من البخل بما على الإنسان من حقوق في نفسه وماله، والاستغناء عما عند الله عز وجل والتكذيب بشرعه وجزائه، والوعيد لمن فعل ذلك بتيسيره للعسرى والشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

٩- أن الأعمال السيئة يجر بعضها بعضاً، والسيئة سبب للسيئة بعدها.

١٠- أن المال لا ينفع صاحبه ولا يدفع عنه إذا بخل به واستغنى به عن ربه عز وجل ولا ينقذه من عذاب النار إذا هلك وتردى فيها مما يوجب الحذر من التهالك في جمعه ونسيان حقوق الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِن عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾ ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُمْ كُنَّا نَارًا تَلْتَظُنَّ ﴿١٤﴾ لَا يُصَلِّهَا إِلَّا الشَّقِيُّ ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ .

أقسم عز وجل في مطلع السورة أن سعي الناس مختلف، وبين انقسامهم إلى فريقين وحال ومآل كل منهما، ثم أتبع ذلك بأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق وبين لهم طريق الهدى، وأن الدنيا والآخرة ملك له، وحذر من النار، وبين صفة من يصلها ومن يجنبها. قوله: ﴿إِن عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، أي: إن علينا إرشادهم وبيان طريق الهدى لهم وطريق الضلال، وبيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٣﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ [البلد: ١٠]. وأيضًا فإن طريق الهدى عليه عز وجل، وموصل إليه، كما قال عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ [الحجر: ٤١]. وقد بين عز وجل للناس الهدى أتم بيان، وأقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأكمل الدين، وأتم النعمة ببعثة محمد ﷺ، فلم يلحق بربه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك^(١). قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»^(٢).

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علمنا نبينا ﷺ حتى الخراءة»^(٣). أي: علمنا حتى آداب الخلاء وقضاء الحاجة.

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٤ - من حديث العرياض بن سارية - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ١٥٣/٥.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة - الاستطابة ٢٦٢.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، أي: وإن لنا ملك الآخرة والدنيا والتصرف فيها.
 كما قال تعالى: ﴿فِئْتَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: ٢٥]، فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].
 وقدم الآخرة مع أنها متأخرة من حيث الزمن؛ لأهميتها، فهي الدار الحقيقية.
 كما قال تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤].
 وقدمها أيضًا: لأن فيها يظهر تمام ملك الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.
 ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾، أي: فحذرتكم وخوفتكم نارا تتوهج وتستعر وتشتعل، وهي نار الآخرة.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار»، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله»^(١).
 وعنه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»^(٢).
 وفي رواية: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»^(٣).

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾، أي: لا يدخلها ويغمر فيها ويقاسي حرها.
 ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾، أي: إلا الذي كتب عليه الشقاء، وبلغ فيه غايته، كما قال تعالى:
 ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].
 ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾: تفسير للأشقى، أي: الذي كذب بقلبه ما أخبر الله به ورسوله

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنة والنار ٦٥٦١، ومسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٤، وأحمد ٤/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، وأخرجها البخاري مختصرة في الرقاق ٦٥٦٢.

﴿وَتَوَلَّى﴾ بجوارحه عن العمل بما أمر الله به ورسوله، فخالف الأمر وارتكب النهي، وكفر ظاهراً وباطناً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟، قال: «الذي لا يعمل بطاعة الله ولا يترك لله معصية»^(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبي» قالوا: يا رسول الله، ومن أبي؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن كثير^(٣): «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها».

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾، أي: وسيعبد عنها جانباً، ويزحزح عنها ﴿الْأَتْقَى﴾، أي: التقي، وكلما كان الإنسان لله أتقى كان عن النار أبعد.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ تفسير لقوله: ﴿الْأَتْقَى﴾، أي: الذي يعطي ماله، أي: يخرج وينفق ماله ويصرفه في سبيل الله وطاعته.

﴿يَتَزَكَّى﴾، أي: يتطهر: ليطهر نفسه وماله، فتزكو نفسه وتطهر من الشح والبخل ونحو ذلك ويزكو ماله وينمو ويزيد ويسلم من الآفات بإذن الله عز وجل.

قال السعدي^(٤): «فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما فإنه غير مشروع، بل تكون عطية مردودة عند كثير من العلماء، لأنه يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب».

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام - الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٧٢٨٠، وأحمد ٢/٣٦١.

(٣) في «تفسيره» ٨/٤٤٤.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٦٣٩.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾، أي: وليس لأحد ممن يعطيهم هذا المزكي لنفسه وماله.
 ﴿عِنْدَهُ، مِنْ تَعَمُّرٍ مُجَزَّئٍ﴾، أي: ليس إعطاؤه لهم مكافأة لهم على سابق نعمة منهم إليه
 أو منة منهم عليه.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾. «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن ابتغاء وجه ربه،
 أي: إلا إخلاصاً لله عز وجل وتحقيقاً لرضاه وطلباً لرؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.
 ﴿الْأَعْلَى﴾، أي: الأعلى على جميع خلقه، الذي استوى على عرشه سبحانه وتعالى،
 الذي له العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ الواو: استئنافية واللام: موطئة للقسم، أي: والله لسوف يرضى بنيله
 ما كان يرجو من رؤية الله عز وجل والنعيم المقيم، والنجاة من نار الجحيم.

وسياق الآيات يدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكر هذا
 كثير من المفسرين، بل ذكر بعضهم الإجماع عليه، فإنها اشتملت على صفات عظيمة هي
 من صفات خواص المؤمنين، بل من صفات خواص الصديقين، ورتب عليها وعد
 بالرضى من المولى العظيم، ولا شك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن أبا
 بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل في عمومها، فلقد كانت له رضي الله عنه الأيدي
 البيضاء الكريمة والمواقف العظيمة النبيلة في بذل نفسه وماله في سبيل الله، والدفاع عن
 رسول الله ﷺ.

فقد كان صاحبه في الهجرة. قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِفِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ
 مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد
 كافأناه، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد
 قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لا نتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن
 صاحبكم خليل الله»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٦١ وقال «حديث حسن غريب».

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر، وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: «أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» [غافر: ٢٨]»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَمَنَّ النَّاسَ عَلِيٌّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتَ مَتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتَ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سَدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»^(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر أخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر، فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك، يا أبا بكر، ثلاثاً، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: ثمّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمرّ حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين، فما أودى بعدها»^(٤).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالاً»^(٥).

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب ٣٦٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦١.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٤، والترمذي في المناقب ٣٨٨٥.

وقد أعتق أبو بكر رضي الله عنه من ماله كثيرًا من الأرقاء والمستضعفين من المسلمين من أيدي المشركين وتعذيبهم، منهم بلال بن رباح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما.

وكانت له أياد بيضاء على كثير من الناس حتى على بعض سادات العرب، ولهذا قال عروة بن مسعود الثقفي يوم صلح الحديبية لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: «امصص ببظر اللات أنحن نفرّ وندعه؟ يعني رسول الله ﷺ. فقال له عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعتة خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان».

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»^(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق

(١) أخرجه البخاري في الشروط - الشروط في الجهاد ٢٧٣١، ٢٧٣٢ - من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة - رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٦، ومسلم في الزكاة ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٢٨.

ذلك عندي مالا، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله، لا أسبقه إلى شيء أبداً»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»^(٢).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»^(٣).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟، كأنها تقول الموت. قال ﷺ: «إن لم تجدني فائتي أبا بكر»^(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» الحديث^(٥).
وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»^(٦).

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٥.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٩، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٦، والترمذي في المناقب ٣٦٧٦.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة السنة ١٢٣٢.

(٦) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده. انظر: «المنتخب من مسند عبد بن حميد» ص ١٠١ (١٢)، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» ١/ ٥٢ (١٣٥) من حديث عبد الله بن عتيك رضي الله عنه، وله شواهد عند الطبراني من حديث جابر وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص ٤٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق» (١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر» (٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَنَهُ﴾ [يوسف: ١٢]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَابَتِ اسْتَجْرَةُ إِبْرَٰهِيمَ حَيْرَٰمٍ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينِ﴾ (٣) [القصص: ٢٦]». وقال بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه» (٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين. قال: فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إلى أقربها من رسول الله ﷺ» (٥).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٥، ومسلم في الإيمان ٢٠، وأبو داود في الزكاة ١٥٥٦، والنسائي في الزكاة ٢٤٤٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٧.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح، وروي مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما من طرق لا يخلو شيء منها من مقال، انظر «المقاصد الحسنة» ص ٣٤٩ حديث ٩٠٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٩٦٦/٩، وأخرجه ابن سعد والحاكم فيما ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص ٨٤.

(٤) انظر «المقاصد الحسنة» ص ٣٦٩ حديث ٩٧٠.

(٥) أخرجه أحمد ٨/١.

الفوائد والأحكام:

١- تكفل الله عز وجل ببيان الهدى والرشاد إقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى:

﴿إِن عَلَيْنَا الْهُدَى﴾.

٢- أن الله عز وجل ملك الآخرة والدينا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾.

٣- التحذير والإنذار من نار شديدة اللظى واللهب، لا يدخلها إلا الأشقى

المكذب بالحق المعرض عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١١﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

٤- وعد الله عز وجل الذي لا يخلف الميعاد بإبعاد الأتقى عن النار الذي ينفق ماله

ليظهر نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى لا مجازاة لأحد على نعمة، ووعدته تعالى بأن يرضيه؛

لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾﴾.

٥- الترغيب في الإنفاق ابتغاء وجه الله والإخلاص لله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا

ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾.

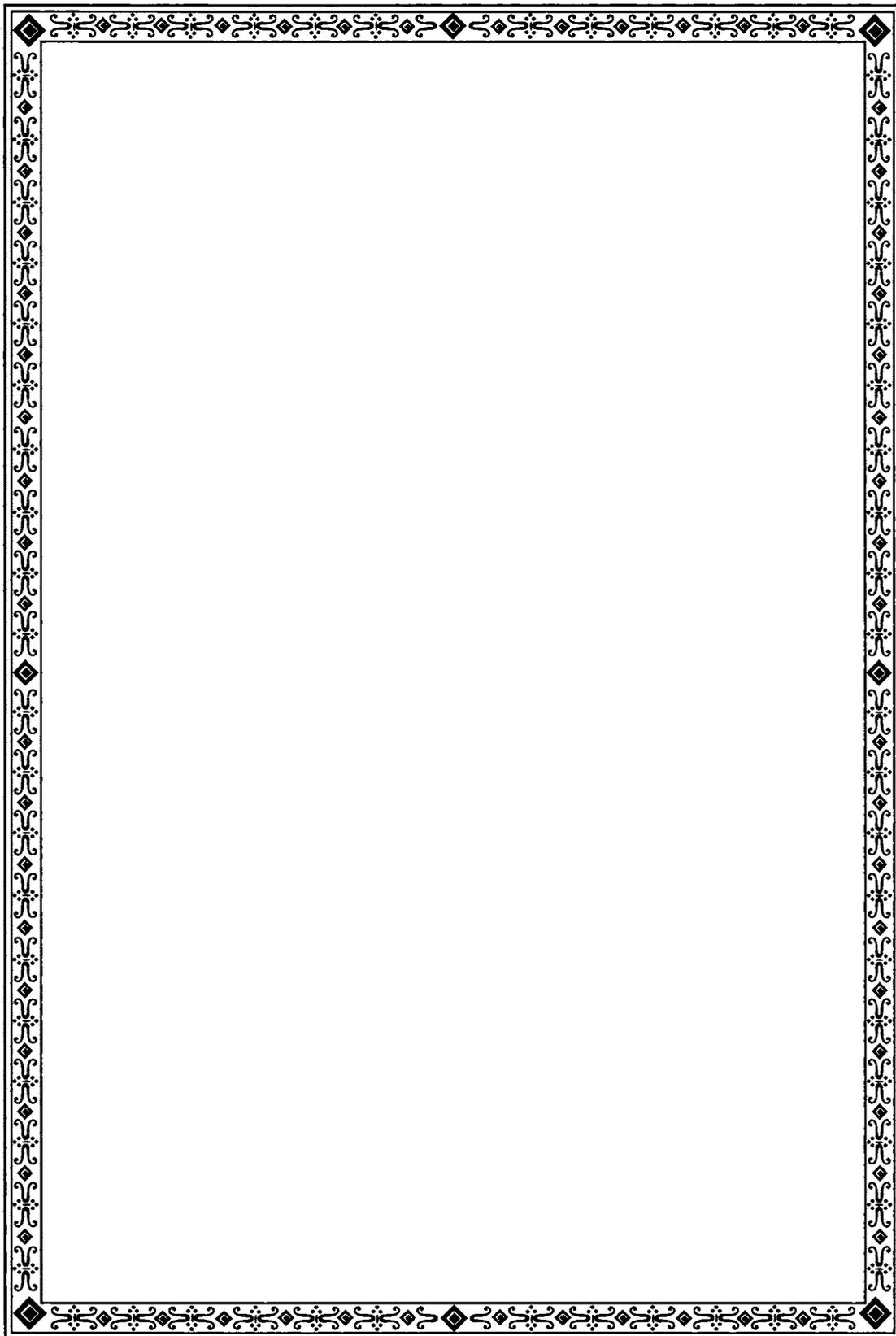
٦- إثبات الوجه لله عز وجل. وإثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة لأوليائه؛

لقوله تعالى: ﴿وَجْهَ رَبِّهِ﴾.

٧- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الضُّحَى



المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول قصار المفصل. وسميت: «سورة الضحى»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالضحى بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (١).

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى بالناس فطوّل فقال النبي ﷺ: «اقرأ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ و﴿وَالضُّحَىٰ﴾ و﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنشَىٰ﴾ و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾، ونحو هذا» (١).

د- موضوعاتها:

- ١- تأكيد عناية الله تعالى به ﷺ، وبشارته بما له في الآخرة، وبما سيعطيه الله عز وجل، وامتنانه عليه بما أعطاه.
- ٢- التذكير بحق اليتيم والمسكين، والتحدث بنعمة الله تعالى.

* * *

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَشَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾.

سبب النزول:

عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقيم ليلة أو ليلتين، فأنت امرأة^(١)، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾»^(٢).

وفي رواية عن جندب، قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودّع محمد، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾»^(٣).

قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ الواو: للقسمة، و«الضحى»: مقسم به، وهو صدر النهار أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

أي: والضحى إذا أشرق وأضاء الأرض بنوره، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ①﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: إذا غشى وغطى الأرض والخليقة بظلامه وسكن وادّهم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَعْشَىٰهَا ④﴾ [الشمس: ٤]، يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة الريح والأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾:

(١) قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿والضحى﴾ ٤٩٥٠، ومسلم في الجهاد- ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٧، وأحمد ٤/ ٣١٢-٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٥، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٧، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

هذا هو جواب القسم.

فأقسم الله عز وجل بالضحى وضيائه، والليل وظلامه، وهما من المتضادات الدالة على عظيم قدرة الله عز وجل، أقسم على أنه عز وجل ما ودع نبيه ﷺ وما قلاه، وأن الآخرة خير له من الدنيا وأن الله سيعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾، أي: ما تركك ربك، وما أهملك منذ اعتنى بك ورباك.

﴿وَمَا قَلَى﴾، أي: وما قلاك ربك، وما أبغضك منذ أحبك.

وهذا في معرض الرد على قول المشركين لما أبطأ عنه ﷺ جبريل عليه السلام قالوا: «ودعه ربه وقلاه»، فنفى عز وجل أن يكون ترك نبيه ﷺ وأبغضه.

ومفهوم هذا أنه عز وجل معتنٍ به ﷺ، محبٌ له، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

أقسم عز وجل على نفي ما ادعاه المشركون من تركه عز وجل لنبيه ﷺ وبغضه له، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعدّه له من الكرامة في الآخرة، وما سيمتنّ به عليه من النعم في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾، الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: للقسم في الموضعين، أي: والله للآخرة خير لك ﴿مِنَ الْأُولَى﴾، أي: من الدنيا. وسميت الآخرة بهذا الاسم لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا لما زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن رضي الله عنها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟»، ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتها على البكاء فجعلنا يبكيان معها»^(١).

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٥٤ وأخرجه ابن ماجه مختصراً في الجنائز ١٦٣٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كما سميت الدنيا بهذا الاسم؛ لأنها متقدمة على الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنية حقيرة، وقد تمثل ﷺ هذه الحقيقة المسلّمة في سيرته العطرة، فكان ﷺ أزهّد الناس في الدنيا وأشدهم طلباً للآخرة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟» فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنها مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٢).

ولهذا لما خير الله عز وجل نبيه ﷺ بين أن يؤتية زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده اختار ما عند الله عز وجل^(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٨٣، وابن ماجه في الزهد- مثل الدنيا ٤١٠٩، وأحمد ٣٩١/١، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، وأخرجه مختصراً الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ٣٩٠٤، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

الكافر»^(١).

فالدنيا لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

والآخرة خير من الدنيا له ﷺ خاصة وللمؤمنين عامة كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفْئَالَ تَمَقُّلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، أي: ووالله لسوف يعطيك ربك فترضى. و«سوف»: لتحقيق الشيء في المستقبل.

فهذا وعد له ﷺ من ربه عز وجل بأن يعطيه من الخير في الدنيا والآخرة حتى يرضى. وقد أعطاه عز وجل من الخير العاجل: التمكين لدينه، والتأييد له ونصره على أعدائه، وظهور الحق، وزهوق الباطل، ودخول الناس في دين الله أفواجاً إلى غير ذلك. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة»^(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٤٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٨، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتميم ٤٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في

الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

وأعطاه الله عز وجل من الخير الآجل ما لا يخطر على بال من الشفاعة الكبرى والمقام المحمود والحوض المورود، وجنات الخلود وشهادته هو وأمته على الأمم وغير ذلك.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كثرًا، فسر بذلك، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾»^(٢).

وقال ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة»، قالوا: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا»^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾^(٦) و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾^(٧) و﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

وعد الله عز وجل في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه فيرضى، ثم ذكره عز وجل بما أسبغ عليه من عظيم النعم؛ ليشكره عليها ويحدث بها ويتيقن أن ما عند الله له في الآخرة خير من الدنيا، وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التقرير، أي: ألم تكن يتيمًا فآواك، وذلك أن أباه توفي وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه آمنة بنت وهب، وعمره ست سنوات، فاجتمع عليه ﷺ مع اليتيم بفقد الأب فقد الأم.

﴿فَآوَى﴾، أي: فآواك، بأن سخر الله لك من يؤيك ويكفلك وينصرك حيث كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي وعمره ﷺ ثمان سنوات، ثم كفله عمه أبو طالب، فأحاطه بعظيم عنايته ورعايته في صغره، ولما ابتعثه الله على رأس الأربعين سنة من عمره ناصره

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٤٨٨ - قال ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٤٤٨: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٤٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أشد المناصرة، ووقف سداً منيعاً دون أذى قومه أن يصل إليه، فلم يستطيعوا النيل منه
ﷺ حتى توفي أبو طالب قبيل الهجرة.

وفي هذا يقول أبو طالب^(١):

ولما رأيت القوم لاوّدّ فيهم
وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقد حالقوا قومًا علينا أظنةً
إلى أن قال:

ولما نطاعن دونه وناضل
ونذل عن أبنائنا والحلائل
كذبتم وبيت الله^(٢) بُزى^(٣) محمداً
ونسلمه حتى نصرع دونه
إلى أن قال:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها
فمن مثله في الناس أيّ مؤمّل
حلیم رشید عادل غير طائش
فوالله لولا أن أجيء بسبة
لكننا اتبعناه على كل حالة
لقد علموا أن ابننا لا مكذب
فأصبح فينا أحمد في أرومة

(١) انظر: «ديوانه» ص ٤٩.

(٢) هذا قسم بالبيت والقسم بغير الله لا يجوز ولكن ليس بعد الشرك ذنب فأبو طالب مشرك كافر.

(٣) أي: نسلبه ونغلب عليه.

حَدِثْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتِهِ ودافعت عنه بالذري والكلاكل
فأبده رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقه غير باطل
رجال كرام غير ميلٍ ناهم إلى الخير آباءً كرام المحاصل
فإن تك كعب من لؤيٍ صُقيية^(١) فلا بد يوماً مرةٍ من تزائل^(٢)

فسبحان من سخر أبا طالب - وهو مشرك - يحوط النبي ﷺ ويدافع ويدود عنه،
وينافح من أجله وصدق ﷺ إذ يقول: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٣).
ولما توفي عمه أبو طالب استطال عليه سفهاء قريش وجهاهم، فاختار الله له
الهجرة إلى المدينة، فرحب به الأنصار رضي الله عنهم وأووه هو وأصحابه المهاجرين.
كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩].

واستقبلوه فرحين مستبشرين يرددون^(٤):

طلع البدر علينا ممن ثنيات السوداع
وجب الشكر علينا مَادَعَا لَهِ دَاعٍ
أيها المبعوث فينا جئنا بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

فأحاطه الله عز وجل بعنايته منذ كان في بطن أمه، وبعد ولادته، وسخر له من
يؤويه، وأيده بمن يناصره ويدافع عنه بعد مبعثه ﷺ حتى ظهر دينه على الأديان
كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأصبح كل واحد من المؤمنين - وهم والله

(١) يعني: قريبة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٢٩١-٢٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٣٠٦٢، ومسلم في الإيمان ١١١، وأحمد ٢/٣٠٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي ٢/٥٠٦، «الفوائد المنتقاة الحسان» للخليفي ٢/٣٣٦ (١٠٢٠).

الحمد لا يحصون كثرة - يفديه بنفسه وأهله وماله وكل هذا من إيواء الله عز وجل ونصره له ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، أي: وكنت ضالًّا عن هذا الدين والشرع القويم، أي: لم تهد إليه بعد ﴿فَهَدَيْتَنِي﴾، أي: فهداك الله إليه بما أنزل عليك من الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۗ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۗ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وليس معنى كونه ﴿ضَالًّا﴾ أنه على دين قومه الشرك، بل كان ﷺ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، وكان يتعبد في غار حراء ابتعادًا عما عليه قومه من الشرك. ومثل هذا قوله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة»^(١). أي: أنهم لم يهتدوا إلى هذا اليوم فهدانا الله إليه.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، أي: وكنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله، بما أعطاك من مال خديجة رضي الله عنها، وبما أفاء عليك من الغنائم، ولهذا قال ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»^(٢).

وأعظم من ذلك وأهم ما رزقه الله عز وجل من غنى النفس والقناعة، التي هي كنز لا يفنى.

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨ من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٥٠/٢ - من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقًا في الجهاد - ما قيل في الرماح.

فجمع الله - عز وجل - له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر - مع ما كان عليه ﷺ من ضيق الحال، وقلة ذات اليد، وقد عرضت عليه الدنيا، فلم يلتفت إليها، وأثر ﷺ أن ينام على الحصير.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا»، أو نحو هذا: «فإذا جمعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك»^(١).

وكان يمر على بيوته ﷺ المهلالان والثلاثة لا يوقد فيها نار، فقيل لعائشة رضي الله عنها فما طعامكم حينئذ؟، قالت: «الأسودان التمر والماء»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر، أو خبز بر ثلاث ليال تباعًا»^(٣).

وشكا إليه أزواجه ﷺ ضيق الحال وطالبه بزيادة النفقة، فأمره الله عز وجل أن يغيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها ومفارقتهن، وبين الله ورسوله والدار الآخرة والبقاء في عصمته ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وخرج ﷺ ذات يوم هائمًا على وجهه من شدة الجوع، فلقيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فسألها «ما الذي أخرجكما في هذه الساعة؟»، فقالا: يا رسول الله أخرجنا الجوع، فقال ﷺ: «وأنا والله الذي أخرجني الجوع» الحديث^(٤).

واستضافه ﷺ رجل، فدخل على أزواجه ﷺ فسألن هل عندكن من شيء فقلن: لا، فخرج إلى أصحابه يسألهم: «من يضيف ضيف رسول الله ﷺ وله الجنة؟»، فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنا. وفيه وفي زوجته نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]^(٥).

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٧ وقال «حديث حسن» وأحمد ٥/٢٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه في تفسير سورة التكاثر.

(٥) سبق تخريجه.

واستمر به الحال ﷺ هكذا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، فتوفي ﷺ بأبي هو وأمي،
ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير^(١).

ولو أراد ﷺ الدنيا لأتته من كل حذب وصوب، ولكنه ﷺ أثر ما يبقى على ما
يفنى، وعرف حقايرة الدنيا، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فهي متاع حائل، وظل زائل؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب
استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

ويقول ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»^(٣).

ويقول ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(٤).

وكان من أشد ما خاف ﷺ على أمته انفتاح الدنيا عليهم، قال ﷺ: «والله ما الفقر
أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم،
فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(٥).

فإنه من حكمة الله تعالى أن يدرأ الدنيا عمن يجب، ويجوطه عنها، وذلك لأنها مزلة
قدم، فكم من أناس غرقوا في وحلها فخرسوا دينهم ودنياهم وآخرتهم، حيث انشغلوا
بها عن طاعة الله عز وجل وعن الاستعداد لما أمامهم، وخرجت بهم من الحلال إلى
الحرام فصار الحلال ما حل بأيديهم، ولو كان من طريق المعاملات المحرمة، قال ﷺ:
«لو أن ابن آدم أعطي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أعطي ثانياً لابتغى ثالثاً، ولا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩١٦ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٨٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه
في الزهد ٤١٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨ - من حديث
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة
٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ - من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

يملاً جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» (١).
وكانت نفقة الإمام أحمد رحمه الله في الشهر سبعة عشر درهماً. وكان يقول: إنما هو
طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنما أيام قلائل (٢).
وقال ابنه عبد الله: «بقيت حذاء أبي في رجله ثمان عشرة سنة كلما خرمت خصفها
بيده».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝٢ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝٣﴾
لما ذكر عز وجل ما امتن به على نبيه ﷺ من النعم الدينية والدنيوية أتبع ذلك
بالأمر بأداء حقوق هذه النعم.

قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، أي: كما كنت يتيمًا فأواك الله فلا تقهر اليتيم، وهذا
خطاب له ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته، أي: فأما اليتيم فلا تذله وتهنه وتعتمد عليه وعلى
ماله وحقوقه، بل أحسن إليه وتلطف به ودافع عنه وعن حقوقه، وخص اليتيم لصغره
وضعفه فهو عرضة لكل طامع، ممن لا يخافون الله، ولهذا عظم الله عز وجل حق اليتيم
في كتابه الكريم، وعظمه رسوله المصطفى الكريم في سنته المطهرة.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل المسترشد
الطالب للعلم والهدى ولا تزجره وترده، بل عامله باللطف واللين، وأرشدته إلى الحق
وبينه له.

وأيضاً فكما كنت عائلاً فأغنك الله فلا تنهر المسكين ذا الحاجة إذا جاء يطلب
العون والمساعدة، بل ساعده ما أمكن أو اعتذر منه بلطف، قال ﷺ: «أعطوا السائل
ولو جاء على فرس» (٣).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٨ من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وأخرجه الترمذي في
المناقب ٣٧٩٣ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الورع» لأحمد، رواية المروزي ص ٨٠ (٢٤٥)، «أخبار الشيوخ وأخلاقهم» ص ١٢١ (١٧٨)،
«البداية والنهاية» ٤١٢/١٤.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ- في كتاب الجامع- مرسلًا من حديث زيد بن أسلم ١٨٧٦.

وقال ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»^(١).

ولهذا كان ﷺ لا يرد سائلاً، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعطي حتى ينفد ما عنده، وكان ﷺ كما وصفه القائل:
 تعود بسط الكف حتى لو انه
 ثناها لقبض لم تطعه أنامله
 تراه إذا ما جئته متهللاً
 كأنك تعطيه الذي أنت سائله
 ولو لم يكن في كفه غير روحه
 لجاد بها فليثق الله سائله^(٢)

وكان ﷺ أسوة في التواضع للوفود وطالبي الحاجات والسائلين والمسترشدين، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائضه، فقال له ﷺ: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»^(٣).

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ «نعمة»: مفرد مضاف، فتعم كل نعم الله عليه من إيوائه بعد اليتيم، وهدايته من الضلالة، وإغنائه من العيلة، وغير ذلك، ولكن أعظم هذه النعم وأهمها نعمة النبوة والرسالة.

والمعنى: وأما بنعمة ربك عليك بالنبوة فحدث وبلغ الناس.
 وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

وأيضاً: فحدث بنعمة الله عليك بإيوائك بعد أن كنت يتيمًا، وتذكر ذلك فلا تنهر اليتيم، وحدث بنعمة الله عليك بالغنى بعد أن كنت فقيرًا فلا تنهر السائل، وتحدث

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة - حق السائل ١٦٦٧، والنسائي في الزكاة - تفسير المسكين - رد السائل ٢٥٦٥، والترمذي في الزكاة - ما جاء في حق السائل ٦٦٥، وأحمد ٣٨١/٥ - من حديث بجيد الأنصاري عن جدته رضي الله عنها.

(٢) الأبيات للمتنبى. انظر: «ديوانه» ص ٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/٢٥، «نهاية الأرب» ٣/١٨٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

بسائر نعم الله عليك بذكرها وشكرها.

ولهذا كان ﷺ أشكر الناس لربه، قام ﷺ الليل حتى تفتطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

وكان ﷺ يقول في الدعاء: «اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»^(٤).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٥).

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالضحى، والليل إذا سجاً؛ لما فيها من دلائل قدرته وعظمته، وتنبهاً على أهمية الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾.

٢- عناية الله عز وجل بنبية ﷺ وتثيته له وطمأنته في الإقسام له على أنه ما ودعه

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- التشهد ٩٦٨- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١١، والترمذي في البر- الشكر لمن أحسن إليك ١٩٥٤، وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٨٢٠- وقال «حديث حسن». ورؤي بمعناه من حديث أبي الأحوص عن أبيه رضي الله عنه- أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٦٣، والنسائي ٤٨١٩.

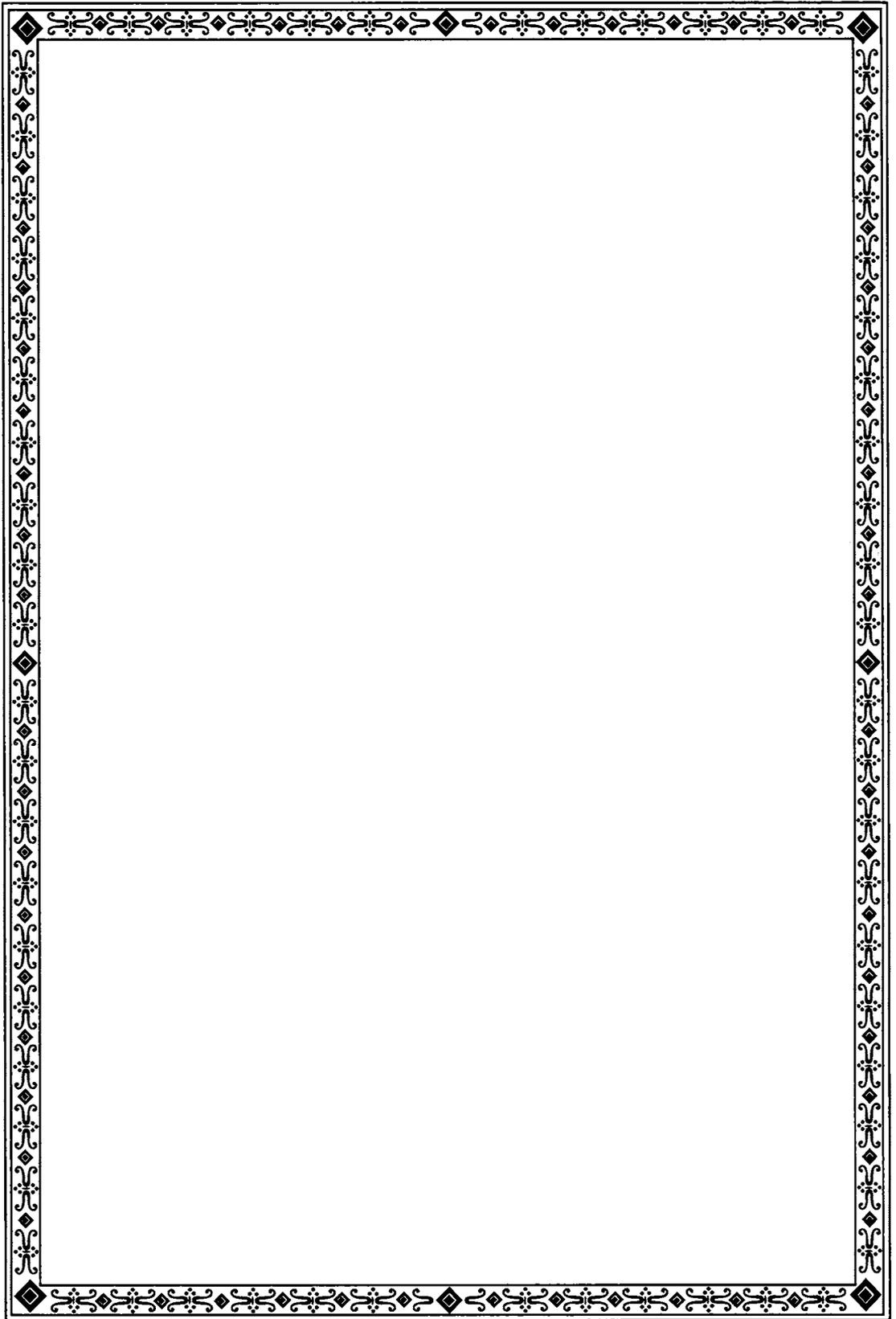
- وما قلاه ردًا على ما زعمه المشركون المرجفون؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.
- ٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبية ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.
- ٤- أن ما عند الله عز وجل في الآخرة خير له ﷺ من الدنيا وما فيها، وكذلك لأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.
- ٥- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف أنه سيعطي نبيه ﷺ من الخير في نفسه وأمتة في الدنيا والآخرة حتى يرضى، وقد أعطاه من ذلك الكثير، وما ادخره له عنده عز وجل أجل وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.
- ٦- امتنان الله عز وجل على نبيه ﷺ بإيوائه له بعد اليتيم، وهدايته له بعد الضلال، وإغنائه له بعد العيلة تذكيرًا له بذلك، وتدليلاً على أنه سيعطيه من الخير العاجل والآجل حتى يرضى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۗ﴾ (٨).
- وفي هذا امتنان عليه وعلى أمتة؛ ولهذا قال ﷺ: «ألم أجدكم ضالًّا لآ فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي» (١).
- ٧- النهي له ﷺ عن قهر اليتيم وإذلاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإيوائه بعد اليتيم وهو نهي له ﷺ ولأمتة.
- ٨- النهي له ﷺ عن نهر السائل وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإغنائه بعد العيلة، وهو نهي له ﷺ ولأمتة.
- ٩- تعظيم الإسلام لحق اليتيم والمسكين؛ نظرًا لشدة حاجتهما إلى العناية والرعاية، ولا عجب فهو دين التكافل الاجتماعي.
- ١٠- أمر الله عز وجل لنبية ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه بالنبوة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وقد حدث ﷺ وبلغ البلاغ المبين وقام شكرًا لله حتى

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة ١٠٦١ - من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

تفطرت قدماءه، وأخبر بما من الله به عليه من سائر النعم.
١١- ينبغي للمؤمن أن يشكر نعم الله عز وجل عليه، ويتحدث بها، ويظهر أثرها
اعترافاً لله عز وجل بها.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْاِنْشِرَاحِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشرح»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وتسمى: «سورة الإنشراح»، و«سورة ألم نشرح لك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- تعداد نعم الله تعالى على رسوله ﷺ، وحثه على شكرها.

٢- بيان أن مع كل عسر يسرين.

٣- الترغيب في الإكثار من العبادة بعد الفراغ من الشغل.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ

ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، أي: أما شرحنا لك صدرك، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك.

والمعنى: شرحنا لك صدرك للإسلام ونورناه بنور الإيمان والنبوة، فأصبح واسعًا رحبًا في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وامثال أوامر الله - عز وجل - واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى أقدار الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَل نُورٍ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية إلى قوله: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

كما شرح الله صدره وشقه حسيًا كما في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم، أو قال في الحجر مضطجعًا إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة قال: فأتى ففقد، أو فشق ما بين هذه إلى هذه» يعني من ثغرة نحره إلى شعرته، قال: «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد» الحديث (١).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في سماعه ﷺ وهو ابن عشر سنين وأشهر بكلام فوق رأسه، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو قال: نعم، إلى أن قال ﷺ: «فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في

والحسد، فأخرج شيئاً كههيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد، واسلم، فرجعت بها أغدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»^(١).

ولهذا كان ﷺ كما وصفه الله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، أي: طرحنا وأنزلنا عنك ذنبك وغفرنا لك.

كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تفتطرت قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).

وهو ﷺ وسائر الأنبياء معصومون عن الوقوع في الكبائر، وعن الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، لكنهم غير معصومين عن الصغائر، لكن لا يُقَرُّون عليها وسريعاً ما يتوبون منها^(٣).

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أي: الذي أثقل ظهرك وآلمه، فامتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بهذا، لأن ثقل الظهر يمنع من قطع مسافة السفر، فكيف بالسفر الطويل، فالأوزار تمنع القلب من السير إلى الله عز وجل، وتمنع الجوارح من النهوض في طاعته.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أي: أعلننا لك ذكرك، فجعلنا ذكرك عالياً بين الأنبياء وبين سائر الناس من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، فهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟، قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ

(١) أخرجه أحمد ١٣٩/٥.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٣١٩/٤.

ذكرت معي»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلاً، وموسى كليلاً، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟، قال: أوليس أعطيتك أفضل من ذلك كله، أي لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشني: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(٢).

فذكره ﷺ مرتبط بذكر الله عز وجل في الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، وهما الركن الأول من أركان الإسلام، وهما متلازمان لا تصح إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينفعه ذلك وكذا العكس.

ولهذا قرن بينهما في الأذان وهو من أعظم شعائر الإسلام.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه^(٣):

أَغْرُّ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ	من الله من نور يلوح ويشهد
وَضُمَ إِلَيْهِ اسْمُ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّه	فدو العرش محمود وهذا محمد
وَقُرْنُ بَيْنَهُمَا بِالتَّشْهَدِ فِي الصَّلَاةِ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ	ورسوله» ^(٤) .

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٤٩٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٤٤٥.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٤٥٢.

(٣) انظر «ديوان حسان» ص ٣٣٨ تحقيق أ. د سيد حسنين، د/ حسن العيد- القاهرة ١٩٤٧ م.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٩٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

ورفع ذكره بأن أوجب تقديم محبته وطاعته على محبة كل مخلوق وطاعته، وجعل اتباعه شرطاً في صحة كل عبادة.

وكما شرح عز وجل صدر رسوله ﷺ ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فإن لأتباعه المؤمنين حظاً من ذلك بقدر صدق متابعتهم له ﷺ فهم أشرح الناس صدوراً، وأوضعهم أوزاراً، وأرفعهم ذكراً.

وأبعد الناس عن الله عز وجل أضيقتهم صدوراً، وأثقلهم أوزاراً، لأنهم يبحثون عن سعة الصدر والسعادة في ارتكاب الذنوب والأوزار، وهم أخمل الناس ذكراً وأقلهم قدراً.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذه هي النعمة الرابعة التي أنعم الله بها على نبيه محمد ﷺ وهي له ولأمته، وهو جعله مع العسر يسراً، وفي هذا بشارة له ﷺ أن ما هو فيه من عسر وضيق من قومه سيعقبه اليسر بإذن الله عز وجل وهكذا حصل له ﷺ.

والعسر: الضيق والشدة، واليسر: السعة والفرج، وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١).

وقال ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسر» (٢).

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: توكيد لما قبله، وفيه دلالة على أنه لن يغلب عسر يسرين، أي: إن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، كما روي عن الحسن مرسلًا قال: «خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٤٦/١٠، والبزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٤٥٣/٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠٧/١، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال «حسن صحيح».

عسر يسرين، إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً»^(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»^(٢).
ولهذا قال بعض أهل العلم: إن العسر لما ذكر معرّفًا في الموضوعين بأل التي للعهد
دل ذلك على أن الثاني هو الأول فهو مفرد، وإن اليسر لما ذكر منكرًا في الموضوعين دل
على أن الثاني غير الأول فهما اثنان فكل عسر معه من الله يسران ولن يغلب عسر
يسرين.

وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد، وخبره
أصدق الأخبار.

ولهذا فإن من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير فعندما يشق على الإنسان
الوضوء يتيمم، وعندما تشق عليه الصلاة قائمًا يصلي قاعدًا، وعندما يشق عليه الصوم
يفطر، ويقضي، أو يطعم، وهكذا.

وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته أن جعل العسر يعقبه يسران، وجعل الكرب
يعقبه الفرج، وجعل النصر مع الصبر، ولقد أحسن القائل:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج^(٣)

وقال الآخر:

وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب^(٤)

وقال أبو العتاهية^(٥):

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي ١ / ٢٩٦.

(٣) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي. انظر: «الفرج بعد الشدة» للتوخمي ٥ / ١٥.

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص ١٢.

(٥) انظر: «ديوانه» ص ١١٠.

واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب الآن تفرج من غد ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾، أي: فإذا فرغت من مشاغلك في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا وارتاح بالك.

﴿فَأَنْصَبْ﴾، أي: فانصب في العبادة وقيام الليل. وذلك أن حضور القلب إنما يكون بعد الفراغ من مشاغل الدنيا؛ ولهذا قال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»^(١). وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء»^(٢).

﴿وَلِئَلَّ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قدم المتعلق؛ لإفادة الحصر، أي: ارغب إلى ربك لا إلى غيره، أي أقبل على ربك، وأخلص له النية وتقرب إليه وثق به تمام الثقة في جميع أمورك. وقيل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب في الدعاء وارغب إلى ربك بسؤال مطالبك، واستدل على هذا بمشروعية الدعاء والذكر بعد الصلوات المكتوبة. وهذا المعنى وإن كان صحيحاً فإن حمل الآية عليه فيه بعد، والأظهر القول الأول.

الفوائد والأحكام:

- ١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ بشرح صدره بالنبوة والإيمان والإسلام وهذه أعظم منة وأكبر نعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.
- ٢- فضل الله عز وجل عليه ﷺ بوضع وزره ومغفرة ذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.
- ٣- أن الأوزار والذنوب ثقل وعناء في الدنيا والآخرة تستلزم التوبة وطلب المغفرة من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

(١) أخرجه مسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال ٥٦٠، وأبو داود في الطهارة- أيصلي الرجل وهو حاقن ٨٩، وأحمد ٤٣/٦، ٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٤٦٥، ومسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام ٥٥٨، وابن ماجه في الإقامة- إذا حضرت الصلاة ووضع العشاء ٩٣٥.

٤- إعلاء الله عز وجل شأن نبيه محمد ﷺ ورفع ذكره بين الأنبياء والخلائق في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

٥- تكفل الله عز وجل ووعدته بأن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، وأنه لن يغلب عسر يسرين فله الحمد والفضل والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

٦- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ إذا فرغ من مشاغله في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا، وارتاح باله بالعبادة وقيام الليل والرغبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۗ﴾.

وللأمة فيه ﷺ الأسوة في هذا الأمر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٢١].

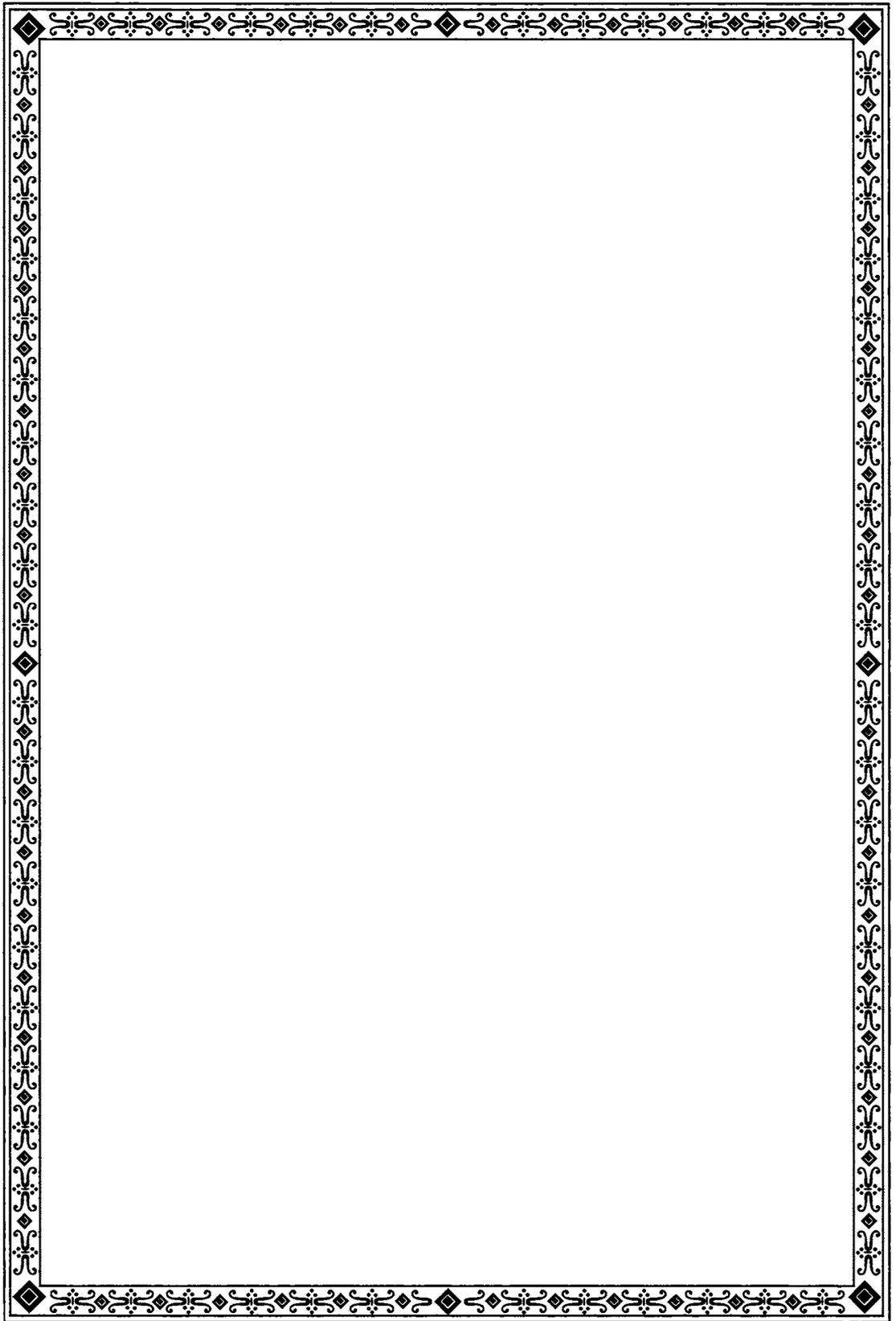
وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: ابتغوا إليه القربة وارغبوا إليه بالأعمال الصالحة.

٧- تشریفه ﷺ بربوبية الله - عز وجل - الخاصة له وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

٨- عجباً لمن يشتكي كثرة الفراغ والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۗ﴾، فحياة المسلم بين انشغال في أمر دنياه مما لا بد منه، وبين اشتغال بعبادة الله تعالى بالذكر والصلاة وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع البر والإحسان.

* * *

تَقْسِيرُ سُورَةِ التَّيْنِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التين»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾، وتسمى: «سورة التين والزيتون».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءة منه»^(١).

د- موضوعاتها:

- ١- تعظيم وتشريف الأماكن التي بعث الله بها أنبياءه موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأنزل عليهم فيها كتبه.
- ٢- تأكيد منته عز وجل على الإنسان حيث خلقه في أحسن تقويم.
- ٣- رجوع الإنسان بالكفر إلى أسفل سافلين.
- ٤- وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأجر غير المقطوع.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الآذان- القراءة في العشاء ٧٦٩، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٢١، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٠، والترمذي في الصلاة ٣١٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٥، وأحمد ٤/٢٩٨، ٣٠٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ الواو: للقسم و«التين والزيتون» مقسم بهما وهما الشجرتان المعروفتان اللتان هما من أفضل الأشجار وأكثرها فوائد، وأعظمها منافع، وأطيبها ثمرة، مَنبُتُهما أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً، وهي الأرض التي بارك الله فيها، وبعث فيها كثيراً من أنبيائه عليهم السلام. فأقسم الله عز وجل بهذا الشجر ذي الثمر الطيب والفوائد الكثيرة والمنافع العظيمة، ومنابته المباركة أرض بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾: وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وأضيف «طور» وهو الجبل، إلى «سينين» وهي البقعة، يقال: سينين، ويقال: سيناء. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: وهو مكة، وإشار إليه بإشارة القريب لقربه، أقسم الله به لأنه أشرف البقاع، وأحبها إلى الله، البلد الحرام الذي يأمن من دخله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخِطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ﷺ: «إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»^(١). فأقسم عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة العظيمة، التي بعث الله بها أنبيائه ورسله،

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أصحاب الشرائع العظام، والأمم العظيمة: عيسى بن مريم، وموسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيماً لهذه الرسالات العظيمة، وتشريفاً لهذه الأماكن، وبدأ بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم الأشرف منها.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: جواب القسم.

فأقسم عز وجل بالمواضع الثلاثة على خلقه الإنسان في أحسن تقويم، واللام في قوله: ﴿لقد﴾: واقعة في جواب القسم، و«قد»: للتحقيق.

أي: والله لقد أوجدنا الإنسان في أحسن صورة، وأجمل هيئة، منتصب القائمة، متناسب الأعضاء، سوي الخلقة، وميزناه بالعقل، ولهذا خصصناه بالتكليف.

كما قال عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي تَطَفَّأَ مِن مِّمِّي يُعْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾ هذا من جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل على بداية الإنسان ونهايته، أي: ثم أرجعناه بعد هذا الحسن والخلقة السوية والتميز بالعقل إن لم يؤمن بالله ويعمل صالحاً إلى ﴿أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾، أي: إلى الدرك الأسفل من النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينِ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَعْدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «إلا»: أداة استثناء. فاستثنى عز وجل من الرد إلى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم في أعلى عليين، كما قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: ١، ٢].

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلَ سَفَلِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك رده إلى أسفل سافلين في النار بسبب كفره، لا أن المراد رده إلى الهرم كما قال بعضهم.

قال ابن تيمية^(١): «فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد، بل على الأمور الغائبة، التي تؤكد بالأقسام، فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب. وفي نفس المقسم به - وهو إرسال هؤلاء الرسل - تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت».

ومعنى الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم وألستهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم واكتفى بالصفة وهو كون الأعمال صالحات، لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وفق سنة نبيه محمد ﷺ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: فلهم عند الله عز وجل ثواب عظيم وجزاء كبير، وسمى عز وجل ثوابهم أجرًا، لأنه سبحانه تكفل به والترم به لهم فضلًا وكرمًا. ﴿غَيْرِ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، وغير ممنون به عليهم كما يمن المخلوق بما أعطى، لأن الله عز وجل أكرم الأكرمين يعطي العطاء الجزيل بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

وله سبحانه وتعالى المنة الكبرى والنعمة العظمى على جميع خلقه، ومنته على عبده فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

والمراد بهذا الأجر نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، نسأل الله تعالى من فضله.

(١) انظر «دقائق التفسير» ١٥٦/٥.

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْدِينِ﴾ لم يقل: «فمن»؛ لأن «ما» يراد به الصفات دون الأعيان، أي: فما المكذب لك بعد بالدين، أي: بالجزاء على الأعمال بعد الإخبار به وذكر دلائله، أي: لا يكذبك به إلا جاهل ظالم لنفسه.

وعلى هذا فالخطاب في قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ للنبي ﷺ. ويحتمل أن الخطاب للإنسان المكذب بالدين وتكون «ما» للاستفهام الإنكاري، أو للتعجب والتحقير لمن شأنه هكذا.

أي: فما الذي يملكك يا ابن آدم على التكذيب بالجزاء على الأعمال في الدنيا والبرزخ والمعاد، وقد عرفت أن الله هو الذي خلقك من العدم، وجعل خلقك في أحسن تقويم، وهو قادر على إعادتك وبعثك من باب أولى.

وسمي الجزاء على الأعمال بـ «الدين» لأن المرء فيه يجازى ويدان بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ولهذا يقال كما تدين تدان، أي: كما تعمل تجازى وسمى الله عز وجل نفسه «الديان»، أي: المجازي لعباده بما عملوا كما في الحديث «أنا الملك أنا الديان»^(١).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: بلى سبحانه هو أحكم الحاكمين. و«أحكم» اسم تفضيل.

أي: هو - سبحانه - أحكم وأعدل الحاكمين في أحكامه الشرعية والكونية والجزائية، له كمال الحكم في أحكامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله كمال الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية وحكمته عز وجل تقتضي أن لا يترك الخلق سدى، بلا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: ﴿وَالَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٩٥ - من حديث جابر رضي الله عنه عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ. وذكره البخاري بقوله: «ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان» كتاب التوحيد - باب ﴿وَالَّذِينَ نَفَعُ الشَّقَمَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ﴾.

وَالرَّيْتُونَ ﴿٨﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَكِيمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» (١).

الفوائد والأحكام:

- ١- إقسام الله عز وجل بالمواضع الثلاثة المباركة التي بعث الله بها محمداً وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيماً لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنِّينِ وَالرَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾.
- ٢- أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما في ذلك من الدلالة على عظمته وقدرته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.
- ٣- الامتنان بتأمين البلد الحرام، ووجوب تأمين من دخله، فلا يعتدى عليه، ما لم يعتد أو يرتكب جرماً، فإن الحرم لا يجير محدثاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾.
- ٤- إقسامه عز وجل أنه خلق الإنسان في أحسن صورة وأعدل خلقه امتناناً عليه بهذه النعمة العظيمة، وتذكيراً له بها ليشكر الله عليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.
- ٥- أن من تنكب الجادة وخرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وكفر بالله فمرده النار أسفل سافلين، ولا كرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾.
- ٦- أن الله عز وجل قدر الكفر كوناً، وإن لم يرضه شرعاً، لقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾﴾.
- ٧- لا بد من الجمع بين الإيثار والعمل الصالح؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٧﴾﴾.
- ٨- لا بد لصحة العمل وقبوله من كونه صالحاً يتوفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.
- ٩- أن الله عز وجل أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات أجراً عظيماً في الجنة غير

(١) سبق تحريجه.

مقطوع عنهم، ولا ممنون به عليهم منة الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.
١٠- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والإنكار على من يكذب به

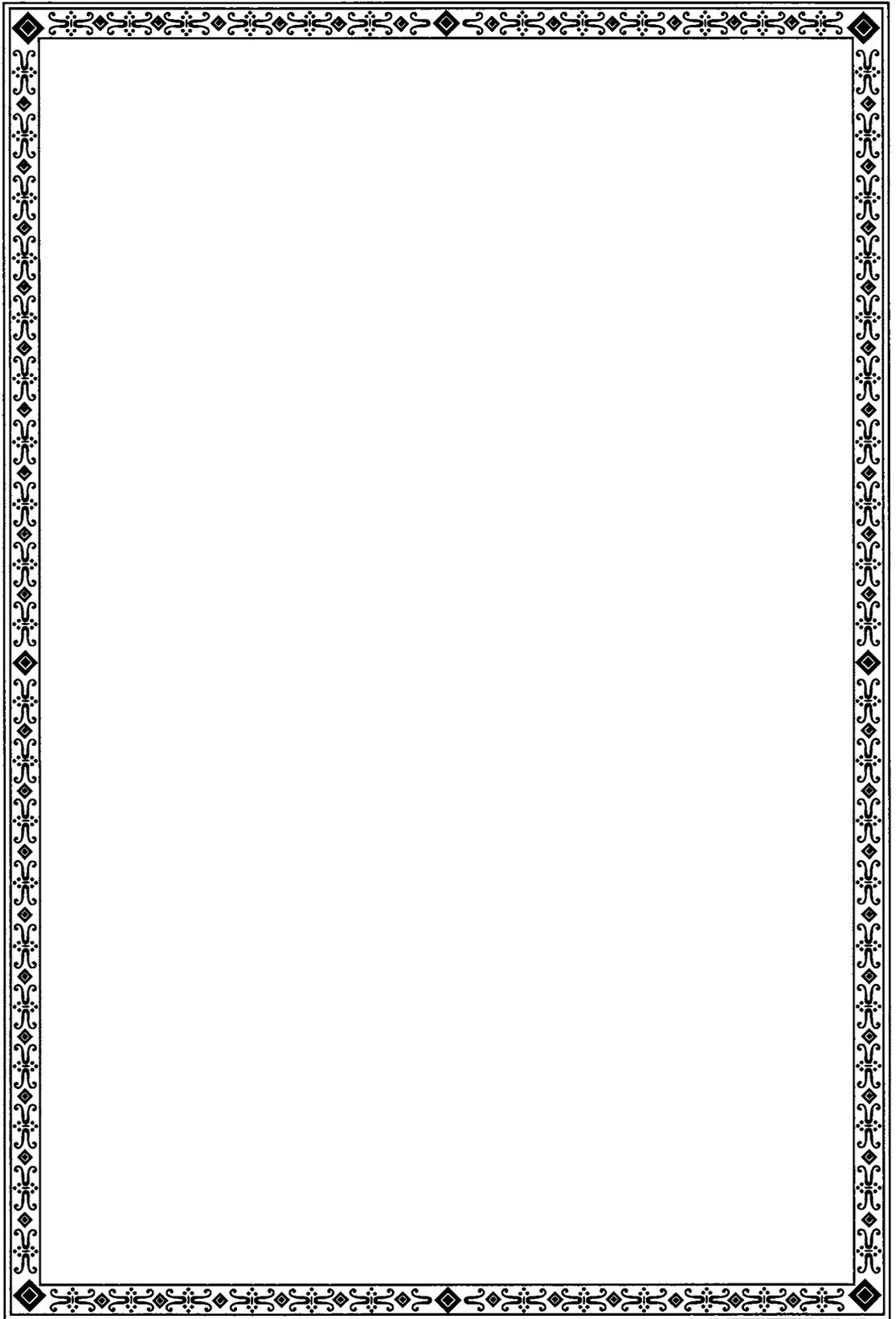
لقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾.

١١- تقرير أن الله عز وجل أحكم وأعدل الحاكمين، له كمال الحكم بأنواعه
الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله تمام الحكمة بقسميها:
الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

١٢- أن ما قضاه الله وحكم به من بعث الرسل، وإنزال الكتب وخلق الإنسان
وجعله محلاً للتكليف، وتقدير الكفر والإيمان، والبعث والحساب والجزاء هو الحكم
العدل، والحكمة التامة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَلَقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العلق»؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وتسمى: «سورة اقرأ»، و«سورة اقرأ باسم ربك».

ب- مكان نزولها:

مكية- وهي أول سورة نزلت من القرآن.

ج- موضوعاتها:

- ١- بيان فضل القراءة والكتابة والعلم.
- ٢- بيان أن من طبيعة الإنسان الطغيان إذا استغنى.
- ٣- الإنكار على أبي جهل وتهديده لوقوفه في وجه الدعوة وأذيته للنبي ﷺ.
- ٤- تثبيت النبي ﷺ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو: التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ^(١)، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع» الحديث^(٢).

فهذه السورة العظيمة هي أول سورة نزلت، وهذه الآيات المباركات ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما بدئ به من أمر النبوة والوحي إلى رسول الله ﷺ، وهي تبشير النعمة المهداة والرحمة المسداة للعالمين، بإنزال القرآن الكريم ومبعث سيد المرسلين نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرأ ما ينزل وما يتلى عليك من القرآن مبتدئاً ومستعيناً ومتمبركاً ومتميناً باسم ربك، خالقك ومالكك ومدبرك، ولم يقل باسم الله، لأن المقام مقام خلق وتصرف وتدبير، ولإشعاره ﷺ بربوبية الله عز وجل له، الربوبية الخاصة.

(١) قوله: «ما أنا بقارئ»، أي: إنني لست من ذوي القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان - بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢، وأحمد ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

فأول آية نزلت من القرآن تأمر بالقراءة؛ تعظيماً للعلم وبيانا لشرفه وفضله، وإشارة إلى أن هذا الدين دين القراءة والعلم، كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

كما تأمر أيضًا بالتسمية في ابتداء القراءة وهي مشروعة في ابتداء السورة، لأنها آية مستقلة من القرآن تنزل مع كل سورة.

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، أي: الذي خلق الخلق وأوجده ولم يذكر مفعول «خلق»؛ ليعم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وهذا تذكير بعظمته عز وجل إذ لا خالق غيره، ولا رب سواه.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تخصيص بعد تعميم؛ لشرف الإنسان من بين سائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

كرمه الله عز وجل بالعقل والعلم والمعرفة وخصه بالتكليف والجزاء.

و﴿عَلَقٍ﴾ جمع: علقه، وجمع؛ لأن المراد بالإنسان في قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الجنس، أي: جنس الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ﴾.

ومعنى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، أي: أوجد الإنسان وأنشأه من علقه تعلق في جدار الرحم، فهو ينتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقه، إلى مضغة، إلى أن يصير بشرا سويا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَائِي يُعْنَى﴾ [٣٧] ﴿مِمَّنْ كَانَ عُلُقَهُ فَمَخْلَقَ فَسَوَّى﴾ [٣٨] ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الرُّوحِ الْبَرِّ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [٣٩]. [القيامة: ٣٧-٣٩].

﴿أَقْرَأُ﴾ تأكيد للأمر الأول، أو تأسيس؛ لأن الأمر الأول قرن بما يتعلق بالربوبية والخلق والقدر، والثاني قرن بما يتعلق بالعلم والشرع.

﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، «الأكرم»: اسم تفضيل، أي: الذي هو أكرم الأكرمين. والكرم كثرة الخير، والخير كله منه عز وجل كما قال ﷺ: «والخير كله

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤ - من حديث أنس - رضي الله عنه.

بيديك» (١).

ومن كرمه العظيم وجوده العميم أن أنزل القرآن الكريم، وبعث محمداً ﷺ نعمة على العباد، ورحمة للعالمين، وعلم الإنسان، وشرفه بالعلم على سائر المخلوقات، من الملائكة وغيرهم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، أي: علّم الكتابة بالقلم؛ لأن العلم يكون في الأذهان، ويكون في اللسان، ويكون بالكتابة، وهي أعظم وسيلة لحفظ العلم والحقوق والوصايا وضبط الشهادات، وتقييد ونقل مذاهب السلف وأخبارهم للخلف.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟، فأمسكت عن الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق» (٢).
وقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده
قبيد صيودك بالحبال الوثائقه
فمن الحماقة أن تصيد غزاة
وتركها بين الخلائق طالقه (٣)

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ فأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن والحكمة والكتابة بالقلم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٢-٤].

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤٦.

(٣) البيتان ينسبان للشافعي، ولم أجدهما في ديوانه. وانظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص ٣٣.

الفوائد والأحكام:

- ١- أن أول القرآن نزولاً على النبي ﷺ قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.
- ٢- وجوب القراءة والتعلم، وتأکید ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑤.
- ٣- مشروعية البسملة عند قراءة بداية كل سورة؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾.
- ٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾.
- ٥- تعظيم اسم الله عز وجل، وأنه سبحانه هو الخالق العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.
- ٦- بيان أصل خلق الإنسان وضعفه وأنه خلق من علقه.
- ٧- إثبات أنه عز وجل هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.
- ٨- فضل الله عز وجل على الإنسان، خلقه وشرفه على سائر المخلوقات، وعلمه الكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.
- ٩- الترغيب في تعلم الكتابة بالقلم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ أَرَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمَذْكَاءِ ﴿١١﴾ أَوْ أَمْرًا بِالنُّفُوسِ ﴿١٢﴾ أَرَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَرَيْتَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَرَّبُّنَا لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبٍ خَاطِقًا ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَدَّعَ الرَّيَابِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُ مَا نَسَجَدُ وَأَقْرَبَ ﴿١٩﴾﴾ .

سبب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللوات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال: فما فجَّههم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له مالك؟، فقال: إن بيني وبينه لخذقًا من نار وهو لآ وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا» قال: فأنزل الله عز وجل - لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ إلى آخر السورة»^(١).

قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ «كلا»: كلمة ردع وزجر، وقيل: بمعنى حقًا.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾، أي: جنس الإنسان، وبخاصة الكافر.

﴿لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: يتجاوز الحد في الفرح والأشْر والبطر، ويتجاوز الحلال إلى الحرام والحق إلى الباطل، والإيمان إلى الكفر.

﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾، أي: أن رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، فيظن أنه في غنى عن الله

عز وجل ورحمته كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾﴾ [الليل: ٨].

وهذا إنها يكون من الإنسان الكافر؛ لأن من اعتقد بأنه في غنى عن الله عز وجل وعن رحمته فهو كافر، وإن ادعى الإيمان، لكن كثيرًا من ضعاف الإيمان قد يغتر بالمال والغنى، وهذا أمر مشاهد مما يوجب الحذر من ذلك.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «منهومان لا يشبعان: صاحب العلم،

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار - قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ ٢٧٩٧، وأحمد ٣٧٠ / ٢، والطبري في «جامع البيان» ٥٣٨ / ٢٤.

وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتهدى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] (١).

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويحتمل كونه للإنسان عموماً، أو لمن طغى واستغنى بهاله، أي: إن إلى ربك المرجع والمآل والمصير فيجازي كلاً بما عمل.
كما قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَإِنْتَابَ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ هذه الآية إلى آخر السورة نزلت في أبي جهل لعنه الله، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطآن على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» (٢).
وفي رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا؟، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟، أما والله، إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته» (٣).

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ الاستفهام: للتعجب. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له.

والناهي هنا هو أبو جهل - لعنه الله - كما دل عليه سبب النزول، أي: أخبرني عن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ٣٣٤٨، وأحمد ١ / ٢٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الموضوع السابق ٣٣٤٩، وأحمد ١ / ٣٢٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٥٣٧، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

حال هذا الرجل، وتعجب من حاله.

وقوله: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ المراد به نبينا محمد ﷺ، فأبو جهل ينهى الرسول ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، وأطلق عز وجل عليه ﷺ اسم العبودية، لأنها أفضل ما يوصف به البشر. وصفه الله عز وجل بها في أعلى المقامات حال قربه منه في الصلاة والقراءة والدعاء فقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدٌ اللَّهُ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وحال قربه منه ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

ولو كان هناك وصف أفضل من وصف العبودية لوصفه به في هذين المقامين.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب لأبي جهل - لعنه الله -، أي: أخبرني إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة وهو محمد ﷺ ﴿عَلَى الْهُدَى﴾، أي: على الحق والسداد والرشاد في فعله.

﴿أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى﴾ «أو» عاطفة بمعنى الواو، أي: وأمر بالتقوى بقوله، أي: وأمر بتقوى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ﷺ كذلك في فعله وقوله، فلم تنهاه وتتوعده على ذلك.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: أرايت يا محمد.

﴿إِنْ كَذَّبَ﴾ هذا الناهي، أي: إن كذب بالحق بقلبه، ﴿وَتَوَلَّى﴾، أي: أعرض عن الحق ببدنه، أي: استمر على التكذيب والتولي.

﴿أَلَمْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ بِأَنَّهُ يَرَى﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، والتهديد والوعيد، أي: ألم يعلم هذا الناهي عن الصلاة المكذب بالحق المتولي عنه أن الله عز وجل مطلع عليه وعلى غيره يرى أفعاله، ويسمع كلامه وسيجازيه بما عمل.

﴿كَلَّا لَئِن لَّرَبَّنَا﴾ «كلا»: كلمة زجر وتهديد ووعيد، واللام: موطئة للقسم، أي: كلا لئن لم يرجع أبو جهل عما هو عليه من التكذيب بالحق والإعراض والصد عنه.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم ينته ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشده، والناصية: مقدمة شعر الرأس، أي: لنقبضن على ناصيته ونأخذه ونجذبه بها بشدة وقوة وعنف.

و«ال» في «الناصية»: للعهد الذهني، أي: ناصيته المعهودة، كأنه اشتهر بها وقد أخذ وجر بناصيته في الدنيا يوم بدر، ويؤخذ بناصيته ويجر بها في الآخرة في النار، وتوسم بالسواد، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ «ناصية»: بدل من ناصية الأولى.

﴿كَذِبَةٍ﴾: في مقالها ﴿خَاطِئَةٍ﴾ متعمدة الخطأ في فعالها، يقال: خاطئ، ومخطئ، فالخاطئ من ارتكب الذنب عمداً، والمخطئ من ارتكبه جهلاً ونسياناً فهذا معذور والأول مأزور غير معذور.

فهذا الناهي كاذبة أقواله، خاطئة أفعاله، وليس بعد الكفر والتكذيب بالحق ذنب.

قيل: وصفت الناصية بأنها كاذبة خاطئة؛ لأنها محل العقل المفكر المدبر للإنسان.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام: لام الأمر، وفيها معنى

التحدي ﴿نَادِيَهُ﴾، أي: أهل ناديه، والنادي في الأصل المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون للتخاطب والتشاور والاستئناس، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله ناد يجتمع إليه الناس فيه، من قومه وعشيرته، وكان يفتخر فيهم.

﴿سَنَعِ الزَّيْنَةَ﴾ الزبانية: جمع: زبانية، مأخوذ من «الزبن» وهو الدفع، والمراد بهم

ملائكة العذاب، وخزنة جهنم الغلاظ الشداد، أي: سندعوهم إلى أخذه، وحينها يعلم غروره بافتخاره بكثرة أهل ناديه وعشيرته، وأنهم لن يجدوا عنه شيئاً.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر لأبي جهل ﴿لَا تُطْعَمُهُ﴾، أي: لا تطعه يا محمد فيما ينهاك

عنه من الصلاة والعبادة عند الكعبة، وأينما كنت، واثبت على ما أنت عليه، كما قال

تعالى: ﴿فَلَا تُطْعَمُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٨﴾ [القلم: ٨].

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، أي: صل واقرب إلى ربك بالعبادة والركوع والسجود،

واستمر على ذلك، قال تعالى: ﴿يَكْتُبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾

[المائدة: ٣٥] أي اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة.

وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه من أفضل حالاتها، ومن أعظم أركانها، قال ﷺ:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا من الدعاء»^(١).
ويشعر السجود عند تلاوة هذه الآية، لما روي أن رسول الله ﷺ كان يسجد في
﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾^(٢).
الفوائد والأحكام:

١- الردع والزجر والتهديد والوعيد لمن أطغاه الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾﴾
يَطْفَى ﴿١﴾.

٢- أن من طبيعة الإنسان أن يطغيه الغنى ويبطره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ أَهْتَغَىٰ ﴿١﴾﴾، إلا
من رحم الله فثبته وحفظه، ولهذا يجب أن يكون المسلم من هذا على حذر.

٣- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ ولأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ رَبُّكَ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤- إثبات المعاد وأن المرجع والمصير إلى الله عز وجل.

٥- التعجب من حال أبي جهل - لعنه الله - والإنكار عليه في نهيه للنبي ﷺ عن
الصلاة، وفي تكذيبه بالحق وإعراضه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١﴾﴾
أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٣﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٤﴾.

٦- إثبات وتقدير أنه ﷺ على الهدى في عبادته لله عز وجل وصلاته وفيما يأمر به
من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

٧- تقرير رؤية الله عز وجل لأبي جهل وأذاه لرسول الله ﷺ، وإطلاعه التام على
جميع الخلق وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١﴾﴾؟

٨- الزجر والتهديد لأبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من الأذى لرسول الله ﷺ
والصد عن الحق بأخذه بناصيته الكاذبة الخاطئة، وتأكيد زجره وتهديده؛ لقوله تعالى:
﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في
التطبيق ١١٣٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

٩- جهل أبي جهل بعظمة الله عز وجل وقوته وقدرته؛ ولهذا تحداه الله عز وجل بدعوة أهل ناديه؛ ليدافعوا عنه ويمنعوه من زبانية جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) ﴿سَدْعُ الزَّانِيَةِ﴾.

١٠- إثبات خزنة جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿سَدْعُ الزَّانِيَةِ﴾.

١١- نهيته عز وجل له ﷺ عن طاعة أبي جهل، وأمره عز وجل له ﷺ بالصلاة والسجود والتقرب إليه والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

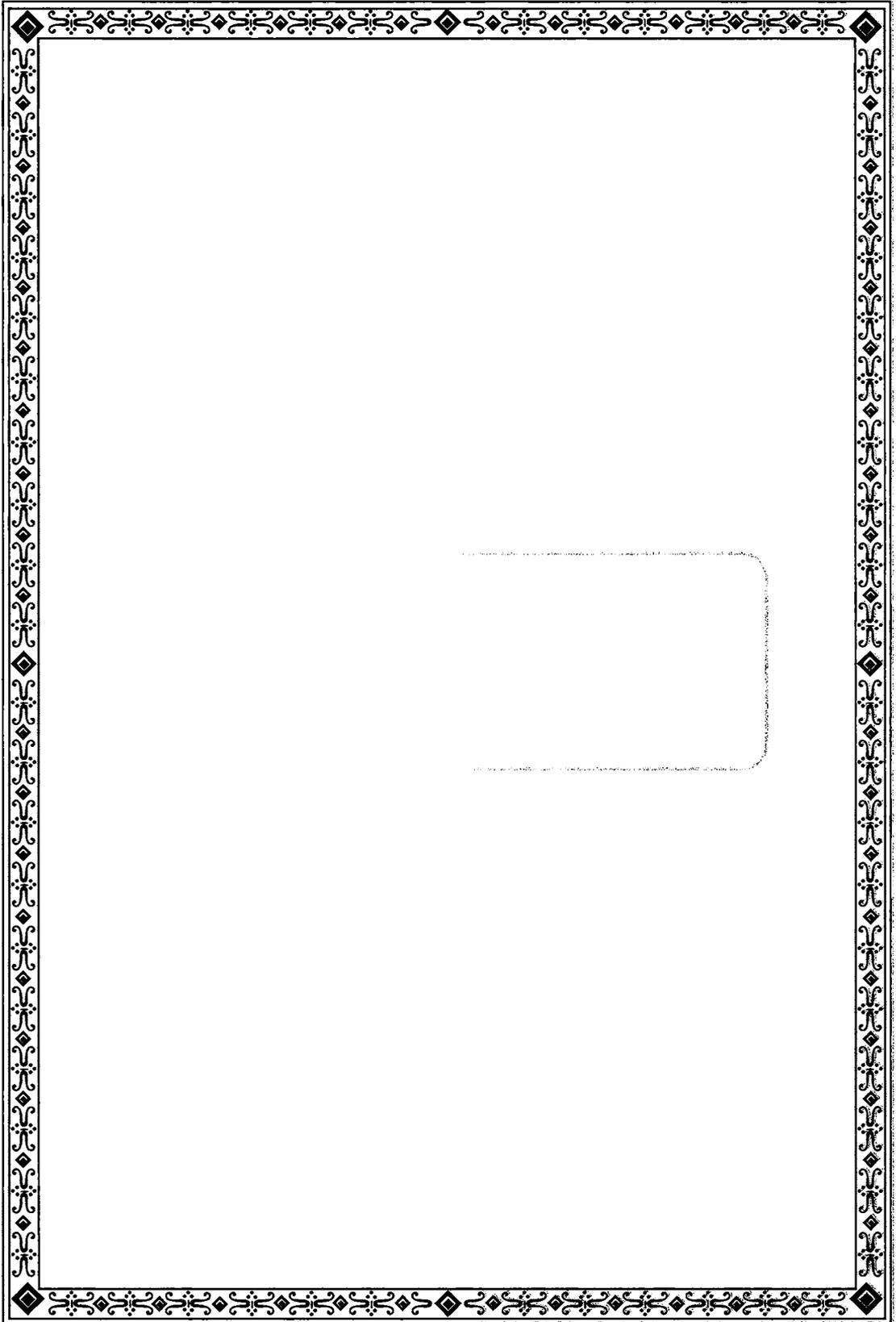
١٢- الاستعانة بالصلاة والسجود، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات؛ لقوله تعالى:

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

١٣- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآيات.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَدْرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القدر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾.

وتسمى «سورة ليلة القدر».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- تعظيم القرآن.

٢- بيان فضل ليلة القدر، وشرفها وبركتها، والترغيب في إحيائها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ٢ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ٣ ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ٤ ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ٥ .

قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه هو العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الهاء في قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر في السورة، لكنه معلوم، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعلوم المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الليلة: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر. و«القدر»: هو الشرف والعظمة.

والمعنى: في الليلة العظيمة ذات القدر والشرف العظيم، والتي تقدر فيها الأعمال وهي الليلة المباركة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ٣ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ٤ [الدخان: ٣، ٤].

وهي في شهر رمضان المبارك، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومعنى إنزال القرآن فيها بدء نزوله فيها، ثم تتابع نزوله بعد ذلك على رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: معنى إنزاله فيها: أنه أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرداً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. والصحيح الأول.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾: تعظيم لأمرها، وتفخيم لشأنها، أي: وما أعلمك ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ هي ليلة عظيمة القدر، رفيعة الشرف، كثيرة الخير والبركة.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

أي: أن العمل الصالح في هذه الليلة فيها خير وأفضل من العمل في ألف شهر خالية منها، أي: خير من العمل بما مقداره ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، ليس فيها هذه الليلة، وهذا كما قال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»^(١).

وقال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»^(٣).

ولهذا قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٤).

﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ ﴾، أي: تنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا، والملائكة: جمع ملك. ﴿وَالرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام؛ لمكانته بينهم؛ لأنه الأمين على الوحي، كما قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾^(١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ^(١٤) [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة العظيمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أي: بأمره عز وجل الكوني، وذلك لكثرة بركتها وخيرها، وتنزل الرحمة فيها، قال ﷺ: «وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»^(٥).

﴿مَنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: بكل أمر مما يأمرهم الله تعالى به، ومن أجل كل أمر قضاه الله

(١) أخرجه أحمد ١/٦٢، ٦٥- من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨١، والنسائي في الجهاد ٣١١٨، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٦ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٨٩٨، ١٨٩٩، ومسلم في الصيام ١٠٧٩، والنسائي في الصيام ٢٠٩٧، والترمذي في الصوم ٢٨٢، وأحمد ٢/٢٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠١، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٠، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٢، والنسائي في الصيام ٢٢٠٢، والترمذي في الصوم ٦٨٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سيأتي تحريجه.

وقدّره في تلك السنة من الأجلان والأرزاق وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَّمْنَاهُ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام: «مطلع».

وقرأ الباقر بفتحها: «مَطْلَعٌ»، أي: هي سلام، أي: ما يقدر فيها إلا السلامة والخير، ويكثر فيها سلام الملائكة على المؤمنين، والسلامة من الذنوب ومغفرة الآثام.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، أي: وقتها إلى مطلع الفجر الثاني.

وقد أخفى الله عز وجل هذه الليلة؛ ليجتهد الناس في العبادة تحرياً لها، وهي في رمضان، وفي العشر الأواخر منه على الصحيح، وهي في أوتار العشر أكد، وأكدها ليلة سبع وعشرين^(١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنما في العشر الأواخر، في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين» وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه» وفي رواية: «في صبح إحدى وعشرين»^(٢).

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، قال: وكان

(١) هناك أقوال أخرى ضعيفة لا دليل عليها، فقيل إنها في السنة كلها، وقيل في رمضان كله، وقيل أول ليلة منه، وقيل ليلة سبع عشرة، وقيل ليلة تسع عشرة وقيل غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٦٦، ومسلم في الصيام - فضل ليلة القدر ١١٦٧، وأبو داود في

عبد الله بن أنيس يقول: ثلاث وعشرين»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»^(٢).

وعن بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»^(٣).

وعن وائلة بن الأسقع - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(٤).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»^(٥).

وقد فسره أكثر أهل العلم بليالي الأوتار، وهو الأظهر، وحمله بعضهم على الأشفاع.

وقوله «في تاسعة تبقى» في حال نقصان الشهر تكون ليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين، وفي حال تمامه تكون ليلة اثنتين وعشرين.

وقوله: «في سابعة تبقى» تحتل ليلة ثلاث وعشرين وذلك في حال نقصان الشهر، وتحتل ليلة أربع وعشرين في حال تمامه.

وقوله: «في خامسة تبقى» تحتل ليلة خمس وعشرين في حال نقصان الشهر، وتحتل ليلة ست وعشرين في حال تمام الشهر.

(١) أخرجه مسلم في الباب السابق ١١٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠١ قال ابن كثير في «تفسيره» ٤٦٨/٨: «إسناده رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ١٢/٦ قال ابن كثير في «تفسيره» ٤٦٨/٨ «ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن بلال: «أنها أول السبع من العشر الأواخر» قال ابن كثير: فهذا الموقف أصح».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢١، وأبو داود في الصلاة ١٣٨١.

وعن زر قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه، فقلت: «إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقيم الحول يصب ليلة القدر، فقال: رحمه الله، أراد أن لا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأي شيء تقول ذلك، يا أبا المنذر؟ قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها»^(١).

قال ابن كثير^(٢): «وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو: إني لأظن، أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ قال: سابعة تمضي - أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس، فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبع أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له، وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَبْتْنَا فِيهَا حَبًّا^(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضًا^(٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا^(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا^(٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًا^(٣١)﴾ [عبس: ٢٧-٣١]»^(٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»^(٤).

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٦٢، والترمذي في الصوم ٧٩٢، وأحمد ١٣٠/٥.

(٢) في «تفسيره» ٤٦٩/٨.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٤٦٩/٨ قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، وغريب جداً، والله أعلم».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢٣.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو آخر ليلة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»^(٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع ييقين، أو سبع ييقين، أو خمس ييقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر»^(٣).

لهذه الأحاديث وغيرها بلغت الأقوال في تحديدها إلى عشرة أقوال عدد ليالي العشر حال تمام الشهر ولا إشكال في أنها في العشر الأواخر من رمضان لاتفاق الأحاديث الصحيحة على ذلك، وأوتارها أكد، وأكدها ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وسبع وعشرين، وأكد هذه الثلاث ليلة سبع وعشرين.

ومع صحة الأحاديث في تحديدها في أكثر من ليلة فالأولى التماسها وتحريها في جميع ليالي هذه العشر، إضافة إلى أن من أهل العلم من قال: إن ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»^(٤).

وهكذا جاء في حديث عبادة المتقدم: «التمسوها في العشر الأواخر».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢ / ٥١٩ وأبو داود الطيالسي، انظر «منحة المعبود» ١ / ٢٠٠، قال ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٤٧٠: «تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به».

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم - ما جاء في ليلة القدر ٧٩٤، قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٧، ومسلم في الصيام - فضل ليلة القدر ١١٦٩، والترمذي في الصوم ٧٩٢.

تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»^(١).
 وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: أخبرني عن ليلة
 القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟، قال: «بل هي في رمضان»، قلت: تكون مع الأنبياء
 ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت^(٢)؟، أم هي إلى يوم القيامة؟، قال: «بل هي إلى يوم
 القيامة»، قلت: في أي رمضان هي؟، قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر
 الأواخر»، ثم حدّث رسول الله ﷺ وحدثت، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين
 هي؟، قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها، ثم حدّث رسول
 الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك، بحقي عليك لما
 أخبرتني في أي العشر هي؟، فغضب عليّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته، وقال:
 «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»^(٣).

ولهذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في هذه الليالي العشر ما لا يجتهد في غيرها.
 فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره
 وأحيا ليله وأيقظ أهله»^(٤).

وفي رواية عنها: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره»^(٥).
 وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠١٥، ومسلم في الباب السابق ١١٦٥.

(٢) أخذ من هذا بعض أهل العلم أن ليلة القدر كانت في الأمم الماضية وجمهور أهل العلم، بل حكى عليه
 الإجماع أنها من خصائص هذه الأمة، وروي في هذا أن النبي ﷺ أرى أعمال أمته، فكأنه تقاصر أعمالهم
 ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمل، فأعطاه الله ليلة القدر، خيرًا من ألف شهر»، انظر
 «تفسير ابن كثير» ٤٦٦/٨.

(٣) أخرجه أحمد ١٧١/٥.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٤، ومسلم في الاعتكاف- الاجتهاد في العشر الأواخر من
 رمضان ١١٧٤، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٦، والترمذي في الصوم ٧٩٦، وابن ماجه في الصيام ١٧٦٨،
 وأحمد ٦٦/٦.

(٥) أخرجه مسلم في الموضوع السابق ١١٧٥، والترمذي في الموضوع السابق ٧٩٦.

رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده»^(١).
وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان»^(٢).

وينبغي الحرص على تحري هذه الليلة وقيامها والإكثار فيها من الصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، والاستغفار والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أعمال الخير.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»^(٣).

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾.
- ٢- إثبات العلو لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، لأن الإنزال يكون من أعلى.
- ٣- تعظيم القرآن الكريم وأنه معلوم معهود لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.
- ٤- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ وهذا ما عليه سلف الأمة وأهل السنة، خلافاً للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٥- أن ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، في شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١)، وقوله في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [الآية: ١٨٥].

- ٦- فضل ليلة القدر، وعظم شأنها ومكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ^(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الصوم- الاعتكاف في العشر الأواخر ٢٠٢٦، ومسلم في الاعتكاف- اعتكاف

العشر الأواخر من رمضان ١١٧٢، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٥، ومسلم في الباب السابق ١١٧١، وأبو داود في الصوم

٢٤٦٥، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٣.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٣، وابن ماجه في الدعاء- الدعاء بالعفو والعافية ٣٨٥٠، وأحمد

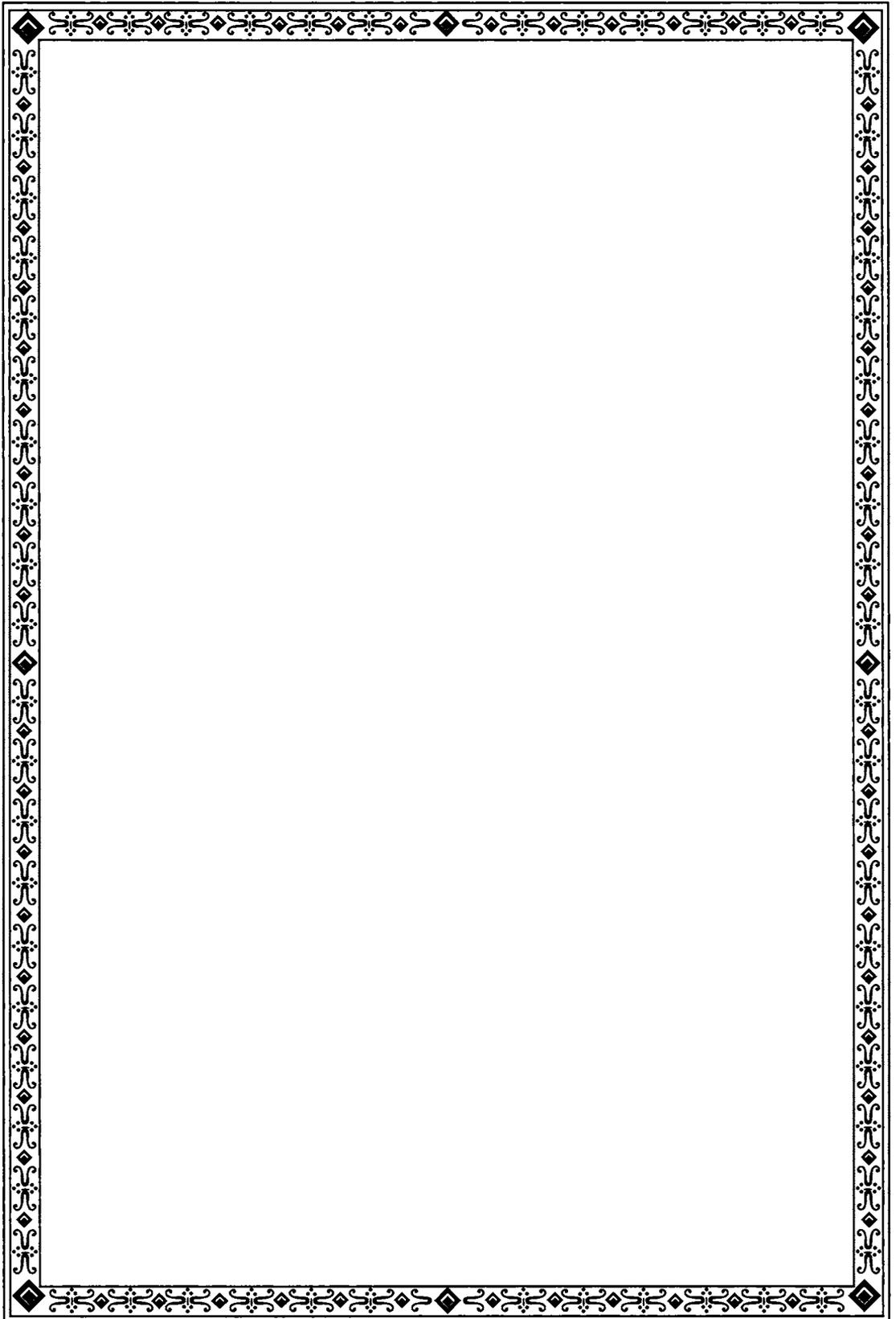
- ٧- الترغيب في قيام هذه الليلة والإكثار من الأعمال الصالحة فيها.
- ٨- تنزل الملائكة والروح في هذه الليلة بإذن ربهم وأمره، وكثرتهم في الأرض، وفضل جبريل عليه السلام وشرفه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا ﴾.
- ٩- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة للملائكة عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾.

- ١٠- أن هذه الليلة سلام، يقدر فيها الخير والسلامة من الشرور، ومغفرة الذنوب والآثام، وكثرة السلام على المؤمنين من الملائكة ومن بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾.

- ١١- أن ليلة القدر تبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.
- ١٢- فضل الله عز وجل على هذه الأمة بإعطائهم هذه الليلة المباركة العظيمة التي تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، أي عبادة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر خالية من هذه الليلة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والمحروم من حرم خير هذه الليلة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَيِّنَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البينة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. وتسمى: «سورة لم يكن الذين كفروا» و«سورة لم يكن»، و«سورة المنفكين»، و«سورة الانفكاك»، و«سورة القيمة»، و«سورة البرية»، و«سورة أهل الكتاب».

ب- مكان نزولها:

مدينة.

ج- فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»، قال: وسماي لك؟ قال: «نعم» فبكى^(١). وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيتاً. فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرأ عليك هذه السورة». قال أبي: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: فبكى أبي^(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ قال لي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقراً: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾» الحديث^(٣). والمراد بقوله: «أقرأ عليك، أي: قراءة تبليغ وإسراع وتلقين لأبي بن كعب رضي الله عنه - كما دلت عليه الأحاديث السابقة. وليس المراد به أن النبي ﷺ يقرأ ليصحح له أبي بن كعب قراءته - كما قيل. وقالوا هذا من باب تواضعه ﷺ.

د- موضوعاتها:

- ١- توبيخ أهل الكتاب والمشركين على إصرارهم على كفرهم.
- ٢- بيان أن تفرق أهل الكتاب واختلافهم لم يكن عن جهل بل من بعد ما جاءتهم

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٠٩، ومسلم في فضائل الصحابة - فضائل أبي بن كعب ٧٩٩، والترمذي في المناقب، فضل أبي بن كعب ٣٧٩٢، وأحمد ٣/ ١٣٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣، وأحمد ١٢٣/ ١٣١، ١٣٢ - وقال الترمذي: «حديث حسن».

البيئة بغياً بينهم وعناداً.

٣- بيان أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده مخلصين الدين وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين الملة القيمة.

٤- بيان أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم شر البرية. وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، ووعدهم بجنت عدن خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ① ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ② ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ③ ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ ④ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ⑤ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ⑥ ﴿.

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لم يكن الذين كفروا، أي: جحدوا ربوبية الله - عز وجل - وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أمر الله بالإيمان به، أو شيئاً من ذلك، أو استكبروا عن الانقياد له، أو أعرضوا عنه، أو شكوا فيه.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ «من»: بيانية فيها بيان لاسم الموصول «الذين»، فكل من أهل الكتاب والمشركون كفار؛ لأنهم كذبوا الرسول ﷺ وما جاءهم به من عند الله، بل إن أهل الكتاب كذبوا رسلهم الذين بشروا به ﷺ.

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ هم عبدة الأوثان والأصنام. وكل من أهل الكتاب وعبدة الأوثان والأصنام مشركون؛ لأن اليهود قالوا: عزيز ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ③ ﴿[التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإنما أفرد أهل الكتاب بالذكر عن المشركين؛ لأنهم أوتوا الكتاب، فإذا ذكر المشركون بالإفراد دخل معهم أهل الكتاب وعبدة الأوثان عموماً؛ لأن الكل مشركون، وإذا قرن بينهما بالذكر فالمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى خاصة، والمراد

بالمشركين عبدة الأوثان والأصنام.

﴿مُنْفَكِينَ﴾، أي: تاركين ما هم عليه من الكفر والشرك، منتهين عن غيهم وضلالهم، ولم يكونوا أيضًا متفرقين في أمر النبي ﷺ، أو لم يكونوا متروكين على ما هم عليه بلا نذر، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، أي: إلا بعد مجيء البينة، أو حتى إقامة الحجة عليهم بإياتهم البينة التي فيها بيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾: بدل من البينة وتفسير لها، فالبينة: رسول مرسل من عند الله عز وجل وهو محمد ﷺ.

وفي تنكير «رسول» تعظيم له ﷺ، فهو ﷺ أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو سيد ولد آدم ولا فخر، من غير غلو ولا إطراء.

﴿يَتْلُو﴾، أي: يقرأ: ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةً مُّطَهَّرَةً ﴿عبس: ١٣، ١٤﴾.

وصحف: جمع صحيفة، وهي الورق والألواح التي فيها القرآن الكريم.

ومعنى ﴿مُطَهَّرَةً﴾، أي: مطهرة من الزيادة والنقص والتبديل والتغيير والباطل.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾ [الحجر: ٩].

﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾، أي: في هذه الصحف المطهرة مكتوبات وأحكام.

﴿قِيمَةً﴾ فأخبارها صادقة وأحكامها مستقيمة عادلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي

هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ [الأنعام: ١٦١].
 ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كان المؤمن في أهل الكتاب أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والشرك بعد إتيان البينة إليهم ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن الكريم، لكن أهل الكتاب لما جاءتهم البينة تفرقوا فأمن بعض منهم وكفر أكثرهم حسداً منهم وبغياً.

وكانوا يقولون للمشركين من عبدة الأصنام قبل مبعثه ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فلما بعث الله محمداً ﷺ من العرب كفروا به وتفرقوا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوِ يُرَدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان - افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن -

افتراق الأمة ٣٩٩١ - ٣٩٩٣، وأحمد ٣٣٢/٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه أحمد أيضاً: من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ١٢٠/٣، ١٤٥.

ونص على أهل الكتاب بالفرق دون المشركين؛ لأن أهل الكتاب عندهم علم به لوجوده في كتبهم ففرقهم عن عناد واستكبار وحسد فالحجة عليهم أقوم وفرقهم وتكذيبهم أعظم.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾، أي: وما أمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، وما أمروا هم وجميع الناس في القرآن الكريم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: إلا بعبادة الله عز وجل.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، أي: حال كونهم في عبادتهم لله مخلصين له العبادة وحده ﴿حُنَفَاءَ﴾، أي: على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، أي: مائلين عن الشرك، معتدلين على التوحيد والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وهذا ما دعا إليه الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وكذا فعل المباحات من الأكل والشرب والنوم والترويح عن النفس ونحو ذلك بقصد المحافظة على صحة البدن، والتقوي بذلك على طاعة الله تعالى. ولهذا قال أهل العلم: الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

أي: ويقوموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والصلاة في اللغة: الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾

[التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم.
﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، أي: ويعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم
والتي هي حق الله عز وجل في المال.

والزكاة: في اللغة النماء والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي
نفس الغني من رذيلة البخل والشح، وتزكي نفس الفقير من الحقد والحسد لإخوانه
الأغنياء، وتحميه بإذن الله عز وجل عن البحث عن المال من طرق الحرام كالسرقة
ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، في زمن مخصوص،
لطائفة مخصوصة.

﴿وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ الإشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن الكريم والأمر
بعبادة الله، والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأشار إليه بإشارة البعيد
تعظيماً له.

والمعنى: وذلك دين الملة الحنيفية المستقيمة ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي
هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]،
وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

ودين الأمة المعتدلة الوسط أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

بعد ما ذكر كفر أهل الكتاب والمشركين وتفرق أهل الكتاب بعد بيان الحق لهم في
كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ذم الفريقين، وبين أن مصيرهم ومآلهم نار
جهنم، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وسوادها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا
الله وجميع المسلمين منها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الصحيح الذي دل عليه القرآن

الكريم أن النار لا تفتنى، ولا يفتنى أهلها، ولا ينتهي عذابهم.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع بالهمز: «البريئة»، وقرأ الباقون بلا همز: ﴿الْبَرِيَّةِ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، أي: أولئك هم شر الخليقة التي ذرأها وبرأها الباري سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الَّذِينَ لَا يَدْرُونَ لَوْلَا أَعْتَدُوا لِلَّهِ لِيَأْخُذَهُمْ فِي يَوْمٍ لَا يُغْنُونَ عَنْهُمْ كُفْرَهُمْ وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- إخبار القرآن الكريم بأن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون لم يكونوا منفكين ومنتهين عما هم عليه من الكفر والشرك والضلال، أي: لا يزالون على غيرهم وضلالهم حتى تأتيهم البيئة؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

٢- أن أهل الكتاب كفار، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، بل لم يؤمنوا برسولهم الذين بشروا به ﷺ كما أنهم مشركون.

٣- أن بيعته ﷺ ظهر الحق، وبيان الصبح لذي عينين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ١ ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ٢.

٤- عظم منزلة الرسول ﷺ، وما جاء به من الوحي والشرع القويم؛ لقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ٢ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ ٣.

٥- أن أهل الكتاب لم يترفقا حتى بعث النبي ﷺ فأمن بعضهم وكفر أكثرهم حسداً منهم وبعياً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾.

٦- لم يؤمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل ولا في القرآن هم وغيرهم من الناس إلا بعبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة- فأصول الشرائع كلها متفقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾.

٧- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل وحده بلا شريك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن ذلك هو الدين القيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾.

٨- عظم منزلة التوحيد، وأنه أساس الإيمان، وعظم منزلة الصلاة فهي أهم

العبادات البدنية، وعظم منزلة الزكاة فهي أهم العبادات المالية.

٩- الوعيد الشديد للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وأن مآلهم نار جهنم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

١٠- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

١١- ذم الكفرة من أهل الكتاب والمشركين وأنهم شر الخليقة وكفى بهذا ذماً؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾.

بعد ما ذم عز وجل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وبين أن مصيرهم نار جهنم امتدح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين ما أعد لهم من عظيم الجزاء في جنات عدن.

وهم طبقات أربع كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألستهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

وحذف الموصوف، وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه «صالحًا»، يتوفر فيه: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، أي: أولئك هم خير الخليقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم ورفعة لشأنهم، وقد أكد خيريتهم بعدة مؤكدات: إن، وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة (١) استوى عليه، ألا أخبركم بالذي يليه؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله فلا يُعطى به» (٢).

(١) هيعة: أي صوت مفزع وخفيف.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٩٦.

وقد استدَل بهذه الآية من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي
نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، واقرؤوا إن
شئتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾» (١).

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: ثوابهم وأجرهم عند ربهم يوم القيامة.
وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إشارة لتكفله عز وجل لهم بذلك، وعظمة جزائهم؛ لأنه
من الرب العظيم الخالق المالك المدبر الجواد الكريم سبحانه وتعالى.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية، والجنات: هي المساكن العظيمة والمنازل
العالية، التي أعدها الله لأولياءه المتقين، والتي تجن وتستر من فيها لكثرة بساطتها،
وأشجارها وثمارها وغرفها.

﴿عَدْنٍ﴾ العدن: الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن نعيم أهل الجنة أن كلاً
منهم لا يريد التحول عن مكانه وعمما هو عليه؛ لأنه لا يرى أن أحداً أكمل منه، ولا أن
هناك مكاناً أو نعيماً أفضل مما هو فيه، لأن الله عز وجل أذهب عنهم الحزن، وأذهب
عن قلوبهم الغل، فلا يظعنون منها ولا يرتحلون، ولا يطلبون غاية فوقها.

كما قال تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ﴿١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقد ضمن الله عز وجل لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿٤٨﴾
[الحجر: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿٧٦﴾
[طه: ٧٦].

وهذا بخلاف حال أهل الدنيا، فإن الإنسان لا يكاد يكمل بناء بيته إلا ويرى أنه
لو وضع كذا مكان كذا لكان أولى وهكذا، ولا يكاد يستقر في منزل، إلا ويرى أنه لو
انتقل إلى أحسن منه، سواء رأى ذلك من تلقاء نفسه، أو زهده فيه أولاده وأهله، أو
الجار، أو أهل الحي أو غير ذلك؛ لأن الله كتب النقص على الدنيا وأهلها فاقنع فيها بما
تيسر، واستعد لما أمامك.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٤٥٤.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تجري وتسير من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ عُرْفٌ مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿١﴾ [يونس: ٩].

وهي كما ذكر الله عز وجل ﴿أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

يشربون منها ويتمتعون برؤيتها ويصرفونها حيث شاؤوا بلا أخذود، قال ابن القيم^(١):

أنهارها في غير أخذود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاؤوا مف معج جرة ومال للنهر من نقصان

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لا يموتون ولا يمرضون ولا يبأسون، ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥، ٣٤].

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إيمانهم، وأعمالهم الصالحة؛ ولهذا جازاهم خير الجزاء وأعلى ذلك وأعظمه رضاه عنهم ورؤيتهم لوجهه الكريم.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أثنى به عليهم من الخيرية بين البرية، وبما أعده لهم من الجزاء العظيم في جنات النعيم، فلا تسأل عن حالهم - وقد نزلوا ضيوفاً على أكرم الأكرمين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟

(١) انظر «النونية» ص ٢٢٩.

فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل لكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١).

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ الإشارة للثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم الذي أعده الله لهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، أي: ذلك الثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم للذي خاف ربه مع هيبة وإجلال وتعظيم له، فاتقاه وآمن وعمل صالحاً.
كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فاتنبه أخي لهذا، وخذ نصيبك من ربك.

الفوائد والأحكام:

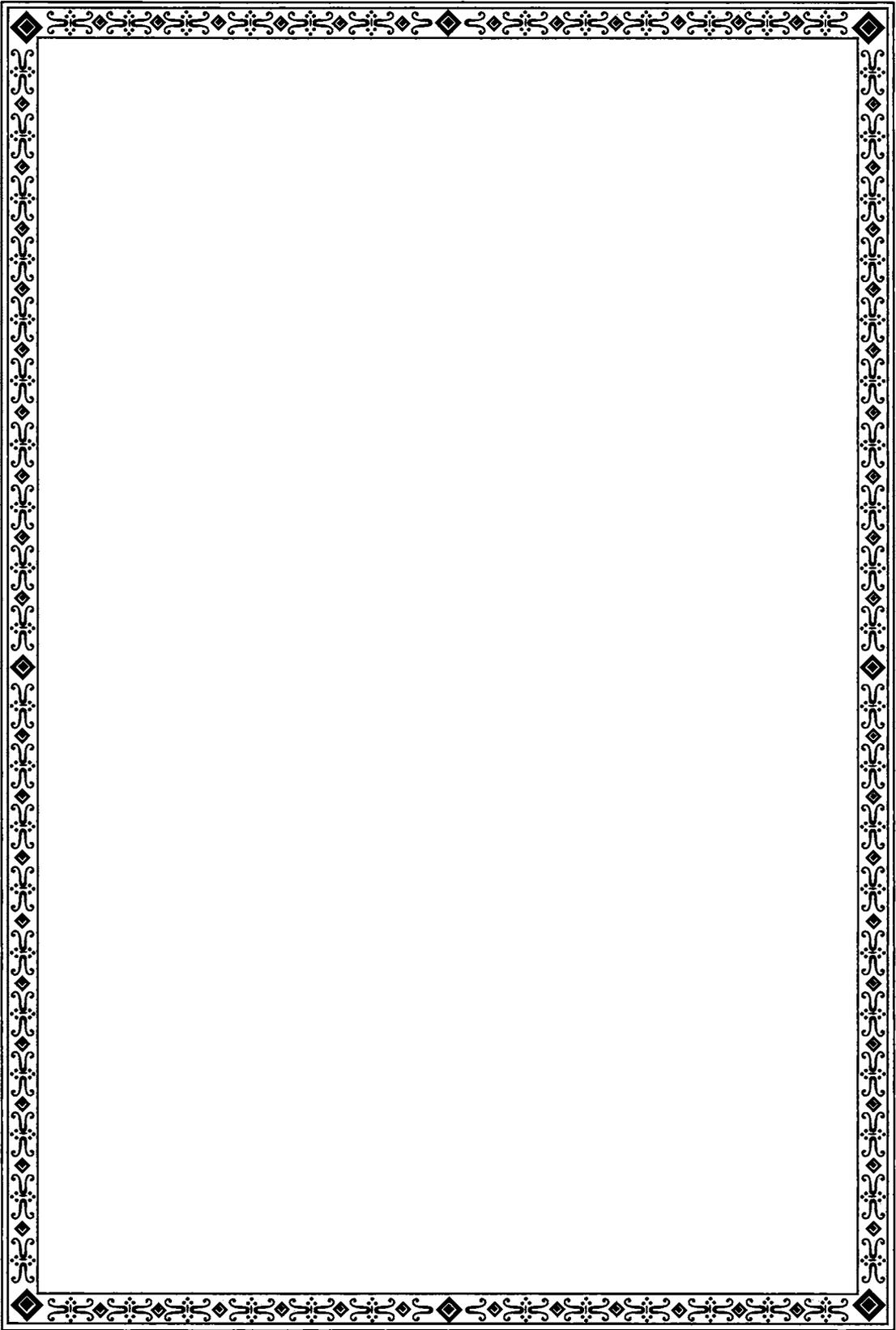
- ١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.
- ٢- إثبات أن الإيمان قول وعمل واعتقاد والرد على أهل الإرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
- ٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحاً، أي: خالصاً لله عز وجل، تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
- ٤- ثناء الله عز وجل وامتداحه للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم خير الخليقة؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، وكفى بهذا شرفاً وفخراً لهم.
- ٥- عظم ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات عنده في جنات عدن من الأنهار وألوان النعيم مع الخلود الأبدي فيها، ورضى الله عنهم ورضاهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.
- ٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة للمؤمنين أهل خشيته - عز وجل؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.
٧- الترغيب في خشية الله عز وجل، وأن هذا الأجر العظيم لكل من خشي ربه؛
لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الزلزلة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

وتسمى: «سورة إذا زلزلت»، «وسورة إذا زلزلت الأرض»، و«سورة زلزلت».

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- فضلها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل: والذي بعثك لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويحل، أفلح الرويحل»^(١).
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به. قال: «أليست معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟». قال: بلى. قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»^(٢).

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة وشدة الكرب ذلك اليوم.

٢- مجازاة كل بما عمل خيراً كان أو شراً، قليلاً كان أو كثيراً.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٩٩، وأحمد ١٦٩/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن- ما جاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٥. وقال: «حديث حسن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُسْرُوا
أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا حركت الأرض واضطربت وارتجفت وارتجت.

﴿زُلْزَالَهَا﴾، أي: تحريكها واضطرابها الشديد العظيم، فاندك ما عليها من بناء وجبال حتى صارت قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوهَا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي: أخرجت الأرض ما فيها من الموتى ودفائن الكنوز والأموال، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئاً»^(١).

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾، أي: الكافر المنكر للبعث مستنكرًا مستغربًا، أو جنس الإنسان

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ١٠١٣، والترمذي في الفتن

يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿مَا هَذَا﴾، أي: ما الذي حدث لها تزلزلت واضطربت بعد ما كانت ساكنة مستقرة ثابتة، وأخرجت ما في باطنها بعدما كان مستورا، كما قال تعالى عن منكري البعث: ﴿قَالُوا يُبَوِّئُنَا مِنْ بَعَثِنَا مِنْ مَرْقَدًا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: في ذلك اليوم تخبر الأرض بما عمل الناس على ظهرها من خير أو شر، وتشهد عليهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها»^(١).

وعن ربيعة الجرشي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا وهي مخبرة به»^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].
وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة سمعته من رسول الله ﷺ»^(٣).

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، أي: بأن ربك يا محمد أمرها بأن تتزلزل، وتخرج أثقالها، وتخبّر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾، أي: يصدرون ويرجعون من موقف الحساب.

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٩، وأحمد ٣٧٤ / ٢، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤٨١ / ٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان - رفع الصوت بالنداء ٦٠٩، والنسائي في الأذان ٦٤٤، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه ٧٢٣.

﴿أَشْنَأْنَا﴾ حال، أي: مختلفين ومتفرقين تفرقاً، لا لقاء بعده، فسعيد سالك ذات اليمين إلى الجنة نسأل الله تعالى من فضله، وشقي سالك ذات الشمال إلى النار نسأل الله تعالى السلامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ۝٨٥﴾ ﴿وَسَوْقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بِنَفَرًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۝١٤﴾ [الروم: ١٤].

﴿لِيُرَوْا﴾، أي: ليريهم الله أعمالهم، فيشاهدوها؛ ليجازوا عليها. وذلك بأن يعطى كل منهم كتاب عمله، فمنهم من يعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، فيقرأ كل منهم كتابه، فيرى أعماله، ويحاسب عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَفْوِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ ﴿أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل زنة ذرة من خير، والذرة هي النملة الصغيرة، أو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء. ﴿يره﴾: جواب الشرط، أي: ير عمله وثوابه فيجازى بها عمل من خير، مهما قل أو كثير.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، أي: ير عمله وعقابه، فيجازى بها عمل من شر، مهما قل أو كثير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۖ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. وهذا العمر الله منتهى العدل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخليل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر..» الحديث - وفيه: «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمير،

فقال: «ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨)» (١).

وعن صعصعة بن معاوية رضي الله عنه عم الفرزدق: «أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها» (٢).

وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عمّن يشاء ممن عملوا الشر إذا كان ذلك دون الشرك بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ترغيب في عمل الخير وإن كان قليلاً، ولهذا قال ﷺ فيما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» (٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» (٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان» (٦).

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٦٠، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥٩/٥.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- اتقوا النار ولو بشق تمرة ١٤١٧، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٦، والترمذي في الأطعمة ١٦٣٣.

(٥) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٦٦، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بالقليل ١٠٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠.

(٦) أخرجه أحمد ٦/٧٩.

كما أن في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ تحذيرًا من عمل الشر وإن كان قليلاً.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة»^(٣).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، ففيها تتزلزل الأرض وتضطرب وتخرج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾.

٢- استنكار الإنسان واستغرابه ما حصل للأرض من التزلزل بعد الثبات والاستقرار، وإخراج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَذَا﴾، يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

٣- إخبار الأرض آنذاك بأن الله أوحى لها بالتزلزل وإخراج ما فيها، والإخبار بما

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٣، وأحمد ١٥١/٦، والدارمي في الرقاق ٢٧٢٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/٤٠٢-٤٠٣.

(٣) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ٥٦٤/٢٤.

عمل عليها من خير أو شر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ﴾ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

٥- صدور الناس من موقف الحساب متفرقين ليروا أعمالهم وجزاءها فسالك ذات اليمين، وسالك ذات الشمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۗ﴾ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ (٨).

٦- محاسبة الخلائق بالعدل الحقيقي والوزن الدقيق على أعمالهم، من غير زيادة ولا نقصان وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل، فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عن من يشاء ممن عملوا الشر، إذا كان ذلك دون الشرك.

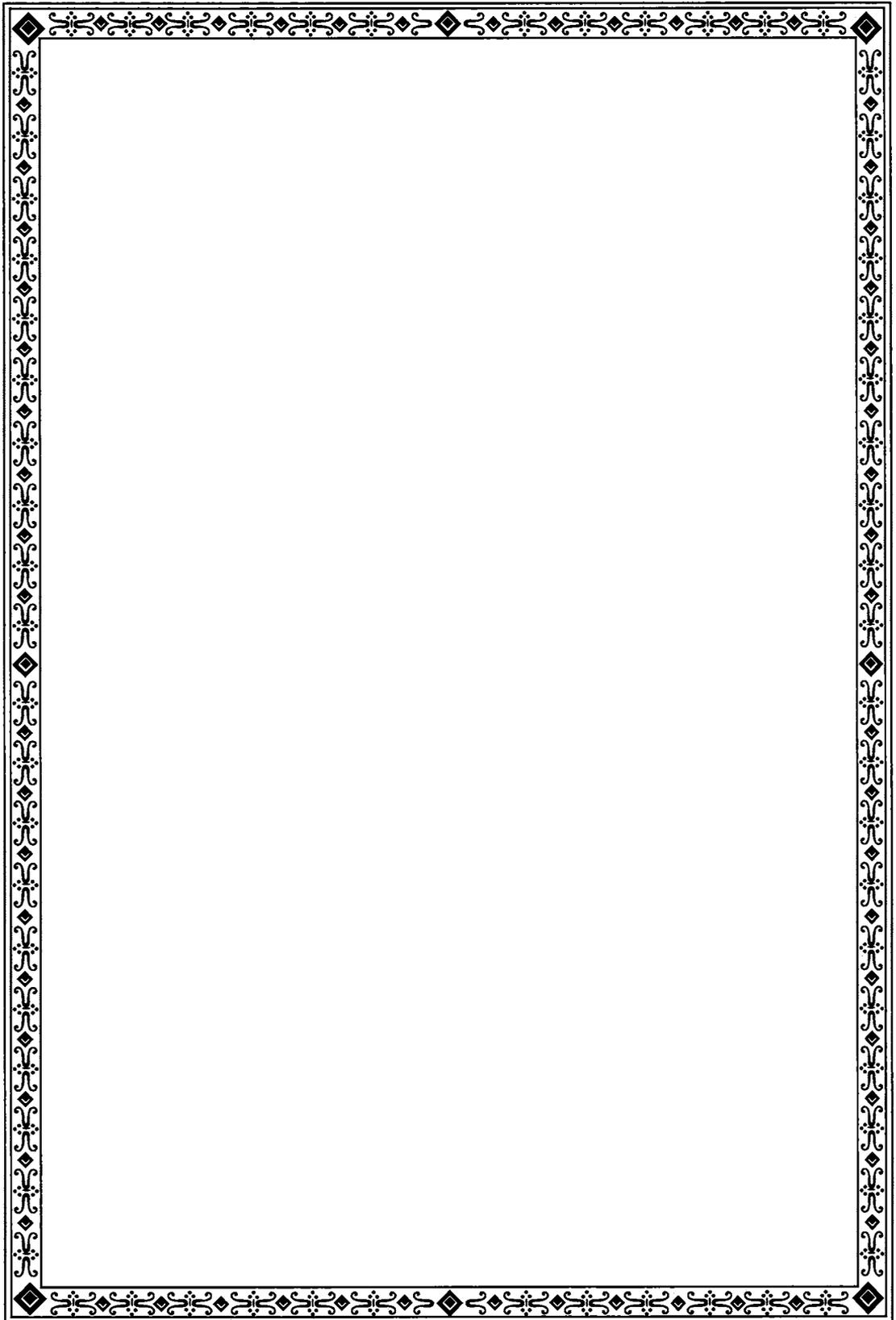
٧- إثبات الوزن لأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

٨- وجوب محاسبة النفس محاسبة دقيقة في أداء حقوق الله، وحقوق الخلق وفي القيام فيما يتولى الإنسان من مصالح الأمة؛ لأن الحساب دقيق والناقد بصير.

٩- الحرص على فعل الخير مهما قل والبعد عن الشر مهما قل.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العاديات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

- ١- فضل الجهاد في سبيل الله، ومكانة الخيل في الإسلام وأهميتها في الجهاد.
- ٢- كفر الإنسان بربه وجحوده لنعمه إلا من هداه الله.
- ٣- الترغيب بالإخلاص والعمل الصالح.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُعِيرَتِ ضَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ (٤) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٥) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) ﴿وَإِنَّهُ لِحَبِطِ الْخَبِيرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (١٠) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١).

قوله: ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«العاديات»: مقسم به، والمراد بها الخيل تعدو في سبيل الله، والعدو: الجري السريع الشديد. وقيل: المراد بالعاديات الإبل. ﴿ضَبْحًا﴾: منصوب على المصدرية، أي: يضبحن ضبحًا، أو على الحال، أي: ضابحات.

والضبح: صوت نفس الفرس في صدرها يسمع حين تعدو بشدة وقوة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حكاه «أح، أح»^(١)، قال عنتره: والخيـل تكـدح حـين تـضـحُ — بح في حياض الموت ضبـحًا ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾، أي: الخيل توري النار عند قرع حوافرها على الأرض الصخرية حين تعدو في سبيل الله لصلابة حوافرها.

﴿فَالْمُعِيرَتِ ضَبْحًا﴾، أي: الخيل تغير على الأعداء وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب...»^(٢).

﴿فَأَثَرُنَ بِهِ﴾، أي: حرّكن وهيجن في وقت إغارتهم وفي معترك الخيول ووسط

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٥٧٥ / ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان - ما يحقن الأذان من الدماء ٦١٠.

المعركة.

﴿نَقَعًا﴾، أي: غبارًا من شدة العدو والكر والفر.

﴿فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾، أي: توسطن جميعهن بمن عليهن أرض المعركة وجموع الأعداء.

وفي إقسامه عز وجل بالخييل وهي تعدو في سبيل الله، وتضبح أصواتها، وتوري النار بقدر حوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتثير الغبار وتتوسط الجموع، في هذا كله دلالة على أهمية الجهاد في سبيل الله، وعظم مكانته في الإسلام، وعلى أن الخييل من أعظم وسائل الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال ﷺ: «الخييل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخييل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها^(٢) في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين^(٣) كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورتاءً ونواءً^(٤)، فهي على ذلك وزر». فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٥) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٣، والنسائي في الخييل ٣٥٧٥، والترمذي في الجهاد ١٦٩٤، وابن ماجه في التجارات ٢٣٠٥ من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) الطيل: رباط الفرس، أي: جعل رباطها طويلاً بحيث تدور وترعى فيما حولها.

(٣) قال في «النهاية» مادة «ستن»: «استن شرفاً أو شرفين»: استن الفرس يستن إستنائاً، أي: عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين، ولا راكب عليه.

(٤) أي: مناواة ومعاداة.

(٥) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٧١، ومسلم في الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخييل ٣٥٦٣، والترمذي في

والناظر في أحوال الناس اليوم يرى أن كثيراً ممن يقتنون الخيول يقتنونها للرياء والمفاخرة.

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ هذا هو المقسم عليه.

فأقسم الله عز وجل بالخيول حين تعدو وتغير في سبيل الله على ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ اللام للتوكيد، أي: لجحود كفور، والمراد بالإنسان جنس الإنسان من حيث هو.

ومعنى الآية يحتمل الجحود والكفر المخرج من الملة، ويحتمل كفر النعم، التي قل من يشكرها، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ١٣ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّهُ﴾، أي: وإن الله عز وجل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾، أي: على ما يحصل من الإنسان من الكفر والجحود لنعم الله.

﴿لَشَهِيدٌ﴾، أي: شاهد مطلع؛ لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ٤٦ [يونس: ٤٦].

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ إلى الإنسان، أي: وإن الإنسان على كفره وجحوده لشهيد يشهد على نفسه بلسان حاله، لظهور ذلك عليه في أقواله وأفعاله وعلى جوارحه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٤ [النور: ٢٤].

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا يقوي أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعود إلى الإنسان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾، أي: لحب المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ

عَلَيْكُمْ إِذَا حَصَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا أَلَوْصِيَّةٌ ﴿البقرة: ١٨٠﴾، أي: إن ترك مالا.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: شديد المحبة للمال، حريص عليه، بخيل به ممسك له. قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويعتلي
عقيلة مال الفاحش المتشدد^(١)

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التحضيض.

أي: أفلا يعلم الإنسان ﴿إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، أي: بعث الذي في القبور من
الأموات وأخرج ونشر للحساب والجزاء.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: مُيِّزٌ وجمع الذي في الصدور من الأسرار والمكنونات،
وأبرز وأظهر، خيرا كان أو شرا، فصار السر علانية والباطن ظاهرا.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ﴿الطارق: ٩﴾.

فصار الجسم بارزا على الأرض والسر باديا على الوجه كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ

الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُورِ﴾ ﴿القلم: ١٦﴾.

فياخية قلوب حصيلتها الكفر والتكذيب والنفاق، ووأسفا على قلوب مليئة
بالضغائن والأحقاد، وسوء الظن والحسد للعباد.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَخَيْرٌ﴾ اللام للتوكيد، والخير: المطمع
على بواطن الأمور ودقائقها، وخفياتها، وهو عز وجل مطلع من باب أولى على ظواهر
الأمور وجلائلها وجلياتها.

وفي إضافة اسم «الرب» - عز وجل - إلى ضميرهم في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ إشارة إلى
كمال وتمام خبرته عز وجل بهم؛ لأنه ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الملك: ١٤﴾.

وهو سبحانه وتعالى خبير بالعباد في جميع الأوقات والأماكن والأحوال في الدنيا
والآخرة، لا تخفى عليه منهم خافية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

[غافر: ١٩].

وإنما قال عز وجل في الآية ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فخص خبره بهم في ذلك اليوم- مع أنه خبير بهم في كل وقت؛ لظهور تمام وكمال خبرته عز وجل في ذلك اليوم عندما تعرض على الخلق أعمالهم، كمثاقيل الذر؛ لمجازاتهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَاصِحِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مَسْفُوفِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرِيدُونَ مِنَّا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن كفر بالله وجحد نعمه.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالخيال حال عدوها في سبيل الله، وضبحها وقده حوافرها، وإغارتها صباحًا، وإثارتها للغبار وسط المعركة- والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُغِيرَتِ صَبْحًا﴾ ٣ ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ ٤ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ٥.

٢- عظم مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل الخيل وأهميتها في الجهاد.

٣- استحباب الإغارة على الأعداء في الجهاد صباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَتِ صَبْحًا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِ

لَكُنُودٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾.

٥- جحود الإنسان وكفره بربه وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

٦- وجوب الإيثار بالله، والاعتراف بنعمه- عز وجل- وشكرها والحذر من جحودها وكفرها.

٧- أن الإنسان شهيد بلسان مقاله أو حاله على كفره بربه وجحوده لنعمه؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، والله مطلع عليه وهو خير الشاهدين.

٨- أن الإنسان مجبول على حب المال، فينبغي الحذر من الانسياق وراءه ونسيان

الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

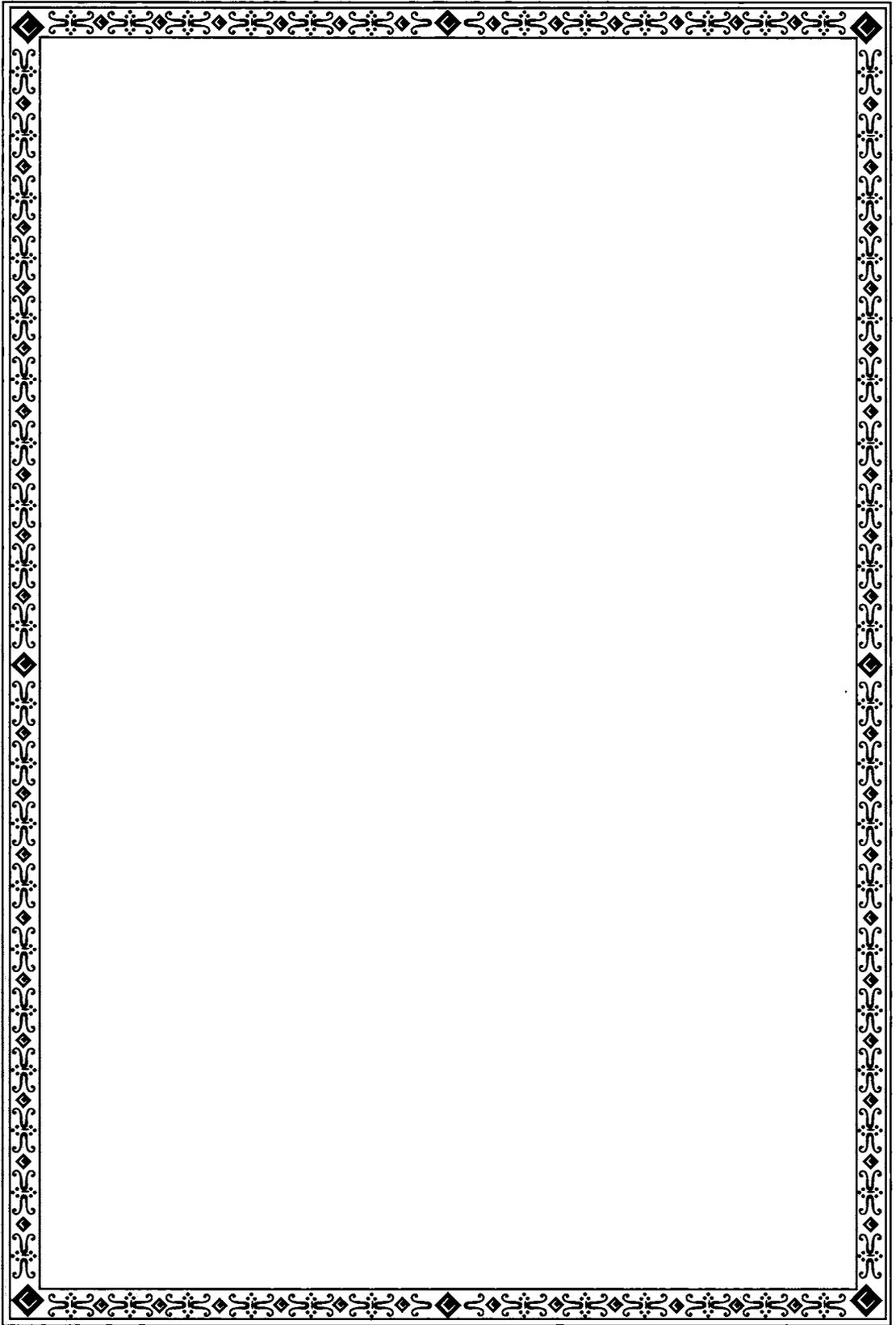
٩- إثبات البعث والحساب وإخراج ما في القبور من الأموات والكنوز، وما في الصدور من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ ﴾.

١٠- وجوب العمل على إصلاح القلوب، وسلامة الصدور، قبل أن تفتضح بإظهار ما فيها من الفساد، وسوء الاعتقاد، والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ ﴾.

١١- ظهور كمال علم الله عز وجل ودقيق خبرته للخلائق إذا أخرج ما في القبور من الأموات والدفائن، وجمع وأظهر ما في الصدور من المعتقدات والمكنونات والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۖ ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القارعة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿الْقَارِعَةُ ۙ (١) مَا الْقَارِعَةُ ۙ (٢) وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْقَارِعَةُ ۙ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

- ١- ذكر أهوال القيامة وشدتها.
- ٢- وعد من ثقلت موازينه بالعيشة الراضية، ووعيد من خفت موازينه بالنار الحامية.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ ٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴾ فَأُمُّهُ
سَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾.

قوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، أي: القيامة، وسميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تفرع القلوب بأهوالها، وتفرع الناس وتزعجهم بشدائدها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ «ما» للاستفهام، ومعناه: التعظيم والتفخيم لأمرها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾: تعظيم لأمرها بعد تعظيم، أي: وما أعلمك ما القارعة، أمرها عظيم، وهولها جسيم، وعذابها شديد، وخبرها أكيد.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ هذا وما بعده تفسير للقارعة، فيه بيان شيء من أهوالها وأحوالها، أي: يوم يكون الناس من شدة الهول والفرع والتفرق والانتشار والحيرة والذهول.

﴿كَالْفَرَاشِ﴾ الفراش: جمع فراشة، وهي الحيوانات الصغيرة الطائرة، التي يموج بعضها في بعض، لا تدري أين تذهب، وتتهافت في الليل على الأنوار والمصابيح وعلى النار؛ لضعف إدراكها. وسميت بالفراش؛ لافتراشها وانتشارها.

﴿الْمَبْثُوثِ﴾: المتفرق المنتشر، والذي يتطاير هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ٧﴾ [القمر: ٧].

فتأمل أخي المسلم حال الناس في ذلك الموقف الرهيب، وحيرتهم وذهولهم، وهم أهل العقول والأذهان وتأمل حالك بينهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، أي: وتكون الجبال الصم الصلاب الراسيات كالصوف المنفوش المبعثر الذي لخصته وتمزقه تطير به أدنى ريح، فالجبال في

ذلك اليوم في سرعة سيرها وخفتها وتفتتها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٧-١٠٥].

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ الآيات.

بعد أن ذكر عز وجل بعض أهوال القيامة، وحال الناس فيها، ذكر انقسام الناس فيها إلى قسمين حسب أعمالهم:

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي ثقلت موازين أعماله الصالحة ورجحت حسناته على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، أي: في عيشة كريمة في الجنة يرضاها لنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلْ فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلْ جَنِّي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فرجحت سيئاته على حسناته، بأن طاشت موازين أعماله الصالحة، فرجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات أصلاً كالكافر.

﴿فَأُتْمُءٌ﴾، أي: فمرجعه ومصيره ومأواه الذي يأوي إليه لا مأوى له سواه.

﴿هَكَوِيَةٌ﴾، أي: نار عمقها شديد، وقعرها بعيد، يهوي المعذب فيها على أم رأسه في دركاتهما لا يكاد يدرك قعرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها»^(١).

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٤.

المشرق والمغرب»^(١).

وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفًا في النار»^(٢).

وعن الأشعث بن عبد الله الأعمى، قال: «إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوَّحُوا أَخَاكُمْ، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه، ما فعل فلان؟، فيقول: مات، أو ما جاءكم؟، فيقولون: ذهبوا به إلى أمه الهاوية»^(٣).

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾: تعظيم لأمرها وهولها وخطرها، أي: وما أعلمك ما هي والهاء: للسكت.

﴿نَارًا حَامِيَةً﴾، أي: هي نار شديدة الحرارة لقوة لهبها وسعيرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟، فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لي بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»^(٥).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، وأنها تفرع القلوب بأهوالها، وأن أمرها عظيم وخطبها

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد والرفائق ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٠، وأحمد ٢/٢٩٧، ٣٣٤، ٣٥٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي «حسن غريب».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/٥٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة- شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٨٩، وأحمد ٢/٢٤٤، ٤٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في الباب السابق ٣٢٦٠، ومسلم في المساجد ٦١٧، وأبو داود في الصلاة ٤٠٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٢، وابن ماجه في الصلاة ٦٧٨.

جسيم؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾.

٢- اضطراب الناس في ذلك اليوم وتفرقتهم وحيرتهم لما يشاهدون من أهوال القيامة، وخوفاً من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

٣- تغير أحوال الجبال الراسيات مع عظمتها من أهوال ذلك اليوم، وكونها في الخفة كالصوف المنفوش تمهيداً لدكها ونسفها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

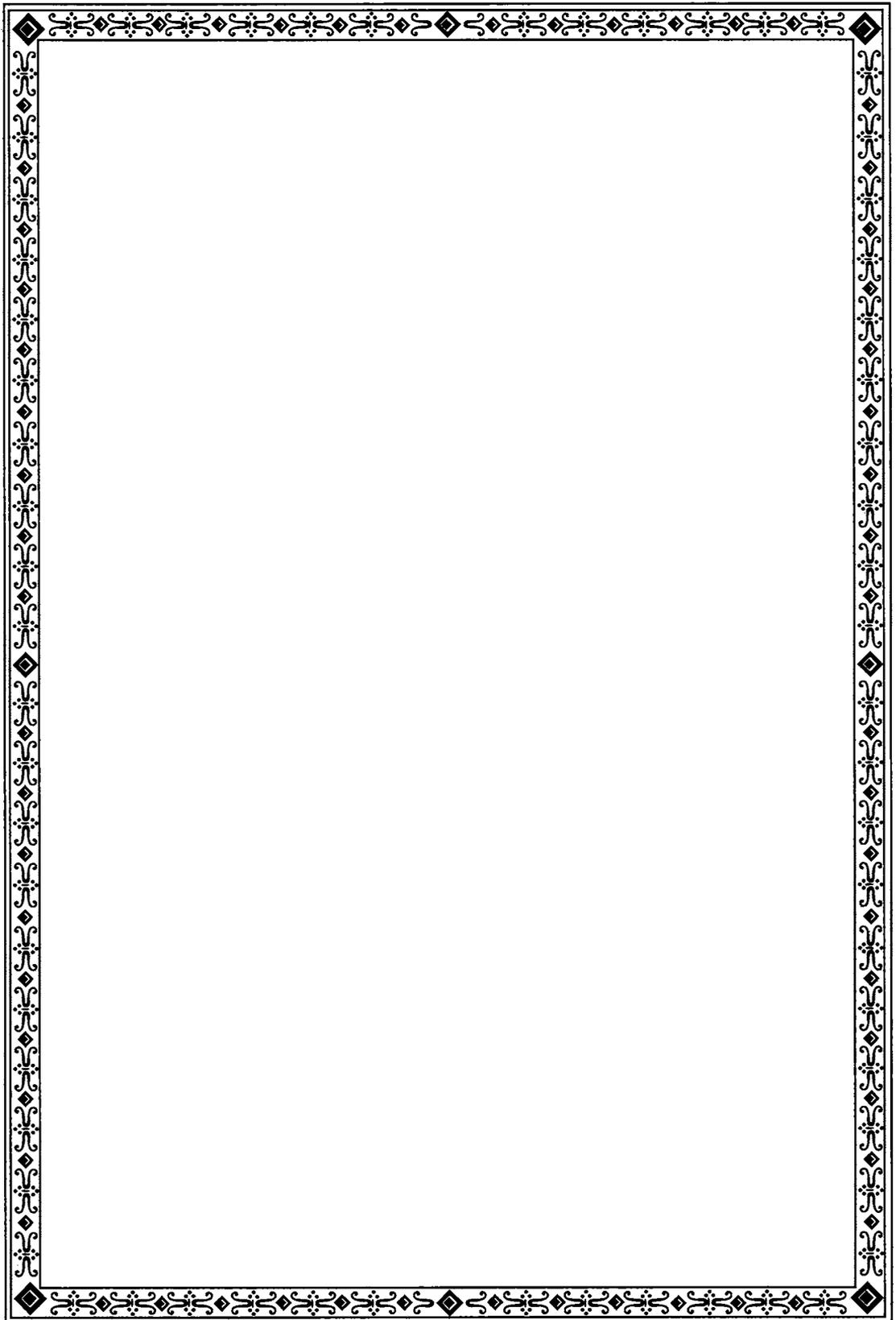
٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق ثقلت موازين حسناتهم فهم في عيشة راضية في الجنة، وفريق خفت موازين حسناتهم فمآلهم النار الحامية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾.

٥- إثبات وزن الأعمال، والعدل بين الناس في حسابهم ومجازاتهم على قدر أعمالهم.

٦- الترغيب في الاستزادة من الحسنات، والترهيب من كثرة السيئات.

* * *

تَقْسِيْرُ سُورَةِ التَّكْوِيْنِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكاثر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿الْهَمُّكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. وتسمى: «سورة أهاكم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- التحذير من التكاثر بالأموال والأولاد وغير ذلك من أمور الدنيا والتهديد والوعيد لمن التهى بذلك عن العمل الصالح.

٢- تأكيد رؤية النار يوم القيامة، والمساءلة والحساب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ﴾ ١ ﴿حَتَّىٰ دُرُومُ الْمَقَابِرِ﴾ ٢ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ٥ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ٦ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ ٨ ﴿

قال ابن القيم^(١): «أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها».

قوله: ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف من جميع الناس فكل من ألهاه التكاثر من المسلمين وغيرهم فهو داخل تحت هذا الخطاب. أي: شغلكم وأذهلكم التكاثر عن طاعة الله عز وجل وعبادته، وعن المقصود من خلقكم، وهو عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والتكاثر: تفاعل من الكثرة، أي: ألهاكم مكاثرة بعضكم لبعض، أي: طلب كل واحد منكم أن يكون أكثر من الآخر بالمال والولد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَأْمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ؕ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وحذف متعلق التكاثر؛ ليشمل كل ما يتكاثر به سوى طاعة الله تعالى من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والعدد والعدة والعتاد وغير ذلك، كما قال تعالى عن صاحب الجنة أنه قال لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

قال ابن القيم^(١): «فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومنافسة إليها».

وإذا كانت المكاثرة فيما يتقرب به إلى الله تعالى كالعلم ونحوه لأجل المكاثرة نفسها

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥ / ٣٠٧ - ٣٠٨.

والرياء والسمعة والمفاخرة فإن هذا أشد خطراً وأعظم ضرراً.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، أي: إلى غاية أن متم ودفنتم في المقابر، وكلما شاب الإنسان ازداد حبه للمال والمكاثرة به.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال: قلت: طهور؟، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيه القبور، قال: «فنعم إذا»^(١).

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ؟» يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يشيب ابن آدم وتبقى معه اثنتان: حب الدنيا، وطول الأمل»^(٤).

وفي حديث أنس «ويبقى معه اثنتان حب المال، وطول العمر»^(٥).

وفي رواية: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»^(٦).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٧٠، وأحمد ٣/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٣٣٥٤، وأحمد ٤/ ٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٩، وأحمد ٢/ ٣٦٨، ٤١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٤٧، والترمذي في الزهد ٢٣٣٩، وابن ماجه

في الزهد ٤٢٣٤.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ١١٥.

عمله» (١).

وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: «كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن «لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» حتى نزلت هذه السورة ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها» (٢).

وعن ميمون بن مهران قال: «كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقراً: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، أي: من جنة أو نار».

وروي أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال: «بُعِثَ القوم ورب الكعبة، أي: أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره» (٣). فالملكث في القبور وإن طال هو مجرد زيارة، والمصير والمآل إلى دار القرار، إما في الجنة، وإما في النار.

وبهذا يعلم خطأ ما يكتب في الصحف والجرائد والمجلات وغيرها عن المتوفى من قولهم «انتقل إلى مثواه الأخير» فإن الملكث في القبور مجرد زيارة وإنما المثوى الأخير في الآخرة إما في الجنة وإما في النار.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ردع وزجر ووعيد وتهديد، وإنذار وتخويف، أي: كلا سوف تعلمون في المستقبل.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تأكيد للردع والوعيد، كقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿ثُمَّ

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (١) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾ [الآيتان: ٤، ٥].

أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم، وأن التكاثر لا ينفعكم.

وقيل: ليس هذا من التأكيد، بل العلم الأول في القبر، والثاني في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٥٩٩.

(٣) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ٣٤٥٩ / ١٠ - ٣٥٦٠.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة والثاني عند البعث.
 وقيل: العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر.
 واستدل ابن القيم لصحة هذا القول من عدة أوجه قال^(١): «أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين، زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقيناً هو فوق العلم الأول.
 الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده، من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى، وتراخي الثانية عنها». والآية محتملة كل ما ذكر والله أعلم.
 ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر والتهديد.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، أي: لو تعلمون علم اليقين في الحال.
 أي: العلم اليقيني الذي يملككم على العمل، ولا يتخلف موجهه غالباً، فلو علمتم ذلك علماً يقينياً لما أهاكم شيء عن موجهه، وهو تقديم طاعة الله تعالى على كل شيء، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر^(٢):

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣٠٩/٥ - ٣١٢.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٦٦٤، «السيرة النبوية» لابن كثير ٢/٤٥٤، «البداية والنهاية» ٣/٣٦٠.

سرنا وساروا إلى بدر لحثفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
﴿لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لترون الجحيم
قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء: «لترؤن»، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذا تفسير للوعيد المتقدم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿
وأبهم المتوعد به أولاً وكرره، ثم أظهره هنا تفخيماً وتعظيماً للأمر، وتغليظاً في التهديد
والوعيد، وزيادة في التهويل.

واللام في قوله: ﴿لَتَرُونَ﴾: لام قسم محذوف، لتوكيد الوعيد، والتقدير: والله
لترون الجحيم، أي: لتشاهدنها بأبصاركم.

قال ابن تيمية (١): «والخبر محذوف، أي: لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمراً
عظيماً، ولأهلكم عن إلهكم، فإن الالتفاء بالتكثير إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين، كما
قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢).
وحذف جواب «لو» كثير في القرآن تعظيماً وتفخيماً، فإنه أعظم من أن يوصف أو
يتصور بسماع لفظ، إذ المخبر ليس كالمعاین.

﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا بِعَيْنٍ أَلْيَقِينَ﴾، أي: نفس اليقين، معاينة بعيونكم، ومشاهدة بأبصاركم،
كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:
.٥٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالنار يوم
القيامة تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها...» الحديث (٣).
فعلم اليقين يدل عليه الدليل الصحيح المتواتر، وعين اليقين: الرؤية بالعين، وليس

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦ / ٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٢١، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٧٣.

الخبر كالمعاينة - كما قال ﷺ (١).

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَتْ بَلَىٰ
وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهو - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - عنده العلم اليقيني بقدره الله عز وجل على إحياء الموتى.

لكنه أراد زيادة اليقين والاطمئنان القلبي باجتماع عين اليقين إلى علم اليقين.

ولهذا قال نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» (٢).

يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يشك ولو شك لكنا أولى بالشك منه.

﴿ثُمَّ لِنُسَلِّتَنَّ﴾ ثم: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، والتقدير: ثم والله لتسألن.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، بعد زيارتكم المقابر، والخطاب لجميع الناس، فالمؤمن يسأل

سؤال تذكير، والكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع.

﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾، أي: عن كل ما أنعم الله به عليكم، مما تتنعمون به في هذه الدنيا

من اللذات ورغد وطيب العيش ولينه، من المأكل والمشرب والمسكن والمراكب والفرش والملابس، ومن الأمن في الأوطان والصحة في الأبدان.

كما قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه،

فكأنها حيزت له الدنيا بحذافيرها» (٣).

يُسألون عن كل ما هم فيه من النعيم، من أين اكتسبوه، وفيهم صرفوه وبذلوه،

وهل شكروا الله تعالى عليه، واستعانوا به على طاعته أم جحدوه وكفروه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو

بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالوا: الجوع، يا رسول

(١) أخرجه أحمد ١ / ٢١٥، ٢٧١ - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٢، ومسلم في الإيمان ١٥١ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ - من حديث سلمة بن عبد الله بن

محسن الأنصاري عن أبيه وقال الترمذي «حسن غريب».

الله، قال: «والذي نفسي بيده، لا أخرجني إلا الذي أخرجكم، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟، قالت: ذهب يستعذب لنا ماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاء بعدق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدينة، فقال رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(٣).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: «لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، فأبي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟، قال أما إنه سيكون»^(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، وقال: «إنها هو الأسودان، وسيوفنا على عواتقنا، فقال: «إن ذلك سيكون»^(٥).

أي: إن النعيم سيكون ويحدث لكم، أو إن السؤال يقع على ذلك، وإن كان تمراً

(١) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٣٨ وابن ماجه في الذبائح ٣١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٦. وأخرج الترمذي أيضاً نحوه من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠، وأحمد ٢٥٨ / ١، ٣٤٤.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٦ وقال «حديث غريب».

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٧.

وماءً، فإنه من النعيم.

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص واعلم أن الله عز وجل لم يكلفنا شططا، بل أمرنا بالتوسط في فقاتنا؛ وفي جميع أحوالنا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة»^(١).
واعلم أيضًا: أن الدنيا والآخرة أشبه بالضرتين فمن مال إلى إحداها أضر بالأخرى لا محالة وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).

والمراد بالهلاك في قوله ﷺ: «فتهلككم» الهلاك الحقيقي، وهو نسيان لقاء الله تعالى والدار الآخرة، وهو الخسارة الكبرى، والمصيبة العظمى، وذلك؛ لعظم فتنة المال، فهو سبب للإخلال بالواجبات، والتي من أعظمها الصلاة فيحمل على الانشغال عنها وتأخيرها ونسيانها، وعدم حضور القلب، فيها كما يحمل صاحبه على التكبر والطغيان كما قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٢﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد يحمل صاحبه على الجرأة على التعامل المحرم، ومنع الواجب، إضافة إلى ما يسببه من صدمات وأمراض نفسية وبدنية وفقدان للسعادة، فإن صاحب المال في تعب في النهار، وقلق وتفكير في الليل. فالانهماك في طلب المال والدنيا سبب للتقصير في

(١) أخرجه ابن ماجه في اللباس ٣٦٠٥، وأحمد ١٨١/٢ - من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وذكره البخاري معلقًا في اللباس - باب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ انظر «فتح الباري» ٢٥٢/١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

حقوق الخالق وفي حقوق الخلق، والشقاء في الدنيا والآخرة.
واعلم أن للتكاثر صورًا كثيرة منها بل من أعظمها وأظهرها:
أن يسعى الإنسان جاهدًا؛ ليكون أكثر من غيره وأفضل في ماله وولده ومنصبه
وجاهه ومسكنه ومركبه وغير ذلك من أمور الدنيا مباحة ومفاخرة، ومنافسة في
زخرف الدنيا وحطامها الفاني.

ومنها: أن يكون هم الإنسان وشغله الشاغل وتفكيره في يقظته ومنامه زيادة
رصيده في البنك، فتراه يلهث طول يومه لتحقيق ذلك بشتى الوسائل، وربما وقع في
المتشابه أو المحرم من أجل ذلك، ومن تأمل أحوال الناس رأى هذا عيانًا.
ومنها: أن يكون هم الإنسان التمتع بأكبر قدر من متع الدنيا ولذائذها من المآكل
والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك - كأنه خلق لهذا - فتجده يسعى
جاهدًا في اختيار أنواع الأكلات، والتفنن في أشكال الطبخات والمشويات ونحو ذلك.
نظرية من يعيش ليأكل، لا من يأكل ليعيش.

وقد قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيات يقمن
صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(١).

قال أبو الفتح البستي^(٢):

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته لتطلب الريح فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وتجد من هذا همه ومبلغ علمه يسعى جاهدًا في تشييد المباني وزخرفتها في هذا
العمر الزهيد، وكأنه سيخلد في الدنيا، أو سيعمر فيها عمر نوح عليه السلام.
وتجده يسعى دائمًا لتأمين الكماليات، ومتابعة الموديلات والموضات في السيارات
والملابس والأثاث وغير ذلك.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩ - من حديث المقدم بن معد يكرب
رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٣٦.

وقد نام ﷺ على حصير فأثر في جنبه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له أصحابه رضي الله عنهم: لو اتخذنا لك وطاءً فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١).

وتجد أيضًا من كان هذا همه مشغوفًا بالأسفار والتنقلات وتزجية أوقات العمر هنا وهناك، بل ربما سافر إلى بلاد الكفار، ترويحًا عن النفس كما يقولون، وبحثًا عن السعادة كما يزعمون.

فإهدار للأموال، وتضييع للأعمار، وتعرض للأخطار، واقتراف للأوزار - نسأل الله تعالى إصلاح الأحوال.

فكن أخي الكريم من الدنيا على وجل، واعبرها ولا تعمرها عمارة المقيم، وتوازن في جميع أمورك وأحوالك، واحرص على حفظ وقتك، وساعات عمرك، واستعد لما أمامك، واعلم أن السعادة كل السعادة في طاعة الله تعالى، ولا تنس نصيبك من الدنيا، قال الله عز وجل ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الفصص: ٧٧].

واعلم بارك الله فيك أنك لا تلام على كفاف، كما قال ﷺ^(٢).
فخذ نصيبك من الدنيا زادًا وبلغته، وكن خائفًا من فتنها أشد من خوفك من الفقر، عسى أن تسلم من فتنها وما إخالك سالمًا.
واحرص على شكر نعم الله عز وجل باستعمالها في طاعته ومرضاته والاعتراف له بها ظاهرًا وباطنًا، وعدم الإسراف والمباهاة والمفاخرة فيها، فإن الفضل لله عز وجل ولا يجوز تقليد الآخرين، ومجاراتهم في البذخ والإسراف في الولايم، بل ولا في الحياة اليومية إرضاءً للسفهاء، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس كما جاء في الحديث^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٣٦ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تحريجه.

والعجيب أن بعض الناس إذا قدّم الطعام لضيوفه قال لهم معتذراً: هذا ليس حقكم، أو ليس قدركم، ونحو ذلك، بمعنى: أن حقكم علينا أكبر من هذا، وهذا لا يجوز لما فيه من ازدراء النعمة وانتقاصها، بل ينبغي أن يقدم لهم ما تيسر، ويحمد الله على ذلك. واحذر أخي الكريم من إهانة النعم، واقتصد فيها، واعلم أن هناك الملايين من المسلمين يموتون جوعاً، وهم في أمس الحاجة إلى الطعام وغيره من متطلبات الحياة، فتصدق عليهم بما زاد عندك، وخذ نفسك وأهلك بالمحاسبة، ومعرفة قدر نعم الله عليك، واعلم أن الفخر كل الفخر، والكرم كل الكرم بتقوى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

واحرص على الحفاظ على ما يتبقى من فضول الطعام وغيره واحترامه بإعطائه المحتاجين أو الجهات الخيرية التي توصله إليهم، فإن كان باقي الطعام لا يصلح للإنسان أكله فليعط للحيوانات والطيور، فإن لم يمكن ذلك، فليوضع في مكان نظيف تأكله السباع والموام وغيرها.

ولنحذر جميعاً من وضعه في صناديق الزبالة مع القذر والأذى، فإن ذلك سبب للعقوبة العاجلة والآجلة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالنعم صيد والشكر قيد، والنعم إذا شكرت قوت، وإذا كفرت قوت، قال علي رضي الله عنه (١):

إذا كنت في نعمة فارعها - فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بتقوى الإله - فإن الإله سريع النقم

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من التكاثر والمباهاة والمفاخرة بالأموال والأولاد وغير ذلك، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد للدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿﴾.

(١) انظر «ديوانه» ص ١٧٥-١٧٦ جمع نعيم زرزوره. وقد نسب لأبي العتاهية. انظر: «الدر الفريد» ٢/ ٣٩٥.

٢- أن من حصلت عنده الكثرة من غير مكاثرة ولم تشغله عن طاعة الله تعالى، بل استعان بها على ذلك فليس داخلاً في الذم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ﴾ ثم رتب عليه ما رتب من الوعيد.

وقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم من أكثر الناس مالاً، وما ضرهم ذلك لما جعلوا المال مطية للآخرة، فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة: ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، حتى قال النبي ﷺ فيه: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»^(١).

وقد قال ﷺ لعمر بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(٢).
٣- الإشارة إلى حقارة الدنيا وما فيها من الملمات على اختلاف أشكالها، وأن الاشتغال بالمكاثرة بذلك من اللهو واللعب، كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

٤- الإشارة إلى أن الاقتصاد والتوسط في الأمور والأحوال الدنيوية هو الأصل وهو الأولى؛ لأن الخروج عن ذلك قد يؤدي بالإنسان إلى ما لا ينبغي من المكاثرة ونحو ذلك.

٥- أن المكاثرة بما يعود على الإنسان بالنفع في دينه وآخرته ليست من التكاثر المذموم بل من المسابقة والمسارعة إلى الخيرات والمنافسة فيها، كما قال عز وجل: ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد تسابق أبو بكر الصديق والفاروق- رضي الله عنهما لما دعا النبي ﷺ إلى الصدقة، فجاء عمر بنصف ماله وظن أنه يسبق أبا بكر، وإذا أبو بكر قد جاء بكل

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠١- من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٩٧، ٢٠٢.

ماله - رضي الله عنهما، فقال عمر: «والله لا أسبقه إلى شيء أبداً»^(١).
 ٦- إعجاز القرآن الغيبي حيث أخبر بهذا الخطاب العام للناس بأنه ألهاهم التكاثر وهذا هو الواقع فعلاً في السابق واللاحق، إلا من رحم الله، وفي هذا الإشارة إلى عدم الاغترار بما عليه كثير من الناس من التكاثر وغيره، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٧- إثبات القبر وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.
 ٨- إثبات البعث بعد الموت والقيامة، وما فيها من الأهوال، ورؤية النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فهذا يدل على أن الإقامة في البرزخ وفي المقابر زيارة فقط ثم يبعث الناس ويردون إلى الدار الآخرة دار القرار.

٩- الزجر والردع والوعيد الشديد، والتهديد الأكيد بالجحيم لمن ألهاه التكاثر عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.
 ١٠- العلم اليقيني برؤية النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

١١- أن من ألهاه التكاثر عن طاعة الله وما خلق له فعلمه اليقيني برؤية النار ضعيف إذ لو اكتمل عنده علم اليقين برؤيتها ما ألهاه التكاثر عما خلق له؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

١٢- اجتماع عين اليقين إلى علم اليقين في رؤية النار في الآخرة، فعلم اليقين بأن رؤيتها حاصلة بل وورودها دل عليه القرآن والسنة، وفي عرصات القيامة ترى عياناً؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

١٣- إثبات الحساب، والسؤال عن النعم التي أنعم الله بها على العبد في الدنيا،

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥، والدارمي في الزكاة ١٦٦٠ - من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

وهل شكرها أو كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِنُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

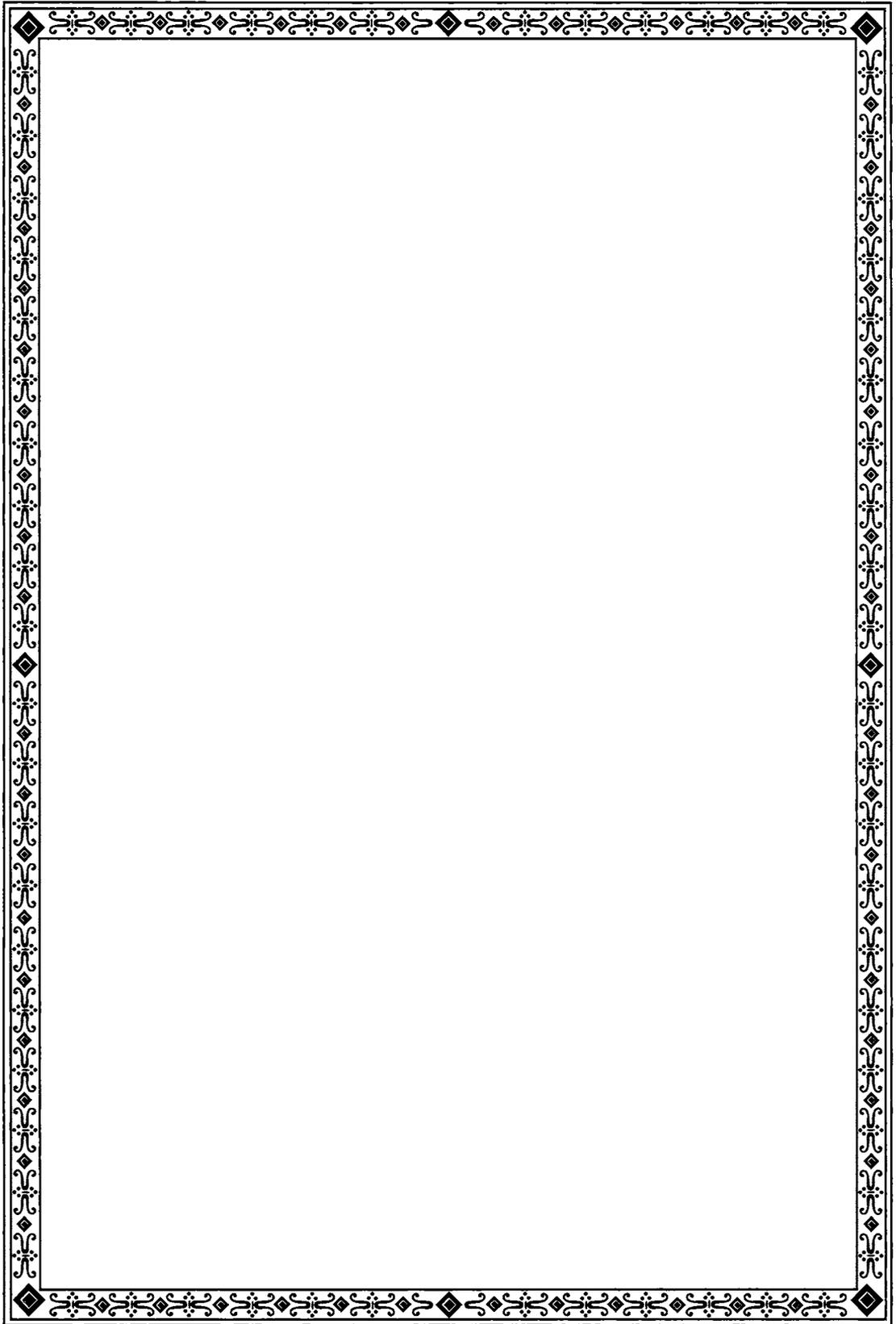
١٤- وجوب أخذ النعم من طرق حلال، وصرفها في وجوهها في الطرق الحلال.

١٥- وجوب شكر نعم الله تعالى في استعمالها في طاعته والبعد عن معصيته، وأداء

حق الله فيها، واحترامها وعدم إهانتها، وعدم الإسراف فيها، وكفرها.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العصر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

قال ابن كثير^(١): «ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣).

ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر».

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»^(٢).

وقال الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»^(٣).

د- موضوعاتها:

١- بيان وتأكيد خسارة كل إنسان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

* * *

(١) في «تفسيره» ٨ / ٤٩٩.

(٢) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر: «والوبر: دوية تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدرة وباقية دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرح ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان».

(٣) انظر «مفتاح دار السعادة» ص ٦١، «تفسير ابن كثير» ٨ / ٤٩٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾.

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾، الواو: حرف قسم وجر، و﴿وَالْعَصْرِ ١﴾: مقسم به. والعصر: هو الزمان والدهر، وهو الأيام والليالي، كما قيل: ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما (١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾: جواب القسم. والمراد بالإنسان: جنس الإنسان. والخسر: ضد الربح، أي: إن الإنسان جنس الإنسان من حيث هو لفي خسران ونقصان وهلاك.

قال ابن القيم (٢): «الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه، ووقفه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به». وإقسامه عز وجل بالزمن بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ وكذا في مواضع عدة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿الشمس: ١-٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿[الليل: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴿[الضحى: ١-٢].

كل ذلك للدلالة على أهمية الوقت؛ لأنه عمر الإنسان، ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهو الذي سيحاسب عنه العبد، ويسأل عنه يوم القيامة، كما قال ﷺ: «لا تزول

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو في ديوانه ص ٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/٣٢٩.

قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»^(١).

وهو مما أقام الله به الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُنْعِمْكُمْ مَّا تَدَّكَّرْ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»^(٢). وهو أغلى وأنفس ما أعطاه الله للعبد وأمره بحفظه. قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عُتيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع^(٣)
وقال الآخر:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان^(٤)
وهو عمر الإنسان الذي بذهابه ذهب المرء كما قيل:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا^(٥)
وكما قيل:

المرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم يُدَنِّيهِ إلى الأجل^(٦)
وإقسامه عز وجل بالعصر على أن الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بالصفات المذكورة يعد إشارة إلى أن الخسارة الحقيقية هي الخسارة في الدين، فهي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا يجبر.

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٧ - من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أيضًا: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٤١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للوزير الصحابي يحيى بن هبيرة. انظر (الذيل لطبقات الحنابلة) ٢٣٦/٤.

(٤) البيت للشاعر أحمد شوقي، وهو ضمن قصيدته في رثاء مصطفى كامل باشا، وهو في ديوانه «الشوقيات» ١٥٨/٣.

(٥) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية» ١/١٠٢.

(٦) انظر: «البصائر والذخائر» ١٠٢/٥، «زهر الآداب» ١/٣٦٧.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالمصيبة العظمى والخسار الذي لا خسار بعده أن يصاب الإنسان في دينه، فيموت على الكفر أو على المعاصي، كما قال تعالى عن أبي لهب ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خسرت يده وخسر فعلاً. نسأل الله السلامة.

فليست المصيبة - أن يصاب الإنسان بالخسارة في ماله أو في نفسه أو في أهله أو ولده، أو قريبه أو صديقه سواء بمرض أو موت أو غير ذلك، وهذا - وإن كان كله يسمى مصيبة - لكن المصيبة العظمى هي المصيبة في الدين وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران^(١) وهي التهلكة والهلاك. فإن الأنصار رضي الله عنهم لما أعز الله الإسلام قال بعضهم لبعض: لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا، كأنهم أرادوا ترك الجهاد، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]^(٢).

وقال ﷺ: «إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»^(٣). وقد فهم هذا المعنى سلف هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من ذوي البصيرة في الدين، فنأوا بأنفسهم عن المعاصي، وها هو سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه يأتي فرعاً مرعوباً إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «يا رسول الله هلكت وأهلكت». قال له رسول الله: «ما أهلكك؟» قال: يا رسول وقعت على امرأتي وأنا صائم.. الحديث^(٤).

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص ٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد - قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ٢٥١٢، والترمذي في التفسير ٢٩٧٢، وابن ماجه ٤٧١١، والحاكم ٨٤ / ٢، ٢٧٥ - من حديث أبي أيوب. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ١٩٣٦، ومسلم في الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ١١١١، وأبو داود في الصوم =

فقد أحسّ رضي الله عنه بعظم المعصية وسوء عاقبتها وجاء تائبًا يسأل عن المخرج منها.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «إلا»: أداة استثناء فاستثنى عز وجل من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف، وهي: «الأعمال»، واكتفى بالصفة وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

والعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

يدل على هذين الشرطين أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فما يدل على وجوب الإخلاص لله تعالى من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ومن السنة قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

ومما يدل على وجوب متابعة الرسول ﷺ من الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَأْتَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ومن السنة قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

ويجمع الدلالة على الشرطين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع الرسول ﷺ.

٢٣٩٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأفضية ١٧١٨، وأبوداود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، قال ابن القيم^(١): «إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣٢]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، «الحق»: هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ انكاره مما جاء في الكتاب والسنة، أي: أوصى بعضهم بعضًا بلزوم الحق والتمسك به؛ قولاً وفعلاً واعتقاداً، فعلاً للطاعات، وتركاً للمنهيات.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر. والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله. وأقسامه ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وأعلىها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله. ثم الصبر على أقدار الله. قال ابن القيم^(٢): «والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشارك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجردة إن لم يقترن به إيمان واختيار.

قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»^(٣)، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خفّ واستخف، فالؤمن الصابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف، والله

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠-٣٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجناز ١٢٨٤، ومسلم في الجناز ٩٢٣ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

المستعان».

وقال ابن القيم أيضًا^(١) بعد ما ذكر قول الشافعي: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم». قال: «وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداها: معرفة الحق، الثانية: عمله به، الثالثة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذه نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكمالُه بإصلاح قُوَّته العلمية والعملية، فصالح القوة العلمية بالإيمان، وصالح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير».

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لقوله تعالى: ﴿وَأَلْعَصِرِ﴾ وذلك لأن إقسامه عز وجل بما خلق يدل على عظمته هو، فكأنه عز وجل يقول: أقسم بما خلقت. أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله؛ لأن القسم تعظيم للمقسم به، ولا يجوز ذلك إلا لله. قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٢). وقال ﷺ: «لا تحلفوا بأبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(٣).

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣٢٥/٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٥١، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٥ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان ٢٧٨/٦، والحاكم ١٨/١، ٢٩٧/٤ ووافقه الذهبي، وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٥٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٧٩، ومسلم في الإيمان ١٦٤٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما،

٢- الإشارة إلى ما في العصر وهو الوقت من العبرة والآية، فإن مرور الليالي والأيام والشهور والأعوام وجريان الأفلاك وتعاقب الفصول من أعظم الآيات الكونية، كما أن في ذلك دلالة على أهمية العصر وهو الوقت في حياة الإنسان؛ لأن الله عز وجل أقسم به للدلالة والتنبيه على أهميته ووجوب الحفاظ عليه واستغلاله، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ١٢].

٣- أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بالصفات الأربع المذكورة في السورة لأن الله أقسم بالعصر، إن الإنسان لفي خسر، واستثنى من ذلك من اتصف بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢٠ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٢١﴾.

٤- أن حقيقة الخسران أن يصاب الإنسان في دينه لأن الصفات الأربع المذكورة كلها مما يتعلق بالدين.

٥- أن حقيقة الربح والفوز أن يسلم للإنسان دينه؛ فكل خسارة أو مصيبة دون ذلك تهون؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة في الدين.

٦- وجوب الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

٧- لا بد من الإيمان بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن من شرط قبول العمل أن يكون صالحًا، أي: يتوفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- وجوب التواصي بلزوم الحق والأخذ به، والتعاون والتناصح في ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

١٠- أنه لا يكفي مجرد الإيمان والعمل الصالح بالنفس فقط دون وصية الآخرين به وحثهم عليه، والتناصح في ذلك والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

١١- وجوب الصبر، والتواصي به؛ صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

١٢- أن من لازم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق: التواصي بالصبر. فلا يتم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق إلا بالتواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة. فلا يستقيم دين الإنسان إلا بالصبر. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»^(١).

وهو نصف الإيمان^(٢)؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال ﷺ: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(٣).

قال ابن القيم^(٤) «فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد».

١٣- أن الرابعين حقاً من جمعوا بين الصفات الأربع المذكورة، وهي الإيمان

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٥١٢.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «شعب الإيمان»: «أن الصبر نصف الإيمان» انظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٠، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٣٢٧/٥.

والعمل الصالح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾.

فكل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات.

قال ابن القيم^(١): «وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان، وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمره غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين».

وقفة تأمل:

أخي المسلم: قف عند كل آية من آيات هذه السورة العظيمة بل عند كل كلمة منها، بل عند كل حرف وتأمل فيها.

تأمل وتفكر، لماذا أقسم المولى عز وجل بالعصر؟ وما هو العصر؟ وما حقيقة الخسارة؟ وما حقيقة الربح؟

واعلم أن الله عز وجل أقسم بالعصر تنبيهاً وتذكيراً وإشارة ودلالة على أهمية العصر وعظيم قيمته ووجوب حفظه، والعصر هو الزمن، وهو عمر الإنسان، الذي لا يقدر بثمن عند من عرف أن الأمر جد، ليس بالهزل كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل^(٢)
وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح^(٣)

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣٢٩/٥.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص ١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حير وأقيال اليمن» ص ١.

وعند من عرف قدر الحياة، وأنها ميدان التنافس والتسابق والمسارعة للأعمال الصالحة التي فيها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

ونعمت المسابقة والمسارعة والمنافسة والله المستعان.

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدماً ولم يتقدم من أراد تأخراً^(١)

أخي في الله لا يغرك ما عليه كثير من الناس من المنافسة على أمور الدنيا الفانية، والزهد فيما دعاهم الله إليه من المنافسة والمسارعة والمسابقة فيما فيه سعادة الدارين من الأعمال الصالحة، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة

السالكين»^(٢).

فخذ أخي في الله نفسك بالجد والمنافسة والمسابقة والمسارعة في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واعلم أن الغبطة حقاً في العمل الصالح، الذي هو صمام الأمان

(١) هذان البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص ١٤٠.

(٢) سبق تخرجه.

وسر السعادة في الدنيا والآخرة، فاجعل منافستك في ذلك.

قال بعض السلف: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافس في الآخرة»^(١).
كن سباقاً إلى المساجد، وإلى أداء الواجبات؛ من حقوق الله وحقوق الخلق، كن ورعاً مبتعداً عن محارم الله. وإذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافس في الآخرة.
واعلم وفقك الله أن الغبن في هذا ليس باليسير، بل لا يكاد يوصف، وفرق ما بين الثرى والثريا. وكما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار^(٢)
واعلم أن الخسارة في هذا لا تشبهها خسارة، فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، والكسر الذي لا يمكن جبره أن يصاب الإنسان في دينه فيخسر دنياه وآخرته ونفسه وأهله وولده وماله وكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَيْرِينَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

واعلم أن الربح في هذا لا يقدر ولا يحدد، بل هو سعادة الدنيا والآخرة - نسأل الله تعالى من فضله التوفيق للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فهذا غاية الربح، وهذا تمام النعمة الذي عناه الله عز وجل بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ نَفْسٌ عَلَيْكَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وبقوله: ﴿وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وهو طريق الذين أنعم الله عليهم النعمة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وهو الهداية المنشودة لعباد الله بقولهم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فقف أخي - بارك الله فيك - على مفترق هذين الطريقين وتأمل ببصيرة وحضور

(١) انظر: «المصنف» لابن أبي شيبة ١٨٨/٧ (٣٥٢٠٣)، «الزهد» لأحمد ص ١٧٦ (١٢١٥)، «الزهد» لابن أبي الدنيا ص ٢٢٩.

(٢) انظر: «الأمثال المولدة» ص ٣٢٤، «مجمع الأمثال» ١/٣٤٤.

قلب، وقارن وقلب الفكر والنظر عسى أن يظهر لك ويتبين البون الشاسع والفرق الواسع فتجتنب طريق أهل الخسران، وتلتزم طريق أهل الربح والسعادة والإنعام وما أراك تعدل به طريقا وفقك الله.

واعلم - أخي الكريم - أن الربح والسعادة مطلب لكل أحد، فكل يسعى بحثاً عن ذلك، لكن المؤسف حقاً - كم هم الذين عرفوا طريق السعادة حقاً - سؤال يطرح نفسه؟ وجوابه باختصار:

أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير مظاهرها فصدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس^(١)
ففتأم من الناس حسبوا الربح والسعادة بالسعي لتحقيق شهوات النفس، وإرخاء العنان لها في ذلك، ولو كان بما حرم الله، كالفجور وشرب الخمر والغناء والمجون ونحو ذلك، وأين هؤلاء الربح والسعادة، وقد طلبوها بما يحقق الخسران والشقاوة.
وفتأم من الناس حسبوا الربح والسعادة في الانهماك بالمباحات فهم يلهثون وراء جمع المال، وتنوع المآكل والمشرب، واختيار الملابس الأنيقة، والفرش الوثيرة، والمسكن المزخرفة، والمراكب الفاخرة والموضات والموديلات والمخترعات والأسفار والتنقلات بين الدول والبلدان بحثاً عن الأجواء اللطيفة المعتدلة، والحدائق الغناء والمناظر الجميلة والآثار القديمة والملاعب والملاهي - وهؤلاء أيضاً أخطؤوا طريق السعادة وحرموا منها، فلم يذوقوا لها طعماً.

وأقول لأولئك وهؤلاء ولنفسي ولكل من يطلب الربح والسعادة حقاً: أباي الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

قال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألد ما فيها». قيل:

(١) البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه ص ١٩٤.

وما ألدّ ما فيها؟ قال: معرفة الله والأنس به»^(١).

نعم والله إننا مساكين، فما أكثر الذين خرجوا ويخرجون من الدنيا وما ذاقوا هذه اللذة.

وقال الحسن رحمه الله: «تفقدوا حلاوة الإيمان في ثلاث: في الصلاة، وذكر الله، وقراءة القرآن، فإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق»^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٣): «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

فليت شعري من ذاق منا تلك اللذة، لذة الإيمان، ومن دخل منا تلك الجنة جنة التنعم بتلقي أوامر الديان، وخدمته، والتلذذ بمناجاته وعبادته، والتوكل عليه، فهذا غاية الريح ومنتهى السعادة، نسأل الله الكريم من فضله.

فَتَدَوَّقْ أَخِي لَذَّةَ الْإِيمَانِ، وَتَنَعَّمْ بِجَنَّةِ الدُّنْيَا بِالْإِنْقِيَادِ لِلْمَلِكِ الدِّيَانِ وَأَسْلَمْ وَجْهَكَ لَهُ، وَسَلِّمْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فَإِنْ أَخَذْتَ بِهَذَا فَأَبْشِرْ فَأَنْتَ وَلِدْتَ الْآنَ.

هنا تجد في نفسك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الخير وأهله، ومحبة المسارعة لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وأعمال البر كلها، والورع عن المحرمات.

هنا تجد في الله عوضًا عن كل ما فاتك من الدنيا، ولا تأسى على شيء منها، وإنما تحزن على فوات نصيبك من ربك.

هنا تجد قلبك معلقًا بالمساجد، تجد أحلى صوت تسمعه: الله أكبر.

هنا تجد أسعد اللحظات في عمرك وقوفك مصليًا تناجي ملك الملوك، أكرم

(١) انظر: «حلية الأولياء» ١٦٨/٨، «تاريخ دمشق» لابن عساکر ٥٦/٤٢٠-٤٢١، «سير أعلام النبلاء» ٣٦٣/٥، «مدارج السالكين» ١/٤٥٢، «الجواب الكافي» ص ٧٧.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» ١٧١/٦، «شعب الإيمان» ٩/٣٨٥ (٦٨٣٤)، «الرسالة القشيرية» ٢/٣٧٨، «مدارج السالكين» ٢/٣٦٩.

(٣) انظر «الوابل الصيب» ١/٦٩.

الأكرمين وأرحم الراحمين، المولى العزيز الرحيم.
 هنا تجد القناعة في نفسك، تجدك لا تحس بالفراغ النفسي لامتلاء قلبك بحب الله
 وما يقربك إليه.

إن طلب الناس السعادة في المساكن والمراكب والمنتزهات وأنواع الشهوات
 والملذات طلبتها في مناجاة الله، وتدبر كلامه والقيام بطاعته وأمره، وهذا قمة السعادة.
 هنا تجد الأمن، تجد الطمأنينة، تجد الرضى بما قسم الله لك، تجد البركة في العمر
 ولو كان قصيراً، تجد البركة في الرزق وإن كان مضيئاً، تجد تيسير الله لأمرك،
 وتسخيره الخلق لك، بلا درهم منك لهم ولا دينار، وصدق الله العظيم حيث قال:
 ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾
 [الطلاق: ٢، ٣].

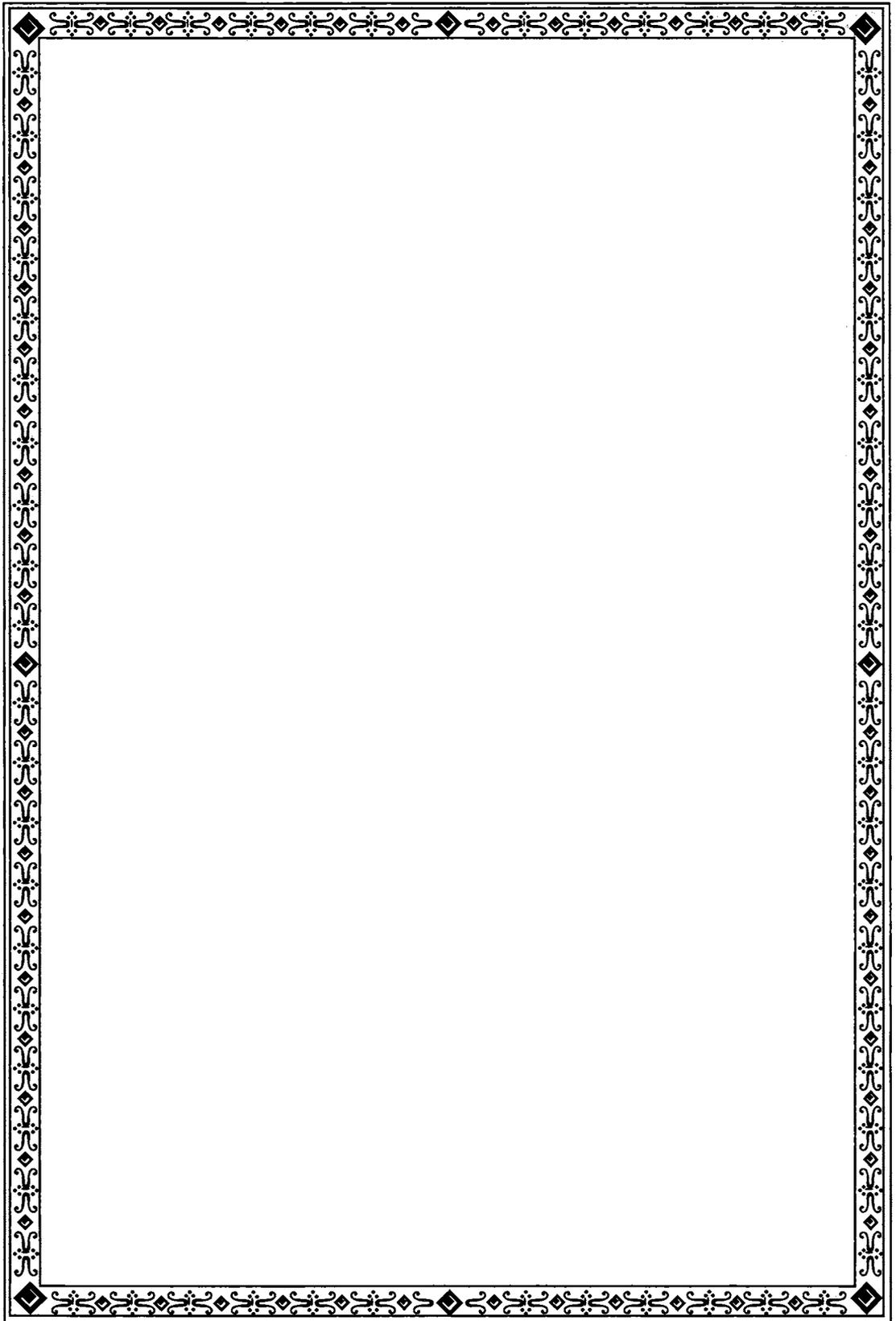
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية فليزم عتبة
 العبودية»^(١).

وختاماً: فإن من لم يجد السعادة بتلقي أوامر الله وتنفيذها، والحذر من نواهيه
 والبعد عنها وإسلام الوجه لله، وتسليم الأمر له والتوكل عليه فلن يجد للسعادة طعمًا
 ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها.

* * *

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/٤٢٩.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ الْمُمَزَّةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الهمزة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَبِلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُحْمَةً﴾ [الهمزة: ١].

ويقال لها: «سورة ويل لكل همزة»، و «سورة الحطمة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- الوعيد لكل همزة لمزة.

٢- التهديد لمن انشغل بجمع المال وتعداده بالنار التي تحطم كل ما يلقي فيها، وتحطم القلوب والمعنويات.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ أَلَيْسَ تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

روي أن هذه السورة نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل في أبي بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة- والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

﴿وَيْلٌ﴾ دعاء وزجر وتهديد ووعيد بالوبال وسوء الحال وشدة العذاب والهلكة والخسارة والخزي، وقيل: هو اسم واد في جهنم.

قال الشاعر:

إذا خان الأمير وكتابه
وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل
لقاضي الأرض من قاضي السماء^(١)

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة: كثير الهمز، واللمزة: كثير اللمز، وفي هذا ما يفيد أن الهمز واللمز صارا صفتين ملازمتين له.

والهمز يكون بالفعل بالسخرية من الناس، بالإشارة باليد أو بالعين أو اللسان أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

واللمز يكون بالقول باللسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقيل العكس: الهمز يكون بالقول، واللمز يكون بالفعل، ويكونان في الحضور، وقد يكونان في الغيبة، قال الشاعر:

(١) هذان البيتان ينسبان للبلهول. انظر: «عقلاء المجانين» لابن حبيب النيسابوري ص ٧١. وذكر بلا نسبة.

انظر: «الجلس الصالح الكافي» ص ٧١٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣١٣، «المستطرف» ص ١٠٩.

تدلي بودي إذا لاقتني كذبا وإن أُغَيَّبَ فأنت الهامز اللمزة^(١)

قال ابن تيمية^(٢): «الهمز أشد؛ لأن الهمز الدفع بشدة.. ومنه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه» فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى، واللمز الكذب والعيب». والمعنى: الهلاك والخسار والعذاب والحزني والبوار لكل من يهمز الناس ويلمزمهم بقوله وفعله وإشارته ويطعن فيهم، ويعيبهم، ويأكل لحومهم، وينتقصهم ويزدرهم في حال غيبتهم أو حضورهم.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وروح بتشديد الميم: «جمع» على الكثير، وقرأ الباقر: ﴿جَمَعَ﴾ بدون تشديد. أي: جمع المال بعضه على بعض، وركب من أجله كل صعب، واستباح كل محظور، من المعاملات الربوية المحرمة وغيرها، وبالغ في جمعه حتى حمله ذلك على منع الحقوق الواجبة فيه والمستحبة، كما قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢].

﴿وَعَدَدَةٌ﴾، أي: بالغ في تعداده وانشغل به تكاثراً وتفاهراً واعتباطاً به، وخوفاً من نقصانه، وطمعاً في زيادته، كما قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»^(٣).

فحملة حب المال على الحرص على جمعه وتعداده، والبخل به، كما حمله الكبير وحب الشرف على انتقاص غيره بالهمز واللمز.

عن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال: «سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني. ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا

(١) البيت لزياد الأعجم انظر «مجاز القرآن» ٣١١/٢، «جامع البيان» ٢٤/٦١٦.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/٣٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٦، ومسلم في الزكاة ١٠٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا فكان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يدعوان حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبله» الحديث (١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه المال أمن الحلال أم من الحرام» (٢).

وقد قال ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...» الحديث (٣).

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في هذا تهكم به، وسخرية منه، وتعجب منه، وإنكار عليه، أي: يظن أن ماله يقيه حيًا لا يموت أو يزيد في عمره، ويخلد ذكره، فكان ماله سببًا في طول أمله في الحياة الدنيا، وغفلته عن الآخرة، وما درى أنه بالجمع للمال، وتعداده، ومنع الحقوق فيه، وبهذا الظن يقصف أيام عمره ويقضي على بركته، ويخمل ذكره ولهذا قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (٤).

وفي هذا إشارة إلى أن سبب البركة في العمر، هو العمل الصالح، وأن يكسب المال من حلال ويؤدي حق الله فيه، ولا يشتغل به عن طاعة الله تعالى، وأن يكون كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» (٥).
فما أبرك عمر من كان هذا شعوره وما أقصر عمر من كان ساهيًا لاهيًا حتى فاجأه

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٢، ومسلم - مختصرًا في الزكاة ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ - من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد ٧١ / ٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الموت، مهما طال عمره في هذه الحياة.

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع له ووعيد وتهديد، ونفي لما توهمه من أن ماله سيخلده، وقد أحسن القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع
كم واثق في العمر أفنيتيه وجامع بددت ما يجمع^(١)

﴿لَيْبُدَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لينبذن في الحطمة.

أي: ليلقين ويطحرن فيها، والنبذ: الإلقاء على سبيل الإهانة. فلم ينفعه ماله الذي كان يجمعه ويعدده، ويظن أنه سيخلده، بل صار زاده إلى النار، كما قال ﷺ لكعب بن عجرة - رضي الله عنه: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»^(٢).

و﴿الْحُطْمَةُ﴾ النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]، أي: يدفعون إليها بشدة.

وسميت النار الحطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقي فيها حسًا ومعنى.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ تفخيم وتهويل وتعظيم لشأنها، و«ما»: استفهامية، أي: وما أعلمك ما الحطمة.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾^(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ: تفسير لـ «الحطمة».

﴿نَارُ اللَّهِ﴾ أضافها عز وجل إليه؛ لزيادة التخويف، أي: نار الله العظيمة التي خلقها وأعدّها؛ لتعذيب الكفرة والعصاة، عدلاً منه عز وجل، وما ظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿الْمَوْقَدَةُ﴾، أي: المستعرة المشتعلة، التي وقودها الناس والحجارة.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، أي: التي من شدة حرها وعذابها تشرف على القلوب، أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب، التي عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، والتي هي

(١) البيتان لحظظة البرمكي. انظر: «نشوار المحاضرة» ٩٨/٤، «المجموع اللطيف» ص ٤٦٤، ٤٦٥، «غذاء الألباب» ٥٥٠/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الجمعة ٦١٤ - وقال: «حديث حسن غريب».

محل الألم المعنوي، فيجمع للمعذبين فيها بين الألم الحسي للأبدان، والألم المعنوي للقلوب، والألم المعنوي لا يقل عن الألم الحسي، من تحطيم المعنويات والإهانة والتبكي والتقرير والتوبيخ والتئيس من الخروج ونحو ذلك.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: الحطمة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: على كل من ألقى ونبذ فيها، من كل همزة لزمة جماع للمال معدد له، يظن أنه سيخلده، من الكفرة والعصاة.

﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾: مطبقة مغلقة الأبواب.

قال الشاعر:

تحن إلى أجمال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء موصدة^(١)
﴿فِي عَمْدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «فِي عُمْدٍ» بضم العين والميم، وقرأ الباقون بفتحها.

وهي على القراءتين جمع عمود، ومعنى ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ طويلة ممدودة.

والمعنى: أن هذه العمدة ممدودة من خلف الأبواب؛ لزيادة الإيصاد وإحكامه عليهم.

وفي هذا إشارة إلى يأسهم من الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿رُبُّيُدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلِّ﴾.

٢- الوعيد والتهديد للهمزة اللزمة الذي من صفته همز الناس ولمزهم والظعن فيهم واختياهم وتنقصهم بقوله وفعله وإشاراته وحركاته والاعتذار بما جمعه من مال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هَمْزٍ لُزْمَةٌ ۗ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ۗ﴾ (٢).

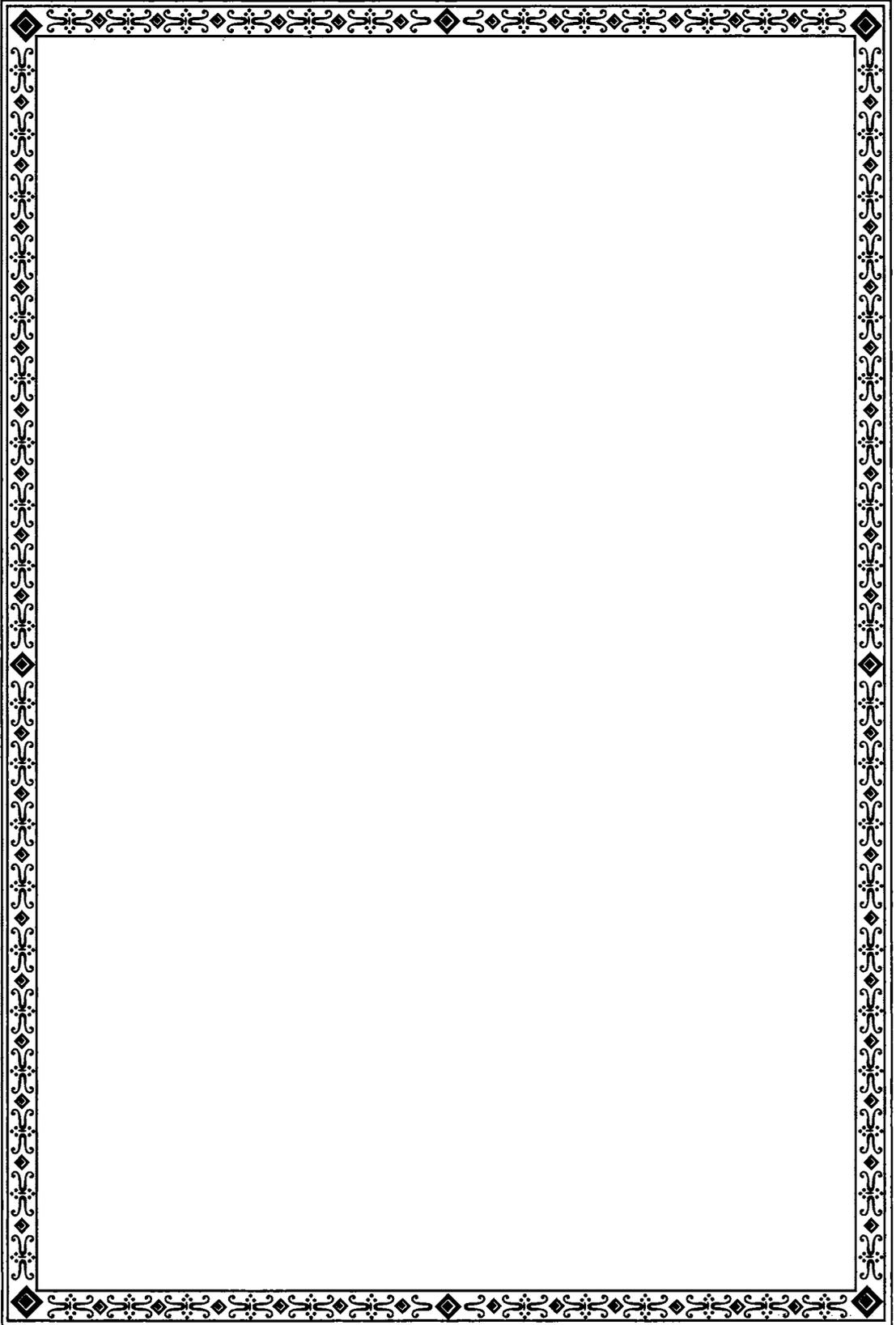
(١) انظر: «الكشاف» للزحمرى ٧٩٦/٤، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٧٢/٢٠.

- ٣- التنديد بالمغترين بالمال المنشغلين بجمعه وتعداده عن طاعة الله تعالى، المانعين لحق الله فيه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.
- ٤- وجوب الحذر من فتنة المال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى وعبادته وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»^(١).
- ٥- شدة خطر التكالب على جمع المال ومنع حق الله فيه، والانشغال بعده وإحصائه وأنه سبب لنسيان الآخرة، وطول الأمل.
- ٦- استحالة الخلود في هذه الدار؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.
- ٧- الزجر والردع لمن كانت هذه صفته همزة لمزة جماعاً للمال معدداً له ظاناً أن هذا المال سيخلده، وبيان أن مصيره أن يلقي وي طرح في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾^(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ^(٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ^(٦).
- ٨- شدة عذاب النار وأنها تحطم كل ما يلقي فيها، وتحطم المعذنين فيها حسيّاً ومعنوياً؛ لقوله تعالى: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾.
- ٩- تأكيد عظم هول النار وشدة خطرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾.
- ١٠- أن النار مسعرة موقدة مهياة لتعذيب الكفرة والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾.
- ١١- أن عذاب النار كما يؤلم الأجساد حسيّاً يشرف على القلوب ويؤلمها معنوياً؛ لقوله تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾.
- ١٢- أن النار تطبق وتغلق على من فيها، وتحكم عليهم أبوابها، بوضع العمدة من خلفها، تبيساً لأهلها من الخروج منها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾^(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ.

* * *

(١) سبق تخريجه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفِيلِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفيل»، لقوله تعالى في أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، وذكر ما آل إليه أمر أصحاب الفيل من بطلان كيدهم وهلاكهم. وتسمى: «سورة ألم تر».

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- موضوعاتها:

- ١- ذكر قصة أصحاب الفيل وإهلاكهم وجعل كيدهم في تضليل.
- ٢- تذكير أهل الحرم بنعمة الله عليهم، والبشارة له ﷺ بنصرة الله تعالى له وللمؤمنين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّبٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم أنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم نصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الاستفهام في الموضوعين: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ألم تشاهد وتُخبر وتسمع. والمعنى: أنك قد رأيت آثار فعل الله بهم وسمعت الأخبار بذلك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ وعلى أمته، بحفظ بيته وحمائته، وتخويف للمجرمين المكذبين. قال القرطبي^(٢): «كانت قصة أصحاب الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدًا لأمره وتمهيدًا لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الواقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكفبان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حادثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس».

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٢.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ١٩٥.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ أي: ألم يصيِّرْ وكيدهم، أي: مكرهم وتدبيرهم السيء، في السر والعلن؛ لصد الناس عن الحرم وسعيهم لهدم الكعبة.

﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾، أي: في ضياع وبطلان وخيبة وخسران وضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أبابيل، أي: جماعات يتبع بعضها بعضًا، وهي طيور سود بحرية أمثال الخطاطيف، كل طيرٍ يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ السجيل: الشديد الصلب، وهي حجارة من طين محرق حتى تحجر، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، أي: «التبن»، أو ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه فصار درينًا وألقته الرياح هنا وهناك.

قال ابن كثير^(١): «المنعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكتهم ودمرهم ورددتهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرا، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، وكما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات».

وخلاصة قصة أصحاب الفيل:

أن أبرهة الأشرم ملك اليمن آنذاك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة يقول له: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سميتها العرب «القليس»؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها، كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته، فكرهت

(١) في «تفسيره» ٥٠٩/٨.

العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدوا بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً، فأحدث فيها وكر راجعًا، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخرينه حجرًا حجرًا.

وقيل إن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش عرمرم لئلا يصدده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: «محمود» وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ويقال: معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً، وقيل: غير ذلك؛ لأجل أن يهدم الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمع العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًا، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجة دون البيت، ورد من أراد به بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله من هدمه وخرابه، فأجابوا وقتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسر «نفيل بن حبيب» فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحميري، وأمره بأن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم، إلا أن تصدوه عن البيت، فدل على عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن نحل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه، فلما رآه أبرهة

أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريه، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه قل له ما حاجتك؟، فقال للترجمان إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!، فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يمنعه، قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك.

ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لأهْمَ إِنْ الْمَرْءَ يَمُـــــــ
لَا يَغْلِبُ بِنَّ صَالِيَهُمْ
ـــــــ نَع رَحْلَهُ فَا مَنَعَ جَلَالِكَ
وَمَحَاهُمْ غَدُوًّا مَحَالِكَ

وذكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منه، فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة وهياً فيله، وعباً جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «ابرك محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام» ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشدد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين، وأدخلوا محاجن لهم في مرقه فبزغوه - أي: أدموه - ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجله، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وخرجوا هارين يتتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدهم على الطريق، هذا ونفيل

على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

ويقول من آيات عدة:

حمدت الله إذ أبصرت طيرًا وخفتُ حجارة تلقى علينا

فكل القوم يسأل عن نفيل كأن عليّ للحبشان ديننا

فمنهم من هلك مكانه، ومنهم من هرب، وجعل يتساقط عضواً عضواً، وغنم أهل مكة ما معهم من ذهب وأموال وغير ذلك^(١).

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بحفظ بيته العتيق وحمايته.

٢- تسلية الرسول ﷺ عما يلاقيه من تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

٣- التخويف والتحذير للمكذبين والمجرمين.

٤- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- وجوب التأمل والاعتبار في آيات الله الكونية، وعقوباته لأعدائه المجترئين على حرمانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

٦- شدة أخذ الله وانتقامه وأليم عقابه في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٧- شدة اجترأ بعض الخلق على حرمان الله ومحادة الله تعالى والإفساد في الأرض فهذا أبرهة أراد هدم بيت الله الحرام فأبطل الله كيده، وقبله فرعون كابر بما هو أشد من

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٥٠٣/٨ - ٥٠٧. وانظر «جامع البيان» ٢٤ / ٦٣٥ - ٦٤٣ «تاريخ الأمم والملوك» ١٣٦/٢ - ١٣٨، «سيرة ابن هشام» ١ / ٥١ - ٥٥.

ذلك فادعى الربوبية والألوهية - تعالى الله عما يقول ويفعل الظالمون علواً كبيراً.

٨- أن كيد الكافرين والفاستقين وأهل المحادة لله عز وجل ومدبري السوء والشر في ضلال وبطلان وبوار وخسران.

٩- قدرة الله تعالى التامة، وعظيم سلطانه وتسخيره ما شاء من المخلوقات لنصرة الحق والدفاع عن حرماته عز وجل فامتناع الفيل من التوجه نحو مكة بقدرة العزيز الحكيم، وبقدرته عز وجل العظيمة سلط عليهم طيراً أبابيل ترميهم بهذه الحجارة التي كان بها هلاكهم.

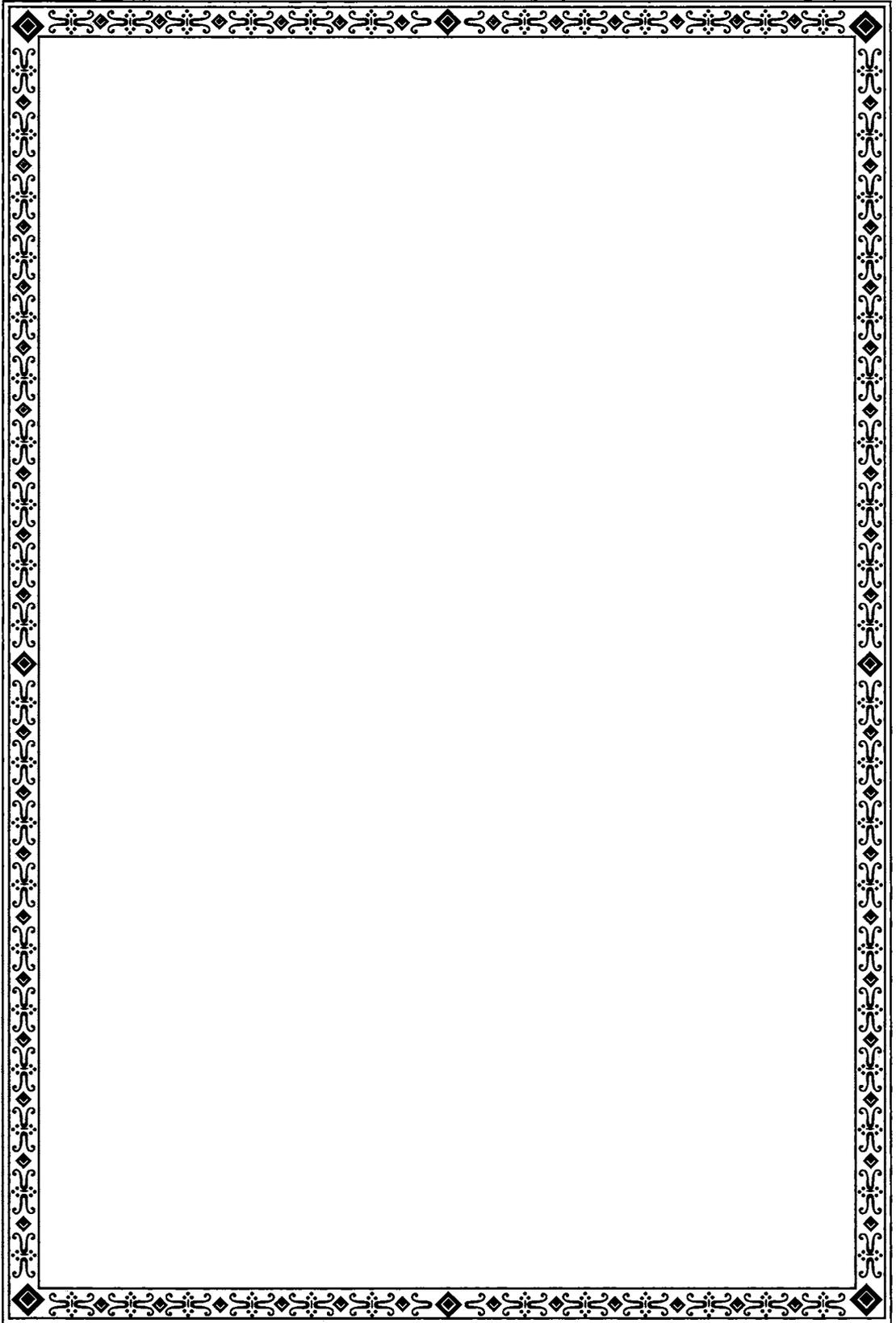
١٠- عظم حرمة الكعبة والبيت الحرام قبل الإسلام وبعده، فما قصه الله علينا في هذه السورة من إهلاك أصحاب الفيل دليل على عظمة هذا البيت وحماية الله له، ودفاعه عنه منذ أن بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولا تزال حرمة هذا البيت إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَعْرِ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»^(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللقطة ٢٤٣٤، ومسلم في الحج - تحريم مكة وصيدها ١٣٥٥، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة قريش»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ وذكر اعتيادهم هاتين الرحلتين.
وتسمى: «سورة لإيلاف قريش».

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- موضوعاتها:

- ١- الامتنان على قريش وأهل الحرم بتأمينهم في سفرهم ومقامهم، وإطعامهم.
- ٢- التذكير بعظم نعمة الأمن وعدم الخوف، ونعمة الشبع وعدم الجوع.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَيْلَىٰ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

قوله: ﴿لَيْلَىٰ قُرَيْشٍ﴾ «إيلاف» مصدر يقال: آلف الشيء يؤالفه إيلافاً. ويقال آلف المكان يألفه إلفاً وإلافاً؛ إذا اعتاده وألفه، وزالت الكلفة عنه، والنفرة منه.

قرأ ابن عامر: «لإلف قريش» وقد جمعها من قال:

زعمتم أن إخوانكم قريش لهم إلف وليس لكم إلف^(١)

وقرأ أبو جعفر: «ليلاف قريش»، وقرأ الباقون: ﴿لَيْلَىٰ﴾.

والجار والمجرور ﴿لَيْلَىٰ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش

فاللام: لام التعجب.

أي: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، يؤيد هذا إجماع المسلمين على أن سورتي الفيل وقريش كل منهما سورة مستقلة عن الأخرى.

وقيل تقديره: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لَيْلَىٰ قُرَيْشٍ﴾ فكان السورة على هذا متعلقة بسورة «الفيل» فسورة الفيل وما جاء فيها تعليل لهذه السورة وما جاء فيها، وهما في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة بلا فصل.

أي: أهلكنا أصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام؛ لأجل التجارة والمكاسب. والأظهر المعنى الأول، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

وقيل: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

وقريش: ولد النضر بن كنانة، وهم قبائل شتى، وسموا قريشاً بتصغير القرش

بدابة في البحر عظيمة، تعبت بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار.

(١) انظر «الكشاف» ٤/ ٢٣٥، «لسان العرب» مادة «ألف».

وقيل: سموا بذلك من القرش وهو الكسب؛ لأنهم كانوا يضربون في الأرض طلبًا للكسب، قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

ومعنى ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾: لأجل إيلاف قريش، أي: إلفهم واعتيادهم هتين الرحلتين لقوله بعد هذا: ﴿إِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فقوله: ﴿إِلْفِهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾، ومفسر له و«رحلة»: مفعول به منصوب: «لإيلافهم»، وفيه تفخيم لأمر الإيلاف، وتذكير بعظيم النعمة فيه.

أي: لإيلافهم وإلفهم واعتيادهم رحلة الشتاء إلى اليمن لدفع جوها في الشتاء ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة جوها في الصيف، وذلك في تجاراتهم وتنقلاتهم فهم آمنون في سفرهم ومقامهم لحرمة الحرم وأهله.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، أي: شكرًا لله عز وجل على هذه النعمة العظيمة عليهم، وتأمينهم في مقامهم وأسفارهم بحرمة الحرم يجب أن يعبدوه وحده كما ذكر الله عز وجل عن نبيه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع والتواضع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل. وهي في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل فعل الواجب والمندوب، والمباح مع حسن النية والقصد، وكذا ترك المحظور والمكروه.

و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر، قرب البيت بمعنى: خالقه ومالكة والمتصرف فيه.

ورب كذا أيضًا بمعنى صاحبه، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]، أي: صاحب العزة.

والبيت: المراد: به الكعبة والبيت الحرام، والبيت في الأصل: ما يقوم على أركان،

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب ٣٦٠٥ من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» للتعظيم.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ الذي: صفة لـ«رب» في قوله: ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وهي صفة كاشفة؛ لأن إطعامهم من جوع من معاني ربوبيته، ومن تدبيره وتصريفه لهم، والمعنى: أنه منّ عليهم بالرزق والمطاعم.

والجوع: هو الخمصة، وخلو البطن من الطعام، يعقبه الموت، وقد استعاذ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»^(١). فالجائع لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه.

﴿وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أنه عز وجل منّ عليهم بنعمة الأمن وعدم الخوف في مقامهم وأسفارهم بسبب حرمة الحرم، فهم في الحرم آمنون لحرمة الحرم، وإذا خرجوا في أسفارهم آمنوا؛ لأنهم أهل الحرم، والأمن سبب للرزق. فمنّ الله عز وجل عليهم بإطعامهم من الجوع وقاية لهم من الهلاك في أمر باطن، وأمّنهم من الخوف وقاية لهم من الهلاك بأمر ظاهر.

وذلك بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي تنكير «جوع» و«خوف» إشارة إلى شدة ما كانت عليه قريش من الجوع والخوف، وأعظم بهما من مصيبتين لا تقل إحداهما عن الأخرى؛ لأن الجائع والخائف كل منهما لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه، والخوف سبب للجوع، والجوع سبب للموت، لهذا امتن الله عز وجل على قريش بهتين النعمتين العظيمتين اللتين هما سبب الاستقرار والحياة، والعمل الديني والعمل الدنيوي، وهما الرزق والمطاعم للأبدان، والأمن على الدماء والأعراض والأموال في الأسفار والأوطان، كما قال عز وجل:

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٤٧، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٦٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]،
فبذلك تقوم أمور دينهم وديانهم، وكما قال عز وجل: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَيِّئُ
إِلَيْهِ تُمْرَتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخِطُفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].
وعنه ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه،
فكأنها حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(١).

ولا يعرف قدر هتين النعمتين إلا من فقدهما.

ويفهم من قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ
خَوْفٍ﴾ أن من لم يقيد هتين النعمتين بعبادة الله عز وجل وشكره عليهما فإنه عرضة
لزوالهما، إذ بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول وتحل النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى:
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

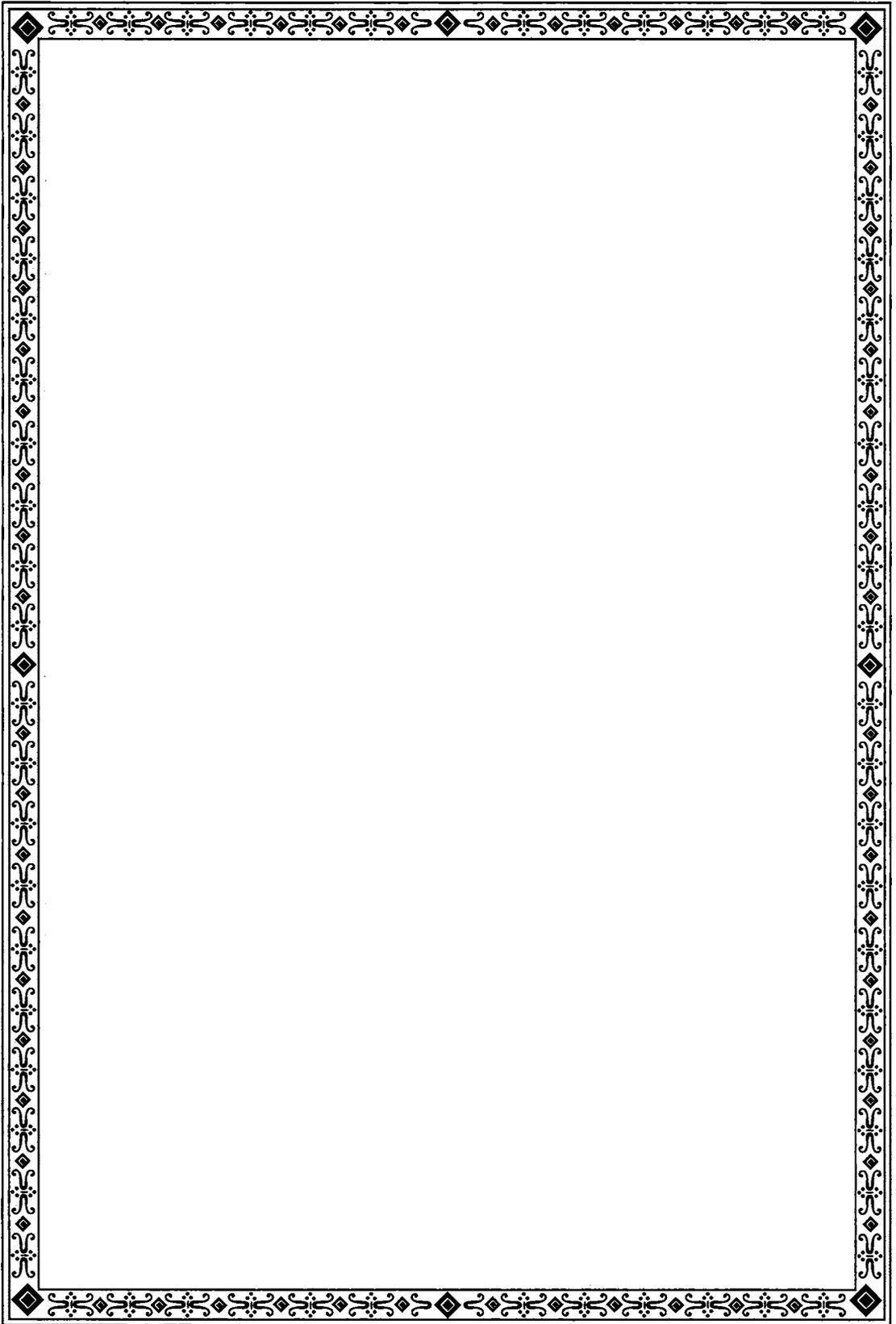
الفوائد والأحكام:

- ١- التذكير بنعم الله عز وجل ولفت الأنظار إلى النظر والتفكير في ذلك؛ لقوله
تعالى: ﴿إِلَّا يَلْفُ قَرِيشٍ ۝١ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾؛ للقيام بما يجب تجاهه.
- ٢- أن من نعم الله تعالى وأفضاله على قريش أن يسر لهم الرزق وأسبابه بأمنهم في
مقامهم وفي أسفارهم.
- ٣- انقسام السنة إلى شتاء وصيف لقوله: ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ يقال:
طلوع الثريا أول الصيف وستة أشهر بعده صيف، وبعد الستة الشتاء.
- ٤- جواز التنقل والاختيار في التجارات والأعمال والحاجات حيث الجو المناسب

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ من حديث عبيد الله بن محسن الخطمي
عن أبيه وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

- برودة ودفئاً؛ لأن الله امتن على قريش بإيلافهم هاتين الرحلتين وأقرهم على ذلك.
- ٥- وجوب شكر نعمة الربوبية، نعمة الخلق والزرق والأمن وغير ذلك، بالعبودية لله تعالى وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.
- ٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، أي: وحده دون سواه.
- ٧- شرف البيت وفضله، والامتنان على قريش به؛ لأن الله خصه هنا بالربوبية فقال: ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ مع أنه عز وجل رب كل شيء، لكن ربوبيته عز وجل للبيت من الربوبية الخاصة.
- ٨- أن المستحق للعبادة هو الرب الخالق المالك المدبر مطعم عباده من الجوع، ومؤمنهم من الخوف، دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.
- ٩- أن كل ما يتمتع به الخلق من الرزق والأمن وغير ذلك من النعم التي لا تحصى كل ذلك من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].
- ١٠- عظم نعمة الرزق والإطعام من الجوع، ونعمة الأمن؛ ولهذا خصها سبحانه وتعالى بالذكر وامتن عليهم بذلك فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الفصص: ٥٧].
- فلك اللهم الحمد والشكر على نعمة الرزق والإطعام والأمن في الأوطان، وعلى سائر نعمك الظاهرة والباطنة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الماعون»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾. وتسمى: «سورة أرأيت»، و «سورة الدين»، و «سورة التكذيب»، و «سورة اليتيم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- التعجيب من حال المشركين في تكذيبهم البعث، ومنعهم حقوق اليتامى والمساكين.

٢- الوعيد لمن يسهون عن الصلاة، ويؤخرونها عن وقتها، الذين يراؤون في أعمالهم ويمنعون الحقوق الواجبة عليهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: هل عرفت، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾، أي: الذي ينكر البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، كما قال عز وجل ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

ولهذا سُمي يوم القيامة: «يوم الدين»، كما في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ لأن الناس فيه يدانون ويجازون بأعمالهم.

ثم بين صفة هذا المكذب بالدين، فقال:

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، أي: فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يرحمه، ولا يحسن إليه ولا يعطف عليه، قد نزعت الرحمة من قلبه والعياذ بالله.

و«اليتيم» هو من مات أبوه، وهو دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»^(١). فهو بحاجة إلى من ينفق عليه ويدافع عنه ويربيه، ويرعى حقوقه، وبخاصة عندما يطغى الظلم والأنانية، ولهذا عظم الشرع حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظَلِيمِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٩].

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «أكل مال اليتيم»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما»^(١).

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث غيره، ولا يبعث أهله على طعام المسكين كقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

وإذا كان لا يحث على طعام المسكين، فمن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، لأن الإطعام والإنفاق أثقل على النفوس، وقد قال قائل المشركين فيما حكى الله عنهم: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧].

والمسكين: هو من لا يجد شيئاً أو من لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون وهو اللصوق بالأرض وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، وبخاصة عندما يقاس الناس بالدرهم والدينار، فهو إن تكلم لم يسمع كلامه، وإن سُمع لم يُصدق، كالمرضى بين الأصحاء وما به من مرض، حاله بين الناس كما قال الشاعر:

إذا قل مال المرء قل صحابه وضاق عليه أرضه وسأؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراؤه
وإن غاب لم يشفق إليه خليله وإن مات لم يسرر صديقاً بقاؤه^(٢)

وقد عظم الإسلام حق المساكين والفقراء، وجعل لهم نصيباً من الزكاة، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [الآية: ٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، وأبو داود في الأدب ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨ - من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لأبي حيان التوحيدي، انظر «ديوانه» ص ٢٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٣، ومسلم في الزهد ٢٩٨٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٩، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٠.

فوصف عز وجل المكذب بالدين بأنه: ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْصُ عَلَىٰ طَعَارِ الْمَسْكِينِ﴾؛ لأن أداء الحقوق وإنفاق المال في سبيل الله محمّر عظيم، به يعرف الصادق من الكاذب، وقوة الإيمان وضعفه فكم من إنسان يهتمهم في المساجد ويجوقل، ولكنه لا ينصف من نفسه ويعتدي على الآخرين ويأكل حقوقهم، ويمنع ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة، والدين إنما هو: إحسان في عبادة الله عز وجل، وإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم ونفعهم.

وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٢).

﴿فَوَيْلٌ﴾ ويل: بمعنى: هلاك وحسرة وزجر ووعيد وتهديد وعذاب، ويقال أيضا: هو اسم واد في جهنم^(٣).

﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾، أي: الذين يصلون.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «عن صلاتهم» ولم يقل «في صلاتهم»؛ لأن السهو في الصلاة ليس أمراً اختيارياً، ومما لا يمكن التحرز منه تماماً، وقد وقع منه ﷺ فغيره من باب أولى.

ولهذا روي عن أنس وعطاء بن دينار رضي الله عنهما أنها قالوا: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: «في صلاتهم»»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الجناز ١٢٨٤، ومسلم في الجناز ٩٢٣، وأبو داود في الجناز ٣١٢٥، والنسائي في الجناز ١٨٦٨ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤ - وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) جاء في الأثر أن جهنم تستعيز منه في اليوم أربعمئة مرة أعد للمرائين، أخرجه الطبراني في الصغير ١٤٧/٢، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥١٥/٨.

(٤) ذكره عن أنس الزمخشري في «الكشاف» ٢٣٦/٤، وذكره عن عطاء بن دينار ابن كثير في «تفسيره» ٥١٤/٨، وأخرج بعضه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/٦٦٤ عن عطاء.

ومعنى ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: عن صلاتهم غافلون، غير مباليين بها، إما بتركها أحياناً كفعل المنافقين يصلون أمام الناس ويتركونها إذا خلوا، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١).

وإما بتأخيرها عن وقتها المحدد لها شرعاً، أو بالتهاون بأدائها بشروطها وأركانها وواجباتها على الوجه المأمور به، وعدم الخشوع وحضور القلب لما يتلى فيها، أو تأخيرها إلى أن يضيق وقتها، أو إلى وقت الضرورة، ونحو ذلك.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، أي: يقصدون الرياء في أعمالهم، فيعملون العمل ويحسّنونه؛ ليراهم الناس فيثنوا عليهم، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وفي الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من سمع الناس بعمله سمع الله به وحقره وصغره»^(٢).

والرياء أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؛ ولهذا قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال الرياء»^(٣).

وقال ﷺ في الدعاء: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٤٩، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٢٢، وأبو داود في الصلاة ٤١٣، والنسائي في المواقيت ٥٠٩، والترمذي في الصلاة ١٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢١٢/٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٢٩/٥ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

ونستغفرك لما لا نعلم»^(١).

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، أي: ويمنعون العارية المعتادة بين الناس بخلاً منهم، كالقدر والفأس، والدلو والميزان والإبرة والكتاب وغير ذلك من الأمتعة التي يتعاطاها الناس، بل ويمنعون الحق الواجب كالزكاة.

قال عكرمة: «رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والإبرة»^(٢).

وقال محمد بن كعب: «الماعون: المعروف»^(٢).

وقال الحسن: «هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله، فإن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): «أي: لا أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى».

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾.

٢- أن الإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال من أعظم ما يحمل الإنسان على الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ ^(١) فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ^(٢) إلى آخر السورة.

ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر من أعظم ما يحمل على الامتثال حيث فيه الجزاء على الأعمال. ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر

(١) أخرجه أحمد ٤ / ٤٠٣ - من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٢٤٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٦٧.

(٤) في «تفسيره» ٨ / ٥١٦.

- لرأيت من الناس غير ما ترى».
- ٣- أن من صفات المكذب بالدين أنه يدفع اليتيم ويظلمه ولا يؤدي حقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾.
- ٤- أن من صفات المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام المسكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾.
- ٥- الحث على العناية باليتيم وأداء حقوقه، وإطعام المسكين والإحسان إليه؛ لأن ذلك من صفات المصدقين بوعد الله.
- ٦- حفظ الدين الإسلامي لحقوق اليتامى والمساكين والضعفاء، وتعظيمه لخطر الاعتداء على حقوقهم؛ ضماناً لها ودفاعاً عنها؛ ولهذا رتب على الاعتداء عليها أعظم الوعيد.
- ٧- الوعيد الشديد للذين يتهاونون بالصلاة، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾.
- ٨- الحث على أداء الصلاة في وقتها، على الوجه الأكمل، وكذا سائر العبادات لأن ذلك من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله.
- ٩- وجوب الإخلاص لله، والحذر من الرياء لأنه من صفات المكذبين بالدين والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.
- ١٠- التحذير من منع الحقوق الواجبة والمستحبة كالزكاة والصدقة والعارية، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.
- ١١- الحث على فعل المعروف والإحسان بعد أداء الواجب؛ لأن هذا من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشي في حاجة أخي أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً» (١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١ / ٨٤.

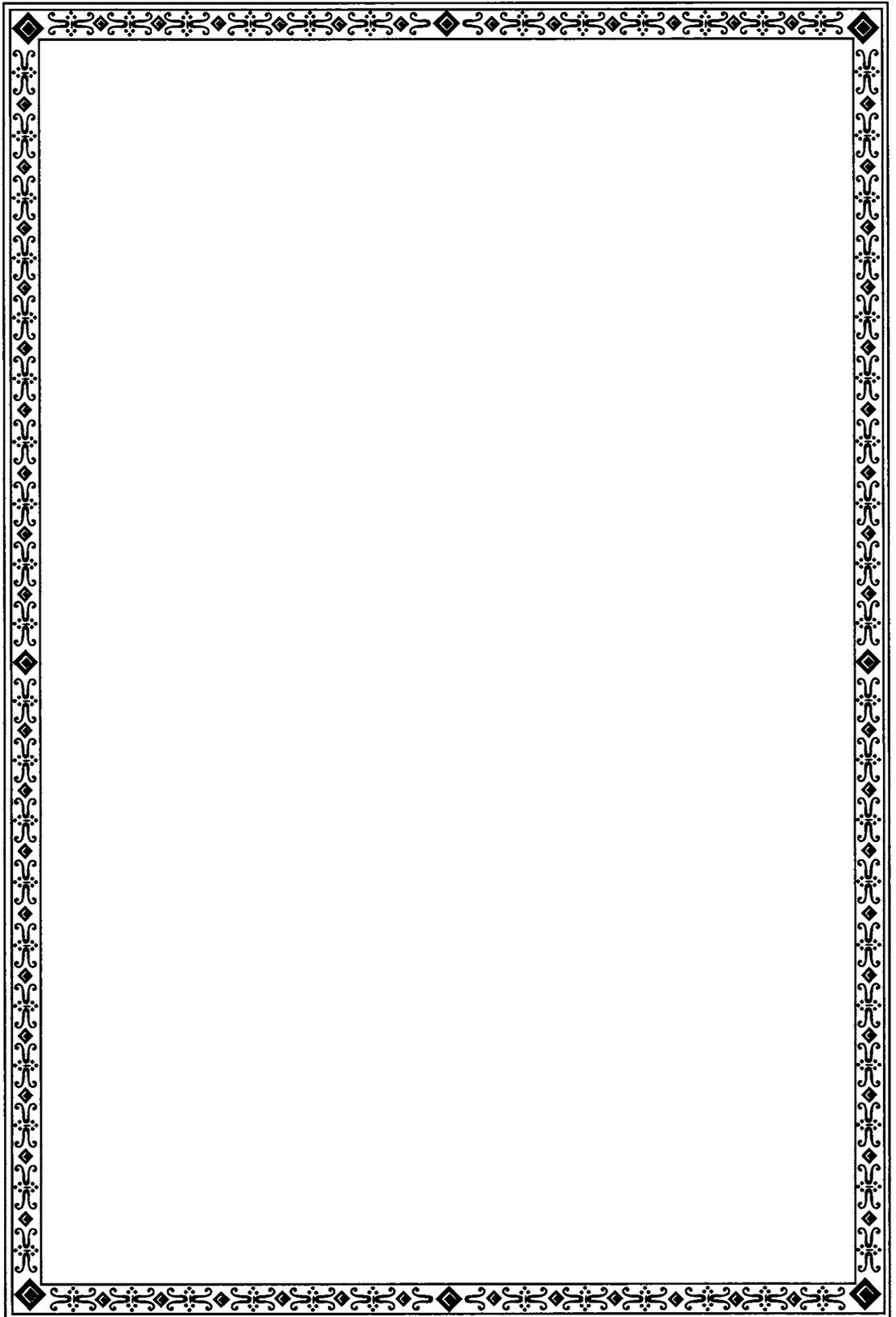
١٢- أن المطلوب من المسلم أمران هما: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. فقد بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله كاليتيم والمسكين ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها، وبخاصة الصلاة التي هي عمود الدين وحذرت من الرياء، ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان من أداء الزكاة والعارية.. الخ، وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وغيرها وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١).

فتأمل أخي المسلم هذين المحورين الذين تركزت عليهما معاني هذه السورة واعلم أن القرآن كله بل التشريع كله بما فيه الكتاب والسنة يدور عليهما واغتنم أيام عمرك دائراً بين الإحسان في عبادة الله عز وجل؛ إخلاصاً له سبحانه وتعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَقْسِيرُ سُورَةِ الْكُوثَرِ



المقدمة

هذه السورة أقصر سورة في القرآن- تليها سورتا العصر، والنصر، فكل منها ثلاث آيات.

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكوثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وتسمى: «سورة النحر»، و«سورة إنا أعطيناك الكوثر».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

ج- موضوعاتها:

١- وعد النبي ﷺ وبشارته بهاله عند الله من الخير الكثير، والحوض المورود، وغير ذلك.

٢- ذم من عاداه ﷺ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ

الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

عن يزيد بن رومان قال: «كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتَر، لا عقب له، إذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحج، وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فتزلت إن شائتك هو الأبتَر»^(٢).

قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم؛ لما له من صفات الكمال والجلال في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: آتيناك، ﴿الْكَوْثَرَ﴾: الخير الكثير.

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه النهر والحوض الذي ترد عليه أمته ﷺ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: أنزلت علي آتفا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه

(١) أخرجه ابن إسحاق - انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٩٣/١، والطبري في «جامع البيان» ٦٩٨/٢٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٧٠٠ / ٢٤، والبخاري في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٢٥ / ٨ قال ابن كثير «إسناده صحيح».

أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمّتي فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: الكوثر»^(٢).

وجاء في بعض روايات حديث أنس رضي الله عنه: «ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء»^(٤).

وجاء في وصفه: طوله شهر وعرضه شهر، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وعن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه»، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»^(٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكوثر: نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»^(٦).

ومن الكوثر، وهو الخير الكثير: اصطفاؤه ﷺ للرسالة، ورفع ذكره، وشرح صدره، قال عز وجل: ﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ [الانشراح: ١-٤].

- (١) أخرجه مسلم في الصلاة، ٤٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٠٤، وأحمد ١٠٢/٣.
- (٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٤، ومسلم في الإيمان ١٦٢، وأبو داود ٤٧٤٨، وأحمد ٢٤٧/٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٦٨٥-٦٨٩.
- (٣) أخرجه أحمد ٣/٢٢٠-٢٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٦٨٨-٦٨٩.
- (٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٥.
- (٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٦.
- (٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/٦٧٩-٦٨٠ وإسناده صحيح.

ومنه ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١).
وقدم الضمير «نا» من ﴿إِنَّا﴾ وبنى عليه الفعل؛ للدلالة على أن هذا العطاء منه عز وجل خاصة، وأكد ذلك بحرف التوكيد «إن».

وحذف موصوف الكوثر على طريق الاتساع والتعميم ليعم كل خير.
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فشكرًا لربك على ما أعطاك من الخير الكثير في الدنيا والآخرة صل له الصلوات الخمس المكتوبة وصلاة العيد وصلاة النوافل وغيرها، ﴿وَأَنْحَرْ﴾، أي: وانحر هديك وأضحيتك له وباسمه عز وجل بعد صلاة العيد. والنحر يكون للإبل، والذبح لغيرها.
أي: أخلص لله تعالى في صلاتك ونحرك، ولا تبال بمن يتعبد لغير الله فيسجد لغير الله وينحر لغير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكان ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»^(٢).
وقد جعل الله عز وجل قرعة عينه ﷺ وراحة بدنه في الصلاة^(٣).

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة نحر منها

(١) أخرجه البخاري في التيمم - باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ٣٣٥، ومسلم في - المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، وأحمد ٣٠٣/٤ - من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرعة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٣٩.

ثلاثاً وستين بيده الشريفة»^(١).

وفي قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن لا تتأسف على شيء من الدنيا، واترك الالتفات إلى الناس، ولا تبال بما ينالك منهم وعليك بالاعتصام بالله، والصلاة والنسك له، وفيها التعريض بحال الأبرر الشاني الذي صلواته ونسكه لغير الله.

﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾: استئناف فيه تعليل للأمر بالإقبال على الصلاة لربه والنحر له وعبادته وحده وعدم المبالاة بشانئه.

ومعنى ﴿شَانِئُكَ﴾، أي: مبغضك يا محمد. والشَنَانُ: هو البغض الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدُوا﴾ [المائدة: ٨].

﴿الْأَبْتَرُ﴾ مقطوع الأثر والذكر.

والمعنى: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق هو مقطوع النسل والأثر والذكر، المقطوع عن كل خير، فلا تباله. وفي هذا تثبيت لقلبه ﷺ وتقوية له، وقد أكد عز وجل هذا له بعدة مؤكدات: «إن»، وضمير الفصل «هو»، وتعريف الخبر، وكونه على وزن «أفعل» التفضيل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل لقوله عن نفسه ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجميع والعظمة.
٢- عظم ما أعطاه الله لرسوله ﷺ وأكرمه به وما وعده به من الخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

٣- إثبات الحوض المورود الذي أعطيه ﷺ في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وقد فسره ﷺ بالحوض المورود في الجنة.

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٧٨٧، والترمذي في

٤- أن العطاء والمنع من الله عز وجل فهو المعطي والمنع، رب جميع الخلق؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ورازقهم، فيجب التوجه بالسؤال إليه لا إلى غيره، كما قال عز وجل: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

٥- إثبات وإظهار كبريائه عز وجل وعلو شأنه وعز سلطانه يؤخذ هذا من الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، ولم يقل «فصل لي».

٦- تشريفه ﷺ بخطاب الله- عز وجل له، وربوبيته الخاصة له وتكريمه، والامتنان عليه بذلك.

٧- وجوب الإخلاص لله تعالى في جميع العبادات البدنية والمالية من الصلاة والنسك وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْرَجْ﴾.

٨- عدم جواز الأضحية قبل صلاة العيد لقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْرَجْ﴾. وعن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعله فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء».

فقام أبو بردة بن نيار، وقد ذبح، فقال: إن عندي جذعة، فقال: اذبحها، ولن تجزي عن أحد بعدك، فمن ذبح بعد الصلاة تم نسكه، وأصاب سنة المسلمين»^(١).

٩- أن الأبر مقطوع الأثر والذكر، المقطوع من كل خير هو من أبغض رسول الله ﷺ وما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

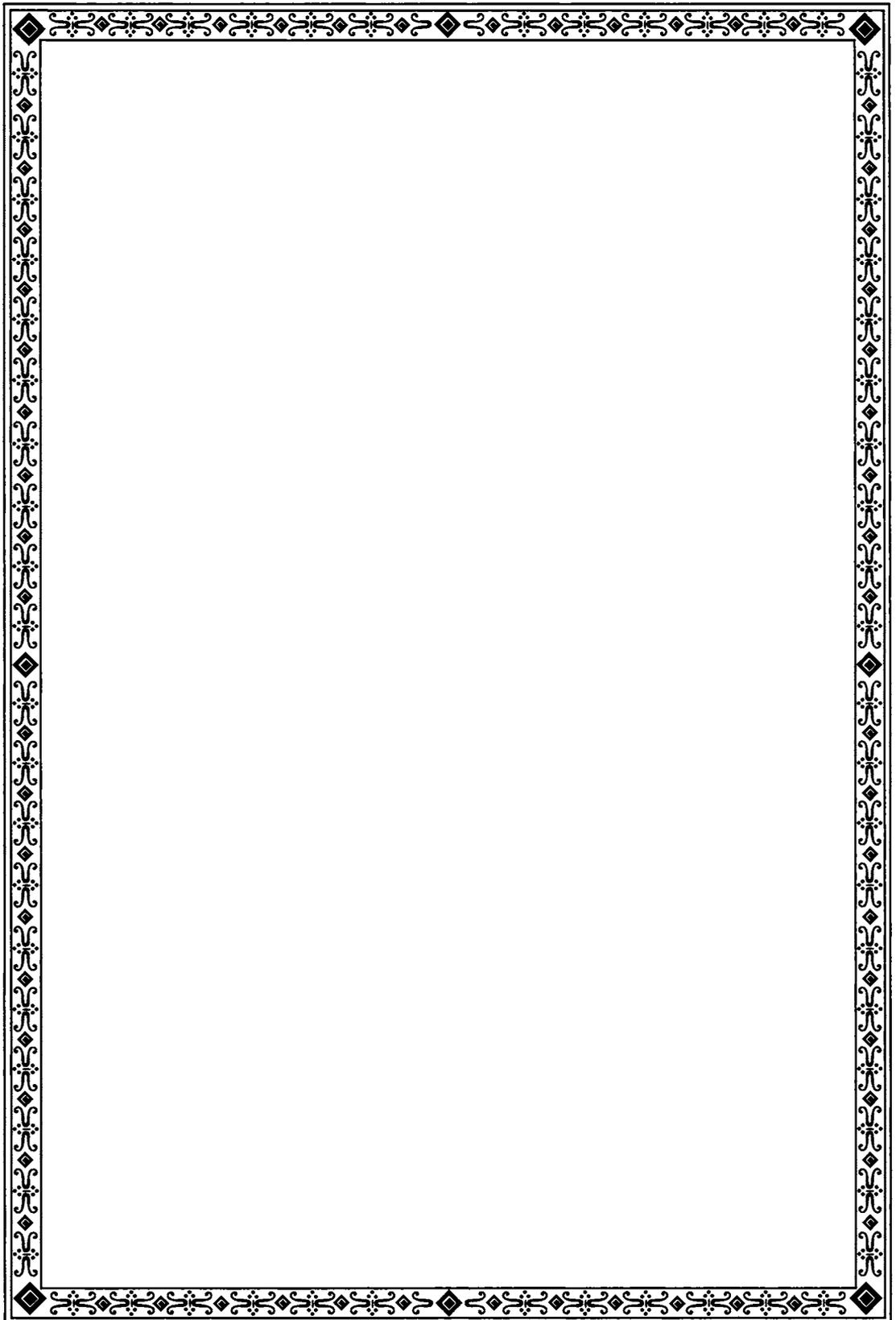
١٠- دفاع الله عز وجل عن رسوله ﷺ وعنايته به وبأوليائه عز وجل، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

١١- أن العاقبة للتقوى، وأن الفوز والفلاح لأولياء الله عز وجل، وأن الخيبة والخسران والبوار لأعداء الله وأعداء رسله.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي ٥٥٤٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٦٣.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ الْكَافِرُوْنَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكافرون»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿قُلْ يَتَّابِعُونَكَ الْكَافِرُونَ﴾. وتسمى: «المقشقة»، كما تسمى سورة الإخلاص بذلك. قيل: لأنها تقشقا من الشرك، أي: تبرئان منه. كما تسمى «سورة براءة» بالمقشقة؛ لأنها تبرئ من النفاق. وتسمى: «سورة الكافرون» أيضاً: «سورة العبادة»، و «سورة الدين».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ ب ﴿قُلْ يَتَّابِعُونَكَ الْكَافِرُونَ﴾، و ب ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف»^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر»^(٢). وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن الرسول ﷺ يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب»^(٣). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول: «نعم السورتان هما تقرئونهما في الركعتين قبل الفجر: ﴿قُلْ يَتَّابِعُونَكَ الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٩٦٣، والترمذي في الحج ٨٦٩، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٦، والنسائي في الافتتاح ٩٤٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٤٨.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٩٢، والترمذي في الصلاة- تخفيف ركعتي الفجر ٤١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- فيما يقرأ في الركعتين قبل الفجر ١١٤٩، وأحمد ٢/٢٤، ٩٤، ٩٩- وقال الترمذي: «حديث حسن».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة واحدة»^(١).
 وعن فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي. قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فإنها براءة من الشرك»^(٢). وتقدم في مقدمة سورة الزلزلة حديث أنس رضي الله عنه «أن سورة الكافرون تعدل ربع القرآن».

د- موضوعاتها:

- إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبراءة من الشرك وأهله.

* * *

(١) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، ١٧٠٣، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٣﴾
 وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٤﴾ وَلَا اَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٥﴾ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ
 دِيْنِكُمْ وِلٰي دِيْنِي ﴿٦﴾﴾

رُوي أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة
 فأنزل الله هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْعَىٰ مِنْ دُبُرِهِمْ﴾ [ن: ٩].

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ﴾ «يا»: حرف نداء، و «أي» منادى مبني على الضم في محل
 نصب، لأن المنادى منصوب على أنه مفعول به، و«الكافرون»: صفة لأي، أو بدل منها.
 والكافرون: جمع كافر، والكفر في اللغة: الستر والتغطية والجحود، ومنه سُمي
 الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ
 نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي الليل كافرًا؛ لأنه
 يستر الكون بظلامه، وسُمي وعاء طلع النخل كافرًا؛ لأنه يستر الطلع بداخله.
 فالكافرون: من جحدوا شريعة الله، وأنكروا وجود الله، أو ربوبيته، أو ألوهيته، أو
 أسماؤه وصفاته، أو شيئًا مما أوجب الله الإيمان به، وهو ضد الإيمان.
 والكافرون هنا مخصوص بمن سيموتون على الكفر، ممن علم الله أنهم لا يؤمنون
 كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأمّية بن خلف، والأسود بن عبد المطلب وكعب
 ابن الأشرف، وأبي جهل وغيرهم.

ولهذا قال ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ﴾ ولم يقل «يا أيها الذين كفروا» للدلالة على هذا
 المعنى، وأن الكفر وصف ملازم لهم، مما يوجب البراءة والمجانبة لهم دائمًا.
 ويحتمل أن المراد عموم الكافرين، أي جنس الكفار وهو ظاهر اللفظ.
 ﴿لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا: نافية و«ما»: موصولة، أي: لا أعبد الآن الذي تعبدونه

من الأصنام والأوثان والأنداد، من الأحجار والأشجار وأصحاب القبور وغير ذلك، وأتبرأ من ذلك ظاهراً وباطناً.

وعبر بـ «ما»؛ لأن معبوداتهم منها العالم وغير العالم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، الواو عاطفة، و«لا»: نافية كسابققتها، والخطاب للكافرين.

و«ما» موصولة، وجاء التعبير بها هنا، وهي لغير العالم، لأن المقصود الصفة، وهو كونه عز وجل الموصوف بأنه المعبود الحق، كما أن «ما» و«من» يتعاقبان، فتأتي إحداهما مكان الأخرى.

والمعنى: ولا أنتم عابدون الآن الذي أعبد، وهو الله وحده لا شريك له.

وجاء النفي بـ «لا» في هذين الموضعين، وفي الموضعين بعدهما دون «لن»؛ لأن

النفي بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأدل على دوام النفي وطوله.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، أي: ولا أنا عابد في المستقبل الذي تعبدونه من الآلهة، ولا

يجوز ذلك شرعاً، ولا يمكن أن يكون مني ذلك؛ لعصمته ﷺ.

فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي للفعل؛ لأنها جملة فعلية، وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا

عَبَدْتُمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفى الفعل

وكونه قابلاً لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي. وفي ذلك نفي

للموافقة في المعبود، ونفي للموافقة في العبادة.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، أي: ولا أنتم في المستقبل عابدون الذي أعبد، وهو الله

عز وجل، بل ستزدادون بعداً عن الحق، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

فالخلاصة أن النفي في الجملتين الأوليين نفي للعبادة في الماضي، وفي الجملتين

الأخيرتين نفي للعبادة في المستقبل مع ما في ذلك من تأكيد النفي في الحالين، لكن نفي

عبادته ﷺ معبوداتهم أبلغ في التأكيد؛ لأنه جاء مرة بالفعل، ومرة باسم الفاعل، بينما

جاء نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل فقط.

﴿لِكُفْرِيكُمْ﴾، وهو: الكفر والشرك، ﴿وَلِي دِينٍ﴾ وهو: الإيمان والتوحيد.

وفي هذا إعلان البراءة والانفصال التام عن كل ما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ

كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِرَتِهِ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلكُمْ أَعْمَلْنَاكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وحذفت الياء من قوله: ﴿وَلِي دِينٍ﴾ مراعاة للفواصل - والله أعلم - كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وفي هذا الرد على طائفتين من طوائف أهل الضلال: الطائفة الأولى من يزعم من المشركين وغيرهم بأن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتداءً به، والطائفة الثانية طائفة الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٢- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا﴾.

٣- جواز مخاطبة الكافرين وندائهم بما هم عليه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

الْكَافِرُونَ﴾.

٤- تثبت الله عز وجل لنبيه ﷺ على ما هو عليه من عبادة الله عز وجل وحده، في الحاضر والمستقبل لقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: في الحاضر، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، أي: في المستقبل وفي هذا تبييس للكافرين من تنازله ﷺ لهم عن شيء مما جاء به، وبيان لعصمة الله عز وجل له عن ذلك.

٥- استمرار هؤلاء الكفار الذين وجه لهم النداء في هذه السورة على الكفر، وأنهم لا يمكن أن يؤمنوا، فكما لم يؤمنوا في الماضي، فلن يؤمنوا في الحاضر، ولا في المستقبل، لقوله في الموضعين ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾.

٦- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء في الأزل، كما قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة يسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة يسرون لعمل أهل

الشقاوة»^(١).

فمن كتب الله له الهداية فلا سبيل لإضلاله، ومن كتب عليه الضلالة فلا سبيل لهدايته. ومن تقدير الله سبحانه ثباته ﷺ على عبادة الله وحده وعدم عبادته ما يعبده الكافرون، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر وعدم عبادتهم لمعبوده ﷺ وهو الله وحده لا شريك له.

٧- إثبات علم الله الأزلي المحيط بكل شيء ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومن ذلك إخباره عز وجل بثباته ﷺ على الإيمان والإخلاص، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر والشرك.

٨- إثبات إعجاز القرآن الكريم فيما أخبر به من أخبار وقعت كما أخبر.

٩- إثبات نبوته ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله حق لما اشتمل عليه من أخبار وقعت كما أخبر.

١٠- وجوب البراءة المحضة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ وإثبات العبادة لله وحده لقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ فالأول نفي عبادة غير الله، والثاني إثبات العبادة لله عز وجل وحده، فتضمنت السورة النفي والإثبات، وهو معنى كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله»، ومعنى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا سميت هذه السورة مع ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورتي الإخلاص، وكان النبي ﷺ يقرن بينها في سنة الفجر وسنة المغرب، وركعتي الطواف وفي الوتر.

١١- الإشارة إلى ما كان عليه ﷺ من الثبات على عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وأن ذلك هو المقصود الأول من السورة؛ لهذا قدم قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وهو براءته من مبعوداتهم، على ذكر براءتهم من مبعوده، والذي هو المقصد الثاني من السورة، والذي هو أيضًا مكمل ومحقق لبراءته ﷺ من مبعوداتهم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦ وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي رضي الله عنه.

١٢- تقرير المفاصلة والمباعدة بين أهل الإيمان والتوحيد، وأهل الكفر والشرك، وعدم الالتقاء بين الفريقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وفي هذا رد على من يريدون التوفيق بين الأديان الباطلة والمنسوخة وبين الإسلام، وبين المعتقدات الباطلة وبين معتقد أهل السنة والجماعة، فشتان بين الحق والباطل.

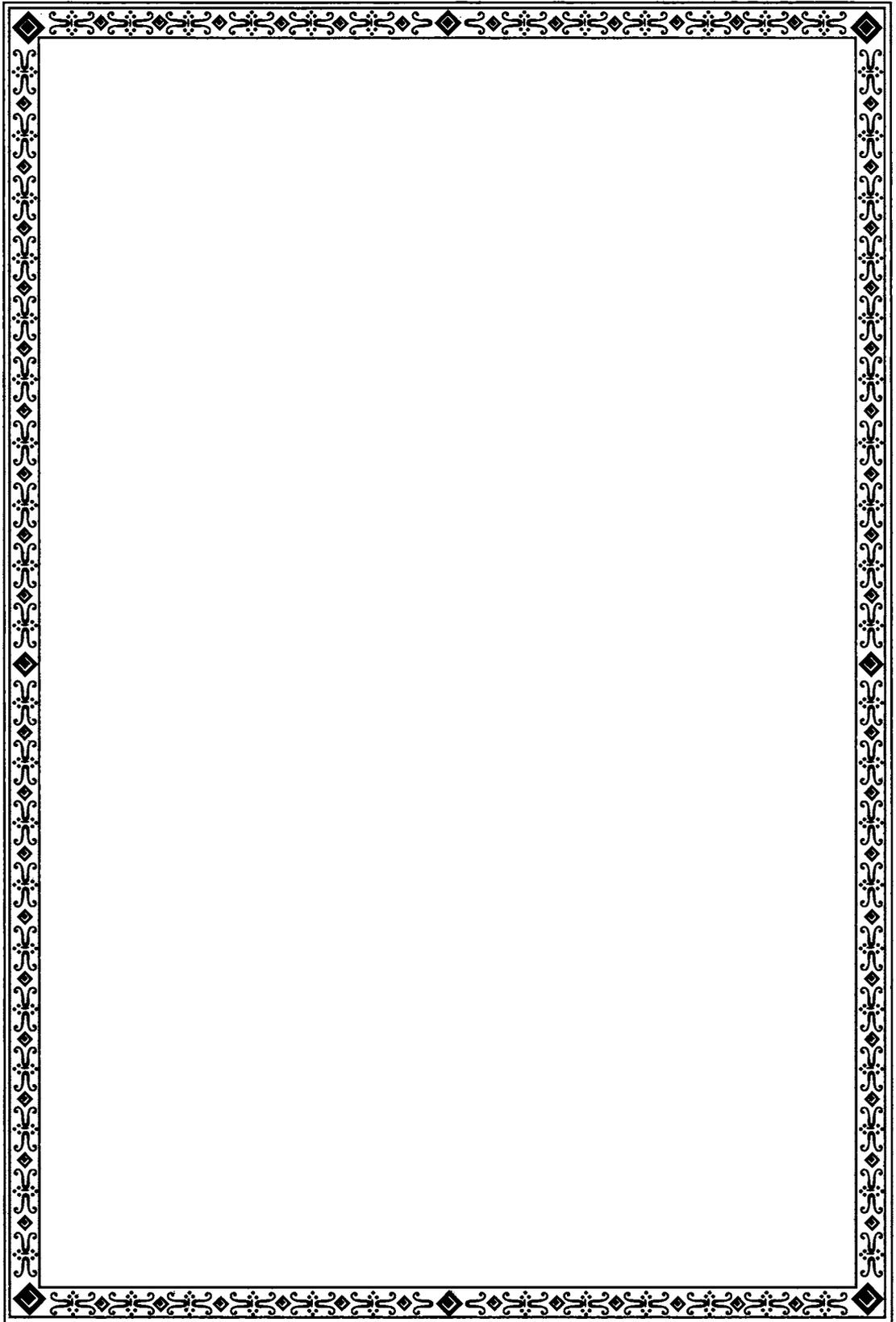
شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان (١)

١٣- التهكم بالكفار فيما اختاروه لأنفسهم من نصيب الكفر والشرك بدل عبادة الله وحده، يدل على هذا تقديم قسمهم ونصيبهم في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فهم أشبه بمن اقتسم مع شريكه سماً وعسلاً فرضي لنفسه بالسّم ولشريكه بالعسل.

* * *

(١) هذا البيت من القصيدة النونية لابن القيم انظر ص ١١.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ النَّصْرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة النصر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

وتسمى: «سورة إذا جاء نصر الله والفتح»، و«سورة الفتح»، و«سورة التوديع».

ب- مكان نزولها:

مدينة.

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال: صدقت^(١).

ج- فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «سورة النصر تعدل ربع القرآن»^(٢).

د- موضوعاتها:

١- الوعد والبشارة بنصر الله وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا.

٢- الامتنان عليه ﷺ بالنصر والفتح وحثه على التسبيح والاستغفار والاستعداد للقاء الله تعالى.

٣- الإيذان بقرب وفاته ﷺ، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إنه قد نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي» فبكت ثم ضحكت، وقالت:

(١) أخرجه النسائي فيما ذكر ابن حجر في «فتح الباري» ٧٣٤/٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥٣١/٨.

وقد أخرج البخاري في التفسير ٤٦٥٤ عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «أن آخر سورة نزلت براءة» والمراد به- والله أعلم-: بعضها، وأن آخر سورة نزلت كاملة هي النصر. انظر: «فتح الباري» ٧٣٤، ٣١٦/٨.

(٢) سبق تحريجه في تفسير «سورة الزلزلة».

أخبرني أنه نعت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت. ثم قام فخطب الناس... فذكر خطبته المشهورة»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه ممن علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أعلم منها إلا ما تقول»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره؛ يعني: ونصلي له، ونستغفره معنى مליح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح

(١) أخرجه البيهقي - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥٢٩/٨. وأخرجه أحمد ٢١٧/١، ٣٤٤، ٣٥٦ مختصراً دون ذكر فاطمة، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٧٢/١٠ - الأثر ١٩٥٢١ من حديث أم حبيبة رضي الله عنها قصة بكاء فاطمة.. الخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الحج - باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق ١٥٢/٥.

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ٤٩٦٩، ٤٩٧٠، والترمذي في التفسير

٣٣٦٢، والطبري في «جامع البيان» ٣٠/٢١٥ - ٢١٦

(٤) في «تفسيره» ٥٣٢/٨.

مكة ثماني ركعات. وفي سنن أبي داود: «أنه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين» (١).
وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن.

قال ابن كثير: وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجًا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، وسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين لقاؤه، فاختار لقاء الله» فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل نفديك، أو فديناك بأبائنا وأمهاتنا وأموالنا» (٢).

وهكذا روي عن جميع المفسرين من التابعين ومن بعدهم أنها في الإخبار بدنو أجله ﷺ والاستعداد للقاء ربه (٣).

ولهذا روي: «أنها لما نزلت بكى عمر والعباس رضي الله عنهما. فليل لهما: إن هذا يوم فرح. فقالا: بل فيه نعي النبي ﷺ» (٤).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٥٧، ومسلم في الحيض ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠، ١٢٩١، والنسائي في الطهارة ٢٢٥، والترمذي في الصلاة ٤٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٢٣ عن أم هانئ: «أنه ﷺ عام الفتح قام فصلي ثمان ركعات... قالت: وذلك ضحى».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ من حديث ابن أبي المَعْلَى عن أبيه رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب»، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر «الكشاف» ٢٤٠/٤.

(٣) انظر «جامع البيان» ٢١٥-٢١٦.

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/٢٣٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٢).

قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، «إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة قال الزمخشري (١): «منصوب بسبح وهو لما يستقبل. قال: والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة».

ويحتمل كونها للماضي، بمعنى: إذ قد جاء، وعليه تكون متعلقة بمقدر، كـ «كامل الأمر» أو «أتم النعمة على العباد» أو نحو ذلك، لا بـ «سبح».

و «جاء» فعل ماضٍ مبني على الفتح، وهو فعل الشرط.

﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: عونه لك على الأعداء من كفار قريش وغيرهم.

﴿وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة. وعطفه على قوله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ وهو من نصر الله من عطف الخاص على العام؛ تنويهاً بشأنه.

و «ال» فيه للعهد الذهني، أي: الفتح العظيم المعروف المعهود في أذهانكم.

قال ابن كثير (٢): «والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه، فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا».

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، وحين دخلها ﷺ وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» (٣).

﴿وَرَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿النَّاسَ﴾: البشر، بنو آدم من العرب وغيرهم.

(١) في «الكشاف» ٢٣٩ / ٤.

(٢) في «تفسيره» ٥٣٠ / ٨.

(٣) أخرجه البخاري في العمرة ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤ - من حديث ابن عمر مطولاً.

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، على اعتبار أن «رأيت»، بصرية، أو هي مفعول ثان على اعتبار «رأيت» علمية.

ومعنى ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، أي: يسلمون، فيدخلون في دين الله «الإسلام» الذي لا يقبل الله من أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، والفوج: الجماعة، أي جماعات، جماعات.

عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم^(١) بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن. قيل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال قوم رقيقة قلوبهم، ليّنة طباعهم، الإيذان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية»^(٣). وفي رواية زيادة «سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(٥).

قال ابن كثير^(٦): «فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض

(١) تتلوم، أي: تنتظر. انظر «لسان العرب» مادة «لوم».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٠٢، والنسائي في الأذان ٦٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١٥/٣٠. وانظر «تفسير ابن كثير» ٥٣١/٨.

(٤) ذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٣٠/٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٥٧٥، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٤٨٠،

والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٥٣٣/٨.

ستان حتى استوسقت (١) جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، والله الحمد والمنة».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون من دين الله أفواجاً» (٢).

والمعنى: إذا أتم الله لك النصر على الأعداء، وفتح مكة، ودخل الناس في دين الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك الخ.

ويؤيد هذا ظاهر السياق، وإجراء «إذا» على معناها للاستقبال ويكون في هذا البشارة بحصول ذلك، وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، ويكون نزول السورة قبل فتح مكة.

ويحتمل أن المعنى: قد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ويؤيد هذا ما جاء في أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، وفتح مكة قبل ذلك بستين تقريباً، ويكون في ذلك الامتنان عليه ﷺ بما تم من النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

﴿ فَسَبِّحْ ﴾ هذا أمر، والأمر في الأصل للوجوب.

والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، أي: متلبساً بحمد ربك، أي: حامداً له مثنياً عليه واصفاً له بالكمال مع المحبة والتعظيم قارئاً جامعاً بين تسبيحه عز وجل وحمده، بقولك: «سبحان الله وبحمده»، «سبحانك ربنا وبحمدك» ونحو ذلك.

وبما هو أعم من ذلك، بذكره وشكره عز وجل، وعبادته والصلاة له وغير ذلك؛ ولهذا لما فتح ﷺ الكعبة صلى ثمان ركعات.

﴿ وَأَسْتَغْفِرُ ﴾، أي: سله واطلب منه المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما جاء في حديث ابن

(١) أي: امتلأت إيماناً، انظر: «لسان العرب» مادة «وسق».

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٤٣.

عمر رضي الله عنها في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه- أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، إلى قوله: فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

وَقَرَنَ عِزَّ وَجَلِّ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ بِاسْمِ الرَّبِّ وَصِفَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ تَذَكِيرًا بِنِعْمَةِ عِزِّ وَجَلِّ، وَهُوَ أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ بِنِعْمِهِ.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

كان: مسلوية الزمان، أي: كان وما زال سبحانه وتعالى.

﴿تَوَّابًا﴾، أي: ذا التوبة الواسعة الكثيرة العظيمة، فهو كثير التوفيق لعباده للتوبة، كثير القبول لتوبة من تاب منهم، يتوب على الكثيرين مرات وكرات. وتوبة الله على العبد: تنقسم قسمين:

القسم الأول: توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب، كما قال عز وجل عن الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا. والقسم الثاني: قبوله توبة عبده إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول: فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»^(٢).

وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣، وأحمد ٧٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ٤٩٦٧، ومسلم في الصلاة ٤٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ٤٩٦٨، ومسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة- الدعاء في الركوع والسجود ٨٧٧، والنسائي في

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أي سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾» (١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده»، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۗ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾» (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۗ﴾ قال: نعت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة» (٣).

الفوائد والأحكام:

١- البشارة بنصر الله لرسوله ﷺ وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ﴾. بعد أن كانوا من أعدائه. وقد وقع هذا المبشر به.

٢- تحقيق نصر الله عز وجل للرسول ﷺ والمسلمين وتمكينهم من فتح مكة

التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسيح في الركوع والسجود ٨٨٩، وأحمد ٤٣/٦، ٤٩،

١٩٠. ومعنى «يتأول القرآن، أي: يرى أن ذلك معنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وعملا بمقتضاه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأحمد ٣٥/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/٢١٦.

(٣) سبق تحريجه.

وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال بعضهم: المعنى: قد جاء نصر الله والفتح.

٣- دخول الناس في دين الله أفواجًا بعد نصر الله لرسوله ﷺ والمسلمين وفتح مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

بخلاف ما كان عليه الأمر قبل الفتح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدَّلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

٤- امتنان الله - عز وجل - على رسوله ﷺ والمؤمنين بنصره لهم، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وأن ذلك من نعم الله تعالى عليهم الموجبة لشكره، ولهذا قال بعده ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٥- أن النصر بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَتَنْصُرُنَا اللَّهُ الْغَزِيْرَ الْحَكِيمَ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٦- وجوب تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، مقرونًا ذلك بحمده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٧- أن الله عز وجل الكمال المطلق من جميع الوجوه، والحمد المطلق، فهو المنزه عن جميع النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وهو المحمود في جميع الأحوال وعلى كل حال.

٨- التذكير بنعم الله على العباد التي لا تحصى، من نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، فقرن الحمد بوصف ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ فيه تذكير بنعمه - عز وجل - عليه وعلى أمته.

٩- تشریفه ﷺ وتكريمه بربوبية الله - عز وجل - الخاصة له وخطابه عز وجل له،

- وإضافة وصف الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ١٠- وجوب الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ وهو أمر له ﷺ ولأمته.
- ولهذا كان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة»^(١).
- وكان يقول ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).
- وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اغفر خطي وعمدي، وجدّي وهزلي، وإسرافي في أمري، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(٣).
- وليس في أمره عز وجل لنبيه ﷺ بالاستغفار ما يلزم منه وقوع الذنب منه ﷺ مع أنه ﷺ وكذا غيره من الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، ومن الوقوع في الكبائر، أما الصغائر فقد تقع منهم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكنهم لا يُقرُّون عليها، بل سرعان ما يتوبون منها^(٤).
- ١١- وجوب شكر الله على نعمة النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل بتسبيحه وتحميده واستغفاره والتوبة إليه.
- ١٢- مشروعية سجدة الشكر، وقول «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥، وأحمد ٢١١/٤، ٢٦٠- من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٩٨، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٣١٩/٤، ٢٩٣/١٠-٢٩٣، ٣١٣، ١٥٠/١٥، «الرسائل والرسالات» للأشقر ص ١٠٧-١١١.

في الركوع والسجود؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾.
 وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن» (١).
 ١٣- الإشارة إلى أن النصر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولم يزل نصر الله لدينه في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لما كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة بحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله، ولما حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله أصابها ما أصابها من الضعف والاختلاف والتفرق، ووعد الله بالنصر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

١٤- الإشارة إلى قرب دنو أجله ﷺ، وحثه ﷺ على ختام عمره بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، ليستعد وتهيأ للقاء ربه.

١٥- فضل التسبيح والتحميد والاستغفار؛ لأن الله أمر بذلك في ختام الأعمار، كما في هذه السورة، وأمر به في ختام الأعمال، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

١٦- وجوب الاستعداد للقاء الله عز وجل، والانتقال من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: هي الحياة الحقيقية.

فيجب على كل إنسان الاستعداد لهذا اللقاء العظيم، ولذلك الانتقال، وأن يزداد في الاستعداد لذلك كلما تقدم به العمر، فيكثر من التسبيح بحمد الله واستغفاره، فإن التسبيح والتحميد والاستغفار ختام الأعمال وختام الأعمار، ولنا في نبينا ﷺ خير أسوة فقد أمره الله عز وجل بذلك بعد أن أتم له النصر والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتقدم به العمر صلوات الله وسلامه عليه، فكان يكثُر من تسبيح الله عز وجل وحمده واستغفاره وذكره استجابة لأمر الله عز وجل له في هذه السورة، وفي قوله:

(١) سبق تخريجه.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الانشراح: ٧، ٨]. فكان أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما (١).

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو التوبة الواسعة العظيمة، يتوب على من يشاء من عباده؛ بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فائدة: بم يكون الاستعداد للقاء الله؟

يكون الاستعداد للقاء الله عز وجل بأمر عدة من أهمها ما يلي:
الأمر الأول: تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهي رأس الأمر كله، ومن أعظم ما يعين على ذلك ما يلي:
أولاً: التفكير في عظمة الله عز وجل، وما له من صفات الكمال والجلال، مما جاء في الكتاب والسنة، ودلت عليه الآيات الكونية. قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانياً: التفكير في نعم الله عز وجل على العباد، التي لا تحصى، وثمره شكرها وآثار كفرها، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثالثاً: التفكير في حقارة الدنيا، ودنو منزلتها، وكيف وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَبُّهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

(١) سبق تحريجه.

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَنَعٌ ﴿﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا مَنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٣).

ويا لله ما مدى بركة عمر من وفقه الله لهذا التصور، ثم أعطاه من العمر ما أعطاه. ويا لله ما أقل بركة عمر معمر غاب عنه هذا التصور، وعاش غافلاً لاهياً حتى فاجأه الأجل.

ولقد أحسن القائل^(٤):

فما نحن في دار المنى غير أننا شغفنا بدنيا تضحل وتذهب

فحثوا مطايا الارتحال وشمروا إلى الله والدار التي ليس تخرب

رابعاً: التفكير في عظمة الآخرة وعلو مكانتها ورفعة منزلتها، وأنها دار القرار ودار الحياة الحقيقية، إما نعيم أبدي، نسأل الله من فضله، أو عذاب سرمدي، نسأل الله السلامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

خامساً: أن يتفكر الإنسان في ضعفه، فهو من أضعف المخلوقات، إن لم يكن

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٤) البيتان للشاعر ابن عثيمين. انظر: «ديوانه» ص ٤٩٨.

أضعفها، وعمره بالنسبة لأعمار من سبق من الأمم لا يساوي شيئاً. قال ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(١).
 فيستمد قوته من القوي المتين سبحانه، ويستمد بركة العمر من الحي القيوم الذي لا يموت.

سادساً: أن يكون فراق هذه الدنيا، والرحيل منها دائماً منه على بال، وأن يكثُر من ذكر هاذم اللذات «الموت».

كما قال ﷺ «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات»^(٢).

فمن وفقه الله عز وجل للتفكير في هذه الأشياء كان ذلك - بإذن الله عز وجل - من أكبر العون له على تقوى الله.

فمن عظم الله عز وجل وقدره دعاه ذلك إلى الفرار إليه واللجوء إليه ومحبته وخوفه ورجائه، ومن تفكر في نعمه عز وجل على العباد دعاه ذلك إلى شكره، ومن تفكر في حقارة الدنيا دعاه ذلك إلى عدم الاغترار بها، ومن تفكر في عظمة الآخرة دعاه ذلك إلى الإقبال عليها والتزود لها، ومن تفكر في ضعفه دعاه ذلك إلى استمداد القوة من القوي المتين، ومن تفكر في قصر عمره دعاه ذلك إلى الحرص على استغلاله بالخير والعمل الصالح، ومن تذكر الموت والرحيل من هذه الدار دعاه ذلك إلى المبادرة بالعمل الصالح أيام الحياة، والاستعداد للدار الآخرة.

الأمر الثاني: مما يستعد به للقاء الله والدار الآخرة:

أداء ما عليه من حقوق لله تعالى، أو للخلق، والخروج منها كلها وبخاصة حقوق الخلق من الدماء والأعراض والأموال وغير ذلك، فإن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، فأملك وأبوك وولدك كل منهم سيطالك بحقه إن كان له حق عندك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبِيهِ ۚ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٧، والنسائي في الجنائز ١٨٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

بل إن العاقل اللبيب يحرص كل الحرص على عدم تحمل أي حق للخلق من الديون وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الأجل، ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، كما جاء في الحديث (١).

ومن صدق الثقة بموعد الله عز وجل وجزيل ثوابه أن يعفو الإنسان عما له من حقوق عند الآخرين، من دم أو عرض أو مال ونحو ذلك ما أمكنه ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فاحرص أخي المسلم بارك الله فيك على أن تقدم على ربك وليس لأحد من الخلق عليك حق ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتأمل خطورة الأمر، وتذكر قول الناصح الأمين ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (٢).

واحرص أخي المسلم على مسامحة إخوانك المسلمين والعفو عن هفواتهم، واعلم أنك كما تدين تدان، فإن كنت تحب أن يعفو الله عن ذنوبك وهفواتك فاعف عن الآخرين، وكن من الذين قال الله فيهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٤٣]. نسأل الله

(١) أخرجه الترمذي في الجنازات ١٠٧٨، ١٠٧٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٤١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكريم من فضله.

واحذر أن يكون في نفسك حقد أو عداوة أو ضغينة أو حسد لأحد من المسلمين، حتى وإن أساء إليك، واعلم أنه قل من يسلم من ذلك، واعلم أن هذا مركب صعب وعقبة كؤود وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

واعلم أخي المسلم أنك لن تهتدأ، ولن تنام قرير العين ولن تذوق طعم السعادة حتى تجعل العفو والتسامح ديدنك، وما إخالك ترضى بالدون، وأنت تجد ما هو أعظم وأوفى منه، فإن من كان شعاره العفو والتسامح فأجره على العفو الكريم، بلا حد ولا عد ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فعالج قلبك، والعاقبة للمتقين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، عسى أن تلقى الله وقد تخلصت مما عليك من الحقوق فلا أحد يطالبك بشيء، وعفوت عما لك من الحقوق فيكافئك عن ذلك صاحب العفو والفضل والإحسان بكرمه وجوده - وما أراك تعدل بهذا شيئاً.

وتأمل وفقك الله مدى الفرق الشاسع والبون الواسع بين من يأتي غداً يطلب حقوقه عند الآخرين من أقاربه وجيرانه وإخوانه وغيرهم فيقتطع له من أعمالهم بقدر حقه ولو كان مثقال ذرة، وبين من يقال له بلسان الحال أو المقال: أنت ساحت أصحاب الحقوق التي لك والله - عز وجل - أولى منك بالمساحة، فخذ ما شئت من الأجر والفضل بلا حد ولا عد - شتان بين هذا وهذا، وبين الثرى والثريا.

الأمر الثالث مما ينبغي أن يستعد به للقاء الله تعالى:

كتابة وصيته، وما عليه من حقوق، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له

شيء يوصي فيه بيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(١).
والوصية واجبة بالاتفاق إذا كان الإنسان عليه أو له حقوق يجب بيانها وكتابتها،
كأن يكون عليه ديون للناس، أو له عليهم ديون، ليؤدّى ما عليه من حقوق من تركته،
ولأن الحقوق التي له على الناس تعد من تركته.
وجمهور العلماء على أنها مستحبة إذا لم يكن عليه حقوق يجب بيانها فيستحب أن
يوصي بشيء من ماله للفقراء والمساكين من غير الوارثين. قالوا: لأن وجوب الوصية
منسوخ بآيات الموارث.
وذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة قالوا: لأن آيات الموارث إنما هي مخصصة
لآية الوصية خصصتها في الأقربين غير الوارثين. فالمراث للوالدين والأقربين
الوارثين، والوصية لغير الوارثين.

ومما ينبغي أن يعلم من أحكام الوصية أمران، وهما من الأهمية بمكان:

الأول: مقدارها.

اعلم أخي المسلم - بارك الله فيك - أن الوصية جائزة في الثلث وما دونه لقوله
ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»^(٢).
ويستحب أن تكون الوصية دون الثلث، لقوله ﷺ لسعد: «والثلث كثير».
ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع
لكان أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير، أو كبير»^(٣).
وقال ابن عباس أيضًا: «الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع،

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٣٨، ومسلم في الوصية ١٦٢٧، وأبوداود في الوصايا ٢١١٨، والنسائي
في الوصايا ٣٦١٥، والترمذي في الجنائز ٩٧٤، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٩.
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨، وأبوداود في الوصايا ٢٨٦٤،
والنسائي في الوصايا ٣٦٢٦، والترمذي في الوصايا ٢١١٦ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي
الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٣، ومسلم في الوصية ١٦٢٩.

والذي يوصي بالربع أفضل من الذي يوصي بالثلث»^(١).

وقد أوصى أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بالخمسة وقال: «رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه ورسوله»^(٢) يعني في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال علي رضي الله عنه: «لأن أوصي بالخمسة أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئاً»^(٣) فالأفضل أن تكون الوصية في الخمسة، وعليه أكثر السلف، واستحب بعضهم إذا كان المال كثيراً والورثة أغنياء أو قلة أن يزيد من الخمسة إلى الربع لأنه أنفع للفقراء والمساكين^(٤).

والعجيب أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الوصية لا بد أن تكون في الثلث، وكأنها لا تجوز بأقل منه، وذلك أمر مشتهر بين عامة الناس من المنتسبين إلى العلم والعمام، ينقله الخلف عن وصايا السلف.

الأمر الثاني: مصرفها:

اعلم أخي - بارك الله فيك - أن الوصية ينبغي أن توجه للأفضل من أعمال البر، وأن تكون مطلقة في وجوه البر كلها يُقدّم الأهم فالأهم، ويترك ذلك للناظر على الوصية.

والعجيب في هذا الأمر: أن كثيراً من الوصايا في السابق مقيدة في جهات - هي بلا

(١) أخرجه البيهقي في الوصايا ٦/٢٧٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في الوصايا «المصنف» ٩/٦٦، الأثران ١٦٣٦٣ - ١٦٣٦٤، وابن أبي شيبة في الوصايا «المصنف» ١١/٢٠٠ - الأثر ١٠٩٦٥، والبيهقي في الوصايا «سنن البيهقي» ٦/٢٧٠.

(٣) أخرجه عن علي عبد الرزاق في الوصايا ٩/٦٦ وابن أبي شيبة في الوصايا ١١/٢٠٢، والبيهقي في الوصايا ٦/٢٧٠.

(٤) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق ٩/٦٦، ٦٧، «المصنف» لابن أبي شيبة ١١/٢٠٠ - ٢٠٣، «سنن البيهقي» ٦/٢٧٠، «أحكام القرآن» للهراسي ١/٣٧٠، «الكشاف» ١/٢٥٠، «المحرر الوجيز» ٤/٩٣، «تفسير

ابن كثير» ٢/١٩٢، «العذب الفاضل» ٢/١٨٢.

شك من البر - لكن نفعها وفضلها أقل، كأن تكون مقيدة في حجة أو أضحية أو عشاء في رمضان، وهذه وإن كانت من وجوه البر فهناك ما هو أولى منها وأهم كبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم والسنة المطهرة ومساعدة الفقراء والمساكين وحفر الآبار وفتح الطرق، وبناء المستشفيات والمراكز لغسيل الكلى وعلاج الأورام وغيرها، ودور الرعاية الاجتماعية وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون في مصالحهم العامة والخاصة.

كما أن مما يستحب أن يوصي به أهله ومن خلفه تقوى الله والصلاة، وحقوق من تحت أيديهم، فعن علي - رضي الله عنه - قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»^(١).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ - حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»^(٢).

وفي حديث أم سلمة - رضي الله عنها: «فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه»^(٣).

وعن عائشة - رضي الله عنها - أنه ﷺ أخذ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»^(٤)، وعنهما: أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى»^(٥).

هذا وقد استحب بعض أهل العلم أن يكتب في صدر الوصية ما رواه محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: «كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان، إنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وأن الجنة حق، وأن النار حق ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ﴾

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٥٦، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٧، وأحمد ١١٧/٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٢٩٠/٦.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ١٦١٩، وأحمد

يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿الحج: ٧﴾ وأوصى من تركه من أهله أن يتقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] (١).

وإنني أقول بهذه المناسبة يجب على طلبة العلم والمحاضرين والخطباء تنبيه الناس إلى هذه الأحكام وأمثالها التي تخفى على الكثيرين وهي من مهمات أمور الدين. وفق الله الجميع لكل خير.

وأخيراً، وعوداً على بدء أقول: إن من الاستعداد للقاء الله والدار الآخرة- مع ما سبق ذكره- أن يكون الإنسان كلما تقدم به العمر أكثر تنظيمًا لأحواله وتفرغاً لعبادة ربه، فإن الله عز وجل في هذه السورة العظيمة سورة النصر آذن رسوله ﷺ بقرب وفاته، وبانتهاء مهمته في هذه الحياة، وأمره بالتوجه إلى الله والتفرغ لتسبيح الله وحمده واستغفاره، كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ولن يتيسر ذلك للإنسان إلا إذا اكتفى من التعلق بالدنيا بما تدعو الحاجة إليه، وهو نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۗ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وأنت أخي المسلم أحد رجلين: إما منعم موسع عليه في رزقه، وإما مبتلى مضيق عليه في ذلك- كما ذكر الله عز وجل (٢)، فإن كنت ممن ابتلي بضيق الحال، وقلة ذات اليد، وتحتاج إلى الكد والعمل الساعات الطويلة للسعي في طلب الرزق، لإعفاف نفسك وأهل بيتك، مما لا تستطيع معه التفرغ للعبادة فالزم أداء الفرائض واجتناب النواهي مع القيام بما قدرت عليه من النوافل، وأبشر بالخير فإنك مثاب مأجور على

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» الوصايا- كيف تكتب الوصية ٩/ ٥٣، وابن أبي شيبة في «المصنف» الوصايا ١١/ ٢٣٢، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٢٢٧.

(٢) في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَإِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

طلب الرزق لإعفاف نفسك بإذن الله عز وجل فإن السعي لطلب الرزق من طاعة الله تعالى وعبادته. فإن الإنسان يؤجر حتى على ما يجعل في في امرأته^(١).

وإن كنت ممن نعمه الله ووسع له في رزقه فاحذر أن تبترك النعمة وتلهيك الدنيا عن طاعة الله عز وجل، وفرغ نفسك بعض الوقت لعبادة ربك والاستزادة من نوافل العبادة، واحرص على ذلك كلما تقدم بك العمر، وخذ أكبر نصيب من ربك، واحفظ دينك، وقدم مالك وقاية لدينك، فإن كان لك أموال تشغلك إدارتها، من تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غير ذلك فشجع أولادك على مساعدتك، بل وعلى النيابة عنك لتتفرغ لما هو أهم وهو عبادة ربك، ولا تبخل على أولادك في هذا ولو شاطرهم بعض مالك، فالمال إن بخلت به عنهم شغلك عن طاعة الله حتى آخر لحظة من عمرك، ثم تركته وانتقل بعدك إليهم، بل لا تبخل بمالك على من تقيمه يدير أعمالك وإن لم يكن من أولادك مادام أنه يكفيك إدارة تلك الأموال لتتفرغ لعبادة ربك بقلب حاضر خاشع منيب.

واعلم أن الدنيا بما فيها لا قيمة لها إذا أضعت نصيبك من ربك.
وختامًا أقول: أخي المسلم تذكر أن المفازة بعيدة، وأن السفر طويل، وأن العقبة كؤود، فأعدّ للأمر عدته.

بكى أبو هريرة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، ثم قال رضي الله عنه: «والله ما أبكي على دنياكم هذه، وإنما أبكي على طول سفري وقلة زادي»^(٢).

وبكى بعض السلف عند وفاته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي إذا صلى المصلون ولست فيهم، وإذا صام الصائمون ولست فيهم وإذا ذكر الذاكرون ولست فيهم»^(٣).

وإن مما يثير العجب أن الواحد منا إذا أراد سفرًا من الأسفار كالسفر للحج أو

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «وإنك لن تنفق نفقه تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٤٠/٢.

(٣) انظر: «شعب الإيمان» ٤٢٠/٥ (٣٦٥٠)، «المحتضرين» لابن أبي الدنيا ص ١٤٦ (١٩٢)، «التبصرة» لابن الجوزي ٢١٧/١، «لطائف المعارف» لابن رجب ص ٣٠١.

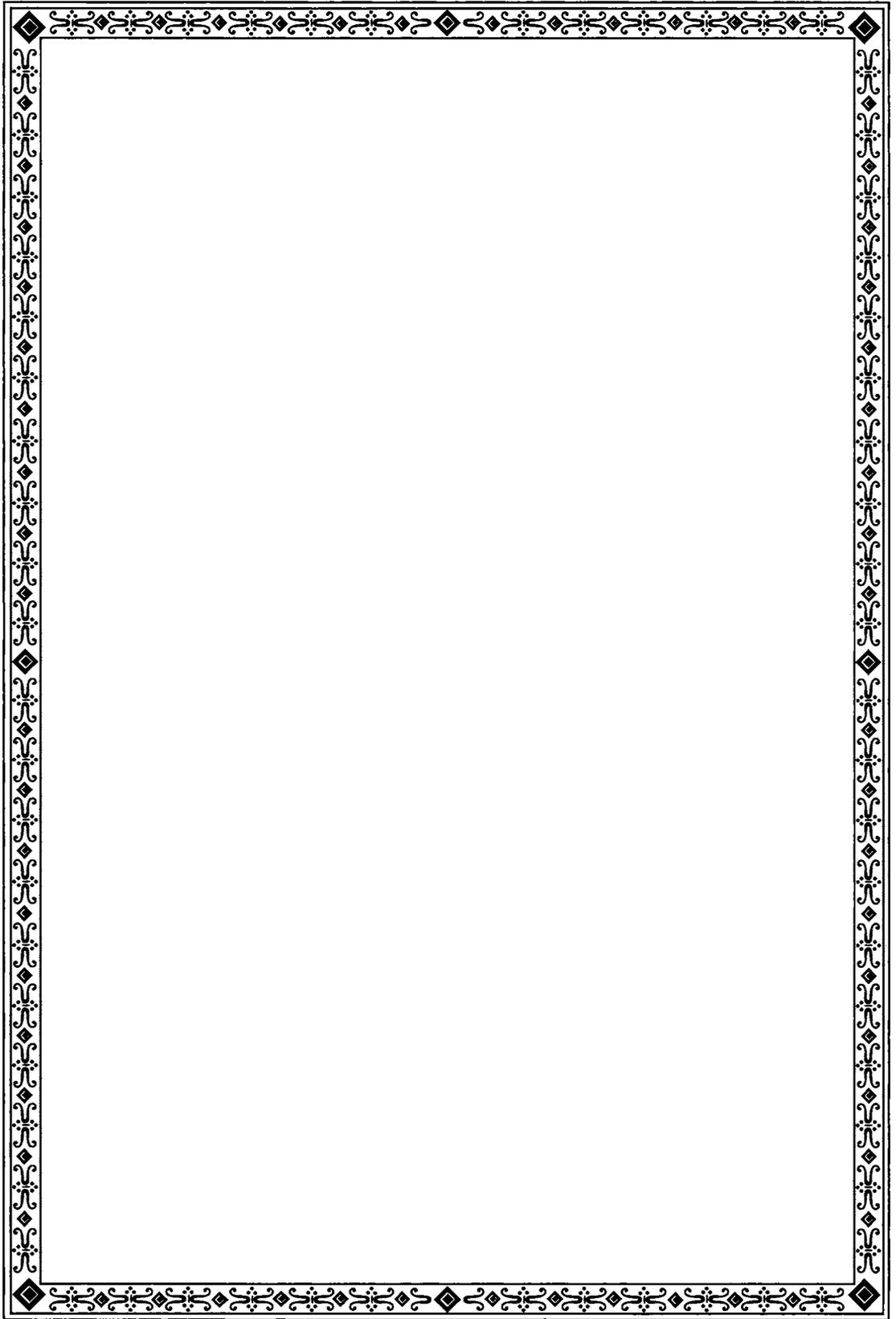
العمرة أو غير ذلك يعد للأمر عدته ويتجهز لذلك بإعداد الزاد والمزاد والراحلة واختيار الرفقة، ويتفقد السيارة ومحركاتها وعجلاتها ونحو ذلك.

بل إن بعض الناس إذا هم بسفر من الأسفار ظل طول ليله يدخل ويخرج، يرقب الصباح، ولم تذق عينه غمضاً اهتماماً وتحفزاً لهذا السفر - فأين هذا السفر من السفر للقاء الله والدار الآخرة.

اللهم ألهمنا رشدنا ووقفنا للاستعداد لما أمامنا، ووقفنا للإخلاص والسداد في القول والعمل، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

* * *

تَقْسِيْرُ سُورَةِ الْمَسَدِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المسد» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿ فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ٥].

وتسمى: «سورة تبت»، و «سورة أبي لهب»، و «سورة اللهب».

ب- مكان نزولها:

مكية

ج- موضوعاتها:

١- الحكم على أبي لهب بالتبأب والخسران، وتوعده وامرأته بالنار الملتهبة.

٢- تحذير المكذبين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعنا تبًا لك، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

وفي رواية: «فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾» (١).
قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ قرأ ابن كثير: «أبي لهب» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بفتحها.

﴿تَبَّتْ ۝١﴾، أي: خسرت وخابت وهلكت، والتباب: هو الهلاك والخيبة والخسران، يقال في المثل: «أشابة أم تابة، أي: هالكة من الهرم والتعجيز.
وأبو لهب: هو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة، وإنما سمي بـ «أبي لهب» لإشراق وجهه ووضاءته، وكان شديد البغض والعداوة والكرهية للنبي ﷺ، شديد التنقص له ﷺ، والازدراء به، وبدينه، كثير الأذية له ﷺ، لا دين يردعه، ولا حمية للقرابة تمنعه.

(١) أخرجه البخاري في التفسير - تفسير سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ۝١﴾ ٤٩٧١ - ٤٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤ / ٧١٥ - ٧١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٤٧٣ / ١٠.

عن أبي ربيعة الدبلي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذا غديرتين^(١)، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب»^(٢).

ومعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: هلك وخاب وخسر وشقي هو بنفسه، وضل عمله وسعيه، وإنما خص التباب باليدين؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لَلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤].

ولا يقال في مثل هذا مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل، بل واضح من السياق أن المراد بذلك الشخص نفسه.

وليس في ذكر «أبي لهب» بكنيته تكريم له، كما يقال: إن الأصل في الكنية التكريم، وإنما ذكر بكنيته - والله أعلم - ليشتهر أمره، لأنه مشهور بكنيته، ولأن اسمه «عبد العزى» معبد لغير الله وليوافق نسبه وكنيته ما آل إليه، فهو أبو لهب وسيصلى ناراً ذات لهب.

﴿وَتَبَّتْ﴾، أي: تحقق هلاكه وخيبته وخسرانه فعلاً، فلم يربح، وهذا إخبار من الله عز وجل بمصيره ونهايته، وأنها التباب والهلاك والخيبة والخسران قال ابن كثير^(٣): «الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه».

وقد وقع هذا كما أخبر الله عز وجل، حيث مات أبو لهب على الكفر والشرك فخرس دينه ودنياه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، أي: ما دفع عنه العذاب ماله الذي كان يجمعه عنده ويحتمل أن تكون «ما»: استفهامية ويكون المعنى: أي شيء أغنى عنه ماله

(١) الغديرتان: هما الذؤابتان من الشعر.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٤٩٢، ٤/٣٤١-٣٤٢ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٣٥١، ٤٢٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/٥٣٤ والدعاء عليه يحتمل أن يراد به تعليم الله عباده الدعاء عليه، وأمرهم بذلك، ويحتمل أن يراد به ذمه في الملاء الأعلى، كما أن الصلاة على النبي ﷺ من الله معناها: الثناء عليه في الملاء الأعلى.

الذي كان يجمعه.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والذي كسب، أو وكسبه.

أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء، ومن الجاه ومن الولد وغير ذلك؛ لأن الولد من الكسب، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم»^(١).

وقد روي عنه أنه كان يقول: «إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بهالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَا أَعْطَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ﴾»^(٢). والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل أو ولد وغير ذلك، والذي كان سبب طغيانه، ولم يدفع عنه عذاب الله، والتباب والخسران في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن قوم نوح ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّزَبَدَهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ، إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾، أي: سيدخلها ويقاسي حرها ولفحها، ويغمر فيها، وتحيط به من كل جانب. والسين للاستقبال، وتفيد الوعيد، أي: هو كائن لا محالة، وإن تراخى وقته إليها، ونكرت «نارًا» للتهويل والتعظيم.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات: صفة لـ «نارًا» منصوبة، أي: ذات توقد واشتعال، وشرر وهيب، وإحراق شديد.

فلم ينفع أبا لهب قربه من النبي ﷺ، لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله وقد أحسن القائل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب^(٣)

(١) أخرجه أبو داود في البيوع- الرجل يأكل من مال ولده ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات- ما للرجل من مال ولده ٢٢٩٢، وأحمد ١٧٩/٢، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ١٥٨/٤- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقد سبق تحريجه من حديث عائشة ٢٨٣/١.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٣٥/٨ من رواية ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ٤١٤/١.

ولما سأل ﷺ ربه أن يدعو لأمه أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿[التوبة: ١١٣، ١١٤].

ولما شق عليه ﷺ وعز عليه أن يموت عمه أبو طالب على الكفر مع الأيادي البيضاء التي قدمها للنبي ﷺ في الدفاع والذود عنه طيلة حياة أبي طالب أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].
وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم^(١)
﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾، الواو عاطفة، «وامراته»: معطوف على الضمير المستتر في قوله: ﴿سَيَصِلُنَّ﴾.

فالتقدير سيصلي هو وامراته نارا ذات لهب، ويحتمل كون الواو استئنافية وامراته: مبتدأ، وخبره جملة ﴿في جدها حبل﴾.

﴿حَمَالَةَ﴾ قرأها عاصم بالنصب، مفعول به لفعل محذوف تقديره «أذم»، وقيل: حال من «وامراته»، وقرأها الباقون بالرفع: ﴿حَمَالَةَ﴾ صفة لـ «امراة».

و﴿حَمَالَةَ﴾ مضاف، و﴿الْحَطَبِ﴾ مضاف إليه. وهي أم جميل العوراء، واسمها أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، وكانت شديدة الأذى لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ.

وكانت تحمل الشوك من الحسك والسعدان وغير ذلك وتلقيه في طريق النبي ﷺ وأذية له وكرها، وكانت تمشي بالنميمة.

يقال: فلان يحطب على فلان، إذا ورّش عليه ووشى به، قال الشاعر:

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

من البيض لم تُصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالخطب الرطب^(١) يعني: لم تمش بين الحي بالنميمة، وجعل الخطب رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر.

فهي بأذيتها للرسول ﷺ وسعيها بالفساد والنميمة، ومساعدتها لزوجها على الباطل والكفر والجحود والفساد تجمع على ظهرها الأوزار كما تجمع الخطب في النار لتحرق نفسها وزوجها.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ «في جيدها» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«حبل» مبتدأ مؤخر «من مسد» جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ «حبل» التقدير: كائن من مسد.

و«جيدها»: عنقها ورقبتها.

﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، أي: مما يفتل فتلاً قوياً من الحبال من الليف، أو الخوص، أو الجلود وغير ذلك.

قال الجوهري^(٢): «المسد: الليف، والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، قد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومَسَدَتِ الحبل أمسده مسداً: إذا أجدت قتله».

والمعنى: في عنقها حبل مفتول فتلاً قوياً من النار يطوق به.

وقد روي أنها كانت لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقتها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار^(٣).

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقبلت العوراء، أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مذمماً أئينا... ودينه قلينا... وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا

(١) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ٤٣٤، «شرح نهج البلاغة» ٥/ ٢٢.

(٢) في «الصحاح» مادة «مسد».

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣٦.

رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فقلت، وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها»^(١).

الفوائد والأحكام:

- ١- ذم أبي لهب وخيسته وخسرانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وهذا دعاء عليه، وذم له.
- ٢- حكم الله تعالى الكوني بهلاك أبي لهب وخسرانه، وإبطال كيده الذي يكيد به للرسول ﷺ ولدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾.
- ٣- أن ما حكم الله به كوننا نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾ وهذا من الله إخبار بأن أبا لهب تب وخسر فعلاً، وهذا موجب أن يموت أبو لهب على الكفر والشرك وقد وقع ذلك.
- ٤- أن المال والكسب من الولد وغيره لا يغني عن صاحبه شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا آغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، ولا يدفع عنه أو يمنعه عذاب الله إذا لم يتخذ العبد له وقاية من عذاب الله بالإيمان بالله والعمل الصالح.
- ٥- أن المال والولد ونحو ذلك قد يكون سبباً للفتنة، ورد الحق، والتكبر عن الانقياد له، والغرور بذلك، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوًا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى عن الوليد ابن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا^(١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا^(١٣) وَمَهْدَتْ لَهُ^(١٤) تَمَهِيدًا^(١٥) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١١-

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٧٢- الأثر ١٩٥٢٢. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٥٣٦ وقال: «وقد روى الحافظ أبو بكر البزار معناه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال البزار: «لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه».

[١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ مُسْتَقْبِرًا ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

٦- الوعيد لأبي هب وامرأته حمالة الحطب في إصلائيها النار ذات اللهب والشر والتوقد والاشتعال الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٦﴾﴾.

٧- أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، وأنه لا ينفع الإنسان غداً إلا ما قدم من الإيمان والعمل الصالح، فلا ينفع الإنسان شرف نسبه، ولا قرابته، مع الكفر والشرك والمعاصي، فأبو هب عم النبي ﷺ لم ينفعه ذلك لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله، بل سيصلي ناراً ذات هب.

٨- صحة أنكحة الكفار فيما بينهم لقوله: ﴿وَأَمْرَاتُهُ ﴿٨﴾﴾ وهكذا أسلم الكثير من الصحابة، ولم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد أنكحتهم، وكان ﷺ يدعوهم لأبائهم.

٩- أن مما تعذب به امرأة أبي هب حمالة الحطب أن يجعل في عنقها جبل من مسد النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿٩﴾﴾ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٩﴾﴾.

١٠- التحذير من أذية الرسول ﷺ والمؤمنين وقد ذكر المفسرون أن امرأة أبي هب كانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعين زوجها على أذيته والكيد له وللإسلام والمسلمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

١١- التحذير من السعي بين الناس بالنميمة، وقد ذكر أهل التفسير أن امرأة أبي هب كانت تمشي بالنميمة بين الناس.

والنميمة من أكبر الكبائر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٠٩، ومسلم في الطهارة ٤٣٩، وأبو داود في الطهارة ١٩، والنسائي في

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نيام»^(١).

قال الفضيل بن عياض: «ثلاث تهد العمل الصالح، وتفطر الصائم، وتنقض الوضوء»^(٢): الغيبة والنميمة والكذب»^(٣).

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: «إياكم والنميمة فإنها محرقة، وإن النيام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر»^(٣).
قال بعضهم:

إن النميمة نار ويك محرقة ففر عنها وجانب من تعاطاها^(٤)

١٢- في هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنها سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنها لا يسلمان فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

١٣- في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح، وبرهان ساطع على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل فحيث دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتبأب حكم الله عز وجل - عليه بذلك، وكما كان هو وامرأته يؤذيان النبي ﷺ كان لهما العذاب والأذى في نار جهنم.

* * *

الجنائز ٢٠٤١، والترمذي في الطهارة ٦٥ وابن ماجه في الطهارة وسنها ٣٤١.

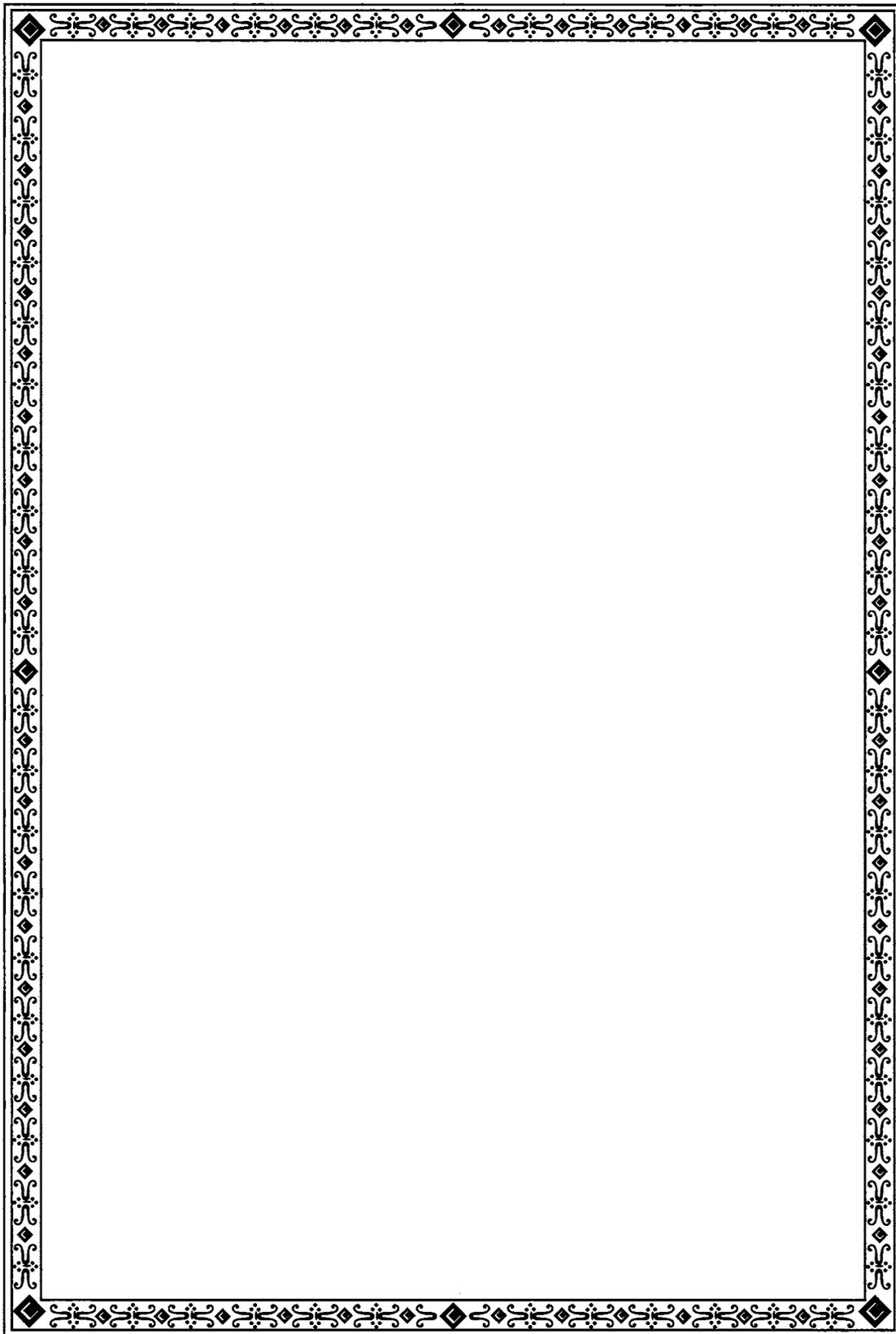
(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان ١٠٥، وأبو داود في الأدب ٤٨٧١، والترمذي في الصلة ٢٠٢٦.

(٢) كونها تهد العمل الصالح ظاهر فأعمال النمام تذهب لغيره، وأما كونها تفطر الصائم وتنقض الوضوء فمعناه أنها تنقض الأجر.

(٣) انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٥٠٢.

(٤) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٩.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ



المقدمة (١)

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الإخلاص»؛ لإخلاصها التوحيد بأقسامه الثلاثة لله تعالى وحده.

وتسمى: «سورة قل هو الله أحد»، و«سورة الصمد»، و«سورة التوحيد» و«سورة الأساس»، و«المشقة». وغير ذلك.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

سورة الإخلاص سورة عظيمة من أعظم سور القرآن الكريم لما اشتملت عليه من الدلالة على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ ولهذا سميت سورة الإخلاص.

وقد وردت أحاديث عدة في فضلها، وفضل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، وللإستشفاء بها، وفي أنها تعدل ثلث القرآن، إلى غير ذلك. منها ما يلي:

١- ما ورد في فضل قراءتها، وفضل حبها وحب قراءتها:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه، لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يجبه» (٢).

(١) قد أفردت هذه السورة مع سورتي المعوذتين برسالة سميتها «الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير، مع ما فيها من الإطناب والاستطراد لأمر تربوية وتوجيهية وفوائد أرجو من الله العلي القدير أن ينفع بها وأن يعفو عني.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين - فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتهم أن يؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه في كل ركعة؟» قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة»^(٢).
وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة، فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب»^(٣).

٢- ما ورد في أنها تعدل ثلث القرآن:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

٨١٣، والنسائي في الافتتاح - الفضل في قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٩٩٣.

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الأذان ٧٧٤، والترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في سورة الإخلاص ٢٩٠١، وقال: «حديث غريب»، وأخرجه أحمد ١٤١/٣ مختصراً عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٧، ومالك في الموطأ - كتاب القرآن - ما جاء في قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حديث ٤٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٤٣٧/٣ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/٥٤٤: «تفرد به أحمد» وأخرجه الدارمي في مسنده من حديث سعيد بن المسيب بأطول من هذا، ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٥٤٤ وقال: «مرسل جيد».

أَحَدٌ ﴿يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ» (١).

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ ثلث القرآن» (٢).

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده لتعدل نصف القرآن، أو ثلثه» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج النبي ﷺ، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل. فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت سأقرأ عليكم

(١) أخرجه البخاري في الأيمان - باب كيف كان يمين النبي ﷺ، ٦٦٤٣، وفي فضائل القرآن - فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٥٠١٣، ٥٠١٤، وفي التوحيد ٧٣٧٤، وأخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٦١، والنسائي في الافتتاح ٩٩٥. وروى نحوه من حديث أبي مسعود البدرى رضي الله عنه أحمد ٤/١٢٢، وابن ماجه في الآداب - ثواب القرآن ٣٧٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٥٠١٥ وقد أخرج مسلم في صلاة المسافرين - فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨١١، وأحمد ١/٤٧٧ - من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. وكذلك روى نحوه من حديث أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أحمد ٥/٤١٨ - ٤١٩، والترمذي في فضائل القرآن - فضل سورة الإخلاص ٢٨٩٦.

ومن حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن» أخرجه أحمد ٦/٤٠٣-٤٠٤.

وهكذا روي عن نفر من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه النسائي في اليوم والليلة. انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/٥٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٤، وأحمد ٣/١٥، وروى معنى هذا من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أخرجه أحمد ٢/١٧٣.

ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن»^(١).

وذلك لأن فيها إثبات التوحيد بأقسامه الثلاثة، والقرآن: توحيد وقصص وأحكام^(٢).

٣- ما ورد في فضل قراءتها مع المعوذتين في الصباح والمساء.

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «قل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تسمي، وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»^(٣).
وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال يا عقبة: «أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»^(٤) قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ؛ فابتدأني فأخذ بيدي فقال يا عقبة بن عامر: «ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقراي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢) ثم قال: يا عقبة، «لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن»، قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن» وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده،

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨١٢، والترمذي في فضائل القرآن - ماجاه في سورة الإخلاص ٢٩٠٠، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٧.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكانها قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيها ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٤١/٨.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٧/٢٠٧-٢٠٨.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكانها قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيها ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٤١/٨.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥٠٨٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٢٨، ٥٤٢٩، والترمذي في الدعوات ٣٥٧٥، وأحمد ٣١٢/٥.

(٤) في هذا التوجيه الكريم: التحذير من فضول الكلام، وفضول مخالطة الأنام، والحث على صدق الإنابة والتوبة من الآثام. والله المستعان.

فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقببة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك» (١) «(٢)».

٤- ما ورد في قراءتها مع المعوذتين عند النوم:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بها على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» (٣).

وسبق ذكر قراءتها مع سورة الكافرون في ركعتي الطواف، وفي الركعتين قبل الفجر، والركعتين قبل المغرب، وقراءتها مع سبح والكافرون في الوتر (٤).

٥- ما جاء أن فيها اسم الله الأعظم:

عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو، يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله

(١) هذه الصفات الثلاث لا تتوفر إلا لمن وفقه الله للتذرع بالصبر كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٥٨-١٥٩، وأخرجه الترمذي مختصراً - وليس فيه ذكر خيرية هذه السور - في الزهد - ما جاء في حفظ اللسان ٢٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

وهذا الحديث إن صح لا يعارض ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي سعيد بن المولى وغيره من أن سورة الفاتحة هي أفضل وأعظم سورة في القرآن، وتكون خيرية هذه السور الثلاث بين سور القرآن ما عدا سورة الفاتحة التي هي أفضل سورة في القرآن بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - باب المعوذات ٥٠١٧، وأبوداود في الأدب ما يقال عند النوم ٥٠٥٦، والترمذي في أبواب الدعوات - ما يقرأ من القرآن عند النوم ٣٤٠٢، وابن ماجه في الدعاء، ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ٣٨٧٥.

(٤) راجع مقدمة سورة الأعلى وسورة الكافرون.

باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»^(١).

د - موضوعاتها:

- إثبات الوجدانية لله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته فلا شريك له في ذلك ولا مثيل.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الوتر - باب الدعاء ١٤٩٣، والترمذي في أبواب الدعوات - جامع الدعوات ٣٤٧٥، وابن ماجه في الدعاء - باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب نزول هذه السورة:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾» (١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ إلى آخرها» (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحبيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، الذي بعثك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ ﴿٣﴾ فيخرج منه شيء ﴿٤﴾ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٥﴾ فيخرج من شيء» (٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ١٣٣/٥ - ١٣٤، والترمذي في التفسير - تفسير سورة الإخلاص ٣٤٢٤، والطبري في «جامع البيان» ٧٢٧/٢٤ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٧٤ - الأثر ١٩٥٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٧٢٨/٢٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٣٨/٨. وقال «إسناده مقارب» وقال ابن كثير أيضاً - بعدما ذكر رواية ابن جرير له قال: «وقد أرسله غير واحد من السلف». وقد روي من طريق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك» فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾. ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٣٨/٨ وقال: «قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره عن أبي وائل مرسلًا».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٤٧٤ - الأثر ١٩٥٣٤، وفي رواية عن يوسف بن عبد الله بن سلام أن عبد الله بن سلام قال: «يا رسول الله انعت لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة، فأسلم عبد الله بن سلام» أخرجه ابن أبي حاتم - الأثر ١٩٥٣٣.

ومحصل هذه الروايات بمجموعها أن المشركين من أهل مكة ومن أهل الكتاب سألوا النبي ﷺ أن ينسب ويصف لهم ربه فأنزل الله هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

﴿قُلْ﴾: أمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الأمر والخطاب من أفراد أمته، أي: قل قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه.

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، «هو»: ضمير الشأن مبتدأ، وخبره «الله أحد».

والجملة من المبتدأ وخبره في محل نصب مقول القول، وكذا ما بعدها. ولفظ الجلالة «الله» معناه المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً.

وقال ﴿أَحَدٌ﴾ ولم يقل: الأحد؛ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى «أحدًا» في الإثبات مفردًا غير مضاف سواء سبحانه وتعالى، بخلاف النفي وما في معناه كالاستفهام، فإنه يقال: هل عندك أحد، وما جاءني أحد.

ومعنى (أحد)، أي الواحد، الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ ولهذا قال بعده ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

قال ابن كثير^(١): «يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله - عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله».

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل رفع خبر ثان لـ «هو».

وأدخل «ال» على ﴿الصَّمَدُ﴾؛ لأن المستحق لوصف الصمدية على الكمال والتمام هو الله وحده لا شريك له، بخلاف المخلوق فهو وإن سمي صمدًا من بعض الوجوه فلا يقال له ﴿الصَّمَدُ﴾: بالصمدية المطلقة، وإنما يقال له «صمد» بمطلق الصمدية.

و«الصمد» المقصود في جميع الحوائج، المستغني عن كل ما سواه، والذي كل ما

(١) في «تفسيره» ٥٤٧/٨.

سواه محتاج ومفتقر إليه، الذي تصمد وتتجه إليه الخلائق، وتقصده في طلب قضاء حوائجهم ومسائلهم الدينية والدينية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاءَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنًا أَنجِنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٦٣] قُلْ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

و«الصمد»: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والذي بلغ من كل وصف مما يوصف به غاية كماله ونهايته، سؤدداً وشرفاً وعظمة وحلماً وعلماً وحكمة وحكماً، الحي القيوم الذي لا زوال له، والذي لم يلد ولم يولد.

و«الصمد»: الذي لا جوف له، وقيل غير ذلك.

قال ابن تيمية^(١) بعدما ذكر الأقوال في معنى «الصمد» قال: «قلت الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً، قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل الثاني».

وقال ابن كثير^(٢) بعد سياق كثير من الأقوال في معنى «الصمد»: «وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسيره «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك».

﴿لَمْ يَكِدْ﴾، أي: لم يكن له ولد، كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٨٨] لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/٣٥٦ - ٣٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/٥٤٧ - ٥٤٨.

السَّمَوَاتِ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿١٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي
لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْخُدَّ وَلَدًا ﴿ [مریم: ٨٨-٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ
عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ
إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ [الصفات: ١٥٨، ١٥٩].

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، أي: لم يتولد من غيره، فيكون محدثًا، بل هو القائم بذاته، القيوم
أزلاً وأبداً.

لأن «الولد»: ما تولد من شيء أو شيئين كآدم خلق وتولد من التراب، وحواء
خلقت وتولدت من آدم، وعيسى تولد من مريم، أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق تولدوا
من ذكر وأنثى.

وعلى هذا فالولد محدث مخلوق بعد أن لم يكن، كما قال عز وجل: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى
الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من
الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

وقال تعالى: ﴿ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴿ [مریم: ٦٧].

وما كان محدثًا مخلوقًا فهو يفنى، كما قال عز وجل: ﴿ كُلُّ مَن عَلِمَهَا فَإِنَّ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والله عز وجل هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، كما قال عز وجل: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [الحديد: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، أي: ولم يكن له مكافئًا، ولا مماثلًا، ولا شبيهًا،
ولا نظيرًا، كما قال عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [الشورى:
. [١١].

قال السعدي^(١): ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا
في أفعاله تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦٨٦/٧.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن الرسول ﷺ اختلق القرآن، وأن هذا النظم كلامه ابتداءً به. كما أن في هذا الرد على الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ونبي ورسول لا يكذب.

٢- إثبات العبادة لله تعالى وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، لأن معنى لفظ الجلالة (الله): المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

٣- إثبات الوحدانية لله عز وجل، وأنه الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، بل كل هذه السورة دليل على إثبات توحيد الأسماء والصفات له عز وجل.

٤- إثبات ربوبيته عز وجل، وحاجة الخلائق كلهم إليه عز وجل، وغناه سبحانه وتعالى عن سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّكُّدُ﴾، أي: الذي تصمد إليه الخلائق وتتجه إليه وتقصده بطلب قضاء الحوائج، إذ الخير كله بيديه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

٥- نفي الولد والمجانس والقريب المداني له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ كما قال عز وجل ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

٦- الرد على أهل الشرك من أهل الكتاب وغيرهم في نسبتهم الولد إلى الله عز وجل، وقول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وزعم المشركين أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ، مِنْ عِبَادِهِ، جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَا أَبْنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته»^(١). وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم»^(٣).

٧- إثبات أنه عز وجل الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية؛ لقلوه تعالى: ﴿وَكَمْ يُؤَلَّذُ بَلَاءًا لِمَنْ يَخْلُقُ أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ لِمَا يُخَلِّقُ أَشْيَاءَ﴾ [الأنعام: ١٠١].

٨- تنزيه الله عز وجل عن المكافئ والشبيه والمثيل والنظير؛ لقلوه تعالى: ﴿وَكَمْ يَكُنُّ لَهُ كُفْوًا أَحَدًا﴾ [الأنعام: ١٠١]. فلا مكافئ له ولا شبيهه، ولا مثيل، ولا نظير، بل هو الواحد الأحد، في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٩- وجوب الإقرار والاعتراف ظاهراً وباطناً، بنطق اللسان وتصديق القلب، وانقياد الجوارح بألوهية الله عز وجل ووحدانيته وصمديته وربوبيته، وتنزهه عن الولد والوالد والمكافئ؛ لقلوه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [إلى آخر السورة].

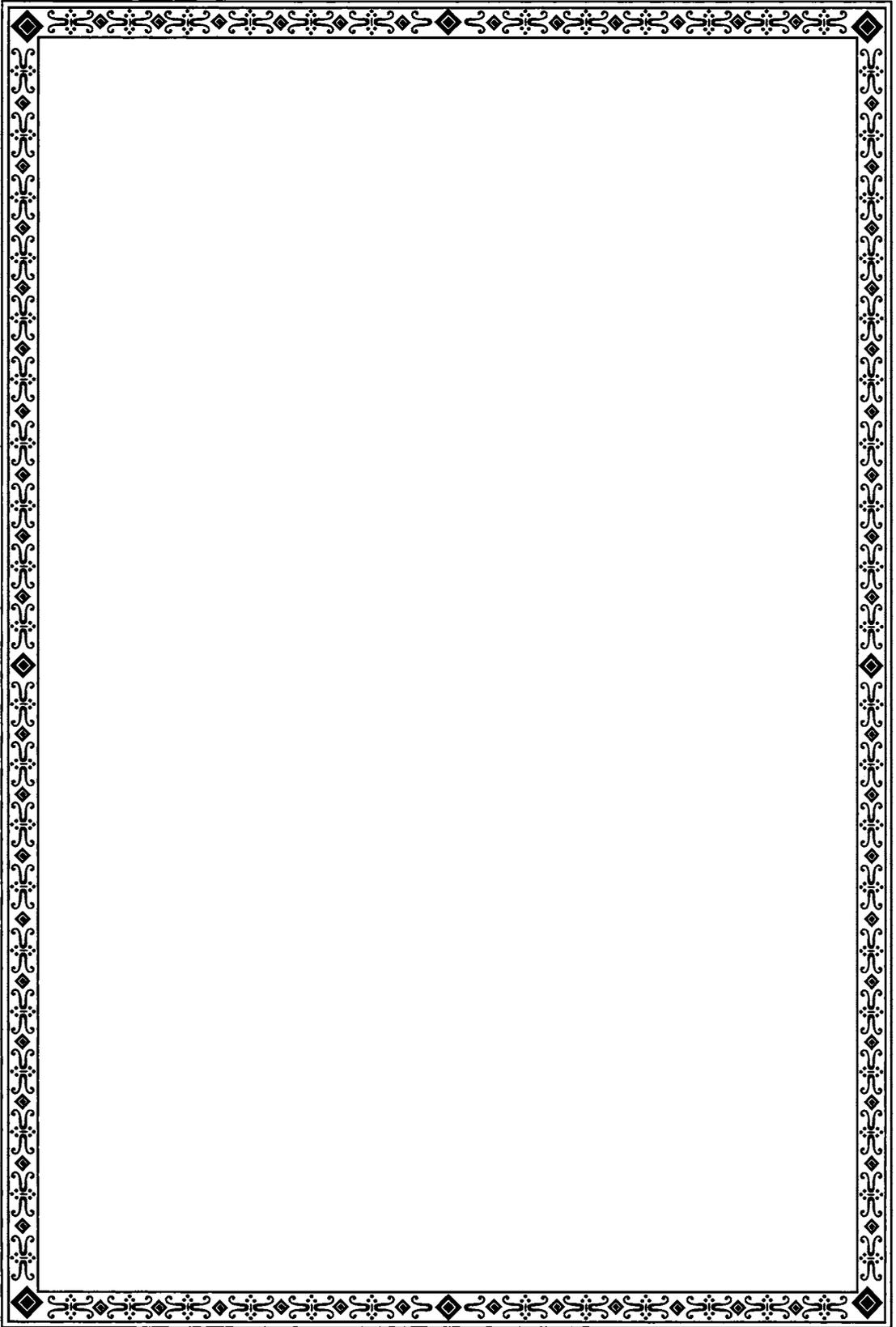
* * *

(١) كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤، ٤٩٧٥، والنسائي في الجنايز ٢٠٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، ٢٨٠٤.

تَقْسِيْرُ سُورَةِ الْفَلَقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفلق»؛ لقوله عز وجل في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ
الْفَلَقِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الفلق»، وتسمى مع سورة الناس بـ «المعوذتين»
عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات». وفي رواية بـ «المعوذتين» في دبر كل صلاة^(١).
وذكر أنها تسميان: «المقشقتين»، فيكون اسم «المقشقة» مشتركاً بين عدة سور:
الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس، وبراءة.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكة.

ج- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما- يعني المعوذتين- وينثف في
كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، وما بلغت يده من جسده»^(٢).
وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت
يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله: «سورة هود»، و «سورة يوسف». فقال: «لن
تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٣).
وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير
مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣،
وأحمد ٤/١٥٥، وقال الترمذي «حديث غريب».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨١٤، والنسائي في الافتتاح ٩٥٣، والترمذي في تفسير المعوذتين

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ، فقرأ بهما، ثم مرّ بي، فقال: «كيف رأيت يا عقيب، اقرأ بهما كل ما نمت وكلما قمت»^(١).

وعن ابن عباس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له يا ابن عباس: «ألا أدلك، أو قال: ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتين السورتين»^(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذن الجان، وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ونزل ما سواهما»^(٣).

د - موضوعاتها:

- الإرشاد إلى كيفية الاستعاذة من الشر وأهله.

* * *

٣٣٦٨، وأحمد ٤/١٤٤، ١٤٦.

(١) أخرجه أبو داود في الوتر ١٤٦٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٠٢٤، ٥٠٢٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٣٢.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢٠٥٨، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال

الترمذي: «حديث حسن غريب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ .

سبب النزول:

روي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، أن هذه السورة مع سورة الناس نزلتا في سحر اليهود للنبي ﷺ (١).

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذ من الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما (٢).

قال ابن القيم (٣): «سورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيون التي أصلها كلها الوسوسة».

وقال أيضاً (٤): «والمقصود: الكلام على هتين السورتين، وبيان عظيم منفعتها، وشدة الحاجة، بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصاً في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ .

﴿قُلْ﴾ الأمر فيه للرسول ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته ممن يصلح له الخطاب، فلا يدخل فيه المجنون والصغير ونحوهما؛ لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة؛ النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ» (٥).

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٧، «تفسير ابن كثير» ٨ / ٥٥٧.

(٢) كما سبق في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٠٠.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص ٥٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢ - من

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟ فقال: قيل لي، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»^(١).

وجملة ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وما بعدها إلى نهاية السورة في محل نصب مقول القول. ومعنى ﴿أَعُوذُ﴾: أعتصم وألتجئ وأستجير وأتحصن وأتحرز وألوذ وهذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو التعوذ.

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، «رب» جار ومجرور متعلق بقوله: «أعوذ» وهذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو: المستعاذ به، وهو: «رب الفلق». والباء: للاستعاذة.

و«الرب» في اللغة: مأخوذ من التربية والتنمية للشيء، والقيام عليه وإصلاحه. قال تعالى: ﴿وَرَبِّبْتِكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، أي: اللاتي تربونهن في حجوركم. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القيوم على كل شيء سبحانه.

والرب: هو الخالق المالك المدبر، فرب الفلق خالقه ومالكة ومدبره. ويأتي «الرب» بمعنى المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿يَصْحَحِي السَّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُنْفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٤٩]، أي: آلهة.

ويأتي بمعنى «الصاحب»، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]، فالمعنى هنا: صاحب العزة.

و«الرب» بالتعريف لا يطلق إلا على الله. و«رب كذا» بالإضافة يطلق على الله وعلى غيره، فيقال: رب الدار، ورب الناقة، قال تعالى: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ لَيْسَةَ﴾ [يوسف: ٥٠].

وربوبية الله عز وجل لخلقه تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع خلقه بمعنى: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس ٤٩٧٦، ٤٩٧٧.

وربوية خاصة بأوليائه بتوفيقه لهم للطريق المستقيم في الدنيا، وفي الآخرة إلى الجنة، كما في قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

و«الفلق»: الخلق، والشق، وكل ما انشق عن شيء فهو فلق، فالصبح والحب فلق، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْهَجْرِ وَالنُّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. أي الذي خلق وشق الحب والنوى، فأخرج منه النبتة فأخرج من الحبة السنابل الكثيرة المشتملة على مئات الحبات، كما قال عز وجل: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وأخرج من النواة النخلة، بل العدد من النخيل المثمرة، كما قال عز وجل: ﴿وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وخلق وشق الصبح وضياؤه من ظلام الليل الدامس البهيم، وفي الحديث: «أنه ﷺ ما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(١).

وكل ما انفلق وانشق عن غيره من نبات، وحيوان وغير ذلك فهو فلق. قال ابن تيمية رحمه الله^(٢): «وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق استعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري - يعني الصبح - استعيذ من شر غاسق إذا وقب».

وقال ابن القيم رحمه الله^(٣): «واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلق «فعل» بمعنى «مفعول» كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله عز وجل ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، و﴿فَالِقُ الْهَجْرِ وَالنُّوَى﴾، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وأحمد ٦/١٥٣، ٢٣٢ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/٤٩٦.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٢.

الصبح المتصدع عن الظلمة «فَلَقًا وَفَرَقًا» يقال: هو أبيض من فَرَقَ الصبح وفَلَقَهُ..
يفرق ظلام الليل بالإصباح.. ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه: «فَلَقًا».

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ
فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: الركن الثالث من أركان الاستعاذة، وهو: «المستعاذ منه»، وهو
أمور أربعة. الأول منها: ذكره الله عز وجل بقوله:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فهذا هو المستعاذ منه الأول في هذه السورة. وقوله ﴿مِنْ شَرِّ﴾
جار ومجرور متعلق بـ«أعوذ»، و«ما»: موصولة، وهي تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي
وصفي لا عموم إطلاقي، أي: أعوذ برب الفلق من شر جميع المخلوقات التي فيها شر،
سواء من شرور الدنيا أو الآخرة؛ من شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهُوام،
وشر النار، وشر النفس، كما قال ﷺ «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»^(١)، وغير ذلك.

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، وإن كان مماليس فيه شر، بل هو خير
محض كالجنة والملائكة، وكذا الأنبياء، فإنهم خير محض، بل الخير كله حصل على أيديهم.

فدخل تحت قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر، في أي مخلوق
قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسيًا كان أو جنيًا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة،
أو أي نوع كان من أنواع البلاء والشرور.

وقد رُوِيَ أنه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله
من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد
وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»^(٢).

قال ﷺ: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، والترمذي في النكاح ١١٠٥، وابن

ماجه في النكاح ١٨٩٢ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٠٣ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

شيء حتى يرتحل منه»^(١).

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذراً وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذراً في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»^(٢).

والشر: هو الآلام الحسية والمعنوية، الجسدية والنفسية، وما يسببها من الكفر والشرك والمعاصي، فما من ألم نفسي أو معنوي، جسدي أو نفسي، إلا سببه الكفر والمعاصي، قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله^(٣): «الشر يقال على شيئين على الألم، وعلى ما يفضي إليه، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع لذة، لكنها شرور؛ لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح، والإحراق في النار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه... وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣].

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٧-

من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٩/٣ - من حديث عبد الرحمن بن حنبل رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٤٤ - ٥٤٨.

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عاقبة عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم^(١)

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ولو تفتن العاقل اللبيب لهذا حق التفتن لأعطاه حقه من الحذر والجد والهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول:

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاثِي﴾ [الفجر: ٢٤]، ﴿بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار» فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب... فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابه. وهذا من أكد أدعية الصلاة...».

(١) هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر «ديوانه» ص ١٧٥، ١٧٦ - جمع نعيم زرورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقال ابن القيم أيضًا^(١): «والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود، يطلب رفعه، والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود، فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم، فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم».

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ هذا هو المستعاذ منه الثاني في هذه السورة، وهو والمستعاذ منه الثالث، والرابع كلها داخلة ضمن المستعاذ منه الأول، وهو قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم؛ لعظم ضرر هذه الأشياء الثلاثة وشدة خفائها.

والغاسق هو الليل وظلمته، يقال غسق الليل وأغسق الليل إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا أقبل ودخل في كل شيء، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»^(٢).

فالقمر غاسق إذا وقب، أي: إذا غاب، والليل غاسق إذا دخل بظلمته كل شيء. وقيل المراد بغسق الليل: برودته.

قال ابن القيم^(٣): «ولا تنافي بين القولين فإن الليل بارد ومظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه».

والأظهر من القولين، القول الأول أن المراد بالغاسق الليل إذا أقبل ودخل بظلامه، ومنه القمر إذا وقب.

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «التفسير» ٣٣٦٦. وقال «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٥٨، «بدائع التفسير» ٣٩٧/٥.

قال ابن القيم^(١): «والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة».

وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الليل إذا أقبل بظلمته ودخل في كل شيء، لأن الليل هو محل الظلام وفيه تتسلط وتنتشر شياطين الإنس والجن والهوام وغيرها من الأرواح الشريرة والخبيثة المؤذية والمفسدة. ولهذا قال ﷺ: «إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئاً»^(٢).

وفي رواية: «فإن الله عز وجل يبث في ليله من خلقه ما يشاء»^(٣).

فالشياطين من الإنس والجن والحيوانات تتسلط في الليل؛ لأنه محل الظلام ما لا تتسلط بالنهار؛ لأن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواقع المظلمة، وعلى أهل القلوب المظلمة بالكفر والمعاصي، الخالية من ذكر الله ونوره.

قال ابن تيمية^(٤) بعدما ذكر القولين في معنى «غاسق» قال: «فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الأدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما

(١) في الموضوعين السابقين.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٠، ومسلم في الأشربة ٢٠١٢، وأبوداود في الأشربة ٣٧٣٣، والترمذي في الأطلعة ١٨١٢، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧١ - من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٣٠٦، ٣٥٥.

(٤) انظر «دقائق التفسير» ٦/٤٩٧.

لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته. وأبو معشر البلخي له «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه».

وقال ابن القيم^(١): «روي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: «في ظلماء حندس» وسئل النبي ﷺ: «كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار» فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

ولهذا كان سلطان السحر إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم، كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص، وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها. فأمر الله عباده أن يستعينوا برب النور، الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات الكفر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾: هذا هو المستعاذ منه الثالث في هذه السورة، وهو: شر النفاثات.

و«النفاثات»: جمع نفاثة، وهن السواحر اللاتي يرقين وينفنن في العقد، أي اللاتي يعقدن عقداً وينفنن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر. والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما. والعقد: عقد الخيوط التي يعقدنها وينفنن فيها.

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٠ - ٥٦٢.

قال ﷺ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»^(١).

والمراد بالنفاثات: الأنفس الخبيثة السواحر، فيشمل جميع الأنفس السواحر الخبيثة، من الذكور والإناث.

وقيل المراد النساء السواحر، وخص النساء بالذكر؛ لأن السحر فيهن أكثر لضعف عقولهن ودينهن.

قال ابن القيم^(٢): «والجواب المحقق أن النفاثات هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانها إنما يظهر منها، ولهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم».

وقال أيضًا^(٣): «والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي».

وقال الزمخشري^(٤): «وعرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسق لأنه ليس كل غاسق فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات».

والسحر من صفات اليهود، فهم أسحر الناس، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۗ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم ٤٠٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٤.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٣.

(٤) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ هذا هو المستعاذ منه الرابع والأخير في هذه السورة، وهو شر الحاسد إذا حسد.

والحاسد: هو الذي يكره الخير للغير، أو يتمنى زوال النعمة عنهم. وربما سعى بمنع ذلك أو زواله عنهم بما يستطيع من الأسباب بفعله بيده، أو بقوله بلسانه أو بغير ذلك. وهكذا ذكر ابن القيم^(١) للحسد المذموم مرتبتين: الأولى: تمنى زوال النعمة عن الغير، والثانية تمنى استصحاب عدم النعمة، قال: «فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يجب أن يبقى على حاله، من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس».

وإيليس أول الحاسدين، حسد أبانا آدم عليه السلام على شرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً وكبراً. وعلى هذا فالحسد يكون من شياطين الجن وشياطين الإنس، وهذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب، وهو المراد بقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وفي الحديث: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، أو قال «العشب»^(٢).

وإنما حرم الحسد وعُد من كبائر الذنوب؛ لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمته الأرزاق بين عباده، كما قيل:

جَلَّ مَنْ قَسَمَ الحَظوظَ فهِذا يَتَغنى وَذاك يَبكى الدِيارا^(٣)

وأيضاً لما فيه من أذية المحسود بلا ذنب منه ولا جرم. وغير ذلك. ويدخل في الحاسد: العائن الذي يؤذي المحسود بنفسه وعينه، وإن لم يؤذ به بيده ولسانه، كما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرَ لِقَوْنَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص ٢٥٢.

قال ابن كثير^(١): «أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة». وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية جبريل للنبي ﷺ قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك»^(٢). فقد أعاد جبريل عليه السلام النبي ﷺ من شر عين كل حاسد. وقال ﷺ: «العين حق، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٣).

فالعائن حاسد، لكنه حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا- والله أعلم- إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن.

وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، أي: إذا أظهر حسده وحققه وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة. وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»^(٤). لأنه إذا لم يظهر الحسد، ولم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر منه يعود على المحسود.

قال ابن القيم^(٥): «ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو

(١) في «تفسيره» ٢٢٧/٨.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٦، وأخرجه أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها ٢١٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٨- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أيضًا بلفظ «العين حق» ٢١٨٧، وكذا البخاري في الطب ٥٧٤٠- كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن الأصفهاني في «الإيمان» عن الحسن البصري مرسلًا، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «التفسير» ٣٧٥/٧ من

حديث حارثة بن النعمان بلفظ «إذا حسدت فاستغفر الله».

(٥) انظر «التفسير القيم» ص ٥٧٣-٥٧٤.

غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قبله إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله، ويتحصن به، ويكن له أورد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله، والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد، فقولته تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل».

وقال أيضًا^(١): «ومعلوم أن عينه - أي الحاسد - لا تؤثر بمجرد ما، إذ لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد...».

قال القرطبي^(٢): «والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون، ولقد أحسن من قال:

قل للحسود إذا تنفس طعنة يا ظالمًا وكأنه مظلوم»

فضرر الحسد إنما يعود على الحاسد؛ لا اغتنامه بسرور غيره.
وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: «لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد»^(٣).

وهو من أكبر الكبائر، ومحبط للأعمال.
وفي الحديث: «إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب»^(٤).

وقال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»^(٥).

(١) انظر: «التفسير القيم» ص ٥٧٥.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠ / ٢٥٩.

(٣) انظر: «الكشاف» ٤ / ٢٤٤.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٠ - من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

قال الرازي: «ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة»^(١).

وقال الحسين بن الفضل البجلي: «إن الله جمع الشرور في هذه الآية، وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أحسن الطبائع»^(٢).

فهو مع الكبر الذي حمل إبليس على ترك السجود لآدم والكفر والخروج من ملكوت السموات والأرض وطرده وإبعاده وتخليده في النار، كما قال عز وجل عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِمَّا خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ص ٧٦].

وهو الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه لما تقبل الله قربانه دونه، كما قال عز وجل ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهو من صفات اليهود، فهو الذي حملهم على رد رسالة الحق، رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْرٌ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٥].

وهو مما حمل ثمود على تكذيب نبيهم صالح، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿أَتُفَى الذِّكْرُ عَلَيْنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وهو مما حمل كفار قريش على تكذيب الرسول ﷺ، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والحسد داء عضال، ومرض عام ومنتشر، لا يكاد يسلم منه أحد، إلا من عصمه

(١) انظر: «التفسير الكبير» ١/٢٢٦.

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي ١٠/٢٤٠.

الله، وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه والليثيم يبيديه»^(١).

وقيل للحسن البصري رحمه الله: «أحسد المؤمن قال: ما أنساك إخوة يوسف»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله^(٢): «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يجب فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.. لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها بل يعصيتها طاعة لله وخوفاً، وحياء منه، وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه، من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني زوال النعمة».

وقال أيضاً^(٣): «فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعبد بولي النعمة وموليها كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه.. قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٤) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» [الطلاق: ٢، ٣].

وقال ابن القيم أيضاً^(٤): «فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها: شراً عاماً، وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان، ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضاً؛ لأنهما من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشیطان ويعبده وهو الساحر.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد؛ لأنه نائبه

(١) انظر: «أمراض القلوب» لابن تيمية ص ٢١، «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٣٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٣.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٥.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٢ - ٥٨٣.

وخليفته؛ لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده».

الفوائد والأحكام:

١- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله واللجوء إليه، وأنه قد تصيبه العوارض التي أمر في هذه السورة بالاستعاذة بالاستعاذة من شرها، وأنه ﷺ لا يملك جلب الخير لنفسه، ولا دفع الضر عنها، وكذا غيره من الخلق من باب أولى لا يملكون شيئاً من ذلك، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة، وهذا أمر له ﷺ ولأفراد أمته.

وفي هذا رد على الذين يغفلون بالنبي ﷺ، ويصرفون له شيئاً من أنواع العبادة، مما لا يجوز صرفه إلا لله، ومما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يطلبون منه ﷺ كشف الكروب، ودفع الخطوب، ونحو ذلك.

ولهذا لما سأل أبي بن كعب رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؟ قال: «قيل لي، فقلت» (١).

٢- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْعُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

وفي هذا رد على من يقول من المشركين ومن سلك طريقهم: إن هذا القرآن العربي وهذا النظم كلام الرسول ابتداءً به.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فهو الذي فلق وخلق جميع الخلق وهو مالكهم ومدبرهم.

٤- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من جميع شرور الخلق، لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ من شر ما خلق.

٥- إثبات كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. قال شيخ الإسلام

(١) سبق تحريجه.

ابن تيمية^(١): «وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده، كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بال ضد النافع».

٦- أن المستعاذ به هو الله وحده ﴿بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ فهو الذي يعيد ويعصم من استعاذ به من جميع الشرور، بخلاف من سواه فلا قدرة لهم على ذلك، بل لا يزيدون من استعاذ بهم إلا خوفاً ورهقاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُؤَدُّونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمُ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

٧- أن عامة المخلوقات قد لا تخلو من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. و «ما» ههنا: موصولة تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي لا إطلاقي، أي: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ مما فيه شر، كشياطين الإنس والجن والنار والهوام وغير ذلك. ولا يدخل في هذا ما هو خير محض من المخلوقات كالجنة والملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٨- أن الشر ليس إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فالشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى الخالق سبحانه، فالشر في مخلوقاته، وفي مفعولاته، لا في فعله عز وجل، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله^(٣): «فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق، والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلاً. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة،

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/٤٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٥٠-٥٥٢.

وإنما يكون شرًّا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هناك أمران ينبغي أن يكونا منك على بال، أحدهما: أن ما هو شر ومتضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً لا يكون وصفاً له، ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرًّا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبه إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى، خلقاً وتكويناً ومشية، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها.

ثم مثل ابن القيم رحمه الله - بقطع يد السارق فهو شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه، والمحبة له.

ومثل أيضاً بقتل الصائل عليهم في دمائهم وحرماهم... إلى أن قال: «وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه، ومن قام به، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وتارة بحذف فاعله، كقوله حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد» إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذكرها رحمه الله^(١).

٩- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من الليل إذا أقبل بظلامه، ودخل في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، لأنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وإنما خص هذا بعد العموم؛ لأن الليل وظلمته محل سلطان الأنفس والأرواح الشريرة والخبيثة ووقت انتشارها للسعي

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٥٥.

بالفساد، من شياطين الإنس والجن والهوام، وغير ذلك.

١٠- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر السواحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْتَفَلْسِ فِي الْعُقَدِ﴾. وهذا أيضًا كسابقه من عطف الخاص على العام، فإنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وإنما خص شر السواحر- كما خص قبله شر الغاسق؛ لعظيم خطر السحر، وشدة شر السواحر.

١١- إثبات حقيقة السحر وتأثيره بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْتَفَلْسِ فِي الْعُقَدِ﴾، ولقوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَّا بِالْهُدَىٰ وَرُوحٍ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَعَلِّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْحِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعَلِّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:

[١٥٥].

وعن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا. قال: فجاءه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فاستخرجها، فجاء بها، فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ؛ كأنها نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط حتى مات»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن- قال سفيان بن عيينة: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا- فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٦٧، والنسائي في التحريم- باب سحرة أهل الكتاب ٣٨٠٢.

قال مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود، وكان منافقاً. قال: وفيهم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جفّ طلع ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء^(١)، وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج فقلت: أفلا- أي: تنشّرت؟ قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً^(٢).

قال ابن القيم^(٣): «وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته».

وليس في هذه الأحاديث الثابتة في أنه ﷺ سحر تصديق لقول المشركين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧، الفرقان: ٨]، وكما قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وكذا قال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

لأن الذي أصابه- كما دلت عليه هذه الأحاديث- مرض من الأمراض يصيب غيره، ولا يمنع من اتباعه ﷺ وهذا بخلاف ما زعمه المشركون، وكذا ما قاله قوم صالح وقوم شعيب لهما، فإنهم يقصدون بأن هؤلاء الرسل سحروا فزال عقولهم حتى أصبحوا لا يدري الواحد منهم ما يقول كالمجانين.

كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَفَنُكِرُوا الذِّكْرَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤].

(١) المشاقة: المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.
والجف: قشر الطلع. راعوفة البئر: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون نائمة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. وبئر ذروان: بئر ببني زريق بالمدينة.
والنقاعة: ما أنقع فيه الشيء، وهو هنا الماء الذي أنقع فيه الحناء، انظر «النهاية» «لسان العرب» مادة «مشق» ومادة «جفف» ومادة «رعف» ومادة «نقع»، «التفسير القيم» ص ٥٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في الطب- باب هل يستخرج السحر ٥٧٦٥، وأحمد ٩٦/٦.
(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٦٦، ٥٧٠.

وهم يقصدون بذلك تحذير سفهائهم من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد أنكر تأثير السحر، وأن له حقيقة طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، لا في مرض، ولا قتل، ولا حلّ ولا عقد، وقولهم هذا لا مستند له إلا تحكيم عقولهم القاصرة، وهو باطل بدلالة الكتاب والسنة وخلاف ما عليه عامة علماء الأمة، بل وخلاف ما يدل عليه الواقع.

قال ابن القيم^(١) بعد ما ذكر هذا القول: «وهذا خلاف ما تواتر به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة العقلاء...».

١٢- أن السحر من أعظم الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر، لأن الله أمر بالاستعاذة من السواحر، بعد الأمر بالاستعاذة من جميع شرور الخلق، مما يدل على خطره وعظيم جرمه، وشدة ضرره وشره.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «السحر»^(٢).

ولهذا كانت عقوبة الساحر القتل حدًا، كما في الحديث: «حد الساحر ضربة بالسيف»^(٣).

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٧١ - ٥٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبوداود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٦٠، من حديث جندب رضي الله عنه، وقال الصحيح أنه موقوف. ورواه أيضًا الدارقطني والبيهقي والحاكم، وقال: «صحيح غريب» وضعفه البخاري. وقال الذهبي في الكبائر إنه من قول جندب.

وقال بعضهم يتقوى بكثرة طرقه، فقد خرج جمع منهم البغوي الكبير والصغير، والطبراني والبخاري، ومن لا يحصى كثرة.

واختلفوا في جندب المذكور، فقال بعضهم: هو جندب بن عبد الله البجلي. وقال بعضهم: إنه جندب الخير الأزدي.

ورواه بعضهم من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يضرب ضربة فيكون أمة وحده». انظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٠ - ٣٩٢.

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال كتب لنا عمر: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر»^(١).

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها.
قال الإمام أحمد: «صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ قتل الساحر».
يعني: عمر وحفصة وجندب بن عبد الله رضي الله عنهم^(٢).

١٣- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر الحاسد إذا حسد؛ لقوله تعالى:
﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وخصه بالذكر مع أنه داخل تحت قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾
كشر الغاسق إذا وقب وشر النفاثات في العقد كل ذلك من باب ذكر الخاص بعد العام
تنبيهاً وتوكيداً على عظم خطر وضرر هذه المخصوصات.

١٤- تحريم الحسد؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به عز وجل من شر الحاسد بعد أمره
عز وجل بالاستعاذة به من شر جميع الخلق؛ لشدة شره وضرره، وعظيم جرمه، مما
يوجب الحذر منه؛ قال ابن سيرين: «ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن
كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا، وهي حقيرة في الجنة؟! وإن كان من أهل
النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟!»^(٣).

١٥- أن الحسد إنما يؤثر، إذا أظهره الحاسد وحققه، وعمل بمقتضاه من بغي
الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة.
وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»^(٤). وذلك؛ لأن الحسد لا يكاد يخلو منه
أحد.

ويكثر الحسد بين الأقران الذي يزاولون أعمالاً وحرافاً متشابهة كأصحاب
المحلات التجارية والبيع والشراء، وأصحاب الأعمال المهنية، وأرباب الأعمال

(١) ذكره في «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٢، وقال: «إسناده حسن».

(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٢-٣٩٤.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» ٩/٣١٨٩.

(٤) سبق تحريجه، وفي الحديث أيضاً: «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» أخرجه ابن
ماجه في الطب ٣٥٠٩- من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

الوظيفية والمناصب الذين يحصل بينهم التنافس، وكذا كثير من طلاب العلم، بل والعلماء إلا من عصمه الله من ذلك، ولهذا يجب الاحتراس والحذر كل الحذر من ذلك، وتعاهد القلب وإصلاحه والنأي به عن هذا المرض الخطير والداء الويلل فإن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. وقال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

١٦ - أنه لا واقى ولا كافي ولا حافظ ولا معيد من جميع شرور الخلق ومن شر الغاسق والسحر والحسد وغير ذلك إلا الله وحده؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه من جميع هذه الشرور، وقد قال عز وجل: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» الحديث^(٢). وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن من قال حين يخرج من بيته: «بسم الله آمنت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أجابه الملك بقوله: كفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»^(٣).

فائدتان:

الفائدة الأولى: أسباب تحريم الحسد:

وإنما حرم الله الحسد، ونهى عنه، وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد لأسباب عدة، منها ما يلي:

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبوداود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥ - من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال «حسن صحيح» وأحمد ٢٨٦/٤، ٢٨٨، من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات». وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرحه بطوله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» وفي رسالته «نور الاقتباس في وصية الرسول ﷺ لابن عباس».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٢٦.

أولاً: أن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره وحكمته في تقسيمه الأرزاق بين عباده.

ثانياً: أنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله، كما ذكر الله عز وجل عن أهل الكتاب، قال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال أبو حاتم: «على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها، فإن أهون خصال الحسد ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه»^(١).

ثالثاً: أنه من نواقض عرى الإيثار الموجبة لمحبة الخير لأخيه المسلم، وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٢).

رابعاً: أن فيه اعتداءً على المحسود بغير جرم منه، إلا أن الله أعطاه من فضله، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

خامساً: أنه لا يعود على الحاسد إلا بالهم والكمد والأسى. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لله در الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله»^(٣).

وقال أبو الليث السمرقندي: «يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: أولاها: غم لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق»^(٤). وقال الشاعر:

(١) انظر: «روضة العقلاء» ص ١٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإيثار ٤٥، والنسائي في الإيثار ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «شرح نهج البلاغة» ٣١٦/١.

(٤) انظر: «المستطرف» ص ٢٢١.

دع الحسود وما يلقاه من كمدِه^(١) كيفيك منه لهيب النار في كبده^(١) سادساً: أن الحاسد مبغض ممقوت عند الله وعند الناس؛ لأنه عدو نعمة الله، وعدو عباد الله.

قال ابن القيم^(٢): «فالحاسد عدو نعمة الله وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسى، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً، إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها فهم يبغضونه وهو يبغضهم».

سابعاً: أن الحاسد بدل أن يسعى ويعمل ينشغل بمتابعة ما عند الآخرين، وما أعطاهم الله من فضله، والواجب عليه أن يبذل السبب في السعي والعمل، ويسأل الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ثامناً: أن الحسد سبب لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأنه يحمل الحاسد على الاعتداء على المحسود، ومنع حقه، وجحد فضله، مما يوغر الصدور، ويشعل نار العداوة بين الناس.

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها»^(٣).

تاسعاً: أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ومن صفات إبليس لعنه الله، فهو الذي حسد آدم لشرفه، وأبى أن يسجد له حسداً وكبراً، وهو من صفات اليهود المغضوب عليهم. عاشراً: أنه مرض قلبي من أخطر أمراض القلوب، ومحبط للأعمال، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الخالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(٤). وفي الحديث: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار

(١) انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٢٨٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٤.

(٣) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» ٥/ ٣٠.

(٤) سبق تحريجه.

الخطب» أو قال: «العشب»^(١).

الفائدة الثانية: الأسباب التي بها يندفع شر الحاسد بإذن الله عز

وجل:

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله^(٢):
أُخْصِهَا فِيمَا يَلِي:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به عز وجل واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يُفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك»^(٣).

فمن حفظ الله حفظه ووجده أمامه أينما توجهه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود، يقاتل به الباغى نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٥٨٥ - ٥٩٤.

(٣) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَابِثَةً فَعَابَبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافي، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، ومن أقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له، ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه، لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، هكذا الأرواح سواء.

السبب السادس: الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإجابة إليه محل خواطر نفسه وأمانيتها. قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿فَبِعَرْنَكَ أَتَعُوبِنَهُمْ أجمعين﴾ [٨٢] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [١١] ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وقال عن يوسف الصديق، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا فَلْتُمَّ أَنَّ هَذَا قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من

ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينسأه مما عمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء: قوله ﷺ: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»^(١).
فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأتاب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.
وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها.

فليس للعبد إذا بُغي عليه، وأوذي، وتسلط عليه خصومه شيء أنفع من التوبة النصوح.

وعلاوة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها، وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة، وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيبياً في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع الحسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها، فما حرس العبد

(١) أخرجه أحمد ٤/٤٠٣.

نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفر المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكرياً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه.
السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىً وشرًا وبغيًا وحسدًا ازدادت له إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وكان ﷺ يسأل الدم عنه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١). فجمع في هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه، أحدها: عفوه عنهم، والثاني: استغفاره لهم، والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، والرابع: استعطفاه لهم بإضافتهم إليه فقال: «رب اغفر لقومي». وكما تحب أن يعفو الله عن تقصيرك وإساءتك فاعف أنت عن قاصر في حقك، وأذاك، وأساء إليك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباد الله يفعل الله معك.

وفي هذا نزل في شأن الصديق رضي الله عنه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيَلِصَّوْا بِالْحَبِيبِ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وفي الحديث: «وليات للناس الذي يجب أن يؤتى إليه»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وأحمد ١/ ٣٨٠، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فمن تصور هذا وشغل به فكره هان عليه الإحسان لمن أساء إليه، مع ما يحصل له من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال ﷺ للذي شكأ إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، قال: «لا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» (٢).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاؤه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرياً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً، ولا خبزاً.

هذا مع أنه لا بد له من عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد إليه ويذل له.. وإما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (٣).

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وبحسب إيمان العبد يكون دفع الله عنه، فإن كمل إيمانه دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

(١) أخرجه من حديث طويل مسلم في الإمامة ١٨٤٤، وأبوداود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تحريجه.

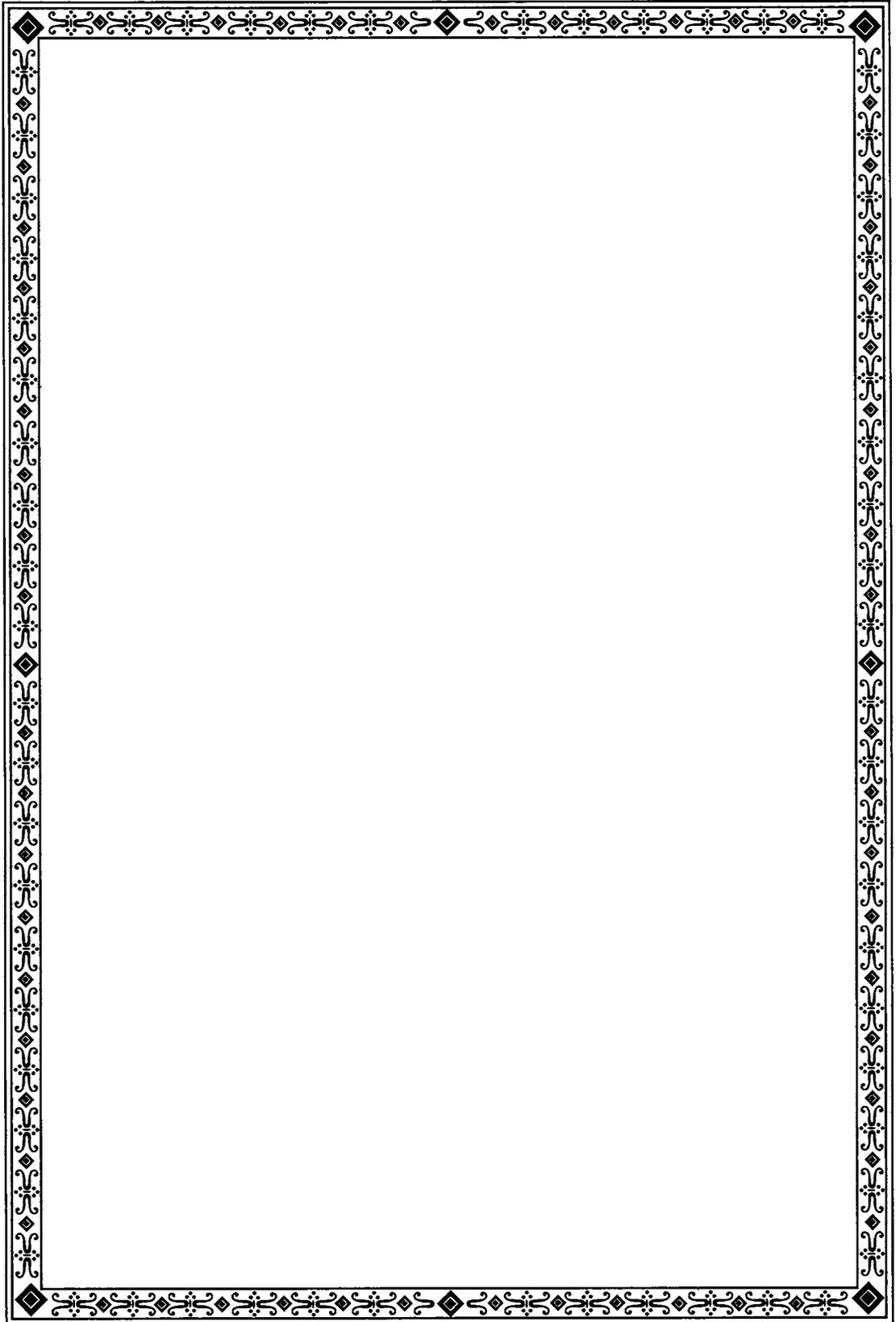
كما قال بعض السلف: «من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة». فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء». قال ابن القيم^(١) رحمه الله بعد أن ذكر هذه الأسباب: «هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وألا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته، وحرّم خيره، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

* * *

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٩٤.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الناس» بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الناس»، وتسمى مع «سورة الفلق»: «المعوذتين» وتسمى «المقشقة» كما سميت سورة الفلق بذلك، وغيرهن السور، كما سبق بيانه.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

ج- فضلها:

سبق ذكر الأحاديث في فضلها مع سورة الفلق من حديث عائشة وعقبة بن عامر وعابس الجهني وأبي سعيد رضي الله عنهم.

د- موضوعاتها:

- الاستعاذة بالله عز وجل رب الناس وملكهم وإلههم من شر شياطين الجن والإنس ووساوسهم.

* * *

أو أنها مشتقان من الإيناس: وهو الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [الفصص: ٢٩]، أي: رآها وشاهدها. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَأَسْتَمَّ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أبصرتموه ورأيتموه.

فسمي البشر «ناسًا» من هذا المعنى، لأنهم يُرون ويُشاهدون، بخلاف الجن، فهم مستترون لا يشاهدون. وسمي الإنسان: إنسانًا، لأنه يُؤنس، أي: يُرى بالعين. وقيل إنها مشتقان من النسيان، كما قال أحدهم:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقد رد هذا ابن القيم، وقال: «لو كان الإنسان مشتقا من النسيان لقليل: «نسيان» ولم يُقل: إنسان»^(١).

قال الزمخشري^(٢): «وإنما أضاف الرب هنا إلى الناس خاصة؛ لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم».

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) **إِلَهُ النَّاسِ** ﴿عطف بيان على قوله: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وكرر المضاف إليه، وأظهره في الموضوعين؛ لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، أي: مالكهم ومدبرهم الذي يأمرهم وينهاهم، وكل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾، أي: معبودهم الذي يتوجهون إليه في جميع عباداتهم، إذ لا معبود لهم بحق سواه.

قال ابن القيم^(٣): «وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وآخر الألوهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده، واتخذة دون غيره إلهًا، فمن لم

(١) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٥٩٨.

يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق، واتخذ إلهًا غيره باطلاً، ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدتهم بألوهيته».

فالمستعاذ به هو: رب الناس، ومالكهم ومعبودهم. وكرر الاسم الظاهر «الناس» دون الضمير، فلم يقل: «رب الناس وملكهم وإلههم» تقوية للمعنى، وهو أنهم إنما يستعيذون بمن له هذه الصفات العظيمة، وهو كونه: رب الناس، ومالكهم وإلههم، والمقصود: الاستعانة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وتتضمن هذه الصفات الثلاث جميع قواعد الإيمان، ومعاني أسماء الله الحسنى. فالرب هو القادر الخالق البارئ... وأما الملك فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كيف يشاء.. وأما الإله فهو المعبود الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، ولهذا يدخل في هذا الاسم «الله» جميع الأسماء الحسنى، فهو جامع لجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

قال ابن القيم^(١): «وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفرع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يجب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه».

وقصر - عز وجل هنا ربوبيته وملكه وألوهيته على الناس - مع أنه عز وجل رب جميع الخلق ومليكتهم وإلههم؛ لأن الناس هم المكلفون وتكريماً وتشريفاً لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايِ الْخَنَازِيرِ ﴾ هذا هو الركن الثالث من أركان الاستعانة وهو

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٥٩٧.

المستعاذ منه، وهو: ﴿شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، و «شر»: مفرد مضاف إلى «الوسواس» وهو معرف بـ«ال»، فيفيد الاستعاذة من جميع شرور الوسواس.
والوسواس: هو الشيطان. وأصل الوسوسة هي الحركة والصوت الخفي.
قال الأعشى (١):

تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت كما استعان بريحٍ عِشْرَقٍ رَجِلٍ
فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي، لا يسمعه إلا من ألقى إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.
والمراد بالوسواس هنا: الشيطان، وهو ذات لا مصدر، وقيل: مصدر. وأصله: الشيطان الوسواس، فحذف الموصوف هنا وأقيم الوصف مكانه، لغلبة هذا الوصف على الشيطان، فصار كالعلم عليه، وجرى مجرى الاسم، فحسن حذف الموصوف، كما يقال: المسلم والكافر، ونحو ذلك.

قال ابن كثير (٢): «وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» (٣).
ووصف الشيطان وُسْمِي بالوسواس لدقة وخفاء مداخله ومجاريه من الإنسان.
كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» (٤).
والوسواس: من جنس حديث النفس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ

(١) انظر «ديوانه» ص ١٠٥ شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة.

(٢) في «تفسيره» ٥٥٨ / ٨.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٤، وأحمد ١ / ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠، والدارمي في الرقاق ٢٦١٨، من حديث سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٠٣٨، وفي الأدب ٦٢١٩، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩، من حديث صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ. وأخرجه مسلم أيضًا ٢١٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

بِهِ نَفْسُهُ ﴿ [ق: ١٦]، أي: ما تحدث به نفسه.

وقال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»^(١). وهو نوعان: خبر إما عن ماضٍ يُذكَرُ به، وإما عن مستقبلٍ يُحَدِّثُهُ بفعله أو يُحَوِّفُهُ وقوعه، ونحو ذلك من الأمانى والمواعيد الكاذبة. والنوع الثاني: إنشاء وهو إما أمر أو نهي أو إباحة.

﴿الْخَنَاسِ﴾ هذه الصفة الثانية للشيطان. و«الخناس»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة على وزن «فعال» من خنس يخنس، إذا توارى واختفى بعد ظهوره. كما قال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَنَسِ﴾ [التكوير: ١٥]، وهي النجوم تخنس وتختفي بالنهار وتظهر وتبدو في الليل.

ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب فانخنست منه»^(٢)، أي: اختفيت.

وهو أيضاً مأخوذ من معنى: الرجوع والتأخر، كما في الحديث: «إذا نُودِيَ للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضِيَ النداء أقبل، فإذا ثُوبَ بها أدبر، فإذا قُضِيَ أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر - حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً»^(٣).

وهكذا حال الشيطان مع العبد، فإن غفل العبد عن الذكر أقبل عليه الشيطان بخيله ورجله وجثم على قلبه، وبذر فيه أنواع الوسوس، من تزيين الأعمال السيئة وغير ذلك. وإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ بالله من الشيطان انخنس الشيطان وتوارى

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٢٨، ومسلم في الإيمان ١٣٧، وأبوداود في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٣٨، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبوداود في الطهارة ٢٣١، والنسائي في الطهارة ٢٦٩، والترمذي في الطهارة ١٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبوداود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠، والترمذي في الصلاة ٣٩٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتصاغر واختفى وتراجع وتأخر وفي الحديث: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدر ولا أحقر، ولا أعظم منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رُئي يوم بدر..» الحديث^(١).

ولهذا جاء بصيغة المبالغة «خَنَّاس»؛ لبيان شدة هروبه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن هذا دأبه وعادته دائماً وأبداً إذا ذكر الله هرب وخنس، وإذا غفل العبد عاوده بالوسوسة.

ولهذا جاء في الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»^(٢).

﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هذه صفة الثالثة للشيطان فوصفه أولاً بالوسوسة، ثم وصفه ثانياً بالخنَّاس، ثم وصفه ثالثاً بكونه يوسوس في صدور الناس. والصدور: جمع صدر، وهو ساحة القلب وبيته، فتجتمع فيه هذه الوسواس والواردات، ثم تلج إلى القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّهَاتَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وشرور الشيطان كثيرة لا تحصى، وأعظم صفاته وأشدّها شراً، وأقواها تأثيراً، وأعمها فساداً الوسوسة؛ لهذا وصفه الله عز وجل بها، وهي أصل كل شر يقع في الأرض من ترك للواجبات، أو تقصير بها، أو انتهاك للمحرمات، ومن ظلم للنفس والغير، وغير ذلك.

قال ابن القيم^(٣): «ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شراً، وأقواها تأثيراً، وأعمها فساداً، وهي الوسوسة، التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويمسها، ويخيلها له في خياله حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له، ويخيل ويمني ويشهيه، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء

(١) أخرجه مالك في الموطأ- في الحج ٩٦٢، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٠٥، ٣٨٢- من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٦٠٩-٦١٠.

عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم - إلى أن قال: فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه الله بها؛ لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا».

وقال أيضًا: «ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهد أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيص له ما يبطل أثره ويرده على حافرتة».

قوله ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ من الجنة: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا، والتقدير: كائنًا من الجنة والناس.

و«الناس» معطوف على «الجنة» وهو بيان للذي يوسوس، أي أن الذي يوسوس في صدور الناس نوعان: شياطين جن، وشياطين إنس، كما قال تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تُحدِّث في العنان^(١) بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم شر من شياطين الجن»^(٣).

ومن وسوسة شياطين الإنس: وسوسة نفس الإنسان له، كما قال عز وجل:

(١) العنان: الغمام. انظر «النهاية في غريب الحديث» ولسان العرب، مادة «عنن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٠، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٥٠٧، وأحمد ٥/١٧٩، ٢٦٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَآئُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، وعنه ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به»^(١).

وقيل: إن قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنى: الذي يوسوس في صدور الناس، الذين هم من الجنة والناس. فالموسوس في صدورهم على هذا قسمان: جن وإنس. فالوسواس وهو الشيطان يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

والأظهر القول الأول وقد ضعف ابن القيم رحمه الله القول الثاني من وجوه عدة^(٢): الأول: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري فيه مجراه من الإنسي.

الثاني: أنه على هذا فاسد من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فكيف يبين الناس بالناس.

الثالث: أنه قسم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليها اسم الناس بوجه، لا أصلاً، ولا اشتقاقاً، ولا استعمالاً، ولفظها يأبى ذلك، فإن الجنة إنما سموا جنناً من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتداءً به.

٢- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله، واللجوء إليه، وأنه ﷺ كغيره من البشر قد يصيبه ما يصيبهم من الوسواس، وأنه لا يملك لنفسه دفع ضرر أو

(١) سبق تخرجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٥.

جلب خير، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ وفي هذا الرد على من يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل فهو رب جميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم.

٤- إثبات الملك العام لله عز وجل، فهو ملك الناس، ومدبرهم له الأمر والنهي بقسميهما الشرعي والكوني؛ لقوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

٥- إثبات الألوهية العامة لله عز وجل، فهو إله الناس ومعبودهم الحق، ولو عبد بعضهم غيره، فليس لهم في الحقيقة معبود سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَهَ النَّاسِ﴾.

قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَّفَقُونَ حَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

٦- مشروعية الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم من شر الشيطان ووساوسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾.

٧- عظم خطر الشيطان ووساوسه فهو أصل الشر كله، وأصل كل كفر وفسوق وعصيان؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه، والاعتصام بجانبه من الوسواس.

٨- أن من طبيعة الشيطان أنه يوسوس عند الغفلة عن ذكر الله ويخنس ويختفي ويتراجع ويتأخر ويتصاغر عند ذكر الله عز وجل؛ لأن الله وصفه بقوله: ﴿الْخَنَّاسِ﴾، فيجب التحصن منه بذكر الله على الدوام.

٩- أن الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس على نوعين شياطين جن وشياطين إنس؛ لقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

كما قال عز وجل ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

١٠- شدة شر الشيطان وكيد ووساوسه؛ لهذا أفرد الله عز وجل سورة كاملة

للاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يعصم منه إلا اللجوء إلى الله تعالى، ولأنه لا يرضيه إلا إهلاك بني آدم.

فائدة: وسوسة الشيطان للإنسان على أنواع ومراتب:

فمن وسوسته تزيين الكفر والشرك:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾

[العنكبوت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ

وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ كَفَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا

تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ومن وسوسته تزيين المعاصي:

قال تعالى عن الأبوين عليها السلام: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا

مِنْ سَوَاءٍ تَيْهَمًا وَقَالَ مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا

إِنِّي لَكُمَا لَيِّنُ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لُهُمَا سَوَاءٌ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِيمَا

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْتُهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

[الأعراف: ٢٠-٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّبَعُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا

يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وقد جعل الله للشيطان سلطاناً على قلوب أهل الكفر والنفاق، كما جعل له نفوذاً

على أهل الغفلة والمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْعَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(١).

(١) سبق تخريجه.

ومن وسوسته:

ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وليتته»^(١).

وفي رواية أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(٢).

ومن وسوسته أيضاً:

أن يشغل القلب بحديثه ووساوسه فيوقعه في نسيان ما أراد فعله أو قوله من أمر ديني أو دنيوي، كما قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام أنه قال: ﴿فَإِنِّي سَيِّئُ الْخَوَاتِمِ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] وتقدم في الحديث: «أنه يخطر بين المصلي وبين قلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً»^(٣).

ومن وسوسته:

أنه يوهم الإنسان ويخوفه من الأمور المستقبلية، ويحمله على التشاؤم دائماً، ويجعل الحياة مظلمة في عينيه فتنتابه المخاوف على المستقبل، والمخاوف من الأعداء، ومن العين، ومن المرض، ومن الموت، ونحو ذلك، وكل ذلك من الشيطان أخزاه الله.

وعلاج ذلك قوة الإيمان بالله والتوكل عليه واطراح هذه الوسوس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ١٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣٤٠.

(٣) سبق تحريجه.

ومن وسوسته:

أن يوحى إلى أعوانه من شياطين الإنس بأن يقول أحدهم أو يفعل ما فيه ضرر على العبد المسلم، فكم دبر الشيطان من مكيدة للمؤمنين على أيدي أعوانه من شياطين الإنس بسفك دم، أو انتهاك عرض، أو شتم وسب، أو مقالة سوء، أو نجوى، يريد بها الشيطان إلحاق الضرر والأذى والحزن بالمؤمنين ونحو ذلك، كما قال عز وجل ﴿ إِنَّمَا التَّجْوِي مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٠].

وخلاصة القول:

أن وسوسة الشيطان على أنواع لا تكاد تحصى كثرة، وهي سبب لكل بلية ولكل معصية تقع في الأرض، من ترك للواجبات أو انتهاك للمحرمات وهي على مراتب^(١): مراتب وسوسة الشيطان للإنسان:

يأتي الشيطان أولاً إلى الإنسان فيدعوه إلى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، ليكون من جنده ومن أعوانه على الشر.

فإن أيس منه، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه دعاه إلى المرتبة الثانية من الشر، والتي هي باب من الكفر والشرك، وهي البدعة، وحببها إليه لعظم ضررها في الدين، وكون ضررها متعدداً، وشدة تمسك صاحبها بها لا يكاد يتوب عنها، كما دلت على ذلك الآثار، وكما هو حال أهل البدع.

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة، وكان ممن وفق إلى السنة ومعاداة أهل البدع والضلال دعاه إلى المرتبة الثالثة من الشر وهي الوقوع في الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإن عجز عنه دعاه إلى المرتبة الرابعة، وهي الوقوع في الصغائر والاستهانة بها، وهي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»^(٢).

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»^(١)، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»^(٢).

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة دعاه إلى المرتبة الخامسة وهي الانشغال بالمباحات من المآكل والمشرب وتزجية الأوقات بالنزه في المصايف والاستراحات والسياحة هنا وهناك إثارة للشهوات ورغبات النفس، وبهذا ضاعت كثير من أعمار الخلق. بل أدى ذلك بالكثيرين إلى التقصير في الواجبات، والتفريط في حق الله وحقوق الخلق، كالوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق الأمة؛ بل والتفريط في حق النفس، وعدم أخذها بالحزم في أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات، والنظر في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي هو الغذاء الروحي للنفس، والذي لا حياة للقلوب إلا به.

ولعمر الله لقد خرج الناس بهذه المباحات عن الحد حتى ضاعت أعمار وأعمال وأموال، ونسي كثير من الناس أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الحياة ميدان مسارعة، ومسابقة ومنافسة للفوز بتلك الدار، وأن الأيام والليالي خزائن للأعمال. فكم من حقوق لله - عز وجل - ضيقت وفرطت فيها كالصلاة وغيرها بسبب الركض وراء هذه المباحات.

وكم من حقوق للخلق وللأمة أهدرت بسبب ذلك. فكم من والد مقعد على أحر من الجمر يتمنى أن يرى أولاده معه على مائدة طعام؛ غداء أو عشاء أو إفطار، أو أن يكون بجانبه أحد أولاده لتهيئة القهوة له أو لضيوفه ولكن هيهات، الأولاد كلهم مشغولون بلا شغل في الفلوات والخلوات والاستراحات والذهاب يميناً وشمالاً وهنا وهناك والمحصلة صفر - والله المستعان.

وكم من زوجة تنتظر زوجها بفارغ الصبر إلى ساعة متأخرة من الليل ولو حرك

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٤٣، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤، الأثر ٥٢١٦.

الهواء أحد الأبواب أو مرّ بها قط وهي غافلة طار عقلها خوفاً وفزعاً وزوجها مشغول خارج البيت بلا شغل، ولو جاء وهي نائمة لأوسعها سباً وشتماً، إن لم يضرها أو يهددها بالضرب والطلاق.

وكم من أولاد- هم فلذات الأكباد- ليس لهم نصيب من جلوس والدهم بينهم وتربيته لهم وحنانه عليهم، بل ربما ليس لهم نصيب من رؤيته إلا النزر القليل يأتي إلى البيت وهم نائمون ويخرج في الصباح إلى العمل، وإذا جاء من العمل تناول غداءه على وجه السرعة ثم انطلق خارج البيت إلى هوى من الليل وهكذا.

وكم من أقارب وجيران وأخوات وإخوان أضحت حقوقهم في خضم النسيان بسبب ما ذكر.

وكم من مسؤوليات عامة أو خاصة ضيعت وفرط فيها بسبب هذه الأحوال.

وكم من شخص صار قلبه خواء مظلماً خرباً لخلوه من الغذاء الروحي؛ من الذكر وقراءة القرآن والسنة وتدبر ما فيها من المعاني والأحكام بسبب انغماسه في هذه الأحوال وانشغاله بها. وصدق الله العظيم: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فإن عجز الشيطان عن شغل العبد بالمباحات دعاه إلى المرتبة السادسة، وهي الاشتغال بالمفضول عما هو أفضل منه، ليفوت عليه ثواب العمل الفاضل، ويزيح عنه الفضيلة ويقلل من فضله وثوابه، فيظن أن هذا الداعي من الله لا اعتقاده أن هذا خير، وأن الشيطان لا يأمر بخير، فيقول: هذا الداعي من الله.

قال ابن القيم^(١): «ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل..».

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٢-٦١٣.

وأدهى من ذلك وأشد منه أن يترك الشخص العمل الذي يتقاضى عليه أجرًا كالأذان والإمامة أو العمل الوظيفي في مصالح المسلمين بحجة أنه ذاهب لفعل طاعة كالعمرة، أو حضور درس أو محاضرة، أو الخروج للدعوة، أو للصلاة على جنازه واتباعها ونحو ذلك، لأن هذا لا يعد من الاشتغال بالفضول فحسب - بل إن هذا من الاشتغال بالسنة عن الواجب، وياليت كثيرًا ممن يتساهلون في مثل هذا يدركون ذلك. كيف يعتقد من كان يتولى أمرًا من أمور المسلمين، من أذان، أو إمامة أو أي مسؤولية من مسؤوليات الأمة أنه يسوغ له ترك مسؤوليته بحجة الذهاب لأداء العمرة ونحو ذلك، وهل سيحصل له من الأجر على ذلك مثل أجر من احتسب وتحمل مسؤوليته، كلا، بل إنه إلى التآثم أقرب، ولم يرد في كتاب ولا سنة جواز ذلك فضلًا عن أن يؤجر فاعله، ولم يقل بهذا أحد من علماء الأمة سلفًا وخلفًا، وإنما هذا من مداخل الشيطان ووساوسه، وتقديم هوى النفس على حكم الله.

وإني لأدعو المسلمين عمومًا وأرباب مسؤوليات الأمة خصوصًا، من الأئمة والمؤذنين وعامة الموظفين والآباء والمربين وغيرهم إلى التنبه إلى هذا، فنحن أمة إسلامية ديننا الإسلامي دين الجد والعمل لا محل للفراغ في حياتنا، وقت المسلم بين المسجد والبيت والعمل، وساعة للترفيه المباح والراحة عند الملل، فكل فرد منا على مسؤولية من مسؤوليات الأمة.

فهذا مؤذن، وهذا إمام، وهذا والد، وهذا مدرس، وهذا موظف. وكل منا على ثغر من ثغور الإسلام، كما قال بعض السلف: «ليعلم كل منكم أنه على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله»^(١).

وإن من أكبر مصائب الأمة أن لا تدري أين مكنم الداء فيها، فتضل في حيرة من أمرها، أو ربما تظن الداء دواء لجراحاتها.

فما أكثر الذين يتباكون ويتلامون على واقع الأمة، وكأنهم يدعون لأنفسهم الكمال - فإذا تأملت في واقعهم، وسبرت أحوالهم وجدت أن كثيرًا منهم من أكبر

(١) انظر: «السنة» للمروزي ١٣-١٤.

أسباب ضعف الأمة، بل هم العبء الأثقل على كاهل الأمة، شأنهم التلاوم والقيل والقال، والتنصل من مسؤوليات الأمة، وانتقاد الولاة والعلماء والدعاة والمصلحين والعاملين، وتبادل الرسائل في ذلك- في وسائل الاتصال- مع تفریطهم في حقوق الله، وفي حقوق الخلق، من الوالدين والأولاد، والأزواج والأقارب والجيران، وفي حقوق عامة المسلمين ومسؤوليات الأمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالأمة ليست بحاجة إلى الدعاوي الفارغة والحماس الأجوف، بل هي أحوج ما تكون إلى رجال لهم رصيد من الصدق مع الله وتقواه بأداء حقوقه وحقوق الخلق، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يجاهد النفس والشيطان فلن يستطيع مجاهدة الأعداء، ومن خان حي على الصلاة خان حي على الكفاح، ومن لم يقم أركان الإسلام وأهم واجباته فلن يقيم ما دون ذلك، ومن ترك الواجب لم ينتفع بالقيام بها ودونه إن قام به. ومجمل القول أن الأمة تحتاج إلى الرجل الراحلة الذي يتحمل مسؤولياته، ويملاً ويسد مكانه في الأمة، بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، في البيت والمسجد والعمل الوظيفي والشارع فهذا هو الجندي المجاهد، وما أقل هذا في الأمة، وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»^(١).

فالحاكم والأمير والوزير والقاضي والإمام والمؤذن والمدرس والموظف والتاجر والعامل وغيرهم ممن اتتمنوا على مسؤوليات الأمة كل منهم مثاب مأجور إذا قام بالعمل على الوجه الأكمل، مع حسن النية في أداء الواجب وخدمة الأمة.

ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس يتشبثون بفعل بعض النوافل والأعمال التطوعية مع تفریطهم في أهم الواجبات في حقوق الله وحقوق الأمة، ولا تقبل نافلة حتى تؤدي فريضة. جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام فقال له النبي ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال يا رسول الله هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. فقال الأعرابي: والذي بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». وفي رواية: «أفلح إن صدق»^(١).

وإنني أنادي الغيورين من أبناء الأمة رجالاً ونساءً من الآباء والأمهات والمربين والموجهين والمدرسين والخطباء والدعاة والواعظين إلى العودة بالأمة إلى المنهج الصحيح، فإن به الضمان بإذن الله عز وجل لسعادة الأمة في دنياها وأخرها- والله المستعان.

فائدة فيما يعتصم به الإنسان من الشيطان :

ذكر ابن القيم رحمه الله^(٢) قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب، أخصها فيما يلي:

١- الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يَزْغَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وعن سليمان بن صرد- رضي الله عنه- قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ، فقال: «إني لست بمجنون»^(٣).

٢- الحرز الثاني: قراءة المعوذتين. فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما في كل ليلة، وقال ﷺ: «ما تعوذ متعوذ بمثلها»^(٤). وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٤٦، ومسلم في الإبان ١١، وأبوداود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص ٦٢٠-٦٣١، «بدائع التفسير» ٥/٤٦٤- وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب- باب الحذر من الغضب- ٦١٥٥، ومسلم في البر- باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٦١٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٦٣، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٥) سبق تحريجه.

وقال ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي، وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء»^(١).

وقد تقدم ذكر كلام ابن القيم في أن حاجة الإنسان إلى التعود «بهتين السورتين أشد من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس واللباس فتأمل هذا.

٣- الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ - فذكر الحديث إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح..»^(٢).

٤- الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٣).

٥- الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(٤).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»^(٥).

٦- الحرز السادس: قراءة أول سورة: «حم المؤمن» إلى قوله: «إليه المصير» مع آية الكرسي؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: حم المؤمن

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٨٠، وأبوداود في المناسك ٢٠٤٢، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٨، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٧، ٨٠٨.

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٢، والدارمي في فضائل القرآن ٣٢٥٣.

إلى: «إليه المصير»، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بها حتى يمسي، ومن قرأها حين يمسي حفظ بها حتى يصبح»^(١).

٧- الحرز السابع: قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»^(٢).

٨- الحرز الثامن: كثرة ذكر الله عز وجل، وهو من أنفع الحروز وبه طمأنينة القلب، كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٩- الحرز التاسع: الوضوء والصلاة. قال ابن القيم: «وهذا من أعظم ما يتحرز به، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم.. والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله. وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه»^(٣).

١٠- الحرز العاشر: الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الأنام، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. ويا صعوبة التخلص منها إلا على من وفقه الله. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به. وفي الأثر: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٩٣، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩١، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٨، وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٨.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص ٦٢٤.

(٤) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني ١٧٣/١٠ (١٠٣٦٢)، «المستدرک» ٣٤٩/٤ (٧٨٧٥).

وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر^(١)
والإمساك عن فضول الطعام:

فإن تتبع أطايب المأكولات وأنواعها سبب للغفلة عن ذكر الله وكون الإنسان بهيمياً همه بطنه، كما أن الإكثار من الأكل سبب للتخمة والكسل وثقل الجسم عن العمل.

وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٢).
والإمساك عن فضول الكلام:

فإن الإكثار من الكلام فيما لا يعني سبب للوقوع فيما لا ينبغي، ولهذا أمر الإسلام بحفظ اللسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال: فقلت: يا نبي الله، وإنما لمؤاخذون بما نتكلم به أو فيما نقول بألسنتنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(٣).

والإمساك عن فضول مخالطة الأنام:

فإن فضول مخالطة الأنام من أعظم أسباب الشرور والآثام، فيجب أن تكون مخالطة العبد للناس على قدر الحاجة.

والناس في هذا أربعة أقسام:

القسم الأول: من مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة - وهم العلماء بالله وأمره، الناصحون لله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص ١٣٤، «روضة المحبين» ص ١٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأُطعمة ٣٣٤٩، من حديث المقدم بن معديكرب رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيذان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دام الشخص صحيحًا فلا حاجة له في مخالطتهم، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، فتكون مخالطتهم بقدر الحاجة.

القسم الثالث: من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من تكون مخالطته ضررًا عليك في دينك ودنياك فهم كمرض الموت المخوف، ومنهم من تكون مخالطته كوجع الضرس يشتد فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من تكون مخالطته حمى الروح، وهو الثقليل البغيض، الذي لا تستفيد منه ولا يستفيد منك، لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها منزلتها، فمخالطة هذا النوع - وهم كل مخالف - حمى الروح، ومن نكد الدنيا على العبد أن يتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله بمنزلة أكل السم، كأهل البدع والضلال الصادون عن سنة رسول الله ﷺ.

فالحزم كل الحزم البعد عنهم، والحذر منهم، والتماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم.

وكما قيل:

لقد زادني حباً لنفسي أنسي بغيض إلى كل امرئ غير طائل^(١)

فائدة: في الضرق بين الموسوس والساحر والحاسد:

أمر الله عز وجل في سورة الناس بالاستعاذة من شر الوسواس، وأمر في سورة الفلق بالاستعاذة من شر الساحر والحاسد.

فأفرد الاستعاذة من شر الوسواس في سورة الناس، لأن الوسواس وإن كان بسبب من شياطين الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ إلا أنه إنما يؤدي العبد من داخل بواسطة مساكنته له وقبوله منه،

(١) البيت للطرمح وهو في «ديوانه» ص ٣٤٦، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٨م.

ولهذا يعاقب العبد على تماديه مع الوسواس؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه.

وقرن عز وجل بين الاستعاذة من الساحر والحاسد؛ لأن شر كل منهما خارج عن إرادة المسحور والمحسود، فلا يعاقبان على ما يحصل لهما، بل يؤجران إذا صبرا على ذلك.

وكل من السحر والحسد من شرور شياطين الإنس والجن، كالوسواس، إلا أن الحسد أخص بشياطين الإنس؛ لأنه يدل على شر النفس وطبعها، ليس هو شيئاً اكتسب من غيرها، وإن كان كغيره من المعاصي من تزيين الشيطان وتسويله، لكن لو لم تكن النفس خبيثة شريرة ومحلاً لذلك لما حصل الحسد.

أما السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، كاستعانة بالأرواح الشيطانية، والتقرب إلى الشيطان وعبادته من دون الله، والسجود له، ونحو ذلك.

فائدة أخيرة:

لعلك - أخي المسلم - بعد تدبرك في كلام أهل العلم على هذه السور الثلاث سورة الإخلاص والمعوذتين اتضح لك ما فيها من الوقاية والحفظ والشفاء بإذن الله عز وجل لأعراض القلوب والأبدان، وخرجت بشخصية المسلم الحق، الذي يجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، ولا يخاف بعد ذلك إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يستعيز إلا بالله. فهذا غاية العزة والسعادة والسؤدد والكرامة، وكما قيل:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشاء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلحاء^(١)

* * *

تم الفراغ منه في يوم الخميس ٣/٣ من عام ١٤٤١ من هجرة المصطفى ﷺ.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس الموضوعات

٥	تفسير سورة النبأ
٧	المقدمة
٧	أ- اسم السورة:
٧	ب- مكان نزولها:
٧	ج- موضوعاتها:
٩	تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾... ﴿الآيات [١-١٦]﴾
١٦	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا﴾... ﴿الآيات [١٧-٣٠]﴾
٢٤	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾... ﴿الآيات [٣١-٣٧]﴾
٢٩	تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾... ﴿الآيات [٣٨-٤٠]﴾
٣٥	تفسير سورة النازعات
٣٧	المقدمة
٣٧	أ- اسم السورة:
٣٧	ب- مكان نزولها:
٣٧	ج- موضوعاتها:
٣٩	تفسير قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾... ﴿الآيات [١-١٤]﴾
٤٤	تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى﴾... ﴿الآيات [١٥-٢٦]﴾
٥٠	تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَتَمَّهَا﴾... ﴿الآيات [٢٧-٣٣]﴾
٥٣	تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾... ﴿الآيات [٣٤-٤٦]﴾
٦١	تفسير سورة عبس
٦٣	المقدمة
٦٣	أ- اسم السورة:

- ٦٣ ب- مكان نزولها:
- ٦٣ ج- موضوعاتها:
- ٦٤ تفسير قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۖ (١)﴾... ﴿الآيات [١٦-١]﴾
- ٧١ تفسير قوله تعالى: ﴿قِيلَ لِإِنسَانٍ مَا كَفَرَهُ ۗ (١٧)﴾... ﴿الآيات [٣٢-١٧]﴾
- ٧٨ تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۗ (٣٣)﴾... ﴿الآيات [٤٢-٣٣]﴾
- ٨٣ **تفسير سورة التكوير**
- ٨٥ المقدمة
- ٨٥ أ- اسم السورة:
- ٨٥ ب- مكان نزولها:
- ٨٥ ج- فضلها:
- ٨٥ د- موضوعاتها:
- ٨٦ تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۗ (١)﴾... ﴿الآيات [١٤-١]﴾
- ٩٣ تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَنِينِ ۗ (١٥)﴾... ﴿الآيات [٢٩-١٥]﴾
- ١٠٣ **تفسير سورة الانضطار**
- ١٠٥ المقدمة
- ١٠٥ أ- اسم السورة:
- ١٠٥ ب- مكان نزولها:
- ١٠٥ ج- فضلها:
- ١٠٥ د- موضوعاتها:
- ١٠٧ تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۗ (١)﴾... ﴿الآيات [١٢-١]﴾
- ١١٣ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۗ (١٣)﴾... ﴿الآيات [١٩-١٣]﴾
- ١٢١ **تفسير سورة المطففين**
- ١٢٣ المقدمة

- أ- اسم السورة: ١٢٣
- ب- مكان نزولها: ١٢٣
- ج- موضوعاتها: ١٢٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾ ... ﴿الآيات [١-٦]﴾ ١٢٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ٧﴾ ... ﴿الآيات [٧-١٧]﴾ ١٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ ... ﴿الآيات [١٨-٢٨]﴾ ١٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ٢٩﴾ ... ﴿الآيات [٢٩-٣٦]﴾ ١٤٢
- تفسير سورة الانشقاق** ١٤٧
- المقدمة ١٤٩
- أ- اسم السورة: ١٤٩
- ب- مكان نزولها: ١٤٩
- ج- فضلها: ١٤٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١﴾ ... ﴿الآيات [١-١٥]﴾ ١٥١
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ١٦﴾ ... ﴿الآيات [١٦-٢٥]﴾ ١٥٩
- تفسير سورة البروج** ١٦٧
- المقدمة ١٦٩
- أ- اسم السورة: ١٦٩
- ب- مكان نزولها: ١٦٩
- ج- فضلها: ١٦٩
- د- موضوعاتها: ١٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ ... ﴿الآيات [١-١٠]﴾ ١٧١

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾	
الآيات [٢٢-١١]	١٨٠
تفسير سورة الطارق	١٨٩
المقدمة	١٩١
أ- اسم السورة:	١٩١
ب- مكان نزولها:	١٩١
ج- فضلها:	١٩١
د- موضوعاتها:	١٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾...﴾ الآيات [١٠-١]	١٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١﴾...﴾ الآيات [١٧-١١]	١٩٥
تفسير سورة الأعلى	١٩٩
المقدمة	٢٠١
أ- اسم السورة:	٢٠١
ب- مكان نزولها:	٢٠١
ج- فضلها:	٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾...﴾ الآيات [١٣-١]	٢٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤﴾...﴾ الآيات [١٩-١٤]	٢١٤
تفسير سورة الغاشية	٢١٩
المقدمة	٢٢١
أ- اسم السورة:	٢٢١
ب- مكان نزولها:	٢٢١
ج- فضلها:	٢٢١
د- موضوعاتها:	٢٢١

- تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ١﴾... ﴿الآيات [١٦-١]... ٢٢٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾... ﴿الآيات [٢٦-١٧]... ٢٢٩
- تفسير سورة الضجر ٢٣٧
- المقدمة ٢٣٩
- أ- اسم السورة: ٢٣٩
- ب- مكان نزولها: ٢٣٩
- ج- فضلها: ٢٣٩
- د- موضوعاتها: ٢٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾... ﴿الآيات [١٤-١]... ٢٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ...﴾... ﴿الآيات [٢٠-١٥]... ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّادًا ١١﴾... ﴿الآيات [٣٠-٢١]... ٢٥٣
- تفسير سورة البلد ٢٥٩
- المقدمة ٢٦١
- أ- اسم السورة: ٢٦١
- ب- مكان نزولها: ٢٦١
- ج- موضوعاتها: ٢٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ١﴾... ﴿الآيات [١٠-١]... ٢٦٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ ١١﴾... ﴿الآيات [٢٠-١١]... ٢٦٧
- تفسير سورة الشمس ٢٧٥
- المقدمة ٢٧٧
- أ- اسم السورة: ٢٧٧
- ب- مكان نزولها: ٢٧٧
- ج- فضلها: ٢٧٧

- ٢٧٧ د- موضوعاتها:
- ٢٧٨ تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَنُجُومُهَا ۝١﴾... ﴿الآيات [١-١٠]﴾
- ٢٨٤ تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ۝١١﴾... ﴿الآيات [١١-١٥]﴾
- ٢٨٩ **تفسير سورة الليل**
- ٢٩١ المقدمة
- ٢٩١ أ- اسم السورة:
- ٢٩١ ب- مكان نزولها:
- ٢٩١ ج- فضلها:
- ٢٩١ د- موضوعاتها:
- ٢٩٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَىٰ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-١١]﴾
- ٢٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿إِن عَلَيْنَا الْآلِهَةُ ۝١٢﴾... ﴿الآيات [١٢-٢١]﴾
- ٣٠٧ **تفسير سورة الضحى**
- ٣٠٩ المقدمة
- ٣٠٩ أ- اسم السورة:
- ٣٠٩ ب- مكان نزولها:
- ٣٠٩ ج- فضلها:
- ٣٠٩ د- موضوعاتها:
- ٣١٠ تفسير قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-١١]﴾
- ٣٢٥ **تفسير سورة الانشراح**
- ٣٢٧ المقدمة
- ٣٢٧ أ- اسم السورة:
- ٣٢٧ ب- مكان نزولها:
- ٣٢٧ ج- موضوعاتها:

- ٣٢٨ تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَا لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٨]﴾ ٣٢٨
- ٣٣٥ **تفسير سورة التين** ٣٣٥
- ٣٣٧ المقدمة ٣٣٧
- ٣٣٧ أ- اسم السورة: ٣٣٧
- ٣٣٧ ب- مكان نزولها: ٣٣٧
- ٣٣٧ ج- فضلها: ٣٣٧
- ٣٣٧ د- موضوعاتها: ٣٣٧
- ٣٣٨ تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٨]﴾ ٣٣٨
- ٣٤٥ **تفسير سورة العلق** ٣٤٥
- ٣٤٧ المقدمة ٣٤٧
- ٣٤٧ أ- اسم السورة: ٣٤٧
- ٣٤٧ ب- مكان نزولها: ٣٤٧
- ٣٤٧ ج- موضوعاتها: ٣٤٧
- ٣٤٨ تفسير قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٥]﴾ ٣٤٨
- ٣٥٢ تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ۝١﴾... ﴿الآيات [٦-١٩]﴾ ٣٥٢
- ٣٥٩ **تفسير سورة القدر** ٣٥٩
- ٣٦١ المقدمة ٣٦١
- ٣٦١ أ- اسم السورة: ٣٦١
- ٣٦١ ب- مكان نزولها: ٣٦١
- ٣٦١ ج- موضوعاتها: ٣٦١
- ٣٦٢ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٥]﴾ ٣٦٢
- ٣٧١ **تفسير سورة البينة** ٣٧١
- ٣٧٣ المقدمة ٣٧٣

- أ- اسم السورة: ٣٧٣
- ب- مكان نزولها: ٣٧٣
- ج- فضلها: ٣٧٣
- د- موضوعاتها: ٣٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿لَرَيْكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

- ①... ﴿الآيات [١-٦]..... ٣٧٥

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦...﴾ الآيتين

- [٧، ٨] ٣٨٢

٣٨٧ تفسير سورة الزلزلة

المقدمة ٣٨٩

أ- اسم السورة: ٣٨٩

ب- مكان نزولها: ٣٨٩

ج- فضلها: ٣٨٩

د- موضوعاتها: ٣٨٩

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①...﴾ الآيات [١-٨] ٣٩٠

٣٩٧ تفسير سورة العاديات

المقدمة ٣٩٩

أ- اسم السورة: ٣٩٩

ب- مكان نزولها: ٣٩٩

ج- موضوعاتها: ٣٩٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ①...﴾ الآيات [١-١١] ٤٠٠

٤٠٧ تفسير سورة القارعة

المقدمة ٤٠٩

- أ- اسم السورة: ٤٠٩
- ب- مكان نزولها: ٤٠٩
- ج- موضوعاتها: ٤٠٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْفَاكِهَةُ ١﴾... ﴿الآيات [١١-١]﴾ ٤١٠
- تفسير سورة التكاثر ٤١٥
- المقدمة ٤١٧
- أ- اسم السورة: ٤١٧
- ب- مكان نزولها: ٤١٧
- ج- موضوعاتها: ٤١٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْمُهَيَّمَةُ الْكَاثِرُ ١﴾... ﴿الآيات [٨-١]﴾ ٤١٨
- تفسير سورة العصر ٤٣٣
- المقدمة ٤٣٥
- أ- اسم السورة: ٤٣٥
- ب- مكان نزولها: ٤٣٥
- ج- فضلها: ٤٣٥
- د- موضوعاتها: ٤٣٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾... ﴿الآيات [٣-١]﴾ ٤٣٦
- تفسير سورة الهمزة ٤٥١
- المقدمة ٤٥٣
- أ- اسم السورة: ٤٥٣
- ب- مكان نزولها: ٤٥٣
- ج- موضوعاتها: ٤٥٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمَةً ١﴾... ﴿الآيات [٩-١]﴾ ٤٥٤
- تفسير سورة الفيل ٤٦١

٤٦٣	المقدمة.....
٤٦٣	أ- اسم السورة:
٤٦٣	ب- مكان نزولها:
٤٦٣	ج- موضوعاتها:
٤٦٤	تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٥]﴾.....
٤٧١	تفسير سورة قريش
٤٧٣	المقدمة.....
٤٧٣	أ- اسم السورة:
٤٧٣	ب- مكان نزولها:
٤٧٣	ج- موضوعاتها:
٤٧٤	تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٍ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٤]﴾.....
٤٧٩	تفسير سورة الماعون
٤٨١	المقدمة.....
٤٨١	أ- اسم السورة:
٤٨١	ب- مكان نزولها:
٤٨١	ج- موضوعاتها:
٤٨٢	تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٧]﴾.....
٤٨٩	تفسير سورة الكوثر
٤٩١	المقدمة.....
٤٩١	أ- اسم السورة:
٤٩١	ب- مكان نزولها:
٤٩١	ج- موضوعاتها:
٤٩٢	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٣]﴾.....
٤٩٧	تفسير سورة الكافرون

٤٩٩	المقدمة
٤٩٩	أ- اسم السورة:
٤٩٩	ب- مكان نزولها:
٤٩٩	ج- فضلها:
٥٠١	تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٦]
٥٠٧	تفسير سورة النصر
٥٠٩	المقدمة
٥٠٩	أ- اسم السورة:
٥٠٩	ب- مكان نزولها:
٥٠٩	ج- فضلها:
٥٠٩	د- موضوعاتها:
٥١٢	تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٣]
٥٣١	تفسير سورة المسد
٥٣٣	المقدمة
٥٣٣	أ- اسم السورة:
٥٣٣	ب- مكان نزولها:
٥٣٣	ج- موضوعاتها:
٥٣٤	تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٥]
٥٤٣	تفسير سورة الإخلاص
٥٤٥	المقدمة
٥٤٥	أ- اسم السورة:
٥٤٥	ب- مكان نزولها:
٥٤٥	ج- فضلها:
٥٥٠	د- موضوعاتها:

- ٥٥١ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... ﴿الآيات [٤-١]﴾ ٥٥١
- ٥٥٧ تفسير سورة الضلق ٥٥٧
- ٥٥٩ المقدمة ٥٥٩
- ٥٥٩ أ- اسم السورة: ٥٥٩
- ٥٥٩ ب- مكان نزولها: ٥٥٩
- ٥٥٩ ج- فضلها: ٥٥٩
- ٥٦٠ د- موضوعاتها: ٥٦٠
- ٥٦١ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾... ﴿الآيات [٥-١]﴾ ٥٦١
- ٥٩٣ تفسير سورة الناس ٥٩٣
- ٥٩٥ المقدمة ٥٩٥
- ٥٩٥ أ- اسم السورة: ٥٩٥
- ٥٩٥ ب- مكان نزولها: ٥٩٥
- ٥٩٥ ج- فضلها: ٥٩٥
- ٥٩٥ د- موضوعاتها: ٥٩٥
- ٥٩٦ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾... ﴿الآيات [٦-١]﴾ ٥٩٦
- ٦١٩ فهرس الموضوعات ٦١٩

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958